

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية



المجلس الأعلى للدراسات والبحوث

دور جمعيات العلماء والمُؤلفين الجزائريين
في الحفاظ على اللغة العربية
وأثرها في الهوية اللغوية

أحمدالفرّوق

الجزء الثاني

منشورات المجلس 2016

**دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
في الحفاظ على اللغة العربية وأثره في
الهوية اللغوية**

أعمال ندوة

الجزء الثاني

- كتاب: دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحفاظ على اللغة العربية وأثره في الهوية اللغوية
- إعداد: المجلس الأعلى للغة العربية
- قياس الصفحة: 23.5 / 15.5
- عدد الصفحات: 400

الجزء الثاني منشورات المجلس

ردمك: 2-86-821-9947-978

الإيداع القانوني: السادس الثاني 2016

المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرانكلين روزفلت - الجزائر

ص.ب 575 الجزائر _ ديدوش موراد

الهاتف: 021.23.07.24/25 الفاكس: 021.23.07.07

فهرس الكتاب

استراتيجية العنونة في تفسير الإمام ابن باديس بين جماليّة الهندسة وفاعليّة
التبليغ

أ/ عبد الحفيظ شريف 9

مشروع البعد اللغوي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أبعاده وتمثلاته
في ظل المعطيات الجديدة.

أ.د. حاجي الصديق 39

البعد اللغوي في نشاط ج.ع.م.ج داخل المعتقلات أثناء الثورة التحريرية
- معتقلو أفلو وبوسوي أموذجان -

د. شاطو محمد 59

البعد اللغوي في فكر علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
الرؤية والتأصيل

د. بوعلام بوعامر 75

لماذا اعتنت جمعية العلماء بالعربية؟

قراءة من مرجعية ابن باديس والإبراهيمي

أ.د. أسعد السحمراني 89

عبد الحميد بن باديس نتاج الفكر والتربية الروحية.

أ/ ربيعة حنيش 117

خلفيات البعد اللغوي وآليات تجسيده عند جمعية العلماء

د. أبوبكر الصديق حميدي 129

خلفيات البعد اللغوي وآفاقه عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

عبد الحميد بن باديس أنموذجا

د. مصطفى عبيد 141

البعد التاريخي لشعار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الإسلام ديننا والعربية

لغتنا والجزائر وطننا

أ. البشير بوقاعدة 151

قضية العروبة في اهتمامات جمعية العلماء المسلمين

أ. عبد الجليل رحموني 183

الشعر وخطاب الهوية لدى شعراء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

محمد العيد آل خليفة أنموذجا

د. مختار سويلم 201

مدونة آثار محمد البشير الابراهيمي

دراسة وصفية تحليلية - نماذج لحقل التربية

د/ عزاز حسنية 215

دفاع الإبراهيمي عن أصالة اللغة العربية في الجزائر.

أ/ حاكم عمارية 233

استثمار جهود البشير الإبراهيمي اللغوية في المنظومة التربوية بين الواقع

والمأمول

أ/ نزهة خلفاوي 257

مفهوم التجديد عند البشير الإبراهيمي

أ. نسيمة سعدي

279..... أ. حياة عمارة

الخطاب الإصلاحي عند الشيخ العربي التبسي وأثره في الهوية اللغوية

299..... /أ عبد القادر معبد

مفهوم الهوية اللغوية من خلال آثار البشير الإبراهيمي

- دراسة لسانية -

/أ آمنة مناع

331..... /أ عبد الرحيم قشوش

أثر تعليم اللغة العربية في بناء الشخصية الجزائرية (عند جمعية العلماء)

المسلمين الجزائريين) قراءة في جهود الشيخ البشير الإبراهيمي

343..... أ. عبد الرؤوف محمدي

العربية والمسألة اللغوية في الجزائر

قراءة من خلال آراء الإبراهيمي وشيبان

367..... د. فرحات بلولي (ج. البويرة)

استراتيجية العنونة في تفسير الإمام ابن باديس بين جمالية الهندسة وفاعلية التبليغ.

أ/ عبد الحفيظ شريف

جامعة نيزي - وزو

مقدمة:

في سياق مستجدات التأليف العام الذي شهدته أدبيات أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تحاول هذه الورقة تناول جانبٍ تطبيقيٍّ يتناول نموذجاً باديسياً مختلفاً عما ألفه التأليف العربي في بابه سواء من حيث البنية الشكلية أم المضامين، ولقد يكاد إجماع النقاد والدارسين ينعقد على الاختلاف اللافت الذي عرفته حركة الكتابة والتأليف في مختلف أنواعها ومواضيعها لهذا العهد، فلقد كان الشيخ مبارك الميلي في تأليفه لرسالة الشرك ومظاهره متميزاً، سواءً من حيث المضمون الذي ساق فيه العقائد الإسلامية من وجهة نظر المدرسة السلفية، التي كان علماء الجمعية لا يتحرجون في نسبة أنفسهم إليها، ونقدمهم للوضع العقدي السائد في صرامة وشدة؛ أم من حيث الشكل الذي صيغت فيه المدونة، حين احتكمت إلى عناصر مضبوطة واضحة، وفقرات محددة الطول، مشفوعة بأدلتها، ومستقوية بالوقائع والأحداث، وعلى نفس المنوال صاغ كتابه تاريخ الجزائر في القديم والحديث وعلى ذلك النسق خرجت الكتابات الغزيرة لأحمد توفيق المدني في التعريف بتاريخ الجزائر وجغرافيتها.

إنّ هذا النمط من الكتابة التي تراعي الشكل والمضمون في آن واحد عند طائفة من أعلام جمعية العلماء جاء مساوفاً لفترة شهدت حراكاً علمياً وثقافياً

لافتا، ميّزه توجّه تعليميٌّ غالب، وكان التّركيز فيه على ما به ضرورات النّهضة العلميّة، ممّا قلّت مبادئه وعظمت مراميّه، فكانت أن خرجت هذه المصنّفات على هيئة كتبٍ مدرسيّة، تنتظم فيها المواضيع انتظاما منطقيّاً، وتقسّم فيه تقسيما تُفضي فيه العناصر بعضها إلى بعض، دون أن يذهب ذلك بجماليّات الحبك، ورونق العبارة، وحسن انتقاء الألفاظ، فجمع هذا النّمط بين الحرص على تبليغ المضامين، استعراضا وإيرادا أو تصحيحا وتفنيدا؛ وبين عدم الإخلال في حجم الكتابات بطول مملٍّ أو اختصار مخلٍّ، أو ملحق باللغو، أو قصور في البيان.

وقد يكون هذا النّمط مناسبا جدًّا في مواضيع كالتي سبق التّمثيل لها، لكنّ اللافت هو أن يصوغ الإمام عبد الحميد ابن باديس تفسيره "جالس التّذكير من كلام الحكيم الخبير" على هذا النّمط، فنقف على تفسير مقسّم تقسيما ثائرا على أنساق التّأليف التّراثيّة في الصّيغة وطريقة العرض، وهو الشّكل الذي ارتأت هذه المحاولة التّعرّض له في ضوء علوم اللّسان المعاصرة، والإجراءات التّقديّة المتأثّرة بها، وتحديدًا في ما بات يسمى بـ"علم العنونة".

ويأتي الحديث عن ظاهرة العنونة في تفسير ابن باديس في سياق اعتبار هذا التّفكير حلقة من حلقات الإصلاح الاجتماعيّ والثّقافيّ والفكريّ واللّغويّ الذي رفعت شعاره جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين، وذلك من المبرّرات الكافيّة لانتشار هذا النّمط من الكتابة، وباعتبار رؤى الدّراسات الإنسانيّة والاجتماعيّة المعاصرة لآثار هذا الشّكل من الكتابة على المتلقّي، وما تتيحه للمرسل من أدوات جودة التّبليغ وفعاليتّه، فقد باتت هذه الظّاهرة مدعاةً لمتابعة الدّوافع، وتحليل النّتائج.

عدتّ البحوث اللّسانيّة الحديثة ظاهرة العنونة قضيّة أخذت في الاتّساع والتّضحّم حتّى أصبحت علما قائما، فمقاصد المؤلّف في اختيار العننوان،

وطبيعة صياغته، ودلالته، وضبط حدود العلائق بين العنوان وما يندرج تحته، ودرجة توفيق العنوان في الجمع بين المرسل والمتلقي وغير ذلك، أمور لم يصبح العنوان مجرد اسمٍ لشيء؛ بل تجاوز ذلك بكثير. فلربما كان العنوان لوحده نصًّا ولربما تتوقف عليه شهرة أعمال لا تساوي قيمة الخبر الذي كتبت به، أو فشلت لذلك أعمال لا تقدر قيمتها بثمن، حين جنى عليها عنوانها.

وإذ تتناول الدراسة ظاهرة "العنوان" في تفسير ابن باديس فلسوف تستهدف من ذلك البعد التواصلي في عنوان تفسير ابن باديس الرئيس أولاً، ثم في عناوين مواضيع الآيات، وأخيراً للعناوين الفرعية التي تتوزع على مسافات مختلفة في هيكل موضوع التفسير.

1- مبررات توظيف العنوان في خطاب التفسير الباديسي:

شكل خط التفسير الباديسي في شطره الدلالي آليات أفضت بابن باديس إلى المعنى، وكانت جزءاً من رؤيته التفسيرية الكبرى، تلك التي ترسم من خلال الإحاطة بمحتوى الآية القرآنية موضوع التفسير بالتعامل مع البعد اللغوي على مستوى سطح النص، على أن هناك أبعاداً أخرى يحملها النص القرآني لا تُقصي المقامات الثقافية والاجتماعية والنفسية المختلفة التي يستديم بها النص حيويته وديمومة حضوره، كما تجعل من المتلقي ركناً أساساً، حين يصبح طرفاً أنشئ لأجله النص، واستقر بفعل القراءة عنده.

ومن هنا استعار خطاب التفسير الباديسي هذه الأدوار، فمثل فيها ابن باديس دور الباحث المبلغ والمتكئ على سند نصي ركين، مؤلداً -عبر عملية شاقّة، تحرّى فيها الدقة والصواب في حذر شديد- رسائل تنوعت أشكالها ومضامينها، بغرض إرسالها إرسالاً أخذ بدوره شكلين، أحدهما: شفهي مباشر، وهو الذي ألقاه على طلبته ومستمعيه كاملاً، ولم يبلغنا منه شيء، إذ شرع في تفسيره مشافهة من أوله إلى آخره خلال ما يقارب ربع قرن بدأه في

ربيع سنة 1332هـ / 1914م، وختمه في ربيع عام (1357*) هـ 1938م وهو جهدٌ علميٌّ له هيأته الخاصّة، وطبيعته المميّزة كشكل أوّل. وثانيها مكتوبٌ متداولٌ، وهو الذي بين أيدينا ممّا اختاره بنفسه، وكتبه بيده، مُصدِّراً به مجلّة (الشهاب) بداية من فيفري 1929م إلى سبتمبر 1939م وهو مدوّنة لها خصوصيّتها وتفرّدُها باعتبارات عديدة. يقول الشيخ أحمد حمّاني (رحمه الله) أحد تلاميذ الإمام عن التفسير الشّفوي الكامل، والتفسير المكتوب الذي بلغنا: "وكان له في كلّ منهما أسلوبٌ وطريقةٌ، يُحسُّ بذلك كلّ من استمع إليه بقلبه ارتجالاً، أو قرأه بقلمه بمجالس التذكير بمجلّة الشّهاب، ومن جمع بينهما - سماعاً وقرأة - تيقن أنّه في الدّرس الملقى أبلغ منه وأعظم تأثيراً في المكتوب المقروء، وإن كان فيه مُوقفاً عظيم التّوفيق". ومن ثمّ نجد أنفسنا أمام سؤال مفاده، هل نحن أمام مدوّنة تُعامل معاملة نصٍّ أم معاملة خطاب؟ إذ من خلال تحديد مفهوم مصطلحيّ النّصّ والخطاب" تُوجّه الرّؤية نحو هذه المدوّنة - وبخاصّة وأنّ المصطلحين، وطبيعة العلاقة بينهما من القضايا التي سال بشأنها حبر غزير، وليس البحث بصدد التّعرّض لذلك بالتّفصيل فهو ممّا لا يمكن الإحاطة به هنا، بل سيكتفي بما يُمكن من مقارنة الحكم على المدوّنة التّفسيرية الباديسية، وتحديدًا في هندسة العنونة، أهي مدوّنة نصّية يُكتفى فيها بما هو قائم من الشّكل؛ أم هو مدوّنة يغلب عليها وصف الخطاب بما أسهمت فيه هذه الهندسة من احتفاء واسع بالمتلقّي.

لقد أخذ نسق التّفسير الباديسيّ أبعاداً تواصلية طغت على (النّص والخطاب) كلّها، باعتبار أغراض الإنشاء النّابع من اختيار الآيات بدقّة وعناية، ثمّ بظروف الإرسال التي يحدّد ملاحظها الطّرف التّاريخيُّ بأبعاده كلّها وبعدهما حالة المتلقّين لهذا لتفسير.

ومن هنا سيكون الاشتغال على متابعة بعض مفاصل العنونة في التّفسير الباديسيّ بالتّعرّض للبعد التّواصلية كمبرر قويّ لتشكيل هذا النّسق من

جهة، واحتكامه من جهة أخرى إلى ظروف التّواصل بين المفسّر والمتلقّي،
ضمن الثّلاثيّة الشّهيرة: المرسل، الرّسالة، المتلقّي.

لم يشكّل الشّق الدّلاليّ في التّناج التّفسيّريّ الباديّسيّ - على هيأته التي هو عليها - إلّا قدرا يُمكن من تهيئة الرّسائل التي يريد الإمام إرسالها، لتشغل هذه الرّسائل بعد ذلك الجزء الأكبر والأهمّ من التّفسير فحظيت بتفصيل كبير، واستشهاد غزير، وحجّة قويّة، واستمالة ذكيّة حذرة، وتنوع متعمّد، جمع بين الشدّة واللّين، والصّرامة والانبساط، والتّصريح والتّعريض، في غير مداهنة ولا صدام، تكيّفا مع ظروف ثقافيّة واجتماعيّة ونفسيّة وفكريّة حرّجة، أسهمت بدرجات متفاوتة وبشكل واضح، في إخراج الخطاب على هيأته التي هو عليها.

وأول ما يترأى لنا من تداعيات ما سبق، وفي سياق تحديد المصطلحات وضبط دلالاتها، ضرورة الفصل بين ما هو خطاب وما هو نصّ، وإن سبق إطلاق أحد المصطلحين، فذلك من دون قصد الدّلالة الحقيقيّة لهما، غير أنّ إطلاق أيّ منهما في ما سيأتي، له تبعاته العلميّة، ومتعلّقاته الدّلاليّة.

2- النّص والخطاب:

إنّ ما يدعو إلى تحديد هذين المصطلحين، وتصنيف التّفسير الباديّسيّ من خلاهما هو خصوصيّة نتاج هذا التّفسير من منظور ما سبقت الإشارة إليه من أنّ ما كتبه ابن باديس من التّفسير لم يكن من قبيل التّرفيه العلميّ، أو الإبداع المعرفيّ الذي شهدته حواضر العالم الإسلاميّ قديما، بل كان توجيهها منتظما ومدرّسا، على شكل جرعات موقّظة من سبات أحاط بأمتّه، وقد نذر نفسه في عزم شديد على بعث مواتها، وقطع سباتها، ومن كان هذا حاله فإنّ خطابه سيصاغ بالتّأكيد على نمط مختلف.

2-1- مفهوم النص: تتناول الدراسات هذا المصطلح بمفهوميته اللغوي والاصطلاحي، وعند العرب والغربيين قديماً وحديثاً، ولا يُعتقد أن هناك فائدة تذكر من إعادة ذكر كل ما قيل في هذا الشأن، لذلك سيقصر البحث على إيراد مدارات المفاهيم في هذا الشأن.

2-1-1- المفهوم اللغوي للنص عند العرب وعند الغرب: يقول ابن فارس عن مادة (ن ص) "الثون والصاد أصل صحيح، يدل على رفع وارتفاع وانتهاء في الشيء... والنص في السير: أرفعه" ومجمل ما توحى به المادة (ن ص ص) في لسان العرب باشتقاقاتها كلها، الرجوع إلى معنى الرفع والظهور: قال ابن منظور: "النص: رفعك الشيء، نص الحديث ينصه نصاً: رفعه، وكل ما أظهر فقد نص... نصت الضبية جيدها: رفعته... نص المتاع نصاً: جعل بعضه على بعض... وأصل النص: أقصى الشيء وغايته... ونص الأمر: شدته... ونص القرآن ونص السنة، أي: ما دل ظاهر لفظهما عليه من الأحكام... والنصنة: تحرك البعير إذا نهض من الأرض... انتص الشيء وانتصب إذا استوى واستقام."

وأما عند الغربيين، فهو من الأصل اللاتيني (text) و (texte) المشتق من (texture) التي تعني: حياكة ونسج، وحالة النسيج (corps texture d'un): تركيب أعضاء الجسم، و (texture d'un écrite): سياق الكلام، و (texture d'un roman): حبكة رواية، و (texturiser): تشكّل الخيوط، واستعمل طرائق فنية في صنع أشكال الخيوط التركيبية ليكون لكل نوع منها مميّزته الخاصة واستعماله الخاص.

ويلاحظ الفرق الظاهر بين الوجهة اللغوية للمصطلح عند العرب وعند الغربيين، وإذا كان من الممكن التقريب بين الوجهتين، فإن أن أكثر ما تدل عليه هذه الكلمة لغوياً هو: الظهور والوضوح والاكتمال. أو بلوغ الغاية والاكتمال في الصنع" وأما في الاصطلاح فيشير بين الدارسين اللسانيين

والثُّقَادُ المُحَدِّثِينَ عَدَمَ وَجُودِ تَعْرِيفِ اصْطِلَاحِيٍّ تَرَاثِيٍّ عَرَبِيٍّ لـ: "النَّصُّ" يَلَامَسُ المَدْلُولَ اللُّسَانِيَّ الحَدِيثَ، وَيَرْجِعُونَ تَعْرِيفَاتِهِمْ مَعَ اخْتِلَافِهَا وَتَعَدُّدِهَا إِلَى مَجَالٍ وَاحِدٍ هُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ لَفْظِ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ مِنَ الأَحْكَامِ، فَشَهَدَ "النَّصُّ" تَعْرِيفَاتٍ لَمْ تَتَجَاوَزْ هَذَا المَنْظُورَ، مِنْ ذَلِكَ تَعْرِيفَ الشَّرِيفِ الجَرَجَانِي: "مَا لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا مَعْنَى وَاحِدًا، أَوْ مَا لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ". أَمَّا تَعْرِيفُهُ مِنْ مَنْظُورٍ لِسَانِيٍّ حَدِيثٍ، فَالْسَّائِدُ مِنْهَا هُوَ التَّعْرِيفَاتُ الغَرِيبَةُ، بِحُكْمِ نَشْأَةِ هَذِهِ المُنَاحِجِ اللُّسَانِيَّةِ، وَتَبْلُورِ نَظَرِيَّاتِهَا وَمِصْطَلِحَاتِهَا فِي تِلْكَ البِيئَةِ، وَالتَّعْرِيفَاتِ العَرَبِيَّةِ لَا تَغَادِرُ هَذِهِ السَّاحَةَ عَلَى العَمُومِ.

2-1-2- "النَّصُّ" فِي الدَّرْسِ اللُّسَانِيِّ الحَدِيثِ: تَوَاتَرَ لَدَى الدَّارَسِينَ شَبَهَ إِجْمَاعٍ عَلَى صَعُوبَةِ تَحْدِيدِ تَعْرِيفِ جَامِعٍ لـ: "النَّصُّ" بِفَعْلٍ تَعَدُّدِ المَعَايِرِ، وَالمُنْطَلِقَاتِ المَعْرِفِيَّةِ وَالمُضَامِينِ، فَشَغَلَتْ مَحَاوِلَاتُ تَعْرِيفِهِ مَسَاحَاتٍ كَبِيرَةً مِنْ كِتَابَاتِ عُلَمَاءِ النَّصِّ، بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ الوُقُوفُ عَلَى حَصْرِهَا وَالإِحَاطَةَ بِهَا، وَيَأْتِي اعْتِرَافُ "زَتْسِيَسَلَفِ" وَأَوْرزِينَاكُ" بَعْدَ اسْتِعْرَاضِهِ لِتَعْرِيفَاتٍ مَخْتَلِفَةٍ المُنْطَلِقَاتِ وَالتَّوَجُّهَاتِ لِأَمْثَالِ "هِيَلْمَسَلِيفِ" Hjelm selv "و.ز.س. هَاريسِ" Z.S.Harris "وَأَكْرِيكُولَا" Agricola "وغيرهم، مَلْخُصًا هَذَا العَجْزَ فِي عَدَمِ إِيجَادِ أَيِّ تَعْرِيفٍ تَامٍّ مَطْلَقًا، قَاطِعًا، وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ ذَلِكَ؛ وَيُورَدُ أَنَّهُ سَيُخَاطَرُ بِتَعْرِيفٍ مُوجِزٍ يَحْتَمِلُ نَتَائِجَ هَذَا البَحْثِ وَإِذْ يَنْقَلُ البَحْثُ مَخَاطَرَتَهُ هَذِهِ فَلَيْسَ مِنْ بَابِ القَبُولِ بِهَا عَلَى الإِطْلَاقِ، بَلْ مِنْ بَابِ أَنَّهَا مَقَارِبَةٌ حَاوَلَتْ الجَمْعَ بَيْنَ رُؤْيٍ مُتَعَدِّدٍ لِلْمَفْهُومِ، فَتَكُونُ مُتَّكِّئًا للخُرُوجِ مِنْ مَتَاهَةِ البَحْثِ عَنِ تَعْرِيفِ دَقِيقٍ لـ "النَّصِّ" وَالانْصِرَافِ بَعْدَهَا إِلَى مَوْقِعِ النَّتَاجِ البَادِيسِيِّ ضَمَّنَ هَذِهِ الرُّؤْيِ الَّتِي تَمْلِكُ دَرَجَةً مِنَ القَبُولِ، فيقول: "نَفْهَمُ تَحْتَ نَصِّ: مُكُونًا لِعَوِيًّا، أَفْقِيًّا، نَهَائِيًّا، مَقْصُودًا بِهِ التَّطَابُقُ لَوَاقِعَةِ التَّوَاصُلِ المَخْتَصَّةِ، يَصِيرُ مِنْ خِلَالِ الدَّمْجِ الإِنْجَازِيِّ وَأَوْجِهِ التَّنَاطُرِ الدَّلَالِيَّةِ المَوْضُوعِيَّةِ، وَالتَّرَابُطَاتِ التَّحْوِيَّةِ تَتَابَعًا مَتَمَاسِكًا مِنَ الجَمَلِ". وَلَعَلَّ مَحَاوِلَةَ التَّعْرِيفِ وَالإِحَاطَةَ هَذِهِ

تلتقي مع مبادرة كلاوس برينكر للخروج من مأزق التعريف ومن ثمّ الموضوع، بإرساء مفهومين:

أولهما: مفهوم قائم على أساس النظام اللغوي، وفيه يرتكز على نظام العناصر والعلاقات للغة بعينها. من دون الاقتصار على العلاقات داخل الجملة، بل بترسيم التجاوز إلى النص. "ولذلك يجب أن يتوجّه التحليل اللغوي بشكل أقوى مما هو قائم حالياً [البحث في الجملة] إلى النص". وبعد تحوّل النظرة إلى النصّ من البنيوية والتوليدية التحويلية إلى تتابع متماسك من الجمل، تُشكّل الجملة فيه وحدة مكونة.

وثانيهما: مفهوم قائم على أساس نظرية التواصل، وهو مفهوم يستدرك على الأوّل إهماله لعنصر السياق أو المقام، ويوظف الرؤية التداوئية التي يمثّل فيها المتكلم والسامع، أو المؤلف والقارئ بشروطهم وعلاقاتهم الاجتماعية والموقفية أهمّ العوامل. فهو تأسيس مفهوم يدرس الوظيفة التواصلية للنصوص، وبهذا تستوي نظرة برينكر الأخيرة قائمة على دمج المفهومين على وجه يمكن من وصف النصّ على أنه وحدة لغوية وتواصلية في الوقت نفسه، ويطابق التعريف الذي يعتبر النصّ: "تتابعاً محدوداً من علامات لغوية متماسكة في ذاتها، وتشير بوصفها كلاً إلى وظيفة تواصلية مدركة".

2-2- مفهوم الخطاب: هو مصطلح حاصرته مصطلحات أخرى قريبة منه، كالتلفظ، والمفوض، والقول، والنصّ نتيجة لتراكمات معرفية سريعة ومتداخلة، وفي أجواء فوضى استعمال المصطلح خاصّة، والإصرار الفرديّ من النقاد والدارسين على ذلك دون ضابط أو قيد، فكان - كغيره من مصطلحات كثيرة - ممّا لحق به ارتباك شديد في التوظيف. ولتحصيل ضبط منهجيّ عند استعمال المصطلح؛ وجب النظر في امتداداته التاريخية والحديثة، لنخلص إلى الإحاطة بعلاقته مع مصطلح النصّ خاصة، ثمّ مقابلة نتاج

التفسير الباديسيّ ومراقبة مدى توافقه مع الأبعاد التي تمخّضت عنه، ولكن ليس قبل التّطرق إلى أبعاد مصطلح (الخطاب) وإطاره المعرفي والمنهجي.

2-2-1- مصطلح الخطاب في التراث: بالرجوع إلى أوثق مدونة عربيّة

(القرآن الكريم) نجد مادة (خ ط ب) ترددت اثنتي عشرة مرة في إحدى عشرة سورة، بصيغة الفعل والمصدر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ [الفرقان: 63] وقال: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النبأ: 37]. وقال: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ، وَوَعَّيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: 20]. وأمّا اللفظ في المعاجم العربيّة؛ فقال ابن فارس: الخاء والطاء والباء أصلان أحدهما: الكلام بين اثنين، يقال: خاطبه يُخاطبه خطابا، والخُطبة من ذلك... وأمّا الأصل الآخر فاختلف لؤثين: قال الفراء: الخُطْبَاءُ: الأثان التي لها خطُّ أسود على متنها والحمار الذّكر: أخُطِبَ، والأخُطْبُ: طائرٌ، ولعلّه يختلف عليه لونان. الخطبان: الحنظل إذا اختلفت ألوانه. قال الرّاعب: الخُطاب والمخاطبة والتّخاطب: المراجعة في الكلام. وقال صاحب الأساس: "هو المواجهة بالكلام... اختُطِبَ القوم فلانا: دعوه أن يُخُطِبَ إليهم". وقال في اللسان: الخُطاب والمخاطبة: مُراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبةً وخطابا، وهما يتخاطبان... ذهب أبو اسحاق إلى أنّ الخُطبة عند العرب: الكلام المنشور المسجّع ونحوه... المخاطبة مُفَاعلة من الخطاب والمشاورة. فمدار اللفظ في التراث العربيّ على "الكلام" وأحواله كالتلّون. الذي يُراوح بين الوضوح والظهور، وأطرافه من حالات المخاطب والمُخاطَب.

2-2-2- مفهوم الخطاب في الدّرس اللّساني الحديث: يرجع هذا المصطلح

في العصر الحديث إلى الشقّ الذي أقصاه دي سوسير (De Saussure) من الدّرس في ثنائية (اللّغة، الكلام / Parole-Langage) وهو ما صار بعده محطّ اهتمام الدّارسين، فانصبّ مرادفا (للنّص) عند هيلمسليف (yelmeslev) و(الأداء) عند تشومسكي (Chomsky)، و(الرّسالة) عند جاكبسون

(R.Jacobson) وهكذا بدا هذا المصطلح متأثراً بما سُلِّط عليه من دراسات مختلفة الاتجاهات، ومردّها عموماً إلى مفهومين، يلتقي في أولهما مع المفهوم التراثي العربي، ويستقل في الثاني بنوع من التفرّد، وهما:

1- "ذلك الملفوظ الموجه إلى الغير، بإفهامه قصداً معيناً"

"الشكل اللغوي الذي يتجاوز الجملة" وقد تراوح مفهوم الخطاب "Discourse" في الدرس الحديث وهو ما يعني البحث تحديده، بين ثلاثة مفاهيم تعددت بحسب مناهج الدراسات:

1- بوصفه أكبر من الجملة: "الخطاب يتكوّن من وحدة لغوية قوامها سلسلة من الجمل".

2- بوصفه استعمال وظيفي لنظام اللغة يتجاوز الشكل إلى السياق ف اللغة من حيث هي نظام من القيم المقدّرة، مخالفة للخطاب، واستعمال اللغة في سياق بعينه، الذي يحدّد -في الوقت نفسه- قيمة أو يستثير قيمة جديدة... اللغة من حيث هي نظام مشترك بين أفراد الجماعة اللغوية، مخالفة للخطاب من حيث هو استعمال محدد لهذا النظام".

3- الخطاب بوصفه: الملفوظ: "الخطاب يشكّل وحدة اتصال مرتبطة بظروف إنتاج معينة، أي كل ما هو من قبيل نوع خطابي معين". وهذا هو الإطار المفهومي الذي يجمع المفهومين السابقين أي بوصفه ما يزيد عن الجملة، كما يعدل عن كونه تراكما من الوحدات اللغوية.

3- النص والخطاب وموقعهما في التفسير الباديسي:

من خلال التعرّض لأهم ما يعنيه المفهومان، ومقاربة موقعهما في الدرس اللساني الحديث، تتكشف لنا تلك الخيوط الدقيقة الرابطة عن صعوبة بالغة في بلورة تمييز صارم بينهما، وهو ما أقرّ به الكثير من الدارسين والتّقاد إن التمييز

بين النَّصِّ والخطاب في ضوء المناهج التَّقديَّة الحديثة، يطرح إشكالا كبيرا نظرا لتعدد الآراء واختلافها، وكثرة التَّصوُّرات وتضاربها على أنَّ ما ورد من ذلك هو ما يُعيَّن به على حيز ميز لدونة "مجالس التذكير" في هذا الخضم، وقد كانت الخلفيَّات المعرفيَّة والمناهج المتَّبعة سببا بارزا في تباين النَّظرات إلى المصطلحيَّن، فباعبار رأي من لا يفرقون بين النَّصِّ والخطاب" وأنَّهما مصطلحيَّن مترادفيَّن لشيء واحد، والتَّركيز على الشَّكل السَّرديِّ للتَّناج؛ يمكن النَّظر إلى تفسير ابن باديس على أنَّه نصٌّ كما اشتغل عليه البنيون من حيث هو بنية منتهية مغلقة لا يتجاوزونها إلى غيرها، فيقصون مصطلح "الخطاب" (الكلام) من اهتماماتهم، وهذا أمر لا يصلح اعتباره في التفسير موضوع البحث، إذ أنَّ النَّصوص الغائبة، أو ما يسمَّى: "ما وراء النَّص" هو ما نجد ابن باديس يقصده، أكثر ممَّا يقصده ممَّا أورده بلفظه، والأکید أنَّ هذا في نظر الثَّقاد ضَرَب من فنون الكلام، لكنه عند ابن باديس يتجاوزه إلى أسلوب في التَّورية والتَّعريض، يدفع به مضايقات الظروف الاستعماريَّة القاهرة، وذلك ما يتجلَّى حين يُفضِّل المحلَّلون اللِّسانيون للنَّصِّ والخطاب التَّفريق بينهما بغية تحقيق نتائج أدقَّ في التَّحليل، فيرون أنَّ النَّصَّ هو: "مجمل القوالب الشَّكليَّة النَّحويَّة الصَّرفيَّة، الصَّوتية، بغض النَّظر عمَّا يكتنفه من ظروفٍ أو يتضمَّنُه من مقاصد، في حين يحيل الخطاب على عناصر السِّياق الخارجيَّة في إنتاجه وتشكيله اللُّغويِّ، وكذلك في تأويله ممَّا يفترض شروط إنتاجه وظروفه، وفي صورة أخرى لتنازع معايير عديدة صياغة التَّفريق بين النَّصِّ والخطاب؛ يبرز من يرى أنَّ النَّصَّ باعتباره النَّتيجة الوحيدة -ولو كانت مؤقتة- للكتابة بمثل الحقيقة الفريدة التي تتيح إقامة دراسة علميَّة ترتبط بتصوُّر إنتاج هذا النَّصِّ ويفعل تشعب آراء المقارنين والمقاربين بين المصطلحين، وتباعد إمكانيَّة الاحتواء بإيجاد حلٍّ يرضي الأطراف ذات العلاقة، حاول البعض اختصار الإشكال وحلَّه في معادلة رياضيَّة بسيطة، جمعا للآراء وفضلاً للنِّزاع فهذا جون

ميشال آدم (J.M.Adam.): يرى أنّ الخطاب وحدة لغويّة أشمل من النّص وفق هذه المعادلة:

الخطاب = النص + شروط الإنتاج.

النّص = الخطاب - شروط الإنتاج.

وعلى هذا الاعتبار فإنّ التفسير الباديسيّ في بدايته نصٌّ يشكّل سبيلا مادّيا محسوسا، يمكننا من المرور إلى الخطاب عبر نتوءاته، وفجواته، والمساحات الشاغرة المتبطّنة، وذلك ما يرسم هيئة الخطاب وشكله، وكثيرا من صفاته ومميّزاته، ولعلّ من وسائل توضيح العلاقة بين النّص والخطاب وإطلاقها بالمقابل على التفسير؛ المقارنة بين التراكيب الإضافيّة للمصطلحين نحو: (نصٌّ منسجم، خطابٌ منسجم) (نصٌّ متّزن، خطابٌ متّزن)، (نصٌّ حماسيّ، خطابٌ حماسيّ)، (نصٌّ مُحكم، خطابٌ مُحكم)... فإنّه رُغم صلاحية التراكيب، وإفادتها لمعان صحيحة عموما؛ إلّا أنّ بعض المعاني أولى وألصق بالنّص منها بالخطاب ك: نصٌّ مُحكم، وبعضها يكون بالخطاب أولى منها من النّص ك: (خطابٌ متّزن) ومنها ما يلائمهما معا ولكنّ المعنى الدّلاليّ يختلف إلى حدّ ما ك: (نصٌّ منسجم، وخطابٌ منسجم).

وإذا حاولنا تصوّر موقع التفسير الباديسيّ من خلال الرّؤية السابقة، وجدنا أنفسنا أمام هيكل تفسيريّ تستقلّ فيه كلُّ آية بموضوعها، مبتدئة بعنوان رئيس، فتذكر الآية أو الآيات إذا كانت ذات موضوع واحد، وقد يُستهلّ بالمناسبة وفيها يعالج مناسبة الآية لما قبلها أو (سبب النزول) - إن وُجد - والعنصران الأخيران ممّا قلّ ورُودهما في التفسير.

وتحت عناوين فرعيّة من جنسها يعالج ابن باديس (المفردات) (التراكيب) (المعنى) وهي عناصر تشكّل اللازمة في استهلال التفسير عنده في كلّ الآيات تقريبا، وتعتبر عتبة (المعنى) بداية تشكيل النّص الباديسيّ بمفهومه اللّسانيّ

الحديث، إذ تشغلُ (المفردات) حيزًا غير مترابط البناء، فتعرض فيه كل مفردة مقابل شرحها، في ما تكون (التراكيب) حيزًا مشابها يحل فيه طبيعة التراكيب، ودلالاتها الصرفية والإعرابية والدلالية، ولا يحمل هذان الحيزان دلالات نصية بقدر ما يهيئ من خلالها ظروف بناء نصوص (فقرات) يستقل كل منها بعنوان مشحون دلاليًا، يكون نص (المعنى) والذي هو عبارة عن صياغة لمفهوم الآية بلغة باديسية، ويكون بعد ذلك أرضية ينطلق منها لبناء الفقرات الأخرى مستنجدًا بما في حيزي (المفردات، التراكيب) مما له بذلك علاقة.

تعدُّ الفقرات (النصوص) في مجموعها عناصر ترسم شكل الخطاب الباديسي، وجميع أوصافه المترددة بين التعريض والتصريح، والشدة واللين، والترغيب والترهيب، والقبول والإنكار، عبر الاستدلال والحجاج والحوار، وغيرها من الوسائل والأدوات التي تحدّد الأوصاف والهيئات التي يكون عليها الشكل اللغوي للنصوص في مفرداتها وأدواتها وأساليبها من جهة: والسياقات السابقة والمصاحبة والألاحقة -من جهة أخرى- لإخراج تلك النصوص.

وإلى هذا الحد يبدو أنه أمكن تقريب تموضع التفسير الباديسي ضمن الإطار الغامض الملامح الذي يضم ثنائية (النص والخطاب) وهو تموضع كان لابد من تحديده لتأسيس بقية عناصر البحث عليه، وأول هذه العناصر التي يُعتقد أنها ظاهرة تميز بها تفسير "مجالس التذكير" مما سيحظى بالدراسة هي العنوان.

4- العنوان في مجالس التذكير، هندسة النص وجمال التبليغ:

يحتل العنوان بحكم موضعه من الكتاب أو النص موقعًا أحيى بوظائف ومقاصد متداخلة، فبرزت إشكاليات تراكت وتضخمت ليعلم على إثر ذلك عن العنوان بوصفه عتبة كبرى في النص قد تكون أهم العتبات على الإطلاق. وإذ يُتناول العنوان بالدراسة فلسوف يُقتصر من ذلك على الأبعاد التداولية في

عنوان تفسير ابن باديس أولا، ثم في عناوين مواضيع الآيات، وأخيرا للعناوين الفرعية التي تتوزع على مسافات مختلفة في هيكل موضوع التفسير.

4-1- العنوان الرئيس: أشهر ما يُعرف به هذا التفسير هو (مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير) وأضيف في إحدى الطبعات حرف الجر "الفاء" (في مجالس التذكير) ولألفاظ العنوان وتركيبته من الدلالة والتداول ما هو جدير بالدراسة، فمن خلال دراسة المفردات التي يبدو اختيار الإمام لها من بين عديد المفردات متعمداً وفي الشطر الأخير منه "الحكيم الخبير" خاصة.

مجالس: من جلس الجلوس: القعود و"جلس، يجلس، جلوسا... المجلس: موضع الجلوس.... ومنه قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَأَفْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11].

والمجلس: جماعة الجلوس، أنشد ثعلب:

لهم مجلس صُهبُ السبال أذلة سواسية أحرارها وعبيدها

التذكير: من ذَكَرَ. والذَكَر: الحفظ للشيء، تذكيره... والذَكَر أيضاً: الشيء يجري على اللسان.... والذَكَر والذَكَرَى: نقيض النسيان... واستذكر الشيء: درسه للذَكَر. والاستذكار: الدراسة للحفظ، والتذَكَر: تَذَكَّرَ ما أنسىته، وذَكَرْتُ الشيء بعد النسيان، وذَكَرته بلساني وبقلمي، وتذَكَرته وأذَكَرته غيري وذَكَرته بمعنى. وأورد ابن منظور التذكير: خلاف التأنيث وهو غير مقصود في عنوان الإمام. والذي اعتمده مما عليه المعاني السالفة وباللفظ عينه قولٌ وحيد على وزنه في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيَّاتٍ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ عَزْمَةً تُرِقْضُوا إِلَىٰ وَلَا تَنْظُرُونَ﴾ [يونس: 71].

من: للجنس أو للتبعيض.

إذا توجَّه الكلام إلى التفسير الذي ألقاه الإمام كاملاً على متلقيه فالأقرب أن "من" للجنس، وإذا توجَّه إلى ما سلم من الضياع وهو جزء يسير من التفسير ف"من" للتبعيض.

كلام: قال ابن منظور: "قال ابن سيدة: الكلام: القول، والكلام ما كان مكتفياً بذاته... والدليل على الفرق بين الكلام والقول: إجماع الناس على أن يقولوا: القرآن كلام الله، ولا يقولوا: القرآن قول الله... والكلام: اسم جنس يقع على القليل والكثير... مما يدلُّ على أن الكلام هو الجمل المترتبة في الحقيقة: قال كثيرٌ:

لو يسمعون كما سمعت كلامها خرُّوا لعزة ركعاً وسُجداً

فمعلوم أن الكلمة الواحدة لا تُشجى ولا تُحزن... وإنما ذلك فيما طال من الكلام.

الحكيم: الذي أفعاله مُحكَّمة مُتقنة... فالله عزَّ وجلَّ حكيم كما وصف نفسه بذلك، لإتقان أفعاله واتساقها وانتظامها، فالحكيم على هذا التأويل فعيل، بمعنى مُفعل (محكم) وقد يكون بمعنى عليم... فيكون على هذا بتأويل المبالغة في الوصف، واشتقاق ذلك من حكمة اللجام، وهي الحديدية التي تمنع الفرس، وتردُّه إلى مقصد الرَّاكب.

الخبير: "خَبِرْتُ بِالْأَمْرِ أَي: علمته، خَبَرْتُ الْأَمْرَ، أَخْبَرَهُ: إذا عرفته على حقيقته. وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِرُوحِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: 59]. أي اسأل عنه خبيراً. والخبير: الذي يخبر الشيء بعلمه". والخبير: العالم بالشيء، يقال: "خَبِرْتُ

الشَّيْءَ وَأَخْبَرْتَهُ إِذَا عَلِمْتَهُ . وتفيد "في" التي أضيفت في عنوان إحدى الطبعات،
الظرفية المكانية على تقدير محذوف "ما قيل في مجالس..."

يصنع تركيب العنوان الرئيس للتفسير الباديسيّ فضاء تواصلياً بما تحيل
عليه لفظة (مجالس) وهي جمع لمجلس، في رسم حدودٍ حيزٍ مكانيٍّ أخرج فيه
هذا التفسير، وكان فيه المرسل على أقرب درجات التّواصل المكاني، فهو
يخاطب جلسه الشاهد مباشرة، ولا ريب أنّ هذه المخاطبة تتكئ على آليات
غير لغوية كثيرة تصبغ الخطاب بدلالات لا يمكن للنص المدوّن حملها، مهما
أطال الحديث عنها كارتفاع الصوت وخفوته وإشارات الجوارح وحركاتها
من جانب المرسل، وكذا ما يتحقّق من تفاعل كالسؤال والحوار وغيرهما من
جانب المتلقّي. أمّا ما تحيل عليه (مجالس) في المدوّن من التفسير فتأخذ بُعداً
كميّاً حين تُفصل دراسة كلِّ موضوع بمفرده في مجلسٍ بعينه، يستقبل فيه
المتلقّي نصّاً مدوّناً، وعليه أن يُجهد نفسه في استكشاف سياقات الإخراج
وظروفه، والنّبش عن مقاصد المرسل والفهم عنه.

تهيئ لفظة (مجالس) ظروف تداول مثالية بما ترسمه من جو الاستعداد
والحضور والتلقّي والرّدّ بطريق المناقشة والحوار، وتضييق مساحات
التشويش أو إعدامها، وغير ذلك من الفروق التي يحدثها حضور جسد
بكلّيته، وحضور حاسة البصر عند تلقّي نصّ مدوّن. ولذلك يشعر القارئ
بحرص الإمام على تحقيق التلقّي الآمن للنصّ القرآني لمن بعد حضوره
الحقيقيّ، بما أمكنه من توظيف أساليب وألفاظ تسعف الجوارح في تحقيق
أعلى درجات الفهم والتدبّر، ومن ثمّ العمل والتّطبيق.

أمّا (التذكير) فهو تحديد طبيعة الإرسال ونوعه، فلفظ (التذكير) يُوَمِّع إلى
تداول على حديثٍ معروفٍ عند المرسل والمتلقّي من قبل، لكنّه أغفل أو نسي
أو عوّض بغيره، وهي مرتبة تواصلية يفترض فيها قدرٌ مقبول من السهولة

والمرونة، لما سبق لها من العلم بها، بخلاف العسر والمشقة التي ستحصل، في ما إذا لو كانت (دعوة) إلى شيء جديد لم يَسِيق للمتلقيين أي علم بها.

من: إذا توجهَ البحث في التفسير الذي ألقاه الإمام مشافهة على طلبته ورواد الجامع الأخضر بقسنطينة طوال ربع قرن، فما تحيل عليه "من" هو جنس الكلام، وهو القرآن الكريم، فالدلالة بها أقرب، وأما إذا قصدنا الحديث عن المدون منه في ما تتداوله الأيدي من هذا التفسير فإفادة "من" للتبعيض والجزئية أدل وأظهر.

كلام: نكرة قيدها الإضافة بعدها، فهو وإن كان كلاما عول عليه ابن باديس فجعله متنا حمله رسائل لا حصر لدلالاتها؛ فإنه كان متيقنا من قدرة الكلمة على الإنجاز وعارفا بسلطتها في التغيير، وما بقي بعد ذلك هو تخير طرق الأداء، وأساليب التبليغ، وحسن المراوحة، وذكاء التوظيف.

الحكيم: يختار ابن باديس هذه الصفة والاسم لصاحب الكلام (جل وعلا) من عشرات المفردات الصالحة لأن تكون هنا، على محور الاستبدال، وما ذلك إلا ليضفي على مجالسه قدرا من صلاحية هذا الكلام للهيمنة على شؤون الحياة، وقدرته على استغراق تفاصيلها، لأن مصدره حكيم متقن، جلت أفعاله وأقواله عن غير الحكمة والصواب.

الخبير: إضافة مختارة أخرى، رأى بأن الأنسب الذي يضاف إلى الحكمة التي يشك في نفاذها، صفة ترد كل شك، باعتبار أن من صدر منه هذا الكلام الحكيم، والذي تتداوله هذه المجالس؛ كلام خبير بأحوال المتلقيين، عالم بأحوالهم وما يصلحها، فمالم بعد ذلك إلا الاطمئنان لأمر المصدرية، فتكون قاعدة متينة لبناء التفاعل، فهما وتدبرا وتطبيقا.

وإضافة إلى الأبعاد الجمالية التي رسمت الصورة الخلفية للعنوان، ترسم خيوط تداولية تؤدي دور ربط المتلقي بالعمل وبصاحب العمل. فلقد

حَقَّقَتِ الْمُرْسَلَاتُ اللُّغَوِيَّةَ لِلْعِنْوَانِ بَعْدًا تَوَاصُلِيًّا عَمِيقًا، مُشَكَّلَةً سَطْحًا دَلَالِيًّا غَزِيرًا، وَشَبَكَةً تَوَاصُلِيَّةً قَوِيَّةً، يَتَفَاعَلُ مَعَهَا الْمُتَلَقِّيُّ تَفَاعُلًا إِيْجَابِيًّا، فَيَحَاوِلُ اسْتِجْلَاءَ مَقْصِدِيَّةِ الْمُرْسِلِ خَلْفَ كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِ الْعِنْوَانِ عَلَى انْفِرَادٍ، وَأَوْلَوِيَّةَ اخْتِيَارِهَا عَنْ غَيْرِهَا، ثُمَّ اسْتِجْلَاءَ مَا خَلْفَ دَلَالَةِ التَّرْكِيبِ، لِيَنْبَنِيَ عَلَى ذَلِكَ الْفَهْمِ دَرَجَاتٌ مُتَفَاوِتَةٌ عِنْدَ الْمُتَلَقِّينَ مِنْ تَحْقِيقِ الْكِفَاءَةِ التَّوَاصُلِيَّةِ لِلْمُرْسِلِ، بِحَسَبِ تَعَدُّدِ الْقَرَاءَاتِ وَتَرَدُّدِهَا، وَهُوَ مَا يَصْنَعُهُ الْمُتَلَقِّيُّ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَ الْعِنْوَانُ (نَصًّا) مَغْلَقًا مِنْ مَرْسَلِهِ وَكَأَنَّ الْعِنْوَانِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ -عَمَلٌ مُخْتَزَلٌ أَشَدُّ مَا يَكُونُ الْاِخْتِزَالُ، وَإِنَّ نَصِيَّتَهُ- أَيْضًا- هِيَ نَصِيَّةٌ مُخْتَزَلَةٌ لِلْغَايَةِ لِنَصِيَّةِ الْعَمَلِ، وَكَأَنَّ التَّشَاكُلَ الْجِنْسِيَّ قَدْ صَعَدَ إِلَى حَدِّ التَّوْحُدِ الدَّلَالِيِّ لِلْعِنْوَانِ بِعَمَلِهِ وَمِنْ هُنَا شَكَّلُ عِنْوَانِ: (مَجَالِسُ التَّذْكِيرِ مِنْ كَلَامِ الْحَكِيمِ الْخَبِيرِ) مُرْسَلَةٌ لُغَوِيَّةٌ حَقَّقَتْ قَدْرًا مِنَ الْاِسْتِقْلَالِ التَّدَاوُلِيِّ الَّذِي يُسَهِّمُ الْمُتَلَقِّيُّ فِي تَحْقِيقِهِ، وَتَفْعِيلِ إِنتَاجِيَّتِهِ التَّدَاوُلِيَّةِ، كَمَا حَقَّقَتْ مَدْخَلًا جَمَالِيًّا وَتَفَاعُلِيًّا، يَعْزُبُ مِنْ خِلَالِهِ الْمُتَلَقُّونَ إِلَى النَّتَاجِ الْبَادِيسِيِّ كُلِّهِ، وَهُوَ النَّتَاجُ الَّذِي يَتَمَطَّهَرُ عَلَى شَكْلِ "حَلَقَاتٍ" يَصْدُرُ كُلُّ مِنْهَا بِعِنْوَانٍ تَنْدَرِجُ تَحْتَهُ عِنَاوِينَ فَرْعِيَّةً لِفَقْرَاتِ الْمَوْضُوعِ، وَهُوَ التَّقْسِيمُ الَّذِي سَيَتِمُّ اسْتِعْرَاضُهُ.

4-2-عنوان المجلس: يشكّل العنوان عتبةً يُلجُ المتلقي منها إلى الموضوع، ويرسم من خلاله ملامح سياق الموقف الذي حُرِمَ منه، وكما أنّ العنوان في هذه المرحلة قد يحيل المتلقي على هالة معرفية ما، تخلّفها دلالة العلامات المفردة المشكلة له؛ فإنّ تركيبه الكلّي قد يكون رابطًا قويًا يجذبه إلى معاني مترددة كثيرة، ويغريه باكتشافها في ثنايا ما تحته.

هيأ ابن باديس لنفسه إرسالا من طريق اتّصال صحافيّ، وللعنوان في ذلك موقف استقطاب لأكبر مدّ جماهيريّ ممكن، وتحقيق أعمق فهم في أسرع وقت، فالسياقات العامّة لا تسمح بأعمال أكثر حرّية وطلاقة وليس هناك من الوقت ما يسمح بتأطير أكثر استيفاء، وأوسع تحقيقا. فلعبت عناوين

المواضيع التي كانت تتصدَّر جريدة الشَّهاب دور النَّصِّ في ذاتها، فهي تحمل من الرسائل الدَّالة شيئاً كثيراً، إذ كان غالباً ما يُرصَّعها بسجع احتفظ به من آثار العصر القديم، واصطبغت به العنونة الشَّرعيَّة التُّراثيَّة، وذلك ما أضفى عليه موسيقى وإيقاعاً مميَّزين، وربَّما كان ذلك من الوسائل التي تستهوي السَّامع فيقبل على ما تحته، ولناخذ من عنوانه لتفسير قوله تعالى ﴿كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: 20] والتي صدر تفسيره في عدد شوال 1348هـ / 1930م تحت عنوان "عموم النَّوال من الكبير المتعال".

تبدو مفردات العنوان ونسقه مثقلة بحمل دلاليٍّ لافتٍ، وعلى ما يظهر فيها من بساطة وسهولة؛ فإنَّ معانيها ودلالاتها ممتنعة إلى ما بعد العبور إلى ما تحتها، فتركيب الإضافة الغالب على عنونة مواضيع الحلقات؛ والذي يشكِّل العلاقة بين اسمين أولهما نكرة وثانيهما معرفة، ثمَّ الانتقال بأداة من أدوات الجر إلى إضافة أخرى، تجعل من أحد التَّركيبيَّين في حاجة أكيدة إلى الآخر، فيصاغ المُرْكَب اللُّغويُّ كاملاً، مضاعفاً دلالات المفردات فـ "عموم النَّوال" على هذا النَّسق، بدلاً من: "النَّوال العام" يُوجَّه الاهتمام إلى العموم والشُّمول أكثر من الاهتمام بـ "النَّوال" والعتاء، واستبدال التَّعريف بـ "ال" في "العام" وتقديم "عموم" النَّكرة وتعريفها بالإضافة إلى "النَّوال"؛ توجيهه للقصد بالابتداء إلى "عموم" لأنَّها الأولى من النَّوال.

ولبيان مصدرية النَّوال وابتداء غاية العطاء، كان الوصف بالكبير الذي هو: "العظيم الجليل: يقال فلان كبير بني فلان" أي: رئيسهم وعظيمهم. وهو: الذي يستغني عن التبدُّل... ولا يحتاج في أن يُطاع إلى إظهار نفسه فالمبتدئ بتعميم العطاء أكبر من كلِّ كبير، وما دونه - ضمناً - صغير.

والمتعال: اسم فعل من قولك: تعالى الله (عز وجل) وهو: تفاعل من العلوّ. وتضمّن أنّ ما دونه أقلُّ وأدنى، والعنوان وإن لم يُتلقَ بهذه الدلالات الدّقيقة من قارئه لأوّل وهلة؛ فإنّ الإحالة على العموم ممّا تضمّنه قائمة، وهو ما يوكد الرّغبة لدى المتلقّي في الاطلاع ويستثيره على المزيد.

وما قيل عن هذا العنوان، يمكن قول ما هو قريب منه عن العنوان: أصول الهداية في ثمان عشرة آية" والذي شرع ابن باديس تحته في التّفسير من قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخَذُومًا﴾ [الإسراء: 22]، إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: 39] والذي صدرَ بعدد الشّهاب، في ذي القعدة 1348هـ/ أفريل 1930م.

وبعد مُضيّ نحو سبع سنين من شروعه في التّفسير، يظهر متمسّكا بنسق العنونة نفسه، وطريقة البناء ذاتها، ويستدعي المتلقّين من خلال ذلك إلى الموضوع المختار للتّفسير، فنجده يُصدرُ تفسيرا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوا لَبِغَضٍ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: 62] وفي عدد الشّهاب لغرة محرّم 1356هـ/ مارس 1937م، بالعنوان: "الاجتماع العام للأمر الهام وارتباط الجماعة بأمر الإمام" ويكرّر العنوان نفسه لتفسير الآية بعدها ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونِ مِنْكُمْ لَوْ أَدَّأَقِيحَدَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ۚ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63]، في عدد صفر 1356هـ/ أفريل 1937م محتفظا بنفس آليات التّأثير، وموظّفا نفس الوسائط اللّغويّة وغير اللّغويّة بينه وبين المتلقّين، من طباق وتجنيس ومقابلة، وجرس موسيقيّ مألوف، وغير ذلك مجتهدا في ما سبقت الإشارة إليه في محاولته الاستيلاء على إقبال المتلقّي واستدراجه.

ومع أن بعض المجالس كانت تخلو من مثل ذلك البناء المتكلف، إلا أنها كانت تستمد جاذبيتها من سبيل آخر، كعنوانه في تفسيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: 38]: "دفاع الله عن المؤمنين" واستدراج العنوان للمتلقّي ظاهر من خلال الإحساس بالإحباط واليأس وغلبة البغي، وفشو الظلم والقهر، وهي المظاهر والمشاعر التي يجد المتلقّي منها متنفساً واسعاً، وهو يمرُّ على عبارة بالخطّ العريض على صدر صحيفة، أو كعنوان الودّ من إكرام الله لأولياء الله التي عنون بها تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96]، والتي تشكّل كلمة أولياء بؤرة العنوان المغربي، على سبيل استجلاء الدلالة في ظرفٍ شاع فيه صراعٌ حادٌّ حول حقيقة (الأولياء) والتباس الأمر على العامة فيهم، واشتراك معانٍ متعددة على اللفظة، ولا ريب أن ما تحت العنوان سيشفني عيٌّ كثيرٍ من المتسائلين.

3-4-العناوين الفرعية: هي عناوين لفقرات جعلها الإمام عتباتٍ فاصلة في الموضوع الواحد، عنونَ بها لكلِّ مرحلة من مراحل التفسير، منها ما هو قارئاً ثابت بلفظه وبما يدلُّ عليه - وإن اختلفت ألفاظه أحياناً- وهي: التمهيد - المناسبة - سبب النزول - في بعض المواضيع، ولازمت العناوين: المفردات - التراكيب - المعنى - غالب تفسيره، وأمّا العناوين الفرعية في ما بعد عنوان: المعنى، فاختلفت ألفاظها وتراكيبها وعددها من موضوع لآخر، على خلاف ما كان عليه الشكل القار من العنونة الفرعية من دلالة على مراحل بناءية شكلت الأرضية الأولى للتفسير؛ فإنَّ عنونة ما بعد المعنى مثلت نوعاً آخر من التشكيل اللغوي، تمّ من خلاله تسريبُ حُزَمٍ من المضامين المستنبطة، وتمريرها عبر صيغ لغوية متعددة ظاهرة ومضمرة، وغير لغوية تُستشَف من نبرٍ أو تنغيم، فإذا ما قابلنا ذلك التّاج بالملابسات والسّياقات السّابقة أو المصاحبة؛ اتّسعت مساحة التّواصل فاستدركت مقاصد المرسل

واكتشفت أغراضه، كما تمّ من خلال تلك العنونة تعميم التّبليغ وتقسيمه على طريقة تعليميّة تُلخّص المضمون النَّصِّيّ المبسوط في كلمةٍ أو كلمتين، حرصاً على تواصلٍ فعّال، وتحقيقاً لاستجابة سريعة.

4-3-1- من النَّاحية الشّكلية: بخلاف العنونة القارّة التي ترد بصيغها المعهودة (المفردات) (الألفاظ) (التراكيب...) والتي أغلقت عليها "ال" التّعريف فحدّدت فضاءها وسدّت أفقها؛ فإنّ الغالب على هذه العناوين أنّها وردت نكرات، فأفادت العموم والإطلاق، والاستحواذ على أوسع مدى تواصلٍ مُتاح، وهيئات مساحات للانفتاح على توليد معاني ودلالات أخرى، وتناسل قراءات ذات أبعاد متعدّدة. وأمثلة ذلك عناوين ك: "توجيه، توجيه، ترجيح، تطبيق، استنباط، سلوك، امثال. وهي عناوين ما بعد المعنى لتفسيره قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: 80]. أو "تطبيق، تعميم وتقييد، تنظير، إشكالٌ وحلّه، إيرادٌ وجوابه، تحذير من تحريف، موعظةٌ وإرشادٌ وهي عناوين ما بعد المعنى" في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105] والملاحظ أنّ التنكير الذي تتلبّس به هذه العناوين مفردة أو معطوفة، لا يفقد انتشار دلالته واستغراقها، بل يلقي بظلال من الاتساع في المعاني تستحوذ على آفاق واسعة من قراءات المتلقين وتأويلاتهم.

إنّ هذه العنونة قد حقّقت اقتصاداً زمنياً واقتصاداً لغوياً، ومشاركةً إيجابيةً للمتلقين، وهو ما يبدو أنّ الإمام قد أدرك ثمراته وسرعة نتائجه، فاستغلّه إلى أوسع مدى، وباستعراض نماذج من تلك العناوين الفرعية يلاحظ الآتي:

4-3-2- من النَّاحية الدلالية: لا تبدو دلالة ألفاظ العناوين ذات وثاقة شديدة بالعنوان الرّئيس للموضوع، بقدر ما هي مفاصل تقسّم النَّصَّ إلى

وحدات على شكل فقرات مستقلة بفكرة معيّنة، ومتكاملة مع غيرها من الفقرات، وإنما جُعِلَ العنوانُ دليلاً عليها لأداء وظيفةٍ تداوُلِيَّةٍ ظاهرة، يلخّص من خلالها هذا العنوان الفرعيُّ (المفصل) مقصدية الإمام من وراء كلِّ مضمون نصِّيٍّ مبسوطٍ فالفاظ ك: "إيضاحٌ وتعليلٌ توجيهي، استنتاجٌ وتطبيقٌ، إرشادٌ واستنهاضٌ، رجاءٌ وتفاؤلٌ..." وهي عناوين ما بعد المعنى من تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ قَرِيْبٍ إِلَّا نَحْنُ مَهْلِكُوْهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوْهَا عَذَابًا شَدِيْدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوْرًا﴾ [الإسراء: 58] ليس بينها وبين العنوان الرئيس: "الطور الأخير لكلِّ أمةٍ وعاقبته" أيّ ترابطٍ دلاليٍّ ظاهر، ولا يلمس التلقّي أيّ علاقة مباشرة، بينما تبدو تلك العناوين مُشَبَّعة بشحنات تفاعليّة وإنجازية ضخمة، تكتسبها كلُّ مفردةٍ مما تحتها من نصٍّ مبسوط.

الخاتمة:

شكّلت هندسة العنونة في تفسير ابن باديس (مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير) نظاماً يراه القارئ لأول وهلة فيحسبه عبارة عن تشكيل نصِّيٍّ لا يعدو أن يكون طريقة في التأليف ومنهجاً في الصياغة، لكن النظرة الفاحصة المتأنية في الأسباب، والظروف، والأهداف، تجنح بنا إلى أن ابن باديس قد تجاوز خصوصية التأليف التفسيريّ التي كادت أن تصبح في حكم المقدّس الذي لا يُجتَرأ عليه، وأعلن بذلك عن نزعة تجديديّة متبصرة. وتوظيف متعلّق للتراث، سواء في ما تعلّق بالمضامين، أم بأشكال تبليغها.

لقد كان من الدوافع الكامنة وراء انتهاج ابن باديس لهذا المنهج في العنونة، طبيعة تكوينه الأكاديميّ الذي كان بداية انفتاح عربيٍّ على مؤثرات المناهج الغربية وطرائقها في التأليف والتصنيف، والتي بدأت تباشرها تتسرب إلى كبرى المؤسسات العلميّة يومذاك كالأزهر والزيتونة، بالإضافة إلى نزعة استقلاليّة وتنظيميّة تشبّع الإمام بها منذ عهده الأول بالطلب، ثمّ

بشمار التجارب التعلیمیة بداية سنّة الزيتونة بعد تحرّجه فيها مباشرة، وكذا خبرات تلك السنوات الطويلة التي قضاها معلّمًا ومرّيبًا لنواة النّهضة العلميّة التي كان تشكيلها من عشرات التلاميذ والطلّبة.

لقد اجتمعت كلُّ هذه العوامل لتفرز لدى الشّيخ طريقة رآها الأكثر تنظيمًا، والأنجع تبليغًا، والأمثل في اختصار الجهد الغالي، والوقت الثمين، فكان عمله هذا نموذجًا تطبيقيًا حيًّا لما بات يعرف اليوم بالاقتصاد اللّغويّ، الذي يبحث في تبليغ فعّالٍ وناجح بأقل جهد لغويٍّ ممكن.

ورغم ما كان يبدو من مقاصد تعليميّة، وتحقيق مستويات فهمٍ عالية، فإنّ استراتيجيّة هندسة العنوان في تفسير ابن باديس لم تخلُ من جانب جماليٍّ وفنيٍّ متميّز، حافظ في الإمام على رونق اللفظ العربيّ، وأحسن انتقاء ألفاظ العناوين بما يحفظ ماءها ويرفع أداءها، وقد جاءت اختياراته للعنوان الرّئيس، وعناوين الحلقات، والعناوين الفرعيّة لها، متناسبة مع ما جعلت للدلالة عليها، وهكذا نجد أنفسنا أمام إحدى الإضافات النّوعية التي تحسب لأحد أبرز أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين في إطار خدماتها اللّافتة للارتقاء باللّغة العربيّة في الجزائر، وتنمية كلّ ما يتعلّق بمباحثها في المضامين والأشكال.

الهوامش:

* هكذا في الأصل والصّحيح (1337هـ)

1- أحمد حمّاني، الثمر الدّاني من محاضرات الشّيخ أحمد حمّاني، إعداد: أبو أسامة عمر خلفّة، تقديم: محمد الصّالح الصّدّيق ط1. الجزائر: 1432هـ/2011م، دار الفجر، ص. 416.

2- المرجع السّابق، ص. 416.

- 3- حمد بن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، د ط. دمشق: 1399هـ / 1979م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج5، مادة (ن ص).
- 4- جمال الدين أبو الفضل ابن منظور، لسان العرب، ط3. بيروت: 1414م، دار صادر، ج7، مادة (ن ص ص).
- 5- سهيل إدريس، المنهل (قاموس فرنسي عربي)، ط38. بيروت: 2007، دار الآداب ص 1196.
- 6- محمد لخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ط1. الجزائر: 2008م، منشورات الاختلاف، ص 17.
- 7- عبد القادر شرشار، تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، د ط. دمشق: 2006م، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ص 19.
- 8- علي بن محمد الشريف الجرجاني، التعريفات، عناية: مصطفى أبو يعقوب: ط1. الرباط: 1427هـ / 2006م، مؤسسة الحسنى، ص: 216.
- 9- زتسيسلاف واوزيناك، مدخل إلى علم النص ومشكلات بناء النص، ترجمة وتعليق: سعيد حسين بحيري، ط2. القاهرة: 2010م، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ص 69.
- 10- كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، ترجمة وتعليق، سعيد حسن بحيري، ط1. القاهرة: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، 2005م، ص 22.
- 11- المرجع نفسه، ص 23.
- 12- المرجع نفسه، ص 24.
- 13- المرجع نفسه، ص 25.

- 14- المرجع نفسه، ص 25.
- 15- المرجع نفسه، ص 27.
- 16- محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، د ط.، القاهرة: 2007م، دار الحديث، ص 288.
- 17- أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، مادة (خ ط ب).
- 18- الحسين بن محمد الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، د ط. بيروت: 1431-1432هـ/ 2010م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، مادة (خ ط ب).
- 19- محمود بن عمر أبو القاسم الزنخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، ط2. بيروت: دار الكتب العلمية، مادة (خ، ط، ب).
- 20- ابن منظور، لسان العرب، ج1، مادة (خ ط ب).
- 21- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، ط1. بيروت: 2004م، دار الكتاب الجديد المتحدة، ص 37.
- 22- دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتن، ط1. الجزائر: 2008م، منشورات الاختلاف، ص 38.
- 23- المرجع نفسه، ص 39.
- 24- المرجع نفسه، ص 38.
- 25- عبد القادر شرشار، تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، ص 20.
- 26- عبد الهادي ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، ص 39.
- 27- عبد القادر شرشار، تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، ص 20.

- 28- ليندة قياس، لسانيات النَّصِّ النَّظْرِيَّةِ وَالتَّطْبِيقِ، تقديم: عبد الوهاب شعلان، ط1. القاهرة: 2009م، مكتبة الآداب، ص44.
- 29- ابن منظور: لسان العرب، ج 3، مادة (ج ل س).
- 30- ابن منظور: لسان العرب، ج2، مادة (ذ ك ر)
- 31- محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص337.
- 32- ابن منظور: لسان العرب، ج 5، ص: 366. مادة (ك.ل.م).
- 33- أبو القاسم الزجاجي، اشتقاق أسماء الله، تح: عبد الحسين المبارك، ط2. بيروت: 1986م، مؤسسة الرسالة، ص 60.
- 34- المرجع نفسه، ص 61.
- 35- ابن منظور: لسان العرب، ج 2، مادة (خ ب ر).
- 36- أبو القاسم الزجاجي، اشتقاق أسماء الله، ص 127.
- 37- محمد فكري الجزّار، العنوان وسيموطيقا الاّتصال الأدبيّ، د ط. القاهرة: 1998م، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ص31.
- 38- أبو القاسم الزجاجي، اشتقاق أسماء الله، ص 155.
- 39- مجموعة من العلماء، موسوعة الأسماء والصّفات، إعداد عادل بن سعد، عمر بن محروس، ط1. بيروت: 2006م: دار الكتب العلميّة، ج1، ص 176.
- 40- أبو القاسم الزّجاجي، المرجع السّابق، ص 162.

قائمة المصادر والمراجع:

• القرآن الكريم.

باللغة العربية:

1- ابن منظور جمال الدين أبو الفضل، لسان العرب، ط3. بيروت: 1414م، دار صادر، ج7، مادة (ن ص ص).

2- أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، د ط. دمشق: 1399هـ / 1979م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

3- أحمد حماني، الثمر الداني من محاضرات الشيخ أحمد حماني، إعداد: أبو أسامة عمر خلفه، تقديم: محمد الصالح الصديق ط1. الجزائر: 1432هـ / 2011م، دار الفجر.

4- الأصفهاني الحسين بن محمد، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، د ط. بيروت: 1431-1432هـ / 2010م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، مادة (خ ط ب).

5- الجرجاني علي بن محمد الشريف، التعريفات، عناية: مصطفى أبو يعقوب: ط1. الرباط: 1427هـ / 2006م، مؤسسة الحسنی.

6- الزجاجي أبو القاسم، اشتقاق أسماء الله، تح: عبد الحسين المبارك، ط2. بيروت: 1986م، مؤسسة الرسالة.

7- الزمخشري محمود بن عمر أبو القاسم، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، ط2. بيروت: دار الكتب العلمية، مادة (خ ط ب).

8- سهيل إدريس، المنهل (قاموس فرنسي عربي)، ط38. بيروت: 2007، دار الآداب.

- 9-الشَّهري عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداوليَّة، ط1. بيروت: 2004م، دار الكتاب الجديد المتحدة.
- 10-الصَّيحيِّ محمد لخضر، مدخل إلى علم النَّصِّ ومجالات تطبيقه، ط1. الجزائر: 2008م، منشورات الاختلاف.
- 11-عبد القادر شرشار، تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النَّصِّ، دط. دمشق: 2006م، منشورات اتحاد الكتَّاب العرب.
- 12-ليندة قياس، لسانيات النَّصِّ النَّظرية والتَّطبيق، تقديم: عبد الوهاب شعلال، ط1. القاهرة: 2009م، مكتبة الآداب.
- 13-مجموعة من العلماء، موسوعة الأسماء والصفات، إعداد عادل بن سعد، عمر بن محروس، ط1. بيروت: 2006م: دار الكتب العلمية.
- 14-محمد فكري الجزَّار، العنوان وسيميوطيقا الاتِّصال الأدبي، د ط. القاهرة: 1998م، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب.

الكتب المترجمة:

- 15-دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتن، ط1. الجزائر: 2008م، منشورات الاختلاف.
- 16-زتسيسلاف واوزيناك، مدخل إلى علم النَّصِّ ومشكلات بناء النَّصِّ، ترجمة وتعليق: سعيد حسين بحيري، ط2. القاهرة: 2010م، مؤسَّسة المختار للنَّشر والتَّوزيع.
- 17-كلاوس برينكر، التَّحليل اللُّغويُّ للنَّصِّ، مدخل إلى المفاهيم الأساسيّة والمناهج، ترجمة وتعليق، سعيد حسن بحيري، ط1. القاهرة: مؤسَّسة المختار للنَّشر والتَّوزيع، 2005م.

مشروع البعد اللغوي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، أبعاده وتمثلاته في ظل المعطيات الجديدة.

أ.د. حاجي الصديق

ج / منثوري قسنطينة.

مقدمة في أهمية اللغة:

إذا كان من أهمّ مقاييس رقيّ الأمم، مقدارُ عنايتها بلغتها، ومدى امتلاكها للمعرفة وإنتاجها، فقد أضحت من الحقائق الثابتة اليوم، أنّ اللغة أضحت هي الوجود ذاته، وأنّ العالم أصبح ينتمي إلى أولئك الذين يسمونه بلغتهم، وهو ما يؤكد " أن الإنسان لغة ⁽¹⁾، وأن " الإنسان يسكن لغته"، فقد تساءل الشاعر الفلسطيني يوما محمود درويش من أنا؟ فكان الجواب : " هذا سؤال الآخرين، ولا جواب له. أنا لغتي ⁽²⁾ .

لغتي ومالك في الجمال مثل لغتي وما لك في البهاء عدل
رقاقة كالسلسيل ترققا كالجداول المختال حين يسيل

"فهي أنت إن كنت لا تدري من أنت؟ وهي وطنك إن لم تعرف ما الوطن ⁽³⁾؟" بإرثه التراثي والحضاري، وبثروته الطبيعية والبشرية، إنها كله

⁽¹⁾ تأملات في اللغو واللغة، محمد عبد العزيز الحيايبي، دار الكتاب العربي، ليبيا، 1980، ص: 110.

⁽²⁾ لغتي أم جسدي؟ أنا لغتي، أحمد المدني، مجلة النهضة، ع 9، السنة 2014، الرباط، المغرب، ص: 125.

⁽³⁾ عائشة عبد الرحمان، اللغة العربية وعلوم العصر، مجلة اللسان العربي، الرباط، 1976، مكتب

تنسيق التعريب في الوطن العربي، مج: 13، ص: 20.

متكاملا، وإن تباينت الألسنة فيه⁽¹⁾، فهي خط أحمر: لأنها الكينونة، ولأنها الوطن. وعليه صار الاهتمام باللغة مسألة استراتيجية، لا يعادها أي اهتمام آخر، إذ لم تعد مجرد وسيلة تواصل وتفاهم بين الأفراد والشعوب، كما كان شائعا من قبل، بل أصبحت تشكل الركيزة الأساس في بناء المجتمعات وتطورها، وعاملا مهما من عوامل استمرار البشرية وتقدمها، ومن أقوى مقوماتها الأساسية التي تمثل هويتها، وصدى روحها وأصالتها، والحافطة لشخصيتها وتراثها، ومختلف إنجازاتها الفكرية والأدبية والعلمية، وهو ما جعلها تتبوأ محل الصدارة في الفكر والقول والفعل والبناء والتطور والإبداع، وتلك دلائل عميقة على قوة اللغة، وسرّ تأثيرها، ودورها الفاعل في بناء المجتمع، فقد أثبتت تجارب الأمم والشعوب التي أحرزت نهضتها وتقدمها في عالمنا اليوم أنه "لا نهضة ممكنة لشعب إلا بلغته الوطنية"⁽²⁾. وتلك حقيقة تنطبق حتى على الدول التي سقطت في قبضة الاحتلال الأجنبي في فترة من تاريخها الحديث.

ولأجل هذا أصبح عالمنا المعاصر يتجه بقوة إلى الاعتراز باللغات الوطنية، فحق لكل قوم أن يفاخروا بلسانهم، وأن يدعوا إلى لغتهم ويعتزوا بها. واعتبارا لهذه الأهمية، كان من الطبيعي أن تحتل اللغة العربية الأهمية الكبرى عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأن تكون مشروعا لفعل حضاري عظيم، قائم على إيمان راسخ بقوة هذه اللغة، وقدرتها الكامنة على

⁽¹⁾ اللغة العربية خلال الخمسين سنة 1962—2012، عمل فرقة بحث في علوم اللغة، مخبر الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، مقال اللغة العربية واللغة الوطنية، الهوية المتكاملة، للأستاذ حسين ولهة، منشورات مخبر الممارسات اللغوية، الجزائر، ص: 338.

⁽²⁾ بيان اللسان من أجل اللغة العربية، مجلة النهضة، العدد 9، السنة 2014، الرباط، المغرب، ص: 8.

التطوير والتوجيه والنهوض بالمجتمع، واحتضانها لمكونات الوعي، فأصبح اللجوء إليها من المسلمّات، لا سيما في تلك الفترة الحالكة من تاريخ الجزائر.

ومن هذا المنطلق يستمد الحديث مشروعيته عن دور جمعية العلماء المسلمين، في الحفاظ على اللغة العربية، والحرص على تعليمها، ونشر ثقافتها والدعوة إلى النهوض بها. حتى تكون بانية الأمة وحارسها الأمين، وصانعة ركائز المستقبل. وهي المهمة التي كانت حاضرة في محطات تاريخية كثيرة، حضوراً يثبت الدور العريق لهذه اللغة في سبيل ترسيخ مقومات الشخصية الجزائرية، وبناء المجتمع والحفاظ على هويته ووحدته، فقد حفظت شخصية الأمة على مرّ الزمن، وعملت على ضمان وحدتها وتمسكها بقيمها وثوابتها ومكتسباتها ومرجعياتها وتاريخها، وهي لن تبخل بأداء هذه المهمة في زمننا الراهن.

ولما كان لا بدّ من حصر هذه الإشكالية، لتجيب عن مشروع البعد اللغوي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أثرت مقارنة هذا الموضوع والدفاع عنه، إيماناً بأنّ مستقبلنا - نحن العرب، لا سيما نحن الجزائريين - مرتبط بالغة العربية، وهو ما يقتضي وضع رؤية مستقبلية للنهوض بواقع هذه اللغة، والارتقاء بها لساناً ومضامين فكرية وعلمية وأدبية في شتى مجالات الحياة، اعتماداً على ما تخزنه من تجارب، وما تدخره من معارف وعلوم، وما تطوّعه من أجل حياة جديدة لها ولأبنائها، وهي التي تحمل في رحمها القدرة على التطوير، والتجدّد والعطاء، إذ باستطاعتها أن تقوم بالمهمة إذا ما تمّ الالتفات إلى أهميتها، وتفعيل دورها في بناء المجتمع وتطوره في ظل هذا التطور التكنولوجي المذهل، والتفاهم الحاد للأحداث، والصراعات المتعدّدة من أجل البقاء.

وهنا تعترضنا جملة من الأسئلة نرى أنها ستشكل رسم المنطلقات الأساسية لمادة هذه الورقة العلمية الموسومة بـ (مشروع البعد اللغوي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أبعاده وتمثلاته في ظل المعطيات الجديدة).

فما هي طبيعة هذا المشروع؟ وما هي معالمه؟ وما أبعاده وآثاره؟ وما العراقيل التي اعترضت سبيله؟ وما العوامل التي أدت إلى نجاحه؟ وكيف يمكن إثراؤه وتفعيله في ظل الرهانات الجديدة والمعطيات المعاصرة؟.

طبيعة المشروع وأهم العراقيل التي اعترضت سبيله:

يُحسُن بنا ابتداءً أن نشير إلى أن الحديث عن هذا المشروع، هو في الحقيقة حديث لا يخرج عن إطار بناء الفرد الجزائري، فكرا وسلوكا، وانتماء لتاريخ حضارة عريقة، في الوقت الذي يؤسس لفعل حضاري عظيم وهام، ممثلا لتوجه الأمة في انتمائها وهويتها، وبناء مستقبلها.

إنه حديث عن الجزائر في أصلاتها التاريخية، وفكرها الحضاري ومخزونها الثقافي، ونضالها التحرري، وتطلعها للمستقبل خلال حقبة تاريخية كانت تعد من أبرز الحقب حرجا، وأشدّها حساسية وخطرا على الجزائر، التي كانت يومها ترزح تحت نير الاحتلال الفرنسي، الذي ضربها في صميم هويتها عقيدة وتاريخا ولغة، وعمل بكل ما أوتي من قوّة على طمس اللغة العربية في الجزائر، ومحو كل ما هو عربي⁽¹⁾، وكل ما يمت بموروث تاريخنا وثقافتنا، ووعي أمتنا بذاتها، وقيمتها وشخصيتها المتميزة.

والجدير بالذكر أن وضع الجزائر آنذاك، يكاد يكون استثنائيا في الوطن العربي، حيث تعرضت لاستعمار طال أمده من جهة، وكان هدفه اجتثاث أحد أهم مقومات هذه الأمة، وهي اللغة العربية، ليس لكونها لسانها، بل لكونها

⁽¹⁾ من ذلك ما عرّف بقانون «8 مارس» الذي يحظر على المعلمين إلقاء الدروس أو إنشاء المدارس، أو النوادي أو الوعظ في المساجد إلا برخصة، وإلا عرّم المخالف وسُجن، والمقصود به طبعاً علماء الجمعية. أمّا الطريقيون فقد أيّدوا هذا القانون. انظر: «آثار ابن باديس» (4/126) و(6/312).

الحفاظةً لدينها المستهدف بالدرجة الأولى، من طرف السياسة الاستعمارية الفرنسية، وهو الهدف الأساس الذي عمل الاستعمار الفرنسي على تحقيقه.

ولا أدل على ذلك من فرض إجبارية التعليم بالفرنسية، وجعل هذه اللغة الدخيلة لغة رسمية، مع التضييق على مدارس العربية ومعلميها، الذين تكبدوا الأتعاب والعراقل والإمكانات القليلة، والضعف الكثرة من الاستعمار، وأذنابه⁽¹⁾، الذين لم يتوانوا في محاربة اللغة العربية وعقيدة هذا الشعب وثقافته، فسخر قوى الضلال والإلحاد ليطمس كل مقومات الشخصية الجزائرية، وإنهاء تأثيرها على حياة الفرد والمجتمع، لأنه كان يدرك أن بقاءه في الجزائر، واستمرار سيطرته عليها، إنما هو مرهون بمدى تمكنه من فك الارتباط بين الفرد الجزائري وعقيدته الإسلامية، ولغته العربية، عنوان هويته، التي هي لغة التنزيل الكريم، ولغة الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده ديناً .

إن هذه اللغة التي أصابها الضعف بسبب عوامل عدة، من أهمها سياسة الاستعمار الفرنسي التي سعت إلى القضاء عليها باعتبارها اللغة التي تعبر عن شخصية الجزائر، وتمثل الهوية لهذه الأمة، فكانت القضية قضية هوية وانتماء، تتطلب مشروعاً لغوياً يقوم على آليات دفاعية تحتمي بها الأمة من هول هذا الغزو، وبعث روح الحصانة ضد هذا المسخ، لرسم معالم الطريق، طريق العودة إلى الأصول والتشبت بالهوية، وصيانة عناصر تكوينها من دين ولغة وعادات وتقاليد.

أوليس من أهم ما احتفظت به العرب من ذخائر ماضيها لسانها؟ أولم يكن "أشرف العرب من سكان المدن يرسلون أبناءهم إلى الأعراب بالبادية، ليحذقوا اللغة العربية وهم صغار، ويشبوا عارفين بأساليبها وفصاحتها"؟

(1) المدرسة الباديسية ومناهجها الدراسية، تأليف عيسى عمراني، تقديم د/ عبد العزيز فيلالي، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، ص: 5.

أوليس بالأحرى لأبناء العربيّة أن يعودوا إلى أمّهم، لتعيد إليهم بنية نفوسهم، وتقودهم إلى بناء مجتمع علمي سليم يحمل في رحمه معالم التطور؟.

ألا يكفي دليلا على ذلك أن توجّ الله سبحانه حياة العرب بالذي يميّزهم: فكان القرآن الكريم الذي في معناه العام يعني البناء في كل شيء، وكانت إقرأ خير بداية تأمر بهذا البناء؟.

إنها أسئلة مثيرة ملحّة وحائرة تؤكد أن أشياء كثيرة فقدناها في رحلتنا التاريخية القاسية؟. وهو ما يعني أنه قد حانت مرحلة "صناعة الإنسان وبناء الذهنية وتكوين الشخصية"⁽¹⁾. صناعة الإنسان السوي، وبناء الذهنية الإيجابية، وتكوين الشخصية القومية والقوية. أي إنسان العلم والعمل والالتزام، وتلك أحد أبرز الجوانب التي ركزت عليها جمعية العلماء المسلمين اهتماماتها، وجعلتها من مبادئها الأساسية التي قامت من أجلها حركتها الإصلاحية، متخذة من القلم رمزا وسلاحا ضد المشروع الاستعماري الذي كانت تطمح قوى الاستعمار إلى تحقيقه على أرض الجزائر العربية المسلمة، كما اتخذت من اللغة العربية، لغة الدين والوطن، غاية ووسيلة لدحض أتباع الاستعمار الذين رأوا في هذه اللغة سببا من أسباب التخلف والتقهقر الحضاري.

وقد جندت الجمعية وسائل عديدة منها: المعلم والمدرسة والصحيفة، والخطيب والنوادي والمساجد، وكل من كانت تتوسم فيه الإخلاص للدين واللغة والوطن، وذلك بغية تحقيق غايتين شريفتين هما: إحياء مجد الدين الإسلامي، ولغته العربية: وهو ما يتضح في قول البشير الإبراهيمي: "إنّ جمعيتكم هذه أسّست لغايتين شريفتين، لهما في قلب كلّ عربي مسلم بهذا الوطن، مكانة

⁽¹⁾ تحديات الألفية الثالثة في وجه معلم اللغة - تعليم العربية أمودجا -، د/ عمار ساسي، مجلة لغات، ع2، السنة 2001، ص: 55..

لا تساويهما مكانة، وهما: إحياء مجد الدّين الإسلاميّ، وإحياء مجد اللغة العربيّة⁽¹⁾. ولأن عبقرية الأمة العربية في عقيدتها الأصيلة، كان لابد من بث النهضة المرتبطة بالكتاب والسنة، والمحافظة على الدين واللغة والاعتزاز بالإسلام والعروبة، كلها تشكل أساس عمل الجمعية، وذلك لترسيخ الانتماء الحضاري للشعب الجزائري، من خلال تعليم اللغة العربية، وتعاليم الدين الإسلاميّ، إذ أنهما المقومان الأساسيان للهوية الوطنية الجزائرية.

ولا غرابة أن تُحصر أهداف الجمعية في هاتين الغايتين، لأنّ بهما تصبو الأمة إلى كل الغايات. فالأولى: هي الإسلام بمعناه الشامل عقيدة ومنهج حياة يُبنى به الفرد والمجتمع وفق ما أَراده عزّ وجلّ.

والثانية: هي الاهتمام باللغة العربية، والعمل على إحيائها باعتبارها أداة فهم الإسلام، والحصن المنيع الذي يقي الأمة من الضياع والتشتت. يقول البشير الإبراهيميّ مخاطبا أعضاء الجمعية: "ويأبى لكم الله والإسلام أن تضيعوا لغة كتاب الله، ولغة الإسلام، يأبى لكم الله إلاّ أن ترجعوا إليها لا لتحيوها، بل لتحيوها بها الفضيلة الإسلامية في نفوسكم، ولتحيوها بها الحياة التي يريدّها الله منكم"⁽²⁾.

ومن أجل تحقيق هاتين الغايتين، سعت الجمعية إلى تعليم الكبار الذين الصّحيح واللّغة العربيّة الأصيلة في المساجد، وكذا تعليم الصّغار ذكورا وإناثا في المدارس، والشباب في التّوادي، سعيا منها إلى تخريج دعاة متمرسين واعين، يأخذون على عاتقهم مهمة نشر رسالة الإصلاح في كلّ أنحاء الجزائر، فأهلهم ذلك أن يتحملوا مسؤولية الحفاظ على هويتهم، واسترداد حريّتهم بعد أن تسلّحوا بحبّ الوطن والدّين، وإرادة الدفاع عن الشخصية الجزائرية،

(1) «آثار الإبراهيمي»، أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، ج1/133.

(2) «آثار الإبراهيمي» (719/1).

وعروبيتها وإسلامها، والمحافظة على قيمها الروحية والتاريخية، التي كانت بمثابة الأرضية التي تشكلت عليها ملامح النضال السياسي والعسكري، الذي مارسه الجيل الذي فجر الثورة التحريرية الكبرى، التي حررت الوطن والشعب من براثن الاستعمار الفرنسي البغيض.

ولا يخفى أنه من وحي هاتين الغايتين، صاغ العلماء شعار الجمعية الشهير: **الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا**.⁽¹⁾ وقد أصبح هذا الثالوث المقدس الشغل الشاغل الذي ناضل من أجل تحقيقه أولئك العلماء، بهدف:

أولا: إعادة الجزائريين إلى حقيقة الإسلام ومنابع الدين، واقتفاء أثر السنة الشريفة، بعد فترة من محاولات المسخ ونشر الدين النصراني بغلق المساجد وتشديد الكنائس من جهة، ونشر الشرك بتشجيع الطرقية والجهل والبدع والخرافات من جهة أخرى، والهدف تفتيت البنية الاجتماعية للشعب الجزائري التي كانت تتميز بالتلاحم وشدة الترابط، لإضعاف روح المقاومة، والثورة ضد المستعمر الغاشم⁽²⁾.

ثانيا: إعادة إحياء الحرف العربي بعدما أوشك على الاندثار، بسبب سياسة تشجيع اللهجات المحلية على حساب لغة الضاد، ومحاولة إحلال اللغة الفرنسية مكانها بتدريسها في المدارس الجزائرية.

ثالثا: التأكيد على الماضي المجيد والمصير المشترك بين كل الجزائريين، تحت سماء وطن واحد، لا يقبل التجزئة مهما كانت النعرات العرقية والدعاوى الجهوية.

⁽¹⁾ وزارة الإعلام والثقافة، كيف تحورت الجزائر، الذكرى 25 لثورة نوفمبر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979، ص: 54.

⁽²⁾ الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، محمد زرمان، رسالة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 1994، ص: 21.

وتجسيدا لهذا الشعار (العربية لغتنا) عملت الجمعية جادة على نشر الثقافة العربية الإسلامية، وإحياء التعليم العربي، وبثه في صفوف الناشئة، ونشره في كتاتيب القرآن، وإنشاء المدارس العربية الحرة التي لا تتبع للإدارة الاستعمارية، والعمل على نشر الصحف والنوادي والجمعيات الأدبية، حفاظا على كيان الأمة والدفاع عن مقوماتها، حيث تبرز اللغة العربية بمختلف وظائفها في قلب هذه العملية لتثبت أنها لغة تبليغ وتواصل وحضارة وإبداع، بها عُرف الإسلام، وبه تشرفت، وارتفعت إلى قمة التكريم، حين حمل البيان رسالة الله إلى الناس قرآنا معجزاً، وآيات بينات، ووحياً يتزل من السماء، فكان إحيائها إحياء للدين في نفوس أهله، وبيائها بياناً لمحاسنه، ومعرفتها معرفة لأحكامه، والاطلاع على تعاليمه. يقول ابن تيمية رحمه الله: (اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب؛ فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية)، ومما سببه ذلك السبيل قول ابن باديس: «... لا بقاء للإسلام إلا بتعليم عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه، ولا تعليم له إلا بتعليم لغته...»⁽¹⁾

ولغته هي العربية، شعار الدين ووعاؤه، ولغة القرآن الكريم الذي لا يتعبد بتلاوته إلا بها، تلك التي أثبتت - بما لا يدع مجالاً للشك - عمق علاقتها بالقيمة الاجتماعية للإنسان، وهي المتأتية من العلاقة الوثيقة بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ولأجل هذا كانت من شعائر الدين، وكان المساس بها، أو احتقارها احتقاراً للدين وللقرآن الذي أنزل بها، ومحاربتها محاربة للدين، وقد جاء عن عمر رضي الله عنه أنه قال: (تعلموا العربية فإنها من دينكم). كما جاء عن ابن تيمية قوله: (اللسان العربي شعار الإسلام وأهله، واللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميزون).

⁽¹⁾ «آثار ابن باديس»، عمار طالبي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط3، 1997، (126/4) بتصرف.

وعليه فالعربية في ذهن الجزائري رديفا لعقيدته، وصورة لدينه، ورمز لأصالته ونسبه، وهويته الجنسية، ومن أهم العناصر المكونة لشخصيته الوطنية، ومن ثمة كان من الطبيعي أن تكون هذه اللغة للأمة العربية الركن الثاني للهوية الوطنية بعد الإسلام، ومصدر اعتزازها، ومستودع أمجادها وآثارها . ولا يحق للفرد العبث بهذه الشخصية، لأنه يعبث بالدين واللغة وبتاريخ طويل من إنجازات هذه الأمة كلّها. وأصبح التزامها وتعلمها وإتقان قواعدها والعمل بأصولها أمراً مقدساً.

فكان هذا التشریف الإلهي للغة العربية، آية على كمالها وقدرتها على حمل المنهج الإلهي إلى البشر أجمعين، وكأنها شهادة تقدير من السماء، تضاف إلى رصيد هذه اللغة الجليلة، وهي في الوقت ذاته رسالة موجهة إلى أهل الأرض من أبنائها بضرورة الحفاظ عليها، والتمسك بها⁽¹⁾. والاعتزاز بها قولاً وعملاً، كما كان الحال عند علمائنا القدامى، الذين وقرحبها في قلوبهم، وصدقه عملهم.

ولما كانت هذه منزلة العربية من دين الإسلام؛ فإن الاستعمار وأعوانه كرسوا حربهم لها، وسلقوا ألسنتهم بتحقيرها وتصغيرها، وسنوا أقلامهم لنقدها وتحقيرها؛ لأنها لسان القرآن وبيانه. ولعلمهم أنها وعاء الإسلام وشعاره، كان تنفير الناس منها، وصرْفهم عنها ما هو إلا صرف عن كتاب الله وعن دين الإسلام.

وقد فطنت جمعيّة العلماء لمكائد الاستعمار؛ وسياسته البغيضة، فعملت بحزم وإصرار على إفشالها، وهو ما يتجلى في قول رئيسها الشيخ عبد الحميد بن باديس: «قد فهمنا -والله- ما يراد بنا، وإنا نعلن لخصوم الإسلام والعربية أننا عقدنا على المقاومة عزمنا، وسنمضي -بعون الله- في تعليم ديننا ولُغتنا، رغم كلِّ ما يصيبنا، ولن يصدنا عن ذلك شيء، فنكون قد شاركنا في قتلها بأيدينا.

(1) أم اللغات، سعيد أحمد بيومي، مرجع سابق، ص: 28.

وإننا على يقين من أنّ العاقبة - وإن طال البلاء - لنا، وأنّ النصر سيكون حليفنا، لأننا قد عرفنا - إيماناً -، وشاهدنا - عياناً - أنّ الإسلام والعربية قضى الله بخلودهما، ولو اجتمع الخصوم كلهم على محاربتهما»⁽¹⁾

وعلى عماد هذه الحقيقة، والقناعة الراسخة، قام المشروع اللغوي لجمعية العلماء، التي عملت جاهدة على إعادة إحياء الحرف العربي، ونشره على نطاق واسع، بعدما أوشك على الاندثار، عودة لا بد منها، فهي عودة إلى الشخصية الحضارية الماضية، فهي أيضاً تحقيق وتجسيد للوجود القومي والكيان السياسي، وكثيراً ما يبلغ هذا الاهتمام والاعتزاز باللغة القومية مبلغاً هاماً. وذلك بسبب سياسة تشجيع اللهجات المحليّة، على حساب لغة الضاد، ومحاولة إحلال اللغة الفرنسية مكانها، بتدريسها في المدارس الجزائرية.

ولعل أخطر القرارات في محاربة نشاط الجمعية، كان قرار الإدارة الفرنسية الصادر في 8 مارس 1938 القاضي بعدم جواز افتتاح المدارس العربية التابعة للجمعية، بهدف عرقلة التعليم العربي الحر، وقد وصف فرحات عباس هذا القرار: " بأنه ضربة قاتلة للدين الإسلامي "، وفي نفس السنة أصدر الوالي العام في الجزائر منشوراً إلى رؤساء الأقاليم، يقضي بإلقاء القبض وسجن كل طالب ينتسب إلى جمعية العلماء، أو قيامه بالدعاية لأفكارها.

وفيما يلي أهم النقاط التي توجز وسائل تنفيذ سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، ومدى محاولاتها للقضاء على نظام التعليم العربي الحر:

1 - التشدد في منح رخص التعليم للمعلمين وهيئات التعليم، واشتراط الإدارة الفرنسية على المعلمين وجوب الحصول عليها من طرفها، وذلك وفق شروط ومضايقات صعبة للغاية بهدف القضاء على نظام التعليم العربي الحر.

⁽¹⁾ انظر: «آثار ابن باديس» (4/126) و(6/312) ..

2 - لم تكتف الإدارة الفرنسية بمحاربة تعليم الجزائريين، بل قامت باضطهاد المعلمين الأحرار في التعليم العربي الحر، واعتقال الكثير منهم وتقديمهم للمحاكم، بحجة انتهاكهم للقوانين، وهو ما يقتضي تسديد غرامات مالية، وأحيانا غرامات وسجن.

3 - إغلاق المدارس العربية الحرة، بعد سحب رخص التعليم منها بعد فترة وجيزة من افتتاحها رسميا.

4 - منع العلماء المصلحين من التدريس في المساجد والجوامع التي أنشأها الشعب الجزائري.

5 - عملت فرنسا على نشر الأمية بين أوساط المجتمع الجزائري، ومحاربة اللغة العربية في المدارس والكتاتيب، وهو ما يعني حرمان الشعب الجزائري من حقه في التعليم، واستعمال كل الوسائل في إبعاده عن هويته وأصالته وشخصيته الجزائرية لدججه في الحضارة الفرنسية.

وعلى الرغم من هذه العراقيل والمعوقات، لم تستسلم الجمعية لتهديدات الاستعمار وعقوباته وقوانينه الجائرة، بل لم يزد لها ذلك إلا إصرارا على موقفها والدليل على ذلك ما حققته الجمعية من نجاحات هامة وأعمال مجيدة للشعب الجزائري، والتي تعد من الغايات الكبرى والمؤشرات الدالة على نجاح وأهمية مشروعها اللغوي، بأبعاده وغاياته المتعددة، نذكر منها :

1- إنشاء مؤسسات التعليم والثقيف، كبناء المساجد، والمدارس الحرة، وتأسيس النوادي والكشافة الإسلامية وبعض الهيئات والمنظمات الفنية والرياضية والخيرية في الجزائر وفرنسا.

- الاهتمام بالمنظومة التعليمية حيث أسست الجمعية في فترة لا تتجاوز العقدين من الزمن نحو مئة وخمسين من المدارس الابتدائية لتعليم اللغة العربية والدين الإسلامي.

- بناء الكثير من المساجد في أنحاء القطر، لأداء الشعائر وإلقاء الدروس والمحاضرات الدينية.

- إنشاء العشرات من النوادي في مختلف مدن وربوع الجزائر، وحتى في مدن فرنسية، يتم فيها إلقاء المحاضرات العلمية والدينية والاجتماعية⁽¹⁾

وهكذا انتشرت الجمعية عشرات الآلاف من أبناء الجزائر من الجهل والأمية، بعد أن اختار علماءها المنهج التعليمي التربوي الإصلاحية في خوض معترك النضال. وهو التوجه الذي عبر صاحبه عن مضمونه في جريدة البصائر بالقول إن: « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين جمعية إسلامية في سيرها وأعمالها، جزائرية في مدارها وأوضاعها، علمية في مبدئها وغايتها، أسست لغرض شريف، تستدعيه ضرورة هذا الوطن، وطبيعة أهله، ويستلزمه تاريخهم الممتد في القدم إلى قرون وأجيال، وهذا الغرض هو تعليم الدين، ولغة العرب التي هي لسانه المعبر عن حقائقه، للكبار في المساجد التي هي بيوت الله، وللصغار في المدارس على وفق أنظمة لا تصادم قانونا جاريا، ولا تتراحم نظاما رسميا، ولا تضر مصلحة أحد، ولا تسيء إلى سمعته، فجميع أعمالها دائرة على الدين، والدين عقيدة، اتفقت جميع أمم الحضارة على حمايتها وعلى التعليم والتعليم مهنة، اتفقت جميع قوانين الحضارة على احترامها وإكبار أهلها »⁽²⁾.

(1) ينظر: تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص 121

(2) منشور لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، نشر في جريدة البصائر عدد 160 الصادرة في 07 أبريل 1939.

والنتيجة التي يمكن أن نستخلصها مما تقدم هي ما جاء على لسان الدكتور تركي رابح عمامرة، وهو أحد أكثر الباحثين اشتغالا على تراث الجمعية من: (أن جمعية العلماء لعبت دورا بالغ الأهمية في التاريخ الجزائري الحديث، بل لا نغالي إذا قلنا إنها المنظمة الوطنية، التي إليها يعود الفضل في بقاء الإسلام والعروبة في الجزائر حتى اليوم، وتجنب الجزائر من مخاطر سياسة الإدماج والفرنسة، التي كان يدعو لها بعض الجزائريين في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين، ويعمل الاستعمار من ناحية على فرضها على الجزائريين بكل الوسائل الشيطانية منذ الأيام الأولى من الاحتلال).

أبعاد المشروع وغاياته:

انطلاقا مما تقدم يمكن أن نستخلص أن المشروع اللغوي في فكر أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، هو مشروع متعدد الأبعاد، لا يتوقف عند حدود الدفاع عن اللغة العربية، والحفاظ عليها وحمايتها، وتعزيز مكانتها كأحد أهم مقوم للهوية الوطنية، بل هي أداة للنهوض والتقدم وطريق للتفكير. وإن كان ذلك واجبا شرعيا وقوميا، لكن المتبوع لهذا المشروع يلاحظ أنه يحمل أبعادا كثيرة، يمكن الإشارة إليها فيما يلي:

البعد الحضاري:

وهو البعد الذي يمكن أن نستلهمه من قول الشيخ البشير الإبراهيمي، وهو يعتز بلغته العربية: « إن العربية لم تخدم مدينة خاصة بأمة، وإنما خدمت المدينة الإنسانية العامة، مدينة الخير، والنفع العام، ولم تخدم علما خاصا بأمة، وإنما خدمت العلم المشاع بين البشر بجميع فروع النافعة... إن هذا فضل لغتك على المدينة الإنسانية، وفضلها على الأمم غير العربية، وأما فضلها على الأمم العربية فإنه يزيد قدرا وقيمة عن فضلها على الأمم الأخرى، .. لأنها أصبحت

عربية بحكم الإسلام ولغة الإسلام»⁽¹⁾. لذلك كان جديراً بالأهم الراقية أن تنشأ الارتقاء العام في ثوبها اللغوي، وأن تكون راقية في شتى جوانب شخصيتها القومية، وفي طليعة ذلك العنصر اللغوي، ذلك أن اللغة هي الإنسان، وهي حياته اليومية وشخصيته التاريخية ماضياً وحاضراً.

البعد الوطني:

بات من الثابت أن اللغة مكون أساس من مكونات السيادة والاستقلال الوطني، وأن مكانة الأمة بين الأمم تقاس بمكانة لغتها، ولقد ذهب المفكرون إلى أن اللغة هي الصفة الثابتة للأمة، والتي لا تزول إلا بزوال الجنسية، وانسلاخ الأمة من تاريخها. ومن الخطأ الفادح فصل الوطنية عن اللغة الخاصة بأمة من الأمم، يجب أن تتضامن الجهود الفكرية على اختلافها، وتتعاون في هذا السبيل ليكون للدراسات اللغوية طابع قومي يخلق الوعي اللغوي والوعي عامة.

ونتيجة لهذا الدور الهام الذي تلعبه اللغة في تثبيت هوية الأمم، ينصرف المستعمر إلى إبعاد الشعوب عن لغتها. لذلك فإن الشعوب الواعية ترفض المساومة على لغتها، أو إضعافها، باعتبارها واحداً من أهم مكونات سيادتها واستقلالها. وهو ما يعني أن اللغة تسير جنباً إلى جنب مع الاستقلال، فالشعب الذي يفقد استقلاله يفقد لغته بصورة آلية، وحتى إذا لم يفقدها فلا يمكن أن يكون له أدب أو ثقافة أو شخصية يعتز بها، كما أن الذي يفقد لغته ينتهي به الأمر إلى التناسي والذوبان. يقول ديمقراطوس: «الأمم المغلوبة التي تفقد لغتها تندمج وتذوب في جنس اللغة الغالبة»⁽²⁾

(1) المختار في الأدب والنصوص والنقد والتراجم الأدبية، ص: 274.

(2) مجلة الأصالة، الدين واللغة، عدد: 65، ص: 106.

- وحدة الشعب والأمة:

تبرز اللغة كواحد من أهم مكونات وحدة الشعب والأمة، من منطلق أن أفراد المجتمع ليسوا مجموعة من الناس تعيش في بقعة واحدة فقط، بل هم وحدة الشعور والسلوك والوجدان والإرادة والهدف، وهي الوحدة التي لا تبنيتها إلا اللغة، التي تنقل المشاعر والأحاسيس، وتجسد الإرادة، وتعبّر عن الأهداف. ولذلك فإن اللغة هي أساس وحدة الشعب والأمة، خاصة الأمة العربية التي يسعى أعداؤها إلى إبعادها عن لغتها، واستبدالها بلهجات عامية هجينة لتقطيع أواصر وحدتها. لذلك فإن الدفاع عن اللغة العربية هو دفاع «عن أدق ما في وجدان الأمة، وإن سيادة الأمة تتطلب سيادة اللغة القومية»⁽¹⁾، والوحدة الوطنية للشعب الواحد. ودفاع عن الوحدة القومية في إطار الأمة كلها.

البعد التعليمي:

هناك بعد آخر هام من الأبعاد التي يحملها مشروع البعد اللغوي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، هو البعد التعليمي، ذلك أن حياة اللغة وتطورها وبقائها لا يتم إلا بتعلمها وتعليمها، ومن أجل ذلك سعت جمعية العلماء لإصلاح الواقع التعليمي في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر. مما يعكس أهمية الحضور الفعلي للغة العربية في المجتمع الجزائري، لذلك تسعى الدولة عادة إلى تعليم اللغة القومية الواحدة لمواطنيها، وهي وظيفة هامة للغاية، لأن اللغة دليل وجود المجتمع.

⁽¹⁾ في الفلسفة اللغوية، محمد كمال يوسف الحاج، بيروت، 1967، ص: 176.

البعد التنموي:

امتدادا للبعد التعليمي للمشروع اللغوي، يأتي البعد التنموي، حيث دلت الدراسات والبحوث وتجارب الأمم، على أن توطين المعارف والعلوم باللغة الأصلية لأية أمة، هو من أهم أسباب نهضتها العلمية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

البعد التربوي: ارتباطا بالبعد التعليمي، يأتي البعد التربوي للمشروع، ذلك أن لكل لغة أخلاقها وآدابها، فاللغة في مفرداتها تحمل دلالات أخلاقية، تشكل في مجموعها منظومة أخلاقية كاملة، وهي أبرز ما تكون في اللغة العربية. ولعل ذلك ما دعا عمر بن الخطاب أن يكتب لولائه قائلا: ((خذ الناس بالعربية، فإنها تزيد بالعقل، وتثبت المروءة))، ومن الطريف

ما ذكره الباحثون أن من أسباب حالة الانهيار الأخلاقي في مجتمعاتنا، هو ابتعاد الناس عن لغتهم العربية، لذلك فإن الدفاع عن اللغة العربية هو دفاع عن الأخلاق الحميدة للأمة. فكل تربية صحيحة سليمة، ثقافية وخلقية، أو اجتماعية لغوية لا يمكن أن تقوم إلا على أساس اللغة القومية الأصلية والتي هي القوة الطبيعية الأولى اللازمة للأمة. «إن ضمان استمرار الأمة متوقف كل التوقف على هذه التربية»⁽¹⁾.

البعد الاجتماعي:

يأتي الدفاع عن أخلاق الأمة في إطار بعد آخر للمشروع، وهو البعد الاجتماعي، ذلك أن اللغة ليست مجرد وسيلة للتواصل، لكنها نظام اجتماعي متكامل، يربط أبنائها باعتبارها أداة للتنشئة والتربية للفرد، ونمط شخصيته، وأسلوبه في التفكير، كما أنها وسيلة لتنمية العادات الحميدة، والسلوك

⁽¹⁾ مجلة الأصالة، عدد: 65، ص: 110.

الاجتماعى لأفراد المجتمع، وأنها من أهم مكونات الذوق العام للمجتمع، ويؤكد الكثير من المهتمين أن من أهم أسباب ما يعانيه مجتمعنا من تخلف اجتماعى، وغياب الذوق العام، عن سلوك بعض أبناء المجتمع، ومن تراجع الذائقة الفنية في مجتمعنا إنما يعود إلى الابتعاد عن اللغة العربية الفصيحة، لذلك فإن الدفاع عن اللغة العربية هو دفاع عن نظامنا الاجتماعى. وسعى لبناء الذوق العام لمجتمعنا، ولذائقتنا الفنية.

البعد الفكري والثقافي:

كثيرة هي الأبعاد التي ينطوي عليها مشروع الدفاع عن اللغة العربية وحمايتها، غير أن البعد الفكري والثقافي يأتى في مقدمتها، ففكر الأمة وثقافتها هما عماد وجودها وتميزها، واستقلالها، واللغة هي فكر الأمة وثقافتها، ووسيلة التعبير عن هذا الفكر وهذه الثقافة، ولذلك فإن مشروع الحفاظ على اللغة العربية، هو دفاع عن فكر الأمة وثقافتها التي تمثل اللغة العربية عمادها الفقري، حيث تميزت هذه اللغة ببعد القداسة، باعتبار العربية تمييز عن غيرها من اللغات بقدسيته وعالميتها. فهي لغة كل مسلم موحد مهما كان عرقه. فلا تجوز صلاة لمسلم وتلبية أو قراءة للقرآن الكريم بغير اللغة العربية، لذلك فإن كل المسلمين مأمورون بتعلمها والدفاع عنها، لذلك يقول الرسول ﷺ: ((تعلموا العربية وعلموها الناس))، وهذا البعد من أبعاد المشروع للحفاظ على اللغة العربية، يستوعب كل الأبعاد الأخرى، ويجعل نجاحه ووصوله إلى أهدافه واجبا شرعيا ووطنيا وقوميا على كل فرد من أفراد الأمة.

ضرورة تفعيل المشروع :

مشروع جمعية العلماء المسلمين لا يزال إلى اليوم بحاجة إلى تفعيل، والواقع هو الذي يؤكد هذا من كل النواحي، العلمية والفكرية والاجتماعية والحضارية، لأجل أن نواكب العصر بكل أبعاده، بلغة جميلة تهفو إليها النفوس العربية الأصيلة، وتطمئن لها الأئمة بسماحتها، لغة نطق بها القرآن الكريم، وتوارثتها الأجيال، وناضل من أجلها الأسلاف، ودافعوا عنها لتكون سيدة بين أهلها:

لو لم تكن أم اللغات هي المنى لكسرت أقلامي وعفت مدادي⁽¹⁾
لغة إذا وقعت على أسماعنا كانت لنا برداً على الأكباد
ستظل رابطة تؤلف بيننا فهي الرجاء لناطق بالضاد

وليس ذلك بعجيب، أن تحظى اللغة لدى علماء جمعيتنا بالقدر الذي كانت تحظى به لدى أسلافهم، وأن تتبوأ مقاما أثيرا من اهتماماتهم، وأن تعكس بوضوح قناعتهم وإيمانهم بأنها ركيزة أساسية من ركائز هوية المجتمع الجزائري، ومصدر اعتزازه بذاتيته الحضارية، في الماضي والحاضر والمستقبل.

ولعل السبب أن جمعية العلماء المسلمين تأسست لبعث نهضة شاملة وتحقيق مشروع مجتمع قائم على ركائز الهوية الوطنية، والانتماء الحضاري للشعب الجزائري في مواجهة المشروع الاستعماري العنصري التغريبي، فكانت ركائز هذا المشروع هي (الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا)، ولا شك أن أكبر التحديات التي تواجهها المجتمعات النامية أو المتخلفة في عصر العولمة - حاليا - هي مخاطر ضياع الهوية، وتفتت المجموعة الوطنية إلى

⁽¹⁾ قصيدة اللغة العربية للشاعر حلیم دموس، وهو شاعر لبناني، ت 1957، ينظر الوسوعة الكبرى للشعراء العرب، مطبعة أنفوبرايت، فاس، 2009.

كـيانات طائفية أو عرقية متناحرة، فمشروع جمعية العلماء قائم على نشر العلم وأخلاقه المجتمع، ويمثل هذان العنصران الضمانة الحقيقية لنهضة المجتمعات وتقدمها في مسيرة الرقي الحضاري، والتطور الاجتماعي والازدهار الثقافي.

البعد اللغوي في نشاط ج.ع.م.ج داخل المعتقلات

أثناء الثورة التحريرية

- معتقلو أفلو وبوسوي أنموذجان -

د. شاطو محمد [خ. معسكر]

كانت وستظل تجربة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين رائدة في مجال الإصلاح الديني والثقافي والإجتماعي، بعيداً عن التزمت والتعصب وكراهية الآخر ممن يخالف منهجها، وستظل تجربتها في مجال التربية والتعليم العربي مصدر إلهام لبناء الأجيال الصاعدة على التمسك بالأخوة وحب الوطن والالتزام بالأخلاق الفاضلة. وستظل شعاراتها المعبرة عن مكونات الشعب الجزائري ومقوماته خالدة خلود الجزائر بين الأمم.

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب.

الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا.

لم يُنطق بهذه الشعارات عبثاً، بل كانت بمثابة الركائز الأساسية لتحديد الهوية بنظرة مستقبلية طموحة تحمي الأجيال المتتالية من الضياع والتشتت والتهيه والتفكك والانقسام.

ولأدّل على ذلك ما جاء في التقرير الأدبي الذي ألقاه الشيخ عبد الحميد بن باديس بدار جمعية التربية والتعليم صبيحة يوم الأحد 28 ماي 1939م، قوله: إننا شعب خالد ككثير من الشعوب، لكننا نصف التاريخ إذا قلنا: إننا سبقناها

في ميادين الحياة، سبقناها بهدايتنا، ونشرنا بينها الشريعة الحقة قبل أن تتكون هذه الأمم، وسبقنا هذه الأمم في نشر الحق، أيام كانت في ظلمات من الجهل حالكة،.... وإنما علينا أن نعرف تاريخنا، ومن عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة لا ثقة به في هذا الوجود، ولا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر والمستقبل السعيد، إلا هذا الحبل المتين: اللغة العربية، لغة الدين، لغة الجنس، لغة القومية، لغة الوطنية المغروسة. إنها وحدة الرابطة بيننا وبين ماضينا، وهي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا، وبها يقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين أرواحهم بأرواحنا. وهي وحدها اللسان الذي نعزّز به، وهي ترجمان عمّا في القلب من عقائد وما في العقل من أفكار، وما في النفس من آلام وأمال. إنّ هذا اللسان العربي العزيز الذي خدم الدّين، وخدم العلم، وخدم الإنسان، هو الذي نتحدث عن محاسنه منذ زمان، ونعمل لإحيائه منذ سنين، فليحقق الله أمانينا."

هذه المبادئ التي غرسها الشيخ عبد الحميد بن باديس في نفوس أتباعه، كانت تتجسد في سيرهم فيعيشون بها، ويعملون على نشرها من خلال نشاطهم الدعوي والتعليمي الذي يزاولونه في يومياتهم.

أثناء الثورة التحريرية 1954 - 1962 التي ضيّق خلالها على نشاط الجمعية كباقي الأحزاب السياسية، وُزجَ بأعضائها في غياهب السجون والمعتقلات؛ لم ييأس علماؤها ولم يستسلموا للأمر الواقع يومها، بل اتخذوا من المعتقلات فضاءات للتربية والتوعية والتعليم بحلّة تبرز محاسن اللغة العربية وجمالها؛ في وقت اتخذت السلطات الاستعمارية من سياسة الاعتقال وسيلة للنيل من قوة الثورة وسرعة انتشارها.

وللتعرف على هذه السياسة يجدر بنا تناولها فيما يلي:

- سياسة الإعتقال أثناء الثورة:

اندرج الإعتقال أثناء الثورة التحريرية ضمن قانون الطوارئ، الذي تزامن مع وصول جاك سوستيل الى الجزائر، وسعياً منه الى القضاء على الثورة الجزائرية، طالب الحكومة بتدعيم الجهاز القمعي في الجزائر، وذلك بإصدارها لمشروع قانون الطوارئ الذي صودق عليه في فترة قياسية، وتم ذلك بتاريخ 03 أفريل 1955، وذلك بعد أن عقد المجلس الوطني الفرنسي دورة استثنائية، ويتضمن هذا القانون ما يلي:

- إنشاء المحتشدات في المناطق النائية.

- إعطاء صلاحيات واسعة للسلطات العسكرية، بحيث يحق لها إعتقال الجزائريين ونفيهم ووضعهم تحت الإقامة الجبرية من قبل المحاكم العسكرية.

- السماح للشرطة باعتقال أي شخص دون الحصول على الموافقة من الجهات القضائية.

- إنشاء جهاز للشرطة الريفية المتنقلة.

- منع تحرك الأشخاص والسيارات إلاّ بعد الحصول على الإذن من طرف السلطات الحاكمة.

وباختصار فإنّ قانون الطوارئ يعني: نقل السلطات من الجهات القضائية والإدارية الى الجيش ليصبح هو السلطة الفعلية في البلاد.

فكانت المادة 06 من قانون 03 أفريل 1955 تقضي باعتقال كل شخص يشكل خطراً على الأمن والنظام العام. ومن هنا تكثفت عمليات الاعتقال التي مسّت كل شرائح المجتمع الجزائري.

وهكذا كانت المعتقلات تضم بداخلها شرائح شتى من الجزائريين كباراً وقُصراً، شيوخاً وشباباً، مثقفين، أميين، نقابيين، حرفيين، منهم المحامي. المهندس. الطبيب. الأستاذ. المعلم. الفلاح. البناء. اللحام. الحلاق. التاجر. الراعي. العالم. الفقيه. المناضل - السياسي... كل فئات الشعب. بحجة دعم الثورة والتعاون معها، ولو بكلمة واحدة، أو بالتلميح فقط. فكان أعضاء جمعية العلماء ضمن المستهدفين الأوائل في حملات الاعتقال لما لهم من تأثير في المجتمع. أما أسباب الاعتقال التي نصّ عليها قانون الطوارئ فيمكن تلخيصها فيما يلي:

- نقل معلومات الى الفلّاقة (المجاهدين).
- تشكيل مجموعات إرهابية، أو الانتساب إليها.
- عقد اجتماعات سياسية.
- ربط صلات مع الفلّاقة (المجاهدين).
- الإضراب عن العمل استجابةً لدعوة جبهة التحرير.
- القيام بالدعاية ضد فرنسا.
- الانخراط في صفوف جبهة التحرير.

يوميّات علماء الجمعية داخل معتقلي بوسوي وأفلو:

1 - التعريف بمعتقل بوسوي:

بوسوي: أطلق هذا الاسم على معتقل جبال الضاية تخليداً لمآثر فرنسا في الجزائر، وقد ولد (بوسوي) في منطقة (ديجون) بفرنسا سنة 1627م، وتوفي سنة 1704م. وكان أسقفاً ب (مو)؛ حيث اشتهر بمواعظه وتأيينه الفصيحة في المجتمع المسيحي الكاثوليكي، وله مؤلفات في (اللاهوت) والفلسفة والتاريخ. يقع هذا المعتقل الذي سمي باسمه جنوب سيدي بلعباس، على مسافة 15 كلم جنوب مدينة تلاغ، وهو عبارة عن ثكنة عسكرية داخل جبال

الضاية، بُنيت في عام 1845م. وكان معتقلاً للسياسيين الجزائريين في الحرب العالمية الثانية، بحيث لا يرى من داخله من المعتقلين إلا السماء، ورؤوس الجبال، وتُحيط به الغابات من كل جهة.

فتح أبوابه للمعتقلين في 16 أوت 1955، وجميع من كانوا فيه جاءوا من معتقل (ماجانطا) و(بيدو)، وآخرون جيء بهم من الأوراس والشرق الجزائري عامة، وهو يتسع لنحو: 1800 شخص.

2 - التعريف بمعتقل أفلو:

معتقل (أفلو) يقع حالياً في ولاية الأغواط، وقد خصصته فرنسا في البداية لقادة الحركات السياسية والإصلاحية، ونقلت إليه بعضاً من معتقل (الجرف) ثم نقلت من به إلى معتقل (بوسوي)، وهو الذي نفت إليه فرنسا الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أثناء الحرب العالمية الثانية، ولم يحضر وفاة رفيق دربه الشيخ عبد الحميد حين وافته المنية في سنة 1940.

لقد احتضنت أفلو واحداً من أكبر المعتقلات التي أوجدها الاستعمار الفرنسي منذ ما قبل الثورة التحريرية؛ وبعد اندلاعها سيق إليه عدد كبير من أعضاء الجمعية وآخرون مؤيدين لفكرها نذكر منهم: الشيخ عبد القادر الياجوري، ومحمد الصالح عتيق، وعبد الله ركيبي، والدكتور كربوش سعيد الذي كان يؤمهم في الصلاة، ودمان دبيح عبد الله، وبوشامة عبد الرحمان، ومازري،... وغيرهم كثير من سياسيين ومثقفين ونقابيين ممن لا نعرفهم ويأبى التاريخ إلا أن يخلدتهم.

معتقل أفلو لا أثر يدل على وجوده في الوقت الحاضر، إذ أزيلت كل معالمه، وكل أثر يدل عليه، وأقيمت مكانه محكمة، ومركز مالي، ومدرسة ابتدائية. وقد حاولنا إيجاد، ولو جدارٍ واحدٍ يدل عليه، لكننا لم نعثر على أي شيء.

3 - واقع المعتقلين في أفلو وبوسوي:

اعتمدنا في معرفتنا لحياة المعتقلين ولا سيما الدور الذي تحمّله أعضاء ومشايخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على عواتقهم داخل هذين المركزين على الشهادات الحيّة التي أدلى بها إلينا أصحابها ممن عاشوا حياة الاعتقال في معتقلي بوسوي وأفلو.

فالشهادة الشفوية التي اعتمدناها في هذا القسم من بحثنا تعتبر - في اعتقادنا - جزءاً هاماً مدعماً للوثيقة، لا يمكننا الاستغناء عنه.

[يقول في هذا الصدد المؤرخ الفرنسي: لي روي لادوري Leroy Ladurie أنّ "فضاءات البحث الجديدة" التي يتعاطى معها المؤرخ تعطيه كل الحق لاستخدام الشهادة الشفوية كمصدر تاريخي.

كما أنه ليس من السهل في بعض الحالات القفز على الشهادة الشفوية التي تعتبر تارة مكملة للمصدر المدون (أرشيف)؛ وتارة أخرى تكون فيها الشهادة الشفوية مصدراً بعينه في حال إتلاف المصدر المدون بقصد أو بدون قصد، أو عند غياب الوثيقة المكتوبة].

كان معتقل بوسوي ومعتقل أفلو يُسيران بنظام خاصٍ يختلف عن نظام السجون يمكننا التعرف عليه فيما يلي:

- إدارة المعتقل يشرف عليها Commandant-Capitaine

- يضم المعتقل نفسانيين يقدمون دروساً للمعتقلين بغية استدراجهم وتغيير قناعاتهم.

- يشرف على المعتقلين داخل المعتقل لجنة منتخبة من طرفهم تدعى اللجنة المديرية.

- رئيس اللجنة المديرية هو حلقة الاتصال بين المعتقلين وإدارة المعتقل، فهي الوحيدة المخوّل لها صلاحية الاتصال والحوار معهم.

مهام اللجنة المديرية:

- الإشراف على عملية التعليم والثقافة العامة.
- الإشراف على فك النزاعات بين المعتقلين.
- الإشراف على رفع معنويات المعتقلين.
- الإشراف على الإضرابات.
- الإشراف على الإعلام وذلك بتوزيع الجرائد الفرنسية التي كانت تدخل، وإيصال منشائر جبهة التحرير الوطني التي كانت تدخل بطريقة سرية.
- التصدي لما كانت تذيبه مكبرات الأصوات من طرح لأنصاف الحلول التي تقترحها الادارة الاستعمارية على جيش وجبهة التحرير كسلم الشجعان مثلاً.
- التصدي للمخبرين المدسوسين الذين تجندهم الإدارة الاستعمارية سراً وسط المعتقلين، فتتولى لجنة التأديب تحديد العقوبة المناسبة والتي تصل الى حد القطيعة التامة فيكون الإحباط النفسي والانهيار العصبي.
- الاتصال بلجان الصليب الأحمر التي تزور المعتقل فتدلي لهم عن حالة المعتقلين، ومعاناتهم.

اللجان الفرعية:

تتفرع اللجنة المديرية الى لجان فرعية أهمها:

- اللجنة الفرعية المشرفة على إبطال مفعول الجهود الاستعماري مع ضعاف النفوس والمتمثل في الإغراءات والتشكيك والترهيب....

- اللجنة الفرعية المشرفة على توزيع الأكل والمساعدات، حيث تقوم بتجميع كل ما يُؤتى به الى المعتقلين أثناء الزيارات ثم يتم توزيعه عليهم بالسوية.

- اللجنة الفرعية الخاصة بالإعلام، حيث تشرف على توزيع الجرائد، والبريد الوارد والصادر، والمناشير السرية.

- اللجنة الفرعية الخاصة بالمحاضرات العامة، وإحياء الأعياد الدينية، وإقامة المسرحيات، والحفلات، والتمثيلات.

وللتذكير فإنّ النشاطات الترفيهية كان ينظمها الفريق الكشفي داخل كلا المركزين، كما أنّ شيوخ الجمعية كانوا من العناصر الأساسية ضمن اللجنة المديرية واللجان الفرعية.

4 - التعليم العربي ودور علماء الجمعية داخل المعتقلين

- يشرف على عملية التعليم داخل المعتقل أساتذة ومعلمون منحدرون من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تتمثل مهامهم في:

- نحو الأمية لمن لا يعرفون القراءة والكتابة.

- التعليم الابتدائي.

- التعليم الأهلي (المتوسط).

كان التعليم داخل المعتقل يتمّ باللغة العربية الفصحى، والمراحل التعليمية كانت مستمدة من برنامج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ولكل مرحلة مفتش خاص بها، من المعتقلين ذوي المستوى التعليمي الذي يُمكنهم من القيام بهذه المهمة.

بالنسبة لمعتقل أفلو فقد تمّ تخصيص التخشبية (البراعة) رقم 10 للمطالعة العامة كل يوم ما بين 9سا و11سا عدا الجمعة؛ وتتمثل في الأدب، الشعر، الجغرافيا، التاريخ الإسلامي، القانون، السياسة، علوم القرآن والحديث...

وكان يشرف على هذه العملية التعليمية، أحد الشيوخ الذين نذكر منهم: عبد القادر الياجوري (وادي سوف)، سعيد الصالحي (القبائل)، محمد المجاجي (مازونة)، محمد الصالح بن عتيق هيدوك (ميلة)، حويذق مصباح (طولقة)، أحمد سحنون (طولقة)، أحمد شقار الثعالبي (تبسة)، محمد الشبوكي (تبسة)، دربال محي الدين (وادي سوف)، قادة الشاذلي (تيارت)....

أدوات التعليم:

- الطباشير. الكراريس - الأقلام... ويتم شراء هذه اللوازم من طرف اللجنة المديرة من خلال المساعدات المالية التي تدخل الى المعتقلين عن طريق الحوالات من أهاليهم.

ظهرت ثمرات هذا الجهد بعد الاستقلال حين عيّن خريجو جمعية العلماء الذين تلقوا تعليمهم وتكوينهم داخل المعتقلات وهم يعدّون بالمئات في مناصب مختلفة في الإدارة والتعليم وغيرهما، يملؤون الفراغ الذي تركه المستعمر بعد خروجه من الجزائر.

مراسلات بين أعضاء جمعية العلماء في داخل المعتقل

اخترنا نموذجاً آخر من حياة أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومشايخها وهم داخل المعتقلات ؛ إنها المراسلات فيما بينهم، وهم قرييون من بعضهم، محاطون بالسيّاج والأسلاك الشائكة والحراسة المشدّدة من كل جانب.

كان يحدث ذلك في معتقل بوسوي الشهير.

هذه المراسلات عبارة عن قصائد شعرية، كان يتبادلها أصحابها فيما بينهم، رغم التقارب الجسدي الذي كان يجمعهم، وكانت قصائدهم تُقرأ على المعتقلين في جلساتهم وندواتهم، باللسان العربي الفصيح، فتترك آثارها الإيجابية على الجميع.

من جملة هؤلاء؛ نجد أحمد سحنون، وهو أحد أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كما كان بنفس المعتقل ثلثة من إخوانه جمعهم الأقدار في الجمعية، وفي داخل المعتقلات، فكان منهم: أحمد شقار، وخالد بن يطو. ونفهم من مكاتباتهم فيما بينهم، العلاقة التي كانت تجمعهم، والواقع الذي كانوا يعيشون فيه، والغاية مما يكتبون.

فهذا أحمد شقار ينشد قصيدة في سجن بوسوي بتاريخ 1957.12.03، متحسراً، متألاً على مغادرته المعتقل في اتجاه معتقل سيدي الشحمي، على فراق الأصحاب والأحباب والرفقاء الذين لظالما عاش معهم أحلى الأوقات كما يصفها هو بقوله:

فأتركوني لغصتي ونحيبي	جاردهوري وافتنى في تعذيبي
وأعاني آلام شقوة دروبي	ودعوني ألم أشتات نفسي
على مهجتي شظايا الخطوب	فلقد جفت المباحج وانقضت
بعد أن كان كتلة من لبيب	إن قلبي قد استحال رمادا
عن إخوة كبار القلوب	كيف لا والزمان جابهني بالين
سوى روضة بقفر جديب	نزتهم يد الإله فما كانوا
ومن خلقهم شذى كل طيب	اجتني من ودادهم كل إخلاص
زانها الزهر بالرداء القشيب	بهم السجن صار جنة عدن
هم وإن كنت غارقا في كروبي	لست أنسى على الزمان مزايا
او يكونوا الأحرار بين الشعوب	لا ولا أستطيع طعم هناء
صخرة في طريق كل هبوب	اخوتي وحُدوا الجهود وكونوا
أن تنجلي غواشي الكروب	وارفعوا صيحة التضرع للمنان
ورجاءٍ ولووعٍ ونحيبٍ	واهتموا في حرارة وابتهاال

أيها الفتية الكرام سلاماً ووداعاً من مستهام كئيب
وإلى الملتقى على ضفة التحرير والاستقلال عمّا قريب

يتبين لنا من خلال هذه الأبيات مدى تعلق المعتقلين ببعضهم البعض، وإنّ مغادرة أحدهم للمعتقل، بقدر ما كان أمنيته التي ينتظرها، بقدر ما يتسبب له في حزن عميق يجده في نفسه، ويعيشه جراء مفارقة زملائه المعتقلين الذين تقاسم معهم الحن مدة اعتقاله ساعة بساعة، حلوها، ومرها. بل كل المعاناة تتحوّل بوجودهم مع بعضهم البعض، مع وحدة هدفهم، وانسجامهم، الى سعادة يحسونها، ويعيشونها. ولعلنا نلمس ذلك بجلاء في الأبيات السّالفة الذكر:

فلقد جفت المباحج وانقضت على مهجتي شظايا الخطوب
كيف لا والزمان جابهني باليين عن اخوة كبار القلوب
بهم السجن صار جنة عدن زانها الزهر بالرداء القشيب

كما أننا نلمس العزيمة القوية لدى المعتقلين على النصر، باتخاذ أسبابه، واليقين القوي بزوال الاستعمار، وبزوغ فجر الحرية والاستقلال، وذلك من خلال قوله:

إخوتي وحدوا الجهود وكونوا صخرة في طريق كل هبوب
أيها الفتية الكرام سلاماً ووداعاً من مستهام كئيب
وإلى الملتقى على ضفة التحرير والاستقلال عمّا قريب

وهذا أحمد سحنون يخاطب خالد بن يطو في المعتقل بقصيدة شعرية يقول فيها:

تفتح في جو تلبد غيمه فأضحى ووجه الصبح كالليل مظلم
بمعتقل جهم الحيا مقطب فما فيه إلا ما يسوء ويؤلم
ولكن لسحر العبقريّة قوّة عوائقها من نفسها تتحطم

في هذه الأبيات يكاتب أحمد سحنون أحد المعتقلين، وهو صديق له، باعثاً فيه الأمل، يحثه على التصدي لكل العوائق، زارعاً فيه الثقة بنفسه، رغم اعترافه له بحياة المعتقل الصعبة؛ ويحقق مراده الذي نلمسه في الرد الذي كاتبه به خالد بن يطو.

فيرد عليه بأبيات يقول فيها :

أنقذتني من جحيم	سئمت فيه بقائي
فاليأس حطم قلبي	وامتص مني دمائي
وحين قدّمت كأساً	وجدت فيها شفائي
وحين أشرقت نوراً	أبصرت فيه رجائي
وكنت لي كصباح	ودعت فيه مسائي

يعترف خالد بن يطو لصديقه في المعتقل أحمد سحنون بأنه أنقذه من اليأس، والسأم، ويصفه كالصباح الذي ساهم في نشر الضياء عليه، وأنهى عليه حياة الملل، فاندمج مع الرفقاء في وضعهم الجديد.

يتبيّن من خلال هذه القصائد التي كتبها أحمد سحنون، خالد بن يطو، أحمد شقار، وهي شخصيات تنتمي الى جمعية العلماء أنها كانت:

- بُثّ روح الأمل في نفوس المعتقلين.

- تُقوّي العزيمة في النفوس.

- تُوطّد العلاقة بين المعتقلين.

- تُرسّخ الثقة بنصر الله .

- تُقوي اليقين بزوال الاستعمار.

- تُظهر مدى تعلقهم ببعضهم.

- تُؤكد اليقين بقرب الفرج.

لقد لعب أعضاء الجمعية دورهم الفعّال في إبراز جمال اللغة العربية للمعتقلين من خلال قراءتهم للقصائد التي كانوا يكتبونها لبعضهم البعض، في وقت كان معظم المعتقلين يكتبون رسائلهم ويتلقونها باللغة الفرنسية. فكان ذلك خدمة لإحياء مكانة اللغة العربية في وسط المعتقلين وغرسها في نفوسهم.

ساهمت كتابة هذه القصائد بقراءتها في وسط المعتقلين بشكل كبير في ازدياد التآنس ببعضهم البعض، وازدياد المودة والتقارب، والحميمية بينهم، فكانت تتوحد مع الأيام رؤاهم، وتتوسع دائرة الوعي النضالي فيما بينهم.

لذا كانت السلطات الاستعمارية تقدم على نقل مجموعات المعتقلين باستمرار من معتقل الى آخر، حتى لا يُقدّمون على أمرٍ ما من شأنه أن يُشكل خطراً عليها، نتيجة ازدياد التقارب، والثقة فيما بينهم؛ كتنظيم الإضرابات عن الطعام، أو الاحتجاجات، أو محاولات الفرار الجماعي، أو تنسيق العمل مع جيش وجبهة التحرير، الى غير ذلك من التكهّنات التي كانت تثير مخاوف السلطات الاستعمارية.

- نماذج من رسائل المعتقلين تتعلق بأعضاء من جمعية العلماء:

اعتمدنا في هذا الجانب من بحثنا؛ على مجموعة من الرسائل التي وجدناها ضمن التقارير الرسمية والسرية، التي كان يبعث بها مسؤولو المعتقلات الى كبار المسؤولين على مستوى المستعمرة؛ والتي استقينها من مركز أرشيف ما وراء البحر، بأكس - أن - بروفانس، بفرنسا.

انتقينا منها النموذج التالي.

رسالة من زقاوة الحبيب القاطن بمعسكر

الى صديقه سي دربال بمعتقل أفلو.

نص الرسالة مترجمة الى العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

معسكر في 04 أوت 1956

عزيزي سي دربال:

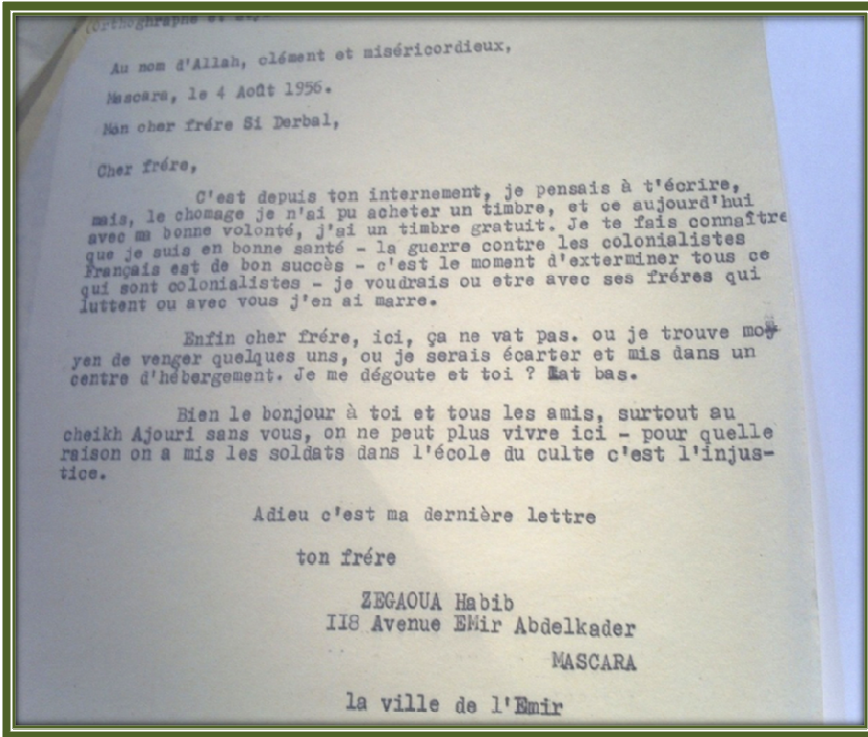
أخي العزيز؛ منذ اعتقالك وأنا أفكر في مراسلتك، لكنها البطالة، لا أجد بما
أشتري به طابعاً بريدياً إلى غاية هذا اليوم، وإرادة قوية، تحصلت عليه مجاناً.
وأحيطك علماً أنني بصحة جيدة.

الحرب ضد المستعمر الفرنسي في نجاح كبير، إنه الوقت للقضاء على كل
ما هو مستعمر.

أريد أن أكون إماماً مع أولئك الإخوان الذين يقاثلون، أو أكون معكم . أنا متذمر.

أخي العزيز تقبل تحياتي، وبلغ سلامي الى كل الأصدقاء، وخاصة الى
الشيخ الياجوري . بدونكم لا نستطيع العيش هنا.

وداعاً هذه آخر رسالة.



أخوك زقاوة الحبيب 118 نهج الأمير عبد القادر - معسكر-

نلاحظ أنّ صاحب الرسالة يؤكد للمرسل إليه، وهو سي دربال، واحداً من أعضاء جمعية العلماء كان معتقلاً في أفلو، تبليغ سلامه الى الشيخ عبد القادر الياجوري، وهو من شيوخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كان يزاول نشاطه التعليمي والإرشادي قبل اعتقاله بمدينة معسكر، ويؤكد له في نهاية الرسالة قوله: بدونكم لا نستطيع العيش هنا، وفي ذلك دلالة على تعلق الناس برجالات الجمعية وتفاعلهم مع نشاطاتهم في المجتمع.

والدور ذاته يمكن لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين اليوم أن تحييه في أوساط السكان، بدورها الإصلاحية الذي يتخذ من الوساطة سبيلاً ومن الإسلام المعتدل منهجاً، بعيداً عن كل أنواع العصبية وأنواع التحزب،

خاصة إذا ما أشركت الطاقات الوطنية الصادقة، ولا سيما النخبة المثقفة منها التي لا يستهويها العمل السياسي - وما أكثرها- والتي ما تزال جهودها راكدة معطّلة لا تأثير لها في المجتمع، وستبقى كذلك ما لم تُوظّف في سبيل بناء حضاري قائم على مقوّمات الأصالة الجزائرية من دين ولغة عربية ووطنية تجمع ولا تفرق، وهو ما دعت إليه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ تأسيسها في سنة 1931.

إنّ المهمة الرئيسية التي تحمّلها شيوخ الجمعية وأعضاؤها على كاهلهم وهم وراء القضبان الحديدية والحراسة المشدّدة هي: مهمة التدريس باللغة العربية للمعتقلين، والذي كان يشمل: اللغة العربية (النحو - الصرف - الإملاء - الإنشاء - المطالعة) - التربية الدينية - الأناشيد الدينية والوطنية - الحساب - التاريخ - الجغرافيا، وهناك دروس خاصة لتعليم الأميين القراءة والكتابة - إقامة الندوات أسبوعياً، تخصص مناقشة قضايا مختلفة تساهم بشكل كبير في زيادة الوعي بالقضية الوطنية، وقضايا الساعة.

لقد ظهرت ثمار تلك الجهود بجلاء عقب الاستقلال، أين تخرّج المئات من المعتقلين بمستويات مختلفة حسب البرنامج المتبع من طرف رجال الجمعية القائمين على ذلك النشاط (مستوى الابتدائي. الأهلي.)، وكان لهذا كلّ أثره الإيجابي، حيث تصدر هؤلاء وظائف مختلفة في شتى المستويات، وما تزال آثارهم باقية يشهد لها التاريخ الى يوم الناس هذا.

وفي الأخير نختتم بحثنا بقول الشيخ عبد الحميد بن باديس: "إنني أعاهدكم على أنني أقضي بياضي على العربية والإسلام كما قضيت سوادي عليهما، وإنها لواجبات... وإنني سأقصر حياتي على الإسلام والقرآن ولغة الإسلام والقرآن، هذا عهدي لكم."

- آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، المرجع السابق، ص ص 214-215.

البعد اللغوي

في فكر علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

الرؤية والتأصيل

د. بوعلام بوعامر

[ج. غارداية]

مقدمة:

لقد صار في حكم المعلوم بالضرورة أن اللغة ليست ظاهرا من السلوك لا باطن له، أو سطحا من الممارسة لا عمق تحته. فمع تطور العلوم الإنسانية في العصور المتأخرة، وتأثرها بالعلوم الطبيعية، وتشرب نظرياتها بمختلف التيارات الفكرية، ارتبطت الدراسات اللغوية بالفكر، فتعقدت مباحثها، وفتحت لها آفاق لم تكن معهودة من قبل. ومع تنامي النزعات الوطنية، وبروز القوميات في العصر الحديث تواشجت مع الهوية والانتماء الوطني، وصارت اللغة أحد أهم قضايا الفكر والثقافة التي شغل بها المفكرون والفلاسفة والسياسيون.

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومهمة الدفاع عن العربية:

من هنا، ونظرا إلى تزامن إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مع تلك المستجدات والمنعطفات، في نهاية الثلث الأول من القرن الماضي، فضلا عن شعور مشايخها "... بدورها كهيئة وطنية ممثلة للأمة في مطلع الثلاثينات تبنت

الدفاع عن مقومات الشخصية، لأنها أحست بمسؤولياتها في هذا المجال⁽¹⁾ انصرف علماء الجمعية ومشايخها إلى تناول الظاهرة اللغوية تناولاً لافتاً شكّل ركناً أساسياً من أهداف الجمعية. وتظهر خصوصية هذا التناول في كونه يأوي إلى ركن شديد من تأصيل، أساسه فكر قائم على تعدد زوايا الرؤية، وذلك ما أكسب حديث أولئك العلماء في هذه المسألة بُعداً نظرياً وعمقاً تحليلياً، مبرراً من التسطّيح المخل، والخطابة المملّة، وإذا أردنا أن نحلل أبعاد تلك الرؤية أمكننا تفصيلها في الآتي:

البعد الاجتماعي:

من اليسير أن يدرك الإنسان أن اللغة - أيّا كانت - ليست خصيصة عرقية، أو ميزة قبلية، تتمايز بها الأجناس، وتتغير بها الشعوب، تغييراً قاراً ونهائياً، كما تتمايز وتتغير بالملامح والقسمات، لذلك صار من المسلمات والمدركات بالبديهية في اللسانيات أن اللغة الأم ليست معطى وراثياً، ينتقل جينياً من الآباء والأسلاف إلى الأبناء والأحفاد، بل هي معطى اجتماعي، يكتسبه الطفل من البيئة الاجتماعية التي يُغرس فيها، بناءً على استعداد فطري إنساني عام، يؤهله لتقبل أي لغة، تجعله قادراً على مواصلة المجتمع الذين يترعرع في حضنه.

لكن الأعمق من هذا إدراك أن اللغة قادرة على أن تطبع المتكلمين بها، داخل المجتمع الواحد بسيما فكرية واحدة، وتخلع عليهم بصمات وجدانية مشتركة.

تلك فكرة دقيقة لم تغرب عن ذهن الشيخ ابن باديس، الذي عبّر عنها بجلاء قائلاً: "تكاد لا تخلص أمة من الأمم لعرق واحد، وتكاد لا تكون أمة

⁽¹⁾ د. عبد القادر فضيل: اللغة ومعركة الهوية في الجزائر، جسور، المحمدية، الجزائر، ط. 1، 1434

من الأمم لا تتكلم بلسان واحد، فليس الذي يكون الأمة ويربط أجزاءها، ويوحد شعورها، ويوجهها إلى غايتها هو هبوطها من سلالة واحدة، وإنما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد...⁽¹⁾.

ويضرب الشيخ لذلك مثلا واقعيا بسيطا، ولكنه مقنع، فيقول: "...لو وضعت أخوين شقيقين يتكلم كل واحد منهما بلسان، وشاهدت ما بينهما من اختلاف نظرٍ وتباينٍ قصد، وتباينٍ تفكير، ثم وضعت شاميا وجزائريا - مثلا - ينطقان باللسان العربي، ورأيت ما بينهما من اتحاد وتقارب في ذلك كله، لو فعلت هذا لأدركت بالمشاهدة الفرق العظيم بين الدم واللغة في توحيد الأمم"⁽²⁾.

وهو أمر يجد مصداقه في النظريات اللسانية الحديثة، ف"...لا يخفى على أحد أن كل لغة تعكس واقعا اجتماعيا، كما تعكس بوضوح نمط العلاقات الاجتماعية القائمة بين أفراد مجتمع معين، وهي كذلك تحمل آثارا مطابقة للمستويات الطبقيّة التي يجيها المتكلمون بها..."⁽³⁾.

البعد الحضاري:

الحضارة سيرورة متواصلة، وامتداد مطرد في الزمان، يربط بين أجيال الأمة المتعاقبة، ويشد عراها، ويقيم لحمتها وسداها، وبذلك تتحقق الوحدة بين تلك الأجيال، مهما تطاول العهد بين أوائلها وأواخرها، وأنى اختلفت الحقب بين سلفها وخلفها، وتباينت المظاهر الحضارية التي تتلبس بها. لذلك كان تقطع بين الأجيال، وانبتت أول الأمة عن آخرها، إيذانا بدخولها مرحلة

(1) د. عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 2، 1403هـ/ 1983 م، ج. 4، ص. 20.

(2) السابق، الموضوع نفسه.

(3) د. مصطفى غلفان: في اللسانيات العامة تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط. 1، 2010 م، ص. 45.

اللاحضارة، والضياع التاريخي، والاستلاب الثقافي. وصار جسمها بسبب ذلك عليلا، فاقتدا لجهاز المناعة، معرضا لأشد الأمراض فتكا، ولقمة سائغة في حلوق دهاقنة الغزو الفكري والثقافي. ومن أؤكد عناصر التواصل الحضاري بين الأجيال، والربط الزمني بينها اللغة، لذلك نظر إليها ابن باديس على أنها "...الجسر الذي يصل أبناء الأمة بأسلافهم وبما تركوه من مجد وفكر، وهو الذي يربطهم بأبنائهم وأحفادهم في المستقبل، ويعزز الروابط بين الأفراد أفراد الأمة الواحدة⁽¹⁾.

ولذلك أيضا طالما صدح شاعر الجمعية والجزائر، محمد العيد آل خليفة، الذي هو لسان الحال المعبر شعرا عن فكر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالعروبة والعربية، منبها على أن التمسك بالعربية الفصحى هو أحد أهم الشروط الضامنة لاستمرار الشعب الجزائري حضاريا، وتواصله مع ماضيه، في وحدة وانسجام، ضمن وحدة أكبر، وانسجام أشمل، يربطانه بأمتة العربية أولا، ثم بأمتة الإسلامية ثانيا.

واللافت للنظر أن أكثر توجه محمد العيد بخطابه الحضاري ذلك إنما هو للشباب، وذلك لكونه هو مناط التغيير، والتحويل الذي يتم به الانعطاف الحضاري، ولأنه القوة الدافعة إلى الأمام، وهو ما يوجب الاهتمام بتوجيهه الوجهة الصحيحة، وإرشاده وهو يخوض دروب الحياة، حتى لا تتفرق به السبل، ويهيم في وديان الأفكار والإيديولوجيات الضارة، يقول في قصيدته "يا معشر الطلاب":

لكم اللسان الفدّ في إيضاحه رغما على الساعين في إبهامه⁽²⁾

(1) د. عبد القادر فضيل: اللغة ومعركة الهوية في الجزائر، مرجع سابق، ص. 258.

(2) - محمد العيد آل خليفة: الديوان، مطبعة البعث، قسنطينة، 1967، ص. 91.

لا تهملوا هذا اللسان ففقدكم في فقدته ودوامكم بدوامه

ومن البداهة أن هذا البعد الحضاري متصل بالجانب القومي، الذي تقوم العروبة فيه مقاما محمودا، باعتبار العربية هي اللسان المعبر عن هذا الجانب. والعروبة هنا مفهوم ثقافي وروحي، أشمل وأوسع من المضمون العرقي، ذي التوجهات القبليّة الضيقة، لذلك كان مجاله متسعا ليضم كل مكونات الشعب الجزائري الغنية والمتنوعة، والتي ارتضت اللغة العربية لسانا معبرا عن وجودها الحضاري، وكيونتها الثقافية. بعد أن ارتضاها الله سبحانه وتعالى لسانا لكتابه المعجز، ودينه المهيمن، والذي اعتنقه الشعب الجزائري، وذاد عنه بالنفس والنفيس.

من أجل هذه المعاني والقناعات لا يكون ثمة محل لتلك التشنجات، والحساسيات والحزازات التي استحلست بعض المثقفين الجزائريين، لاسيما ذوي التوجهات الثقافية المشبوهة، المنبئة عن السيرورة الحضارية، والسياق الثقافي الذي حكم تطور المجتمع الجزائري جيلا بعد جيل، والناشزة عن الوجدان الشعبي الذي طبع شعور الجزائريين، وعن الفكر العام الذي شكّل وعيهم. خصوصا أن من أولئك المثقفين من لا يوارى ولا يوارب في ارتباطه الوجداني والفكري بالمشروع التغريبي عموما، والفرنكوفيلي تخصيصا، معبرا عن فكره ذلك بلغة تنضح عنصرية وشعبوية.

والحق أن علماء الجمعية طالما انطلقوا من فكر موحد، يجمع بين العروبة والإسلام، بعد أن فهموا العروبة حق الفهم، وأدركوا ما صارت إليه من شمول، وبعد إنساني وحضاري، بسبب التباسها بالدين الذي رضيه رب الناس للناس، ونزل بلسانها الكتاب الذي هو مصدر ذلك الدين الأوّل، ومرجعه الأساسي. فلم يعد لفظ "القومية" لديهم مثار ذلك التحفظ، والخرج الذي يبيده بعض الدعاة والإسلاميين خصوصا في المشرق، حيث وصل

الأمر إلى ربط مضمون لفظ القومية، بالعلمانية في أحسن الأحوال، والردة عن الإسلام في أسوأها، وصار طرفا ثنائية (الإسلام - العروبة)، لا يُتصور أحدهما إلا على حساب الآخر، وذلك لأسباب ظرفية، وخصوصيات تتعلق بالوضع الإثني والطائفي والثقافي، في بلاد المشرق العربي، فضلا عن الأوضاع السياسية هناك.

غير أن ذلك التشظي، والتناوب بين الإسلام والقومية العربية، والتلقي الخاص للمفهوم الثاني في بلاد المشرق لم تشهده بلاد المغرب العربي "... ذلك لأن مفهوم العروبة والإسلام الذي انشطر في المشرق العربي لأسباب طائفية وعرقية ودينية حافظ على بداهته ووحدة تعبيره في أقطار المغرب العربي، التي لم تتعرض لنفس الظروف التاريخية التي تعرضت لها أقطار المشرق، وبالتالي لم تعرف هذه الأقطار ما عرفته بعض الأقطار العربية الأخرى من إشكالات وخصومات اندلعت واحتدّت حول تحديد هذا المفهوم الذي ظل مفهوما ثابتا موحدًا التزمه الكتّاب والمفكرون والمصلحون الجزائريون، وصدروا عنه في جميع آرائهم⁽¹⁾.

والحق أن الباحث في فكر علماء الجمعية، والمنقب في مقالاتهم وكتبهم، لا يعدم من الحجج والشواهد ما يقوم دليلا على هذا التوجه لديهم، ومصداقا على هذه القناعة حتى عند كبارهم المؤسسين للجمعية، فللشيخ المؤسس عبد الحميد بن باديس - رحمه الله - مقال مشهور، يربط عنوانه بين رسول الإسلام ﷺ، والقومية العربية، ربطا صريحا لا لبس فيه، ذلك هو مقاله الموسوم بـ"محمد ﷺ رجل القومية العربية".

(1) محيي الدين صابر: محمد البشير الإبراهيمي والدعوة القومية، ضمن كتاب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، دار الأمة، برج الكيفان، الجزائر، ط. 2، 2012 م، ص. 107-108.

والمقال - على قصره- يتميز ببعده النظر، وعمق الفكر. وهو جدير بأن يكون جواباً شافياً عن كل التساؤلات التي تطرح حول علاقة العروبة بالإسلام، ورداً مفحماً عن كل من يحاول دق الأسافين بينهما، وإشاعة الضبابية والشبهات، والتلبس على الناس بربط القومية العربية بالمفهوم العرقي، لإقامتها طرفاً نقيضاً للإسلام، ثم تخيير الناس بينهما: إما هذا وإما ذاك!

وقد استقرى الإمام عبد الحميد الدعوة المحمدية، بذكاء وفقه، مبيناً تدرجها من القومي إلى الإنساني، فـ "محمد ﷺ هو رسول الإنسانية، وكانت أولى عنايته موجهة إلى قومه وكانت دعوته على ترتيب حكيم بديع لا يمكن أن يتم إصلاح إنسانيا أو شعبيا إلا بمراعاته. فكان أول دعوته ﷺ لعشيرته لقوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾... ثم تجد أكثر السور المكية قد وُجّه فيها الخطاب إلى قريش وإلى العرب...⁽¹⁾.

ويصل بعد هذا إلى تقرير ذلك الفهم الحضاري الفذ للعربية والعروبة، والذي يمكن تلخيصه بـ "...أن من تكلم بلسان العرب فهو عربي وإن لم يتحدّر من سلالة العرب..."⁽²⁾.

كل ذلك خلع على دعوته ﷺ الصبغة الإنسانية العالمية، فإذا هو "...رسول الله ورجل القومية العربية الذي كان له الفضل -بإذن الله- عليهما ويشهد المنصفون من غير العرب وغير المسلمين له بهذا الفضل ويتغنى العرب غير المسلمين بذكره. وكم دجت أقلام الكتاب والشعراء من إخواننا نصارى العرب بالشرق من حلل البيان في الثناء عليه والإشادة بفضله"⁽³⁾.

⁽¹⁾ عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، مصدر سابق، ج.4، 17-18.

⁽²⁾ لسابق، ص. 19.

⁽³⁾ السابق، ص. 21.

ويختتم مقاله مشيدا بذلك الاجتماع العبقري بين الديني والقومي في الرسالة المحمدية، مؤكدا التزامه، والتزام رفاقه بهذا النهج الموحد المتأصل، والوجهة القومية، قائلا: "هذا هو رسول الإنسانية ورجل الأمة العربية الذي نهتدي بهديه، ونخدم القومية العربية خدمته، ونوجهها توجيهه، ونحيا لها ونموت عليها، وإن جهل الجاهلون ... وخدع المخدوعون ... واضطرب المضطربون ... (1)".

البعد السياسي:

ليس وراء البعدين: الاجتماعي والحضاري للغة العربية في الجزائر، وما يترتب عليهما من أثر في وحدة الشعب الجزائري، ومناعة حضارية وثقافية تقيه غوائل الذوبان الروحي، والتلاشي الوجداني، إلا توضّح ملامح البعد السياسي، وتأسّل الانتماء الوطني، والاعتزاز بالوطنية، التي تقوم وحدة التراب قيمة أساسية فيها، إضافة إلى وحدة اللغة الرسمية، وقيم أخرى ضرورية لإثراء هذا الشعور الإنساني الفطري.

لذلك يصدع الإمام ابن باديس بكلمته الصريحة الخالدة، التي يقول فيها: "...إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود معيّن هو الوطن الجزائري... (2)".

كلمة خالدة وصريحة لا لبس فيها ولا موارد، قمينة بأن تحمل فرنسا ودهاقتها على اليأس من مسخ الشعب الجزائري، وعلى الاقتناع بأن

(1) السابق، الموضع نفسه.

(2) السابق، ج. 3، ص. 309.

الشعب الجزائري ليس لقمة سائغة في حلوق المحتلين، وما ذلك إلا لما يتمتع به من عناصر مناعة حضارية وفكرية تملأ فراغه، وتقوم خط دفاع قوي، أمام كل الأجسام الغريبة الدخيلة الضارة، وعلى رأس تلك العناصر المقاومة اللغة العربية والإسلام الحنيف.

وواضح ما في هذه الكلمة المدوية من موقف سياسي تقدمي، يستبين به الهدف التحرري الذي قامت عليه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، واستحوذ على فكر قادتها ومؤسسيها، سنواتٍ عديدة قبل تشكّل هذا الوعي لدى الحركات الوطنية الأخرى، لا سيما إذا علمنا أن هذا التوجه لدى علماء الجمعية واكب السنوات الأولى لإنشائها، إذ نشرت هذه الكلمة للإمام في "الشهاب" في غرة المحرم سنة 1355 هـ الموافقة لأفريل من سنة 1936 م. فليس وراء رفض الشعب الجزائري أن يكون فرنسا، ولا وراء تلك الموانع الحضارية اللغوية والدينية، إلا التحرر السياسي مهما طال ليل الاحتلال.

البعد التاريخي والجغرافي:

ومثلَ الإمام المؤسس، يحنح نائبه ورفيق دربه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي -رحمه الله- إلى تأصيل المكوّن اللغوي، متوغلا في البعد التاريخي والجغرافي، وذلك في مقال له عنوانه "عروبة الشمال الإفريقي" جاء فيه قوله: "عروبة الشمال الإفريقي بجميع أجزائه طبيعية، كيفما كانت الأصول التي انحدرت منها الدماء، والينابيع التي انفجرت منها الأخلاق والخصائص، والنواحي التي جاءت منها العادات والتقاليد؛ وهي أثبتُ أساساً، وأقدم عهداً، وأصفى عنصراً، من إنكليزية الإنكليز، وألمانية الألمان⁽¹⁾."

(1) محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، دار المعارف، القاهرة، 1963، ص. 469.

ويردّ على حجج المشككين في عروبة الجزائر، مفتندا منطلقاتهم، ورادا كيدهم إلى نحورهم، بل موجهها سهامهم نفسها إلى صدورهم، بقوله: إن كل ما يحتجّ به القادحون في عروبة هذا الشمال هو حجة عليهم، فالدول التي قامت فيه - كاللمتونية والرستمية والموحّدية والصنهاجية والمرينية والزيّانية - ليس لها من البربرية إلا النسبة العُرفية، وهي فيما عدا ذلك عربية صميمة...⁽¹⁾.

ويستطرد - رحمه الله - إلى بيان تمكّن العربية والتعرّب⁽²⁾ من تلك الدول التي قامت في بلاد المغرب العربي، وهي حال شملت الخاص منها والعام، وطبعت الرسمي فيها والشعبي، فالتاريخ الحضاري للمنطقة يشهد بأنها كانت عربية... في الضروريات المقومة للدولة، كوظائف القلم من إدارية ومالية، ووظائف القضاء من عقود وتسجيلات، وعربية في الكماليات التي تقتضيها الحضارة والترّف، كالغناء والموسيقى والشعر، فما علمنا أن شعراء البلاطات في تلك الدول تقرّبوا إلى الملوك بالشعر البربري، إلا أن يكون في النادر القليل، وفي حال الاصطباغ بالبداءة الأولى⁽³⁾.

وما أعظمها من حجة! فلو أن أمر اللغات بالقهر السياسي، ولو كانت الغلبة للغة من بيده السلطان، ولو أن سكان المغرب العربي لم ينجحوا إلى العربية طوعا واختيارا، لفرض قادة الدول الأمازيغية لغتهم في البلاد، وحملوا عليها العباد.

⁽¹⁾ السابق، ص. 470.

⁽²⁾ نفضل استخدام مصطلح "التعرّب" على "التعريب" في ما يخص بلاد المغرب العربي، لأن الثابت تاريخيا وحضاريا أن أهل هذه الأصقاع اختاروا العربية، ورضوا العروبة، منجذبين إليها من الأمام، لا مدفوعين من الخلف، والمصطلح الأول الذي هو مصدر الفعل اللازم "تعرّب" أدل على الاختيار من المصطلح الثاني، الذي هو مصدر الفعل المتعدي "عرب" الدال على أن من وراء الفعل فاعلا، يحمل المفعول به، على ما قد لا يرضاه.

⁽³⁾ محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، مصدر سابق، ص. 470.

إن كل ما سبق من طرح تأصيلي للغة العربية لدى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، يؤدي إلى حقيقة واحدة، هي أن اللغة العربية اللغة الرسمية للشعب الجزائري، كما أنها كذلك للمسلمين، ويتأكد الأمر عند الجزائريين تخصيصاً، محقّقين للعربية على هذا الشعب هما: حق لغة الدين، وحق لغة الجنس، يقول: "اللغة العربية هي لغة الإسلام الرسمية، ومن ثمّ فهي لغة المسلمين الدينية الرسمية، وهذه اللغة على الأمة الجزائرية حقان أكيدان، كل منهما يقتضي وجوب تعلمها، فكيف إذا اجتماعاً، حق من حيث إنها لغة دين الأمة، بحكم أن الأمة مسلمة، وحقّ أنها لغة جنسها، بحكم أن الأمة عربية الجنس، ففي المحافظة عليها محافظة على جنسية ودين معا، ومن هنا نشأ ما نراه من حرص متأصل في هذه الأمة على تعلم العربية...⁽¹⁾.

ولهذا الوضع (الرسمي) للغة العربية في الجزائر -والمؤكد أننا نتحدث عن اللغة العربية الفصحى- أهميته ودلالته في تلك المرحلة التي عاشها الشعب الجزائري تحت نير الاحتلال الفرنسي البغيض، واليوم أيضاً، في هذا الزمن الذي اشتدت فيه الصراعات الإيديولوجية، وكثر جدل الهويات، وثار اللغظ حول اللغات واللهجات، وذلك ما وثقه شاعر الجمعية والجزائر محمد العيد، في قصيدة له بعنوان "إلى العلم" مؤكداً هو أيضاً أن العربية الفصحى هي لسان الجزائريين (الرسمي)، يقول رحمه الله:

ونقصى عن الفصحى ونلهى بغيرها

وليس سوى الفصحى لسان لنا (رسمي)⁽²⁾

وما نحن إلا من سلالة يعرب

فمن رام عنها فصلنا باء بالرغم

(1) السابق، ص. 16.

(2) محمد العيد آل خليفة: الديوان، مرجع سابق، ص. 205.

سلام كأزهار الربى طيب الشذى
على كل قحّ في عروبتة شهم
على العرب الأحرار من كان عاربا
ومن بادّ قدما من جدّيس ومن (طسّم)
ومن كان في استعرا به لاحقاً بهم
نُزوعاً إليهم في الفصاحة والفهم
ومن أتقنوا الفصحى وراضوا علومها
بحذق فكانوا من صوارمها الخُذّم

نعم إن اللغة العربية الفصحى هي لغة الشعب الجزائري الرسمية، بكل ما يتضمنه معنى "الرسمي" من سلطة، وشمول، وتمثيل. ولا يخفى ما في سائر الأبيات من تعليل لهذه (الرسمية): فأبناء الشعب الجزائري هم إما عرب أقحاح من نسل يعرب، ومن هنا يستحيل فصلهم عن لغتهم، وإما مستعربون رضعوا العربية مع القرآن الكريم، والإسلام الحنيف الذي ارتضوه دينا، فارتضوا لسان كتابه، الذي هو لسان عربي ميين، اكتسبه جيلا بعد جيل، وراضوا ألسنتهم عليه، فحذقوه، وأتقنوه، بل تفوقوا فيه وصاروا فيه أساتذة ومعلمين، يلقنون غيرهم إياه، ويدونون فيه الكتب الرائدة، والمصنفات الخالدة.

كم لا يخفى ما تتضمنه الأبيات من تأصيل، ذكي وواع وناضج لمعنى "العربي" و"العروبة"، الذي سبقت الإشارة إلى تأصيله عند الشيخ الإمام ابن باديس، فقد انتهى ذلك المعنى - كما قال - معنى إنسانيا شاملا، ومحتوى حضاريا لا يقدر على استيعابه عرق واحد، ولا يقوم لحملة جنس منفرد.

خاتمة:

كان الفكر اللغوي عند علماء الجمعية إذاً فكراً تأصيلياً تأثيلياً، يربط الفرع بالأصل، ويشد الحاضر إلى الماضي. وكانت نظرتهم إلى اللغة العربية في الجزائر تحديداً، نظرة شاملة، ذات أبعاد متعددة، واستراتيجية واضحة، تنطلق من الماضي السحيق، وتستقري الراهن القائم، وتستشرف المستقبل المأمول. وهو توجه أملتة أمس ظروف الاحتلال الذي ران على الجزائر يومها، وما صاحبه من محاولات المسخ والطمس، ويعود اليوم لتمليه تساؤلات التشكيك غير البريئة، والتي تمثل في كثير من مظاهرها إرثاً من ذلك العهد البائد.

وهما فكر ونظرة واكبت الجمعية منذ إنشائها، وعبر عنها القادة الرائدة، وعلى رأسهم الإمام المؤسس، عبد الحميد بن باديس، ونائبه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وتغنى بها نظماً، شعراء الجمعية، وفي مقدمتهم شاعر الجزائر، وأمير شعراء المغرب العربي محمد العيد آل خليفة رحمة الله على الجميع. يضاف إلى ذلك أنه فكر صالح للتحيين، يتميز بقابليته لأن يتخذ مادة لتلبية الحاجة المستمرة إلى التطور والتكيف مع المستجدات، على جميع المستويات الثقافية والتعليمية والاجتماعية وغيرها، نظراً إلى ما تفرد به من ثراء في الأبعاد، وتنوع في النزعات والقيم المطلقة، لاسيما النزعتين: الإنسانية والوطنية منها.

لماذا اعتنت جمعية العلماء بالعربية؟ قراءة من مرجعية ابن باديس والإبراهيمي

أ.د. أسعد السحمراني

ج. الإمام الأوزاعي - بيروت

مقدمة:

استخلف الله تعالى الإنسان في الأرض، ومع الاستخلاف زوده بالقدرة والكفاية التي لا يستغنى عنها في كل وجه من وجوه الحياة، وفي كل شأن من شؤون المعاش، وقد كان البلاغ الإلهي في ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٢﴾ (سورة البقرة، الآيتان 30، 31).

فتعليم الأسماء كان ابتداء من الخالق سبحانه، لأن الله تعالى أعلم بما خلق وبمن خلق، وهذه الكائنات بكل أنواعها، وفصائلها، ومستوياتها من الدرة إلى المجرة تتمايز باسم يختص به كل كائن، وبذلك يكون المدخل السليم للعلوم إنما هو الدراية بالأسماء، وذلك لأن الاسم ينشأ عنه إدراك، والإدراك يثمر معرفة، والمعرفة أساس الوعي، والوعي ثمرته مفاهيم تتعلق بكل كائن، والمفاهيم تتركب في أفكار، والفكر من سمات الإنسان لأنه الكائن العاقل الوحيد، والتعقل يصدر من خلال التعبير، والتعبير عن مخزونات الفكر، ومكونات النفس، هو اللغة التي قد تكون إشارات، أو

رموزاً، أو حركات، أو من خلال رسوم، أو أصوات، أو ألحان ونغمات، وأرقى التعبير ما كان فيه الدالّ على المدلولات مفردات وتراكيب إنشائية، وهذه المفردات والتراكيب هي اللغة.

فالإنسان متميّز أنه عاقل وناطق، وهو الذي يستخدم اللغة في أعلى تركيباتها وأرقاها ليخرج مشاعره من خلالها بأنواعها، وليتواصل بواسطتها مع أقرانه من البشر، وقد يتواصل باللغة مع الحيوان والطائر، ومنهم من وضع فرضية إمكانية مخاطبة الإنسان للنبات، واللغات حاجة إنسانية لصياغة الإبداعات الفكرية علوماً وآداباً وفنوناً، ومن خلال اللغة يعبر الإنسان عما يحتاجه، أو يطلبه من الآخرين، أو يترجم بواسطتها ميوله وما يتوق إليه من رغبات، وتطلعات مستقبلية. كما أنه سبيل للتفاهم مع الإقناع والاستمالة وجلاء ما هو ملتبس أو ما يلقه الغموض، واللغة توثّق الترابط والتلاقي، وقد تكون باباً للنزاع والافتتال، فحروب الكلام أخطر من الاقتتال والسلاح، لأنّ المعارك الكلامية قد تخلف مشكلات أكبر من أي مشكلة أخرى، فالإنسان واللغة توأم لا تنفصم عراه.

إنّ بعضهم جائب الحقيقة عندما قال: اللغة وعاء الفكر، والصحيح أنّ الفكر واللغة في علاقة جدلية، فهما يرتقيان معاً، وقد ينحطّان معاً. وبذلك تكون القاعدة: (لا لغة بلا فكر، ولا فكر بلا لغة).

وقد ميّز العرب منذ قرون بين اللغة واللسان، ولنترك البيان لابن منظور الذي قال: "اللغة: قال الأزهري: واللغة من الأسماء الناقصة، وأصلها: لغوة، من لغا إذا تكلم... اللغة: اللسان، وحدّها أنّها أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم، وهي فُعلة من لغوت؛ أيّ: تكلمت... والجمع: لغات ولغون... هذه لغتهم التي يلغون بها؛ أيّ: ينطقون."

وقال ابن منظور: "اللسان: جارحة الكلام، وقد يكتنى بها عن الكلمة... قال ابن بري: اللسان: الرسالة والمقالة... قال: وقد يذكر على معنى الكلام... ابن سيده: واللسان: المقول، يذكر ويؤنث... اللسن: الفصاحة... لسان القوم المتكلم عنهم."

فاللغة كلمات ومفردات ينطق بها الأفراد في أمة معينة، حيث لكل أمة لغتها، وهذه المفردات عندما تتشكل في نصوص تصبح حالة من التعبير عما يريد فرد أو مجموعة معينة أن يبينوه. وقد اشتهرت مفردة (لسان)، وكانت تقال للشخص المكلف من قومه بتوجيه الرسائل والبلاغات باسمهم، أو للشخص الناطق باسمهم.

وإذا انتقل الحديث إلى اللغة العربية فإنّ بيان فضلها، وسرّ خصائصها، قد منحها سمات وتميّزاً فكانت في المكانة الأسمى بين اللغات. فاللغة العربية حملت الوحي قرآناً مع النبي العربي محمد عليه الصلاة والسلام وعلى أنبياء الله تعالى ورسله، وهي من المقومات الرئيسة في عوامل الوحدة العربية، ثمّ إنّها تعدّ من أكثر اللغات ثراءً بمفرداتها التي لا يدانيها في العدد، وفي القدرة على التعبير عما يريد متكلّم أي لغة أخرى، وتتمتع العربية بقبول الاشتقاق واستقبال مفردات وافدة إليها، وهذا غير متوافر في سواها من اللغات. والعروبة والانتماء للعربية لا يقومان على الجنس والعرق، وإنما يعدّ عربياً كلّ من كان من أصل عربي أو من استعرب لغة وثقافة.

وقد تبارى علماء اللغة والحضارة بالحديث عن مكانة العربية، ومن بينوا فضلها أبو منصور الثعالبي (350 هـ - 429 هـ) الذي قال فيها: "فإنّ من أحبّ الله تعالى، أحبّ رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام. ومن أحبّ النبي العربي أحبّ العرب، ومن أحبّ العرب أحبّ اللغة العربية التي بها نزل

أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحبّ العربية عُنِي بها وثابر عليها، وصرف همه إليها.

...ولو لم يكن في الإحاطة بخصائصها، والوقوف على مجاريها وخصائصها، والتبحّر في جلائلها ودقائقها، إلا قوة اليقين في معرفة إعجاز القرآن، وزيادة البصيرة في إثبات النبوة الذي هو عمدة الإيمان، لكفى بهما فضلاً بحسن أثره... ولما شرفها الله عزّ اسمه وعظّمها، ورفع خطرهما وكرّمها، وأوحى بها إلى خير خلقه، وجعلها لسان أمين وحيه، وأسلوب خلفائه في أرضه، وأراد بقاءها ودوامها حتى تكون في هذه العاجلة لخير عباده، وفي تلك الآجلة لساكني دار ثوابه."

يشير الثعالبي في كلامه إلى أنّ العربية من الدين في الإسلام، لأنّ من أراد أن يعرف كلام الله تعالى وسنة النبي عليه الصلاة والسلام، وأن يتفقه وبعدها يجتهد فإنه محتاج لأن يكون عربياً أو يتعرّب لغةً وفهماً وفكراً، وعليه الوقوف على خصائص المجتمع العربي والحضارة العربية كي يفقه الوحي والسنة، ويشير الثعالبي كذلك إلى منطوق الحديث النبوي الشريف الآتي نصّه: أحبّوا العرب لثلاث، لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة العربية." والحديث رواه الطبري، والحاكم والبيهقي عن عبد الله بن عباس مرفوعاً، وروي عن أبي هريرة كذلك مرفوعاً. وقد روى الحديث ابن تيمية في (اقتضاء الصراط المستقيم) عن ابن عباس، وقال الحافظ السلفي: (هذا حديث حسن)؛ وقال محمد بن عبد الباقي الزرقاني في (مختصر المقاصد الحسنة): (إن الحديث حسن لغيره). وهناك حديث آخر هو: "حبّ العرب إيمان، وبغضهم نفاق." رواه الدارقطني، والبيهقي ومحمد بن عبد الباقي الزرقاني من المتأخرين. وبشأن الحفاظ على اللغة العربية وإتقانها وجعلها لغة وظيفية أخرج ابن تيمية في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم) الحديث

النبوي الآتي: "من يحسن أن يتكلّم بالعربية فلا يتكلّم بالعجمية، فإنّ ذلك يورث النفاق."

اللغة العربية كانت سليمة مصانة عند العربي الذي يتواصل مع أبناء أمته ومجتمعه، لكن عندما اتّسعت الفتوحات العربية مع الإسلام، وازداد الاختلاط والتفاعل مع أبناء أمم أخرى، وأصحاب ألسنة عديدة، وقد تبلورت في ظلال الإسلام ومعه شخصية الأمة العربية التي ينتمي إليها مسلمون وغير مسلمين، وأصبح هناك مسلمون غير عرب وهؤلاء لا بدّ لهم من الاستعراب ولو بقدرٍ ما كي يتعبّدوا ويقرأوا القرآن الكريم، وقد نتج من ذلك مشكلات في تداول مفردات اللغة أو في التراكيب اللسانية، وقد دفع ذلك مجموعة من العلماء إلى التصدّي لمهمة صيانة اللسان العربي من الفساد، وكانت بعد ذلك علوم اللغة من النحو إلى الصرف، إلى العروض والبيان والبديع... الخ.

ومن تحدّثوا في هذا الدافع لنشأة علوم العربية مبتكر علم الاجتماع عالمياً عبد الرحمن بن خلدون (732 هـ - 808 هـ) (1332م - 1406م)، وقد قال تحت عنوان: (علم اللغة): "هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية، وذلك أنّه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب، واستنبتت القوانين لحفظها، ثم استمر ذلك الفساد بملاسة العجم ومخالطتهم حتّى تأتّى الفساد إلى موضوعات الألفاظ، فاستُعْمِل كثير من كلام العرب في غير موضعه عندهم ميلاً مع هجنة المستعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية، فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدّروس (الانمحاء) وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث، فشمّر كثير من أئمة اللسان لذلك، وأملوا فيه الدواوين."

عرض الحال هذا الذي قدّمه ابن خلدون حصل يوم استعمر الفرنسي الجزائر، أو عندما دخل أيّ محتلّ إلى بلد عربي، وكان البدهي أن ينهض أهل الغيرة والحريصون على الهوية كي يحاموا عن لسانهم العربي الذي يحفظ الهوية القومية والدين، وكان على رأس القائمة مؤسسو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وفي الطليعة الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس، والإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

أمّا في أيامنا هذه فإن الحاجة إلى حفظ اللسان العربي قد أصبحت ضرورة تحتاج أن يشمّر الصادقون في عروبتهم وإسلامهم عن سواعد الجِدِّ لحماية لغتهم، لأن فسادها يضيع الشخصية الوطنية والقومية، ويبعد المؤمن عن نصوص دينه، ويجعل العربي تائهاً في بيداء الفوضى الثقافية، ولا يخفى على أحد ما يراه ويقف عليه المتابع لأمر الأسماء والإنشاء والكتابة، وكلّ ذلك عدوان سافر على اللغة لنسخ الهوية.

إن الخطوة الأولى في صيانة اللغة أن يعمل المربون والعلماء وقادة مجتمع الأمة من أجل إتقان لغتهم العربية وتراثهم، والإصرار على استخدامها في التواصل والعمل والتعليم، وبعد ذلك الواجب بيان أهمية العربية، وإبراز خصائصها للأجيال لتعزيز ثقة الناشئة بلغتهم وأمتهم ودينهم. ويفيد في هذا الباب اقتباس البيان من أحمد بن علي القلقشندي (ت 821هـ - 1418م)، ومن موسوعته المعنونة: (صبح الأعشى في صناعة الإنشاء)، ومما قاله:

"في فضلها وما اختصت به على سائر اللغات: أمّا فضلها فقد أخرج ابن أبي شيبة بسنده إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنّه قال: (تعلموا اللحن والفرائض فإنّه من فرائض دينكم). قال يزيد بن هارون: اللحن هو اللغة. ولاخفاء أنّها أمتن اللغات وأوضحها بياناً، وأذلقتها لساناً، وأمّد رواقاً، وأعذبها مذاقاً، ومن ثمّ اختارها الله تعالى لأشرف رسله،

وخاتم أنبيائه، وخيرته في خلقه، وصفوته من بريته، وجعلها لغة أهل سمائه وسكان جنته، وأنزل بها كتابه المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. قال في صناعة الكتابة: وقد انقادت اللغات كلها للغة العرب، فأقبلت الأمم إليها يتعلمونها... قال الفراء: وجدنا للغة العرب فضلاً على لغة جميع الأمم اختصاصاً من الله تعالى، وكرامة أكرمهم بها؛ ومن خصائصها أنه يوجد فيها من الإيجاز ما لا يوجد في غيرها من اللغات. قال: ومن الإيجاز الواقع فيها أن للضرب كلمة واحدة فتوسّعوا فيها، فقالوا للضرب في الوجه: لطم، وفي القفا: صفع، وفي الرأس إذا أدمى: شجّ، فكان قولهم: لطم أوجز من ضرب على وجهه".

وقد يقول قائل: لم إقحام خصائص العربية أو بعضها في هذه المقدمة؟ والجواب: إن الدافع إلى ذلك إعلام بعض من لم يعرف من أبناء العربية أن لغته أغنى اللغات بالمصطلحات وأساليب التعبير، وأقدر اللغات على التكيف مع المجتمع وتطوره، والعلوم ونموها المطرد، وأكثرها مرونة في قبول المفردات الوافدة، ومن ثمّ تطويعها لقواعد اللسان العربي.

واللغة العربية بالنسبة لكلّ عربي هي توأم فكره السليم، وبها يتمّ تحديد المفاهيم وتعريف الأشياء، ومن خلالها يتعملق مسار الابتكار، لا بل الصحيح أن نقول: "اللغة العربية بالنسبة إلينا ليست وسيلة للتعبير عن الأفكار والأغراض، وإنما لغتنا دعامة وحدتنا، وهي لغة التفاهم والتخاطب بين شعب الأمة، وأمتنا العربية بأقطارها تتكامل وطنياتها في وجوه كثيرة لكنّها تتوحد من خلال عامل اللغة".

وقد ترجم هذا الموقف بتعبير دقيق ومسؤول مازن المبارك حين قال: "وجب الربط بين الوعي القومي والهدف الوحدوي، من جهة، والوعي اللغوي من جهة ثانية، وإننا لنعتمد أنّ الوعي الثقافي والوعي القومي لا يبلغان الكمال

ما لم يرافقهما وعي لغوي سليم، إذ كيف يكون هناك وعي ثقافي وقومي إذا لم يكن قبلهما وعي لأوّل مقوّمات الثقافة القومية؟" وأوّل مقوّمات الثقافة القومية هي اللغة العربية. وإذا كان الاستعمار قد أدرك دور عامل اللغة في الهوية والوحدة عربياً، فإن الاستعمار الأمريكي الجديد الذي تظهر تحت ستار العولمة عمل للاتجاه نفسه، وها هو أحد مفكري العولمة/ الأمركة صامويل هنتنجتون يلفت النظر وينبه إلى دور الثقافة واللغة في التقارب والوحدة، وفي التعامل الاقتصادي، وقد قال في ذلك: "فإنّ ما يهّمّ الناس هو الدم والعقيدة والإيمان والأسرة، الناس عادة يهرعون نحو أولئك من نفس السالف والدين واللغة والمؤسسات ويتباعدون عمّن هم عكس ذلك".

ويتابع هنتنجتون قائلاً: "في العالم الجديد، سوف تتأثر أشكال التجارة تأثراً حاسماً بأشكال الثقافة، رجال الأعمال يعقدون صفقات مع أناس يمكن أن يفهمونهم ويثقون بهم، والدول تخضع سيادتها للإنجازات الدولية المكوّنة من دول ذات عقول متقاربة يفهمونهم ويثقون بهم، وجذور التعاون الاقتصادي توجد في المشترك الثقافي".

المشترك الثقافي جاذب للاتحاد والتقارب والتعامل الاقتصادي وسواه، واللغة هي أساس الهوية الثقافية، لكلّ هذا تحتاج الأمة العربية في مقوّمات النهضة والحضارة إلى رفع درجة العناية تواصلًا وتعاملاً وتعليمًا باللغة العربية، وفي هذا الموقع تكمن أهميّة العودة إلى السلف القريب أو البعيد للتعرف على دورهم في المواجهة، ومنها اللغة العربية، وهنا تبرز أهميّة المراجعة بغرض الاكتساب والتعلّم من تجربة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حين قاومت الفرنسية بالعروبة، فكانت لها خطوات تستحقّ الوقوف أمامها. والاستفادة منها في واقعنا الراهن. ويفيد هنا أن يعاد طرح الموقف القائل: إن العروبة هي عروبة اللسان لا عروبة عرق أو نسب، فهناك داخلون في العروبة عرب أصلاء، وهناك من كانوا من أب أو أم عربيين

لكنهم تنكروا للعروبة فهؤلاء يصبحون غير عرب، والعروبة تحترم في مكوناتها من لهم خصوصيات من أصول شرط أن لا يستخدموا خصوصياتهم لإيذاء العروبة، أو لنشر مفاهيم تفتيتية تخدم أعداء الأمة.

والمسك ختاماً في هذه المقدمة مع الحديث النبوي الشريف الآتي نصّه:

"يا أيها الناس إنّ الرّبّ ربّ واحد، وإنّ الأبّ أب واحد، وإنّ الدين دين واحد، ألا وإنّ العربية ليست لكم بأب ولا أمّ، إنّما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي."

الاستعمار الفرنسي وعدو الهوية وردّ جمعية العلماء:

بدأ الغاصب الفرنسي احتلال الجزائر في العام 1830، وقد استسلم حاكم الجزائر الداي حسين للمحتل بتاريخ 5 / 7 / 1830، واستمر احتلال الجزائر من قبل الغاصب الفرنسي حتى نيل الاستقلال في 5 / 7 / 1962، بعد ثورة شعبية مسلحة دفع فيها الجزائريون أكثر من مليون ونصف مليون شهيد، وكانت انطلاقة الثورة في 1 / 11 / 1954. واحتلال الفرنسي للجزائر كما الحال عند استعمار مناطق أخرى، بأنّ المحتل عمل على نسخ هوية الجزائر من خلال الفرنسية، ولهذه الغاية تجده قد أصدر قراراً بعد الاحتلال يقضي بجعل اللغة الفرنسية اللغة الرسمية.

لقد أطلق المحتل على الجزائر اسم: فرنسا الجنوبية. وأمّا مشروعه الاستعماري فهو استعمار فرنسي استيطاني إحلالي يمثّل تماماً الاغتصاب الصهيوني لفلسطين، ومن أجل تحقيق أهدافه عمد الفرنسي إلى مصادرة كلّ الأراضي والممتلكات التي زعم أنّها غير مسجلة رسمياً، كما صادر كميات كبيرة من أملاك الأوقاف، وأصدر قراراً في أكتوبر/ تشرين الأول من العام 1845 صادر بموجبه ممتلكات من قاوموا الاحتلال. أمّا من جهة السكان فقد

قام الفرنسي باستقدام أكثر من مليون وافد استوطنوا الجزائر، وهؤلاء فرنسيون، وإيطاليون وبينهم أعداد من يهود.

فالمحتل الفرنسي لم يكتفِ باستباحة حياة البشر، ومباني الحجر، والاقتصاد وميادينه، كما أنه لم يقف عند حدود السلب والقتل، بل عمل الفرنسي لإلغاء الجزائر وضرب الهوية الدينية والوطنية والقومية العربية، ومن أجل تحقيق مراميه عمل على نشر الفرنسية بدل العربية، وقاد مبشرون وإرساليات تعليمية عملية التنصير، وكان يوظف كل ما يتوافر له من إمكانات لإنجاز إدماج الجزائر بفرنسا، وإلغاء وجودها بوصفها تتميز بشخصية جزائرية وعربية ومسلمة.

لم يستسلم الجزائريون لما خطط له العدوان الفرنسي، وإنما انطلقت حركة المقاومة الوطنية، منذ الساعات الأولى لوجود المحتل على أرض الجزائر، وقد تجلّت المقاومة من خلال كلّ وجوه المقاومة، وكان في أساسات المقاومة العربية والعروبة، لغة وفكراً وانتماء، لأنّ العربية لساناً ضرورية للدين فهي لغة القرآن الكريم، والسنة النبوية، والتفقه والاجتهاد لا يكونان بسواها، والعربية والعروبة تصون وحدة المجتمع، فتحت عباءتها يجد نفسه كلّ مواطن أياً كان انتماءه الديني أو المذهبي أو القبلي أو العائلي أو السياسي في الفكر والاقتصاد، وسواء أكان عربياً أم مستعرباً. هذه المقاومة صيانة للشخصية الوطنية الجزائرية، والهوية العربية قومياً، والإسلامية ديناً، عرفت أبهى حركتها الثورية الدانية القطوف مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بوصفها عملاً مؤسسياً شمل كل أرجاء الجزائر، وقد نجحت الجمعية في خطتها لتأصيل التعليم العربي لساناً وفكراً، واستهدف هذا التعليم كلّ فئات المجتمع من خلال المدارس والمعاهد والمساجد والأندية، حيث ستكون سائحة لكلّ إنسان تناسب سنّه ومستواه التعليمي ووقته كي يحصل ما يحتاجه من اللغة والفقه والفكر والفنون والآداب.

تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يوم الثلاثاء في 17 ذي الحجة من العام 1349هـ، الموافق فيه 5/5/1931، وكان مكان الاجتماع التأسيسي في نادي الترقى الموجود في مدينة الجزائر العاصمة. وكانت الدعوة من الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس بعد لقاءات تشاورية مع بعض إخوانه في طليعتهم الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، فانطلقت الجمعية برئاسة الإمام ابن باديس وكان الإمام الإبراهيمي في منصب نائب الرئيس، وبعد وفاة ابن باديس (16/4/1940) تولّى الإبراهيمي رئاسة الجمعية حتى وفاته في 20/5/1965.

أما الهيئة التأسيسية للجمعية فقد تكوّنت على الشكل الآتي: الإمام ابن باديس رئيساً، والإمام الإبراهيمي نائباً للرئيس، ومحمد الأمين العمودي كاتباً عاماً، والطّيب العقبي نائباً للكاتب العام، ومبارك المليي أميناً للمال، وإبراهيم بيوض نائباً لأمين المال، واتخذت صفة عضو مستشار كلّ من: حسن الطرابلسي، والسعيد البحري، والطّيب المهاجي، وعبد القادر القاسمي، ومحمد الفضيل اليراتي، ومولاي بن شريف.

يوم انطلقت مسيرة جمعية العلماء الميمونة، كانت الثقة بهوية الجزائر عند الإمام ابن باديس ثقة كبيرة، وشكّلت دافعاً مقرونًا بالإصرار الذي لا يمكن لغاصب أو عدوّ أن يقف في وجه مساره الذي شكّل سيلاً جرف كل روااسب المستعمر، وكان تأصيلاً ثورياً، وتجربة تحتاج لمزيد درس لأخذ العبر منها. وقد عبّر الإمام عن ذلك قائلاً: "والخلاصة أنّ الحالة العلمية بالجزائر اليوم هي علم مبني على روح إسلامية عربية لا يمكن أن يقاومها مقاوم أو يعارضها معارض، ولا يمكن للظلم أن يقف في طريقها".

والعروبة في مفهوم ابن باديس جامعة لكل الناطقين بلغة الضاد حيث تشكل اللغة رحماً وصلة بين أبناء الأمة مع كل تنوعاتهم. وقد عبّر عن الموقف شعراً:

ونحن في الشرق والفصحى ذوو رحم ونحن في الجرح والآلام إخوان

أما العرب فهم كل من انحدروا من أصول عربية، أو من استعربوا أيّاً تكن أصولهم السكانية، وفي إطار هذه العروبة السمحة يستطيع المستعرب أن يحافظ على بعض خصوصياته كلغة سابقة محكية أو مكتوبة، أو عادات وتقاليد للمناسبات أو اللباس.

لقد أكد ابن باديس ذلك قائلاً: إنّ العرب رُشّحوا هداية الأمم، وإنّ الأمم التي تدين بالإسلام، وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الإسلام، وهو لسان العرب فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها، ويهتدون مثلها بهدي الإسلام. علم هذا فيبين أنّ من تكلم بلسان العرب فهو عربي وإن لم يتحدّر من سلالة العرب، فكان هذا من عنايته بهم لتكثير عددهم لينهضوا بما رُشّحوا له.

يبين هذا في حديث رواه ابن عساكر في تاريخ بغداد بسنده عن مالك الزهري، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: قال النبي عليه الصلاة والسلام: (أيها الناس، الرّبّ واحد والأب واحد، وإنّ الدّين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنّما هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي)... فليس الذي يكون الأمة ويربط أجزاءها، ويوحد شعورها ويوجهها إلى غايتها هو هبوطها من سلالة واحدة، وإنّما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد: ولوضعت أخوين شقيقين يتكلم كل واحد منهما بلسان وشاهدت ما بينهما من اختلاف نظر وتباين قصد وتباين تفكير، ثم وضعت شامياً وجزائرياً - مثلاً - ينطقان باللسان العربي، ورأيت ما بينهما من اتحاد

وتقارب في ذلك كلّه، لو فعلت هذا لأدركت بالمشاهدة الفرق العظيم بين الدم واللغة في توحيد الأمم."

هذا البيان البادي سي يأتي للردّ على ما يعمل له الأجنبي الطامع بالجزائر والأمة العربية متوسلاً من أجل أهدافه الفتن والفرقة من خلال إثارة نغرات عرقية أو طائفية أو جهوية، وردّاً على الاستهداف الاستعماري انطلق المشروع التعليمي عند جمعية العلماء من الهوية بوصفها الأساس المكين لبناء شخصية الناشئة، وقد عبّر عن ذلك الإمام ابن باديس شعراً، لأنّ الشّعْر أيسر حفظاً وتداولاً على الألسنة. وكان بعض هذا الشعر نشيداً للأفواج الكشفية التي كوّنتها الجمعية، منه قول الإمام:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة يتنسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجاً له رام المحال من الطلب

بعد الهوية أوضح الإمام ابن باديس خيار الجمعية وكل الشرفاء الذي هو خيار مقاومة المشروع الاستعماري بإدماج الجزائريين بفرنسا، وضرب شخصيتهم الوطنية والقومية العربية.

وقال الإمام في نصّ شعري آخر:

أشعب الجزائر روعي الفدى لما فيك من عزّة عربية
بُنيت على الدين أركانها فكانت سلاماً على البشرية

وهذه الهوية التي لها مقومان رئيسان هما: العروبة والإسلام، وسمتها: السماحة والانفتاح، لن تتأصل دعائم بنيانها بغير اللغة العربية، فالعربية رحم بين العرب وكل المتعربين، والعربية ضرورية للدين لقراءة وتفقهها وفهماً وعبادات ومعاملات.

تأسيساً على ما تقدّم انطلقت مسيرة جمعية العلماء بكلّ عزم وتصميم، وبات من الصعب على الاستعمار الفرنسي الإستيطاني الإحلالي أن يعوّق هذه الحركة الميمونة، ولا يمكن أن يقوم بالمهمة أعوان المحتل من العملاء.

بدأت المقاومة الفكرية من خلال التعليم والتربية بأقوى وأرقى مستوياتها مع جمعية العلماء، وقد حدّد الرئيس الأول للجمعية المصلح النهضوي ابن باديس لحظة الانطلاق، وإشراقة نور شمس الشخصية التي يعتدّ بها كل جزائري حرّ، ونادى الجموع قائلاً:

أما بعد؛ فحيّاكم الله -تعالى- أبناء العروبة والإسلام وأنصار العلم والفضيلة. حوربت فيكم العروبة حتى ظنّ أن قد مات منكم عرقها، ومسخ فيكم نطقها، فجئتم بعد قرن تصدح بلبلكم بأشعارها فتثير الشعور والمشاعر، وتهدر خطباؤكم بشقاشقها فتدكّ الحصون والمعاقل، ويهزّ كتابكم أقلامها فتصيب الكلى والمفاصل."

بعد قرن مضى على احتلال الفرنسيين للجزائر، وكان هذا القرن قد عرف مجاميع شريفة من المقاومين وصل الرأي بعد جلسات شوروية بين الإمام ابن باديس والإمام الإبراهيمي وغيرهما استقر الرأي على أنّ الثورة التي تخلّص الجزائر من الاحتلال هي ثورة يقوم بها جيل مسلح بالانتماء الجزائري العربي، وبالإيمان والعلم والأخلاق، وتحقيقاً لهذا المقصد كان الخيار اعتماد العلم سبيلاً لنيل هذه المقاصد.

ومما قاله الإمام ابن باديس: "وحورب فيكم العلم حتّى ظنّ أن قد رضيتم بالجهالة، وأخلدتم للنذالة، ونستيم كل علم إلا ما يُرشّح به لكم، أو بما يمزح بما هو أضرّ من الجهل عليكم، فجئتم بعد قرن ترفعون للعلم بناء شامخاً، وتشيدون له صرحاً سامقاً، فأستتم على قواعد الإسلام والعروبة، والعلم والفضيلة، جمعيتكم هذه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين."

هذا الموقف أكّده شريك درب الإمام ابن باديس، ومن تولى رئاسة الجمعية بعد وفاته، الإمام محمد البشير الإبراهيمي الذي بين الإيمان الإسلامي والوطنية الجزائرية والعروبة هوية جامعة، حين جدّد طرح خيار فيه إصرار على التمسك بالهوية والمقاومة واللغة العربية، ومما قاله الإمام الإبراهيمي: "جمعية العلماء المسلمين هي التي حققت للجزائري نسبة العربي الصريح، بريئاً من شوائب الإقراف والهجنة، وأحيت في نفسه شعور الاعتراف بنفسه، وفي لسانه شعور الكرامة للغة، وفي ضميره شعور الارتباط بين المقومات الثلاثة: الجنس واللغة والوطن، يمدّها الشرق بسنانه، ويغذيها الإسلام بروحانيته وجمعية العلماء المسلمين هي التي أثبتت للاستعمار أنّ الدماء البريئة مازجت الدم العربي أصبحت عربية بحكم الإسلام."

الجمعية والتعليم العربي:

إنّ التعليم مطلب لكل ذي عقل فيه تكتمل شخصية الإنسان، وبالتعليم وكسب المعارف والخبرات يصبح الإنسان مؤهلاً للقيام بالأعمال والمهام الموكلة إليه، ومن خلال العلم قراءة وخطاباً وكتابة وتدويناً تتجلى مواهب المرء وملكاته وإبداعاته.

وإذا كان العمل تأهيلاً أو تنمية أو مقاومة لمستعمر وغاصب فإنّ العلم يشكّل المرتكز الأقوم، ولا علم بلا تعلّم، ولا تعلّم بلا عملية تعليمية أطرافها مُعلّم وطالب ومناهج وأساليب وأدوات وكتب ومختبرات، وكلّ ذلك يتحقّق في المؤسسة، لأنّ المؤسسات تتوافر في رحابها كل مستلزمات العملية التعليمية، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي شخّصت المشكلة التي أحدثتها المحتل الفرنسي، وما يقوم به من أجل تحقيق أهدافه وجدت أنّ مساعيه باتجاهين هما: حراسة الجهل والجمود، وقديماً قال بوذا: الجهل جذر لكل الشرور، والاستهداف الثاني هو: الفرنسية لضرب شخصية الجزائري

العربية والإسلامية، لهذا وجدت جمعية العلماء أن المدخل السليم للحفاظ على الشخصية والمقاومة والتحرير إنما هو نشر التعليم، وإقامة المؤسسات التي تتم فيها العملية التعليمية وهي: المدارس والنوادي والمساجد.

أما إذا يممنا شطر الإسلام الذي حمله النبي العربي محمد عليه الصلاة والسلام فإنّ الوحي الأول الذي حمله الأمين جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى إلى نبي الهداية والرحمة كان أوامر للتفكير والقراءة والكتابة، وما هذه العناصر سوى المكونات للعملية التعليمية الصحيحة والمجدية. الوحي الأول المنزل هو قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (سورة العلق، الآيات 1 - 5).

هذه العملية التعليمية لها مقومات أولها اللغة العربية، ولغة الوطن والأمة العربية، ولغة الدين. وقد أدركت جمعية العلماء موقع اللغة العربية فاخترت مسار المقاومة لإجراءات المحتل الفرنسي، وعزمت على مجابهته من الموقع الإستراتيجي الأهم الذي هو التعليم العربي مع إبراز أهمية هذا التعليم للأجيال. وبيان ذلك جاء على لسان الإمام محمد البشير الإبراهيمي الذي قال: "ولهذه اللغة على الأمة الجزائرية حقان أكيدان، كلّ منهما يقتضي وجوب تعلّمها، فكيف إذا اجتمعا؟: حقّ من حيث أنّها لغة دين الأمة، بحكم أنّ الأمة مسلمة، وحقّ من حيث إنّها لغة جنسها، بحكم أنّ الأمة عربية الجنس، ففي المحافظة عليها محافظة على جنسية ودين معاً، ومن هنا نشأ ما نراه من حرص متأصل في هذه الأمة على تعلم العربية."

الدين والوطنية، الإسلام والعروبة، العقيدة والشريعة والانتماء والاجتماع لأهل الأمة العربية، والجزائر الوطن ينتمي لهذه الأمة العربية، لا تستقيم حالهم إلا إذا صلح حال اللغة العربية، وإلا إذا تمت حمايتها من التحدي الذي فرضه المحتل الفرنسي.

لذلك وضعت جمعية العلماء اللغة العربية في أساسات مقاصدها، لأن الفرنسي نشر مدارسه، واستقطب الطلبة إليها، وفرض الفرنسية لغة رسمية للمعاملات والتداولات، ووضع قيوداً مشددة على فتح المدارس والمعاهد التي تقوم لتعليم العربية. بعد سنوات من انطلاقة الجمعية أدلى الإمام الإبراهيمي بتصريح يعرب عن هذا الموقف فقال: "جمعية العلماء التي تعدّ أشرف أعمالها تعليم العربية، قد أقامت خمسة عشر عاماً تطالب في غير ملل بحرية التعليم العربي الذي هو أساس التعليم الديني، وما زالت تصارع العوارض الحائلة، وهي عوارض القرارات الإدارية، والقوانين الموضوعة لخلق العربية وقتلها".

وتعليم اللغة العربية عدته جمعية العلماء حركة ثورية ترفع مستوى الاهتمام باللغة ثورة على أمر واقع فرضه الغاصب المستبد الذي وجد أن ضرب العربية مدخلاً لإلغاء الشخصية، يضاف إلى ذلك أن العربية تحقق ارتباط آتات الزمن في مراحل التاريخ فالأمة التي لا تعرف تاريخها وماضيها، وما حقيقة إنجازات السلف تكون أمة بلا ذاكرة. والعربية هي توأم التفكير وأساس التواصل كي تتماسك حلقات سلسلة أهل مجتمع الوطن، فتتجلى الوحدة بأبهى معانيها وصورها، ويصبح الجميع صفاً لافراغات فاصلة بين مداميك بنيانه، والعربية بها تبحر سفينة النجاة بالأمة إلى برّ الأمان فتكون النهضة والحضارة.

هذا هو مفهوم الجمعية لدور اللغة العربية، وقد قال الإمام ابن باديس في هذا: "إن الجمعية التي بثت روح النهضة في الأمة بما دعت إليه من الرجوع إلى الكتاب والسنة، والمحافظة على الجنس واللغة، والاعتزاز بالإسلام والعروبة حتى عرفت الأمة نفسها، ووجهت للحياة السعيدة رغبتها".

يضاف إلى أسباب اهتمام الإمام ابن باديس باللغة العربية التي ذكرت سابقاً، سبب هو أنّها بين العوامل الرئيسة في وحدة الأمة العربية، فوحدة العرب لها عوامل ومقومات، واللغة في أساسها، فيها يتخاطبون، وبها يبثون مكنونات النفوس، وبها يعبرون عما تحمل بها العقول من أفكار، وبما تحطّه الأقلام يحفظون ثرواتهم الفكرية والأدبية وتراثهم وتاريخهم. ولأنّ الإسلام كان من بين تجلياته استكمال بناء شخصية الأمة العربية فإنّ اللغة العربية أساس لا غنى عنه لقراءة القرآن الكريم، وتفسير آياته، وفهم معانيه، وبعد التعرّف على السّنة النبوية الشريفة والفقهاء ونشر الدعوة.

قال الداعية الشيخ ابن باديس: "هذه الأمة العربية تربط بينها زيادة على رابطة اللغة، رابطة الجنس، رابطة التاريخ، رابطة الأمل، ورابطة الأمل، فالوحدة القومية والأدبية متحقّقة بينها لا محالة".

هذه الروابط التي تشكل مقومات وحدة الأمة العربية، وأولها اللغة العربية واللسان العربي، ليست موجهة ضد المسلمين غير العرب، وسبب هذه اللفتة أن الشعوبيين قديماً وحديثاً ينالون من العرب والعروبة خطأً من شأنهم ولا يدرون أنهم بذلك يسيئون للإسلام نفسه، وهناك بعض العرب ممن لم يفقهوا فضل الإسلام على العروبة فإذا بهم يعمدون إلى إفراغ العروبة من روحها، وهؤلاء غير موفقين، وجدلية العلاقة بين العروبة والإسلام لا انتقاص فيها من موقع العرب غير المسلمين، ولا عناية المسلم غير العربي بالعربية بذى أثر سلمي على انتمائه لوطنه وأمته.

هناك بيان جميل وبلوغ، صاغه الإمام ابن باديس خطاباً بعبارات إقناعية أنيقة المفردات والإنشاء، هذا الخطاب البيان هو:

"حقّ على كلّ من يدين بالإسلام، ويهتدي بهدي القرآن، أن يعتني بتاريخ العرب ومدنيّتهم، وما كان من دولهم وخصائصهم قبل الإسلام، ذلك

لارتباط تاريخهم بتاريخ الإسلام، ولعناية القرآن بهم ولاختيار الله -تعالى- لهم لتبليغ دين الإسلام، وما فيه من آداب وحكم وفضائل إلى أمم الأرض، فإما أنهم قد ارتبط تاريخهم بالإسلام، فلأن العرب هيئوا تاريخياً لأجل أن ينهضوا بأعباء هذه الرسالة الإسلامية العالمية، ولأن الله -تعالى- الحكم العدل الذي يضع الأشياء في مواضعها بحكمة، ويأمرنا أن ننزل الناس منازلهم في شريعته، ما كان ليجعل هذه الرسالة العظيمة لغير أمة عظيمة، إذ لا ينهض بالجليل من الأعمال إلا الجليل من الأمم والرجال. ولا يقوم بالعظائم إلا العظام من الناس.

وأما عناية القرآن بالعرب فلأجل تربيتهم لأنهم هم الذين هيئوا لتبليغ الرسالة، فيجب أن يأخذوا حظهم كاملاً من التربية قبل الناس كلهم، ولهذا نجد كثيراً من الآيات القرآنية في مراميها البعيدة إصلاح لحال العرب وتطهّر مجتمعاتهم، وإثارة لمعاني العزة والشرف في نفوسهم، ومن هذه الآيات التي يذكر بها العرب أنّ هذا القرآن أنزل بلسانهم مثل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، والذين يعقلون القرآن قبل الناس كلهم هم العرب. ومن أول القصد إلى العرب والعناية بلسانهم وتبنيهم إلى أن القرآن أنزل بلسانهم دون جميع الألسنة، جلباً لهم حتى يعلموا أنه أنزل لهم وفيهم قبل الناس كلهم.

وإنه من المفيد البيان مجدداً أن أمة العرب تتسع لكل عربي ومستعرب، وإن من انتمى لهذه الأمة العربية يمكنه أن يحافظ على خصوصياته العقدية، أو في العادات، أو في لغة يتداولها مع محيطه، فالعروبة ترحب بالتنوع والتعددية تحت سقف الوحدة.

لقد اعتنى علماء الجمعية من الإمام ابن باديس إلى الإمام الابراهيمي إلى سواهما بعلوم القرآن الكريم - خاصة التفسير - وهذا لا يكون بغير اللغة

العربية ولذلك توجهت العناية لها، فالأمر المسلّم به أن مصدرى اللغة العربية هما: النص القرآني، والشعر العربي القديم.

ولبيان ذلك تفيد العودة إلى بعض ما ورد في مقدمات تفسير القرطبي المعنون: (الجامع لأحكام القرآن):

1- روى جوير، عن الضحّاك، قال: قال عبد الله بن مسعود: (جوّدوا القرآن، وزيّنوه بأحسن الأصوات، أعربوه، فإنه عربي والله -تعالى- يحبّ أن يُعرب به).

2- وعن محمد بن عبد الرحمن بن زيد، قال: قال أبو بكر وعمر - رضي الله تعالى عنهما -: (لبعض إعراب القرآن، أحبّ إلينا من حفظ حروفه)،

3- وعن علي بن الجعد، قال: سمعت شعبة - بن الحجاج - يقول: (مثل صاحب الحديث الذي لا يعرف العربية، مثل الحمار عليه مخلاة، لا علف فيها).

4- حدّثنا عبيد بن عبد الواحد بن شريك البزار، قال: حدّثنا ابن أبي مريم، قال: أنبأنا ابن فروخ، قال: أخبرني أسامة، قال: أخبرني عكرمة أنّ ابن عباس، قال: (إذا سألتموني عن غريب القرآن، فالتسموه في الشعر، فإنّ الشعر ديوان العرب).

لكن هذا التعليم العربي الذي عملت له جمعية العلماء لم تكن طريقه مفروشة بالورود، بل حاربه المحتل الفرنسي، وأصدر القوانين والقرارات الإدارية لوضع القيود عليه، وساعده في ذلك بعض من سلموا للمحتل وكانوا عملاء له، أو من تباروا في إتقان اللسان الفرنسي مهملين كل الإهمال لغتهم العربية؛ لغة الدين والوطن. وقد بثّ الإمام الإبراهيمي الشكوى من ذلك قائلاً: "كلّ الوسائل التي تتدرّج بها حكومة الجزائر لمقاومة التعليم العربي هي: إمّا قوانين أصدرها مجلس الأمة في فرنسا في أوقات

مختلفة، ولأسباب متنوّعة، وإما قرارات إدارية فردية، مصدرها الجزائر، ومبناها على إيعازات بوليسية، توجبها الروح الاستعمارية؛ والنوع الأول غالبه عام مطلق، يشمل كل تعليم حرّ لم تباشره الحكومة، بأيّة لغة كان، ومن أية جمعية صدر، والثاني خاصّ بنا معشر المسلمين، مصبوب علينا وحدنا، موضوع بالقصد المباشر للتضييق على لغتنا وديننا."

وهذه القوانين الفرنسية الاستعمارية أو القرارات الإدارية كانت عبئاً ثقيلاً على العربية، وكان ذلك في إطار العمل لنسخ شخصية الجزائر الوطن عروبة، والإسلام بوصف العربية أساس فيه. ويكمل الإمام الإبراهيمي متابعاً البيان لخطر الاستعمار الفرنسي الإحلالي الذي يريد إدماج الجزائر بفرنسا وإلغاء عروبتها، فيقول: "كلا النوعين شرّ على التعليم العربي وبلاء وإرهاق وتضييق، أمّا القرارات فإنّها لم توضع إلا لذلك. ولم تتركب موادّها إلا للإهلاك؛ لأنّها صادرة عن نفوس متشبّعة بالاستعمار القائم. حتى إن الدولة المؤقتة التي تشكلت بالجزائر سنة 1943 لم تنسنا - وهي في أشدّ أوقاتها ضيقاً وحرّجاً- فزادت في حبل تلك القرارات طاقة، ليس للمدارس بها طاقة؛ وأمّا القوانين فإنّ شارعها وواضعها لم يراع فيها وضعية الأمة الجزائرية ولا موضع تعليم العربية من دينها."

ووصل الأمر بالغاصب الفرنسي في التضييق على التعليم العربي إلى إجراء تعسفي فرض فيه الرخصة لكل مدرس في التعليم العربي، ولم يكتفِ بالترخيص للمدارس فقط. وقد بيّن ذلك الإمام الإبراهيمي في قوله: "وأول الموادّ في قوانينها الأساسية أنها جمعيات تعليم ديني عربي، فإذا كان في مدرستها معلم أو معلمون فهي الضامنة فيهم والمسؤولة عنهم. فمن العدل أن يكون الترخيص في تشكيل الجمعية ترخيصاً لها في التعليم ما دامت هي المسؤولة عن المدرسة والمؤسسة لها. ومن الشطط، بل من الظلم، بل من

التناقض، بل من المحال العادي، أن تطالب بعد ذلك بترخيصات شخصية لكل معلم."

لقد كان الفرنسي يتخذ الإجراءات في منع التراخيص لمدارس ومعاهد - خاصة التي تعلّم العربية- وقد يماطل في الترخيص لمدرسة لسنوات، وبالمقابل تجده خلال ساعات يمنح التراخيص لخمارة أو للمهوى ليلي أو لأي مكان ينشر المفاسد والرذائل، وما ذلك إلا لأن المحتل كان يعلم أن خير أنصاره الجهل والرذيلة، وأنّ أعدى أعدائه التعليم العربي ونشر المعارف.

وقال المربي الشيخ الابراهيمي في هذا: "لم تقف الحكومة في حرب التعليم العربي ومضايقته عند تلك الحدود التي شرحناها وقبحناها، وتلك القوانين والقرارات التي جرّحناها وفضحناها، بل أتت في هاتين السنتين الأخيرتين بما هو أقبح وأدلّ على سوء النية في التضييق على مدارسها والتعطيل لها، وابتكرت أنواعاً من العرقلة، أخرجت بها القضية من باب القانون، والنظام، والمحافظة على الصّحة، إلى باب العناد السخيف، والمعاكسة اللئيمة."

لكن جمعية العلماء التي وضعت في رأس قائمة مواد نظامها الأساسي وأهدافها تعليم اللغة العربية لموقعها في الدين والرابطة القومية العربية والوطنية الجزائرية، فقد زاوت مهامها في هذا الاتجاه بلا ملل ولا كلل ولا ضعف ولا خذلان، ولم تبال بتعسف المحتل ولا بإجراءاته، لا بل زادها التضييق إصراراً وعزيمة وقوة، وفي هذا قال الإمام الإبراهيمي: "لها أعمال في ميدان التعليم العربي، لا يعترها الفتور والتخاذل ولا النكوص والتراجع، لأنّ الدافع إليها طبيعي وحيوي."

ختام الجولة مع الإمام ابن باديس الذي أكد بأن اللغة والبيان تعبير عن إنسانية الإنسان، والبيان العربي ضرورة لا غنى عنها للأمة وللإسلام. قال الإمام ابن باديس: "الحمد لله -تعالى- الذي جعل الإنسان بالبيان، وجعل البيان

بالقرآن، فالإنسان دون بيان حيوان أباكُم، والبيان دون قرآن كلام أجذم،
وذو البيان والقرآن هو الأكمل الأعظم."

وأساس البيان الإسلامي والعربي هو اللسان العربي، فالقرآن الكريم
أوحاه الحق سبحانه بلسان عربي مبين.

الخاتمة والتوصيات:

جمعية العلماء المسلمين بشخصياتها التي شكّلت قامات مديدة، ومنارات
في تاريخ وذاكرة الجزائر والأمة العربية والعالم الإسلامي وكلّ الشعوب التي
طلتها جرائم الغاصبين، وبمقاصدها ومبادئها، وخططها في صناعة النهضة
والحضارة، شكّلت تجربة لها سمات الريادة في حركات المقاومة والتحرّر
وصناعة التقدّم، وقد تميّزت أنّها بنظمها وفعاليتها ومكوناتها كانت تطرح
الفكر وترسم الخطى، وتسهر في الوقت عينه على التنفيذ.

هذا التميّز مرده أنّ الأمة عرفت مفكرين نهضويين وإصلاحيين،
وأصحاب فكر ورؤى ثورية تحرّرية، وكان هناك حركات ومناضلون حملوا
هذه الأفكار والتوجهات التحرّرية؛ أما جمعية العلماء فقد كان قاداتها، وفي
مقدمتهم الإمامان ابن باديس والإبراهيمي، مفكرين ومنظرين، وقادة التنفيذ
والعمل والإنجاز.

أما التميّز الآخر فهو الذهاب باتجاه ثوري نهضوي تحرري سليم يقوم
على أن إعداد الجيل هو المهمة الأولى، وهذا الجيل هو من سيقود العمل
التحرري لنيل الاستقلال ولصناعة التقدم، وقوّة عمل الجمعية تمثّلت فيما
يسمى التعليم المستمر المرافق لكل مراحل العمر، الذي وجّه إليه الحديث
النبوي الشريف: (أطلب العلم من المهد إلى اللحد). وتحقيقاً لهذه الغاية
كانت مع المساجد والمدارس والمعاهد النوادي كي يختار كل فرد من المجتمع

ما يناسبه من مواقع التحصيل العلمي والمعرفي، وذلك حسب سنّه واهتماماته ومشاغله.

التمييز الثالث كان في سلامة الاختيار القائم على أن أساس التعليم كلّهُ هو التعليم العربي، فبالعربية السبيل إلى معرفة الإسلام والدفاع عنه، وبالعروبة حفاظ على الشخصية الوطنية الجزائرية، وبالعروبة الحضارية الجامعة رابطة لأبناء الأمة العربية، وتحقيقاً لاتحادهم ووحدتهم لمواجهة كل الاستحقاقات والتحديات.

والعروبة جامعة لكل مكوناتها مع تنوع المعتقدات والمذاهب والأصول العرقية، فالكل عربي ما دام قد تعرّب أو كان عربي اللسان والحضارة والهوية الثقافية.

هكذا كانت القطوف دانية، والثمرات يانعات، حيث قدمت جمعية العلماء المسلمين للجزائر والأمة العربية، ولثورة التحرير وصولاً إلى الاستقلال جيلاً واعداءً معداً مسلحاً بالعربية وبالإيمان وبالمعرفة وبالأخلاق.

وتحقق الاستقلال بعد الثورة المظفرة في 5/7/1962، وخرج المحتل الفرنسي حاملاً عصاه على كتفه مثقلاً بالخيبة والخذلان، فكانت الجزائر العروبة والإسلام والثورة نموذجاً يستحق الوقوف أمامه، وهذا النموذج الذي كان فيه لجمعة العلماء الدور الأبرز يَصُلُح في كل الحقب والظروف من أجل صناعة التحرير والتحرر وطرد الغاصبين وصدّ كل عدوان.

بعد الاستقلال كان من الضروري أن تتواصل الفعاليات من أجل إنجاز التعريب في الجزائر وفي كل بلد عربي أو غير عربي نالت منه يد الاحتلال وجرائمه من أجل استكمال تكوين الشخصية الوطنية في رحاب الهوية الثقافية التي هي العروبة والإسلام.

تأسيساً على ما قدّمته تجربة جمعية العلماء المسلمين، فقد كانت حركة التعريب في الجزائر بعد الاستقلال شاملة لكل الميادين، من التعليم إلى المؤسسات الحكومية إلى التداول والتعامل بين أبناء مجتمع الوطن في خطابهم وتقاليدهم. وقد تحدث أحد الخبراء حول التجربة الجزائرية في التعريب، ومما قاله: "فقد اعتبرت الجزائر أنّ التعريب ينبغي أن يقوم على رابطة التلازم بين تعريب التعليم من جهة أساسية، وتعريب الإدارة العمومية من جهة ثانية، وتعريب الشارع والبيئة الاجتماعية والاقتصادية من جهة ثالثة... كانت التجربة الجزائرية في منبتها مشرقية المرجع قومية السند. وإذا صح هذا الافتراض فإنه يرجع في نظري إلى اعتماد الجزائر في منطلق التجربة على مصر وبعض البلاد العربية الأخرى مثل فلسطين وتونس لجلب المعلمين والأساتذة الذين عهدت إليهم بتعريب التعليم والإدارة. ولعل هذا الطابع الشرقي يتأكد بصفة خاصة مع مصر الناصرية إذا اعتبرنا العلاقة الشخصية بين هواري بومدين وجمال عبد الناصر، والتجانس في بعض الاختيارات السياسية الكبرى بين مصر والجزائر، فيما يهمّ نوع الحكم وأسلوب الممارسة، وفيما يتعلق - أيضاً - بالتصرف في الشؤون الاقتصادية."

وحركة التعريب هذه تعزّز رابطة أساسية من روابط الوحدة العربية، وتحقق الاتصال والتواصل مع التاريخ والتراث والسلف، لكل هذا يفيد بيان هذه الحقيقة في كل مناسبة، كي لا يغفل أحد من أبناء الأمة عن موقع اللسان العربي رحماً واصلاً، وفكراً جامعاً، ورابطة لا تنفصم عرى الوحدة مع رسوخها.

قال أحد الخبراء المعاصرين تحت عنوان: (في الوحدة واللغة):

"فالوحدة الثقافية في الأمة العربية موصولة لم ينقطع سندها، على مرّ العصور بسبب هذا اللسان الجامع... وهنا لا بد من التعرض في إيجاز إلى

الصلة بين اللسان القومي والوحدة العربية... بدأت الأمة العربية المجتمعة حول لسانها وتراثها، تتلمّس الطريق إلى وحدتها انطلاقاً من أكبر قاعدة تاريخية وفكرية واجتماعية موحّدة هي اللغة العربية، وميراثها الحضاري الضخم الموصول في نهر متدفق عريض... وهكذا، ارتبطت الوحدة العربية، في مضمونها، بهذا التراث الحضاري الخصب، كماً وكيفاً، المتصل زماناً ومكاناً، الذي ظلّ اللسان العربي وعاءه ومستقرّه. وكان أمراً مشروعاً فكرياً وتاريخياً أن تتجمع الدعوة الوحدوية حول اللسان العربي بكلّ تراثه الفكري والروحي والعلمي، إلى جانب الحقائق الجغرافية والسياسية الأخرى."

والاستعمار الذي أدرك هذه الحقيقة المتمثلة في دور اللغة في الوحدة عمل على ضرب اللغة وإضعافها، وبذلك تكون مهمة التعليم العربي والارتقاء بدور اللغة العربية وطيناً في كل بلد عربي وعلى مستوى الأمة، مهمة عظيمة تحقق الوحدة الوطنية والوحدة القومية، ومعها التحرر من كل تبعية ثقافية أو فكرية للأجنبي، ومن التبعية الاقتصادية والسياسية والإدارية.

والمستعمر الذي خرج من الباب يحاول الدخول خلسة من النافذة عبر ما نراه ونسمعه اليوم من مستويات هابطة في مستويات استخدامات اللغة في وسائل الإعلام، ووسائل الاتصال (... WhatsApp-Twitter)، وفي الشبكة البينية (Internet)، وفي عالم الإعلان والمسرح وسواها، حيث نجد قبلاً من الناس مستهتراً بلغته غير واعٍ أن ذلك يخدم الطامعين لأنه يفكك عرى الوحدة، ويحدث انقطاعاً مع التراث والتاريخ، ويضعف القدرة على قراءة القرآن الكريم، وتحصيل علوم الدين.

إن الواقع الراهن الذي ينسبني على التجربة الرائدة لجمعية العلماء المسلمين، وسواها من الأنشطة والتجارب، ومع ذلك التحديات على هوية

الأمة العربية الثقافية ولغتها، توجب التصدي من أجل الارتقاء باللغة العربية ومبانيها في المصطلحات، والإنشاء، والمعاجم، وسائر المتعلقات.

وحبذا لو أنّ المسؤولين في الدول يراجعون ما يصدر من قرارات ومواثيق عن الملتقيات الرسمية والأهلية للاستفادة منها، من ذلك نصّ من البيان الختامي لمؤتمر وزراء الثقافة العرب المنعقد في العاصمة الأردنية عمّان في العام 1976م، وهو: "وجوب العمل على تعميم استعمال اللغة العربية، لغة للتعليم في جميع مراحلها وبجميع أنواعه، وفي البحث العلمي، ووسائل الإعلام والثقافة، باعتبار اللغة العربية القومية هي أهم دعامة للوحدة، وهي الوعاء الصحيح للثقافة الأصيلة للأمة، وأن أصالة التفكير العلمي لا ترسخ في الأمة إلا من خلال لغتها."

هذه الفقرة/البيان تمّت صياغتها بأسلوب متقن ودقيق، وتحوي مهمات جسام ملقاة على عاتق قادة العمل الثقافي والتعليمي والبحثي في الأمة.

تأسيساً على ما تقدم يخلص البحث إلى التوصيات الآتية:

1- إصدار القوانين والأنظمة التي تلزم مؤسسات التعليم كافة، وعلى مختلف المستويات، وفي كلّ المراحل، بتدريس كلّ المواد باللغة العربية ما عدا اللغة الأجنبية والآداب الأجنبية، وذلك لتيسير الاكتساب على الدارسين، ولجوادة الابتكار والإبداع من قبل العلماء عندما يستخدمون لغتهم العربية، وغير مقبول أن يقول قائل: إن بعض النظريات العلمية ابتكرها عالم غير عربي، والسؤال: وهل كل البلدان تدرس كل نظرية بلغة المكتشف أو المبتكر لعلم أو نظرية علمية؟ أم أن كل بلد يستخدم لغته القومية في التدريس في بلده؟ وهل نحن العرب غير سائر الأمم؟

2- توحيد جهود مجامع اللغة العربية، والتنسيق بينها وبين نشاط المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو) للقيام بجزء دقيق للمصطلحات

العلمية القديمة أو المستحدثة تمهيداً لتوحيد المفردات المستخدمة لها في التدريس والنقل إلى العربية وفي البحث العلمي.

3- التعاون بين مصادر القرار التعليمي والتربوي، وكلّ المرجعيات التي تتولى صياغة جديدة لعلوم اللغة العربية في النحو والصرف وأساليب الإنشاء، وتحديث المعاجم، مما يجعلها بإمكان أن يلبي احتياجات الأجيال، وما حدث من تطور، وبكلمة، وكما نقول في كل الأفكار والعلوم كافة: المنهج السليم عماده رسوخ في الأصل وتمسك به، ومواكبة للعصر وتحدياته ومستجداته.

4- القيام بمجملّة شاملة في إعادة التأهيل والإعداد الجيّد لمعلمي اللغة العربية، وللعاملين في وسائل الإعلام والإعلان، وللناشطين من خلال وسائل الاتصال والعمل الفني كي ترتقي استخداماتهم للغة، وأن يقلع الجميع عن أساليب هابطة حين يكتبون أو يتواصلون بكلمات مكتوبة بالأرقام أو الأحرف غير العربية.

5- وضع حدٍ للتداول غير المبرر للأسماء والمفردات، وأسماء الشوارع، أو أسماء الشركات والمؤسسات التي يستخدم أصحابها أسماء أجنبية، ومعظمها مشوهة وملحونة كثيراً ما تأتي غير سليمة في الكتابة أو النطق.

6- ختاماً نقول: اللغة بالممارسة لا بالمدارسة فلتكن اللغة العربية إذا لغة الإدارات والوثائق الرسمية، ولغة الخطاب، هذا مع التزام الأصول من قبل المسؤولين العرب لجهة وقف استخدام الخطاب والتصريح بغير العربية حيث يكونون، كما الحال في كل بلاد العالم وقوميّاته، وإلزام السفراء الأجانب في الدول العربية بالأصول المعتمدة، وهي أن يتحدثوا بالعربية في كل فعالية يكونون فيها في بلدان اعتمادهم سفراء، تحت طائلة اتخاذ الإجراءات المرعية عند المخالفة.

عبد الحميد بن باديس نتاج الفكر والتربية الروحية.

ا / ربيعة حنيش

ج. نيزي وزو

إن الهدف من تعليم اللغة هو ترسيخ قواعدها في ذهن المتلقي والعمل على تحقيق الاكتساب السليم لهذه اللغة، حتى يتسنى استخدامها في جميع مجالات الحياة، ولما كان للغة العربية قواعد تميزها عن غيرها، ورصيد لا يستهان به وجب العمل على تحديد الآليات المناسبة للاكتساب والبعد عن التحصيل الذي لا يدوم نتاجه لفترة طويلة.

تعتبر اللغة العربية أول لغة يكتسبها الطفل في المجتمع، وهي أول ما ينطق بها، لكن هل هذا الطفل سيستعمل هذه اللغة على المدى الطويل أو أنها ستتغير بمجرد دخوله المدرسة وباعتبار اللغة الأم في المجتمع الجزائري ليست واحدة بل هما لغتان: اللغة العربية واللغة الأمازيغية، فهل تعلم اللغة العربية المستعملة في المدرسة سيكون لها استيعاب وسهولة الاكتساب لدى الطفل الجزائري؟ وماهي الصعوبات التي تواجهه؟ وكيف يمكن تجاوز هذه العقبات وحل هذه المعضلة؟

وبما أن العامية منتشرة في المجتمع الجزائري، فإن الطفل تختلط عليه الأمور فهو ينطق اللغة التي اكتسبها في محيطه سواء كانت من الأسرة أم العائلة أم الحي الذي يعيش فيه، ثم يكتسب لغة أجنبية في الروضة، فهي اللغة المستعملة في هذه المؤسسات، ثم تأتي مرحلة المدرسة الابتدائية أين سيجد لغة جديدة عليه تعلمها وهي اللغة العربية الفصحى.

وتعلم اللغة له خصائصه فلكل لغة قواعد تبنى عليها ف: «تعلم اللغة معناه التمكن من نظم رمزية شكلية، تستخدم في التعبير عن المعاني المقصودة المرادة في مجرى الخطاب الاجتماعي واللغوي وإن أهم ما يميز اللغة، ليس ارتباطها بالخبرة المباشرة الاجتماعية في العالم الفيزيقي المباشر، وإنما أهم ما يميزها هو تلك التجريدات الخالصة الخاصة بها(الرموز)، وأن أصوات اللغة، وكتابتها ليست سوى تطبيقات على تلك الرموز اللغوية المجردة»⁽¹⁾

والهدف من تعليم اللغة هو اكتسابها حتى تبقى في الرصيد المعرفي على المدى الطويل عكس التعلم الذي يعتمد على جمع المادة اللغوية من دون شرط البقاء، والواقع أنه في مدارسنا الجزائرية يقل الاهتمام بالكسب اللغوي وذلك راجع لاهتمام الأساتذة بالتحصيل، وهنا يواجهنا مصطلحان هما الكسب والتحصيل ويجدر بنا الإشارة إليهما لما يحدث من خلط بينهما والحقيقة تقول أنهما يجتمعان في قاسم مشترك، لكن لكل مصطلح منهما عمل خاص. ولكي نفهم الفارق بين مادتي (ح.ص.ل)، (ك.س.ب) فيمكن النظر إليهما من منظورين: «أحدهما لغوي، والآخر رياضي. فمن الوجهة اللغوية تختلف حصل عن كسب، وبينهما جامع مشترك. فالتحصيل مجرد جمع حرفي لماديات أو معنويات، من دون شرط لبقاء المحصل دوماً في حوزة من حصله، إذ يمكن أن يذهب كله، كما جاء كله. وكذلك فليس في التحصيل خطة ذهنية يقوم عليها، ولكنه كلما قلنا مجرد: جمع ومراكمة أمور بعضها فوق بعض، أو بعضها إلى جواز بعض. وهنا يكون التحصيل بالمعنى التعليمي مركزاً في مقادير المعرفة التي جمعها المتعلم من الكتب واختزنها ليوم الامتحان»

⁽¹⁾ د/ حسنى عبد الباري عمر: قضايا في تعليم اللغة العربية وتدرسيها، المكتب العربي

الحديث، مصر، 1999، ص 31.

ولما كان الهدف هو تعليم اللغة وجب مراعاة كل الأمور المتعلقة بها، حتى يتمكن المعلم من اختيار المنهج الملائم لتدريس هذه اللغة على الوجه الصحيح، والذي يوصله للهدف الحقيقي، فلا يجب التركيز على جانب وإهمال آخر، فمثلاً نجد اشكالية قائمة في مدارسنا الجزائرية والمتمثلة في التركيز على الوفرة اللغوية : نطقاً وكتابة مع إهمال المعايير الواجب اتباعها والعكس يحدث فإذا تم مراعاة المعايير تهمل الوفرة اللغوية.

إعتمدت جمعية العلماء المسلمين طرائق وآليات نجحت من خلال استعمالها في نشر اللغة العربية وتعميم قواعدها، فهل يمكن تحيين هذه الآليات وما مدى نجاحها؟

لكي نتوصل إلى اجابة عن هذه التساءلات عملنا على البحث عن أصول مبادئ التربية والتعليم عند أعضاء الجمعية ومدى نجاحتها في بناء الشخصية الوطنية وترسيخ أسس التربية السليمة وقد اخترنا شخصية عبد الحميد بن باديس كنموذج للبحث كونه شخصية بارزة في الجمعية. فما هي أصول التربية عند ابن باديس؟ وما مدى نجاحها في تكوين شخصيته؟

يذهب معظم شيوخ الصوفية وكثير من الباحثين* ومنهم ابن خلدون إلى القول: «أن التصوف هو علم الأخلاق الدينية، ومن ثمة فهو مستمد من القرآن والسنة، وهناك فئة من الباحثين تعتبر الوظائف الثلاث الكبرى للنبوة المطهرة مصدرًا للتصوف الذي ورث أحد هذه الوظائف: «ومن ثم فهو مستمد من النبوة مباشرة»⁽¹⁾

* ومن الباحثين المعاصرين الذين ساندوا هذا الرأي نذكر: د/ محمد مصطفى حلمي، والشيخ حسنين مخلوف والدكتور عبد الحليم محمود وغيرهم.

⁽¹⁾ الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي: الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف الإسلامي، مصادره وآثاره، دار الفكر العربي، مصر، ص 164.

وقد شرح الدكتور حسن الشافعي هذا الرأي بقوله: « إن التصوف الإسلامي نشأ ضرورة لازمة في المجتمع السني المسلم انبثاقاً من ميراث النبوة المحمدية، إذ للنبوة ثلاث وظائف:

أولها: بلاغ الشرع وبيانه وتعليمه للناس.

ثانيها: سلطة تنفيذ الأحكام ومعاقبة المقصر وردع المعتدي.

ثالثها: تزكية النفوس وقيادة الأرواح في سيرها نحو الحق تعالى، قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ سورة الجمعة⁽¹⁾.

وقد كانت هذه الوظائف أو الجوانب الثلاثة متمثلة في شخص النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، فكان مبلغ أحكام الدين ومعلمها، وكان الحاكم المنفذ والراعي الحكيم للأمة بسلطان الشرع والنبوة وكان النموذج العلمي الكامل يرشد النفوس ويقود الأرواح.

ولقد بقيت هذه الجوانب مجتمعة - بعد الرسول ﷺ - في شخصية الخليفة الراشد ولما انقضى عهد الخلافة الراشدة، أخذت هذه الجوانب تتوزع تدريجياً داخل المجتمع السني المسلم، فظهر العلماء المجتهدون، فكانوا أولى الأمر العلمي وأهل الذكر الشرعي...

وقام أكثر الأئمة على تنفيذ الشرع ورعاية الأمة، أو سياسة الدنيا بالدين كما يقول ابن خلدون، بقدر توفيق الله لهم، وبما منحوا من حق الطاعة من جانب الأمة التي اختارتهم... وهؤلاء هم أولو الأمر العلمي.

⁽¹⁾ حسن الشافعي، فصول في التصوف، دار الثقافة، 1992، ص 65-67.

أما ورثة النبوة في إرشاد النفوس وتربيتها وقيادة الأرواح فقد شغل به قوم من الزهاد والعارفين بعد عصر الصحابة والتابعين، وربما جمع بعضهم بين الاجتهاد في العلم والعمل كالجنيد والبصري والغزالي وابن عبد السلام. وهذا الجانب الأخير من تراث النبوة هو الذي صدر عنه التصوف الإسلامي مستمدا الأسوة من حياة النبي ﷺ وصحابته. فكان الصوفية - بهذا - ورثة النبي ﷺ في هذا الجانب، فاهتموا بالتزكية والتربية وإعداد النفوس لوصول بارئها، وصقلها لتلقى تجلياته وأنواره من خلال منهج أخلاقي وسفر روحي، ومتابعة جادة لمسلك النبي ﷺ طلبا للشهود واليقين وسعيا للكمال الإنساني.

ثم يستنبط الباحث النتيجة المقصودة قائلا: ذلكم هو أساس التصوف الإسلامي ومصدره.. فالتصوف ظاهرة سنوية نشأت بين أهل السنة والجماعة، وصدرت عن أسس إسلامية، وهذا لا يمنع أبدا - بل لعل هذا هو ما حدث فعلا - أنها تأثرت في رحلة تطورها بمؤثرات خارجية، كان لها أثر ملحوظ في صبغ هذه الظاهرة السنوية الإسلامية ببعض الألوان الجديدة، مع بقاء الظاهرة مرتبطة بأصولها الأولى.⁽¹⁾

ويبدو من خلال رأي الأستاذ أنه حصر وظائف النبوة في ثلاث وظائف فقط في حين أنها: «أوسع وأشمل»⁽²⁾، كما أنه يبرز ما هو حقا واقع، فهذه الجوانب التي ذكرها هي حقا تعاني من الانفصام في الواقع الإسلامي المعاش.

ويعتبر ناشر الطريقة الرحمانية الشيخ سيدي عبد الرحمن بن أحمد بن حمودة بن مامش المعروف بباش تارزي الجزائري منشأ القسنطيني دارا ومدفنا رحمه

⁽¹⁾ الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي: الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف الإسلامي، ص 166.

⁽²⁾ ابن باديس: الشهاب ج1، م 13، 1937، ص 220.

الله تعالى ورضي عنه، واحد من دعاة التربية ووضع الأسس الصحيحة لذلك، وقد قال العلامة ابن باديس: «ندبني الشيخ المذكور إلى إعانته على نشر المنظومة الرحمانية بالوقوف على تصحيحها فلبّيت طلبه راجيا من وراء ذلك أن يتذكر الإخوان ما عليهم في هذا الطريق الشرعي من الأدب العملي والعلمي ويعلموا أنهم لا يكفيهم في ترقية نفوسهم مجرد الانتساب الأسمى فيدعوهم ذلك إلى العلم والتعلم اللذين لا سعادة في الدارين بدونهما ولا تقدم، فيفقهوا حينئذ حقيقة الدين ويتنفعوا بنصائح المرشدين ويكونوا يوم ذاك إن شاء الله تعالى من المهتمدين والله المسؤول أن يهب التوفيق والنفع والثواب لكلّ ساع في خير المسلمين.»

ويضع ناشر الطريقة الرحمانية تسعة شروط موجودة عند أهل التربية تحفظ المرء من السقوط سنذكر البعض منها والمتمثلة في:

1- كثرة الذكر

2 - كثرة المذاكرة التي تفتح البصيرة

3 - الزيارة للمربي والتي بها يتربى المرء ويرتق ودعوة لزيارة ابن عبد الرحمان

4- الابتعاد عن كل ما يبعد المرء عن ربه، وما يجنبه الصدق والنية، والدعوة لتجنب مصاحبة كل من يطعن في الشيوخ، وكل من هو منهمك بجمع المال والدنيا الفانية، مع التوجه لله بالدعوات حتى لا يبلغ الحضيض، ويحض صاحب الطريقة الرحمانية الجمع بين هذه الأمور الأربعة حتى لا يزول حفظ الورد من الصدور

5- الدعوة لاتباع أمر الشيوخ وحفظ حرمتهم أمواتا كانوا أو إحياء إلى آخرها....

يعتبر الجانب الروحي في الإسلام أحد الأسس التي قام عليها الدين الإسلامي، فعلم التزكية يعد من أهم الوظائف التي أمر النبي عليه الصلاة

والسلام بتبليغها، معلّمًا ومزكّيًا ومرّيًا، وهذه من مقتضيات النبوة وعناوين التبليغ الذي أمره بها ربه.

ويعتبر المشايخ من المتصوفة هم المدرسة المثالية لمنبع التربية السليمة وأسسها التي تزرع في المرء روح الوطنية وتصنع منه شخصية، فهم يعملون على تزكية النفوس قبل زرع العلوم فيكون للمتعلّم هدف مبني على أسس متينة لا تزعزعها الظروف والمثيرات المحيطة به.

ولنا في العلامة ابن باديس المثال الحي الذي يعتبر ثمرة زرع المشايخ المتصوفة بذورها، فنشرت حلاوتها علما وفقها وتربية فصار معلما ومرّيا ومصّلحا، وكان له الفضل الكبير في نشر العلم وأصول الدين وبعث روح الوطنية في الجزائر.

وقد اخترنا الحديث عن شخصية "عبد الحميد ابن باديس" كونه معروفًا في الوسط الثقافي بعلمه وجهده الذي بذله في سبيل نشر العلم في المجتمع الجزائري، وقد عمل على ترسيخ مبادئ الوطنية، ونشر أسس التربية التي تلقاها على أيدي أساتذته، وهذا اعتراف عظيم منه بالجميل، حيث يرجع الفضل لأساتذته في تكوين فكره منذ أن كان صغيرا إلى أن أصبح رجلا وكان يدعو أساتذه « طاهر الجزائري » المهاجر من الجزائر إلى بلاد الشام بـ «شيخى»، وقد كتب عنه دراسة طويلة في مجلة الشهاب تحت عنوان «شيخى»، جاء فيها قوله: «هو الذي ربى عقلي، وهو الذي حبب إليّ هذا الاتجاه الفكري منذ كنت طفلا إلى أن صرت رجلا ولا أعرف مؤلفا، ولا حامل قلم نشأ في ديار الشام إلا وقد كانت له صلة إما مباشرة أو بواسطة الذين استفادوا منه...»، «وبالإجمال هو جرثومة الخير الأولى»

وقد تأثر ابن باديس بشخصيتين أهمهما المتصوف العالم الشيخ «حمدان لونيبي» القسنطيني، نزيل المدينة المنورة ودفينها، وهو الأستاذ الذي تلقى

عليه دراسته الابتدائية في اللغة العربية والثقافة الإسلامية بمدينة قسنطينة قبل أن يسافر للدراسة في جامع الزيتونة بتونس سنة 1908».

وقد ظل ابن باديس يذكر أستاذه بإجلال كبير طوال حياته، ومن الوصايا التي يذكرها ابن باديس كان قد أوصاه بها شيخه هي: «أن يقرأ العلم للعلم لا للوظيفة ولا للرفيق»⁽¹⁾.

ويعتبر ابن باديس مشايخه هم أصل التربية ومرجع التثقيف اللذين أوصلاه إلى الغايات المثلى وفي هذا يقول: «وأذكر منهما رجلين كان لهما الأثر البالغ في تربيتي وفي حياتي العملية وهما من مشايخي الذين تجاوزوا بي حد التعليم المعهود من أمثالهم لأمثالي إلى التربية والتثقيف، والأخذ باليد إلى الغايات المثلى في الحياة... وإني أذكر للأول (حمدان لونيسي) وصية أوصاني بها وعهدا عهد به إليّ فأذكر ذلك العهد في نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي كله فأجدني مدينا لهذا الرجل بمنة لا يقوم بها الشكر، فقد أوصاني وشدد عليّ ألا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حبيت ولا أتخذ علمي مطية لها كما كان يفعل أمثالي في ذلك الوقت»⁽²⁾.

وقد استطاع الشيخ «حمدان لونيسي» العالم المتصوف أن ينفذ إلى أعماق نفسية تلميذه فيطبع حياته العلمية والعملية بطابع روحي وأخلاقي لم يفارقه طول حياته، وقد ظل ابن باديس يذكر تأثير شيخه على نفسه بكل إجلال واحترام حتى آخر رمق في حياته»⁽³⁾.

(1) الدكتور تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس، رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط4، 1981، ص 164.

(2) أ د محمد الصالح رمضان: نشأة ابن باديس، مجلة إفريقيا الشمالية، ص 43.

(3) ابن باديس: الشهاب، عدد خاص، 1938، ص 288 - 291.

وهذا ما كان للشيخ محمد عبده فهو بدوره قاده القدر في بداية حياته العلمية إلى الالتقاء بشيخ متصوف زاهد يمتاز بنور البصيرة أكثر مما يمتاز بسعة العلم والمعرفة، فقد التقى بالشيخ «درويش خضر» خال أبيه وهو شيخ متصوف زاهد، فينقلب محمد عبده، وكأنه شخص آخر حتى كأن عصا سحرية قد مسته، فقد استطاع الشيخ «درويش» أن ينفذ إلى أعماق نفسية ووجدان محمد عبده وأن يؤثر فيه تأثيراً بعيد المدى انقلب معه محمد عبده الذي كان هاربا من الدراسة لجفاف أسلوبها وعقم طريقتها إلى محمد عبده الذي أصبح ينشد الصفاء الروحي والتعليم كي يستطيع فهم القرآن الكريم وإعداد نفسه ليهتدي ثم يهدي غيره»⁽¹⁾.

يبدو أن الجانب الروحي أهم الجوانب التي يركز عليها المشايخ المتصوفة في عملية التربية، فتزكية النفوس ومجاهدتها، وصبرها على الشدائد شرط من شروط التربية والمشيخة، يقول الشيخ نجم الدين كبرى: «لا تصح التربية والمشيخة إلا لمن سلك الطريق وأبصر المذموم والمحمود في الغيب وقاسى بلاء هواجم العظمة من الهيبة والموت والفناء، ولا يصح للمجذوب فإن المجذوب وإن ذاق المقصود ولكن لم يذق الطريق إلى المقصود فلم يصلح للتربية والمشيخة لأن التربية والمشيخة هما الدلالة والخفارة في الطريق».

ولما كان للمشيخة تبنى على الصحبة واللقاء كان طالبو المعرفة ينتقلون من مكان لآخر للاستفادة منه وفي هذا يقول الشيخ زروق: «اعلم أن الأوائل من القوم لم يكن لهم ترتيب في المشيخة معروف، ولا اصطلاح لهم في السلوك مألوف، وإنما كانت الصحبة واللقاء، فكان الأدنى منهم إذا لقي

⁽¹⁾ الدكتور تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس، رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص 164.

الأعلى استفاد برؤيته أحوالاً؛ لأن من تحقق بحاله لم يخل حاضروه منها والأحوال موروثه»⁽¹⁾.

وبتغير الأحوال الاجتماعية انغمس الناس في ملذات الحياة ونسوا ما ينتظرهم من حساب، ويؤرخ لنا ابن خلدون هذه المستجدات بقوله: « فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة»⁽²⁾، فأصبح التصوف علماً مستقلاً بذاته عن بقية العلوم، بفضل رجال أهل ذلك الفن، وهم الشيوخ العارفون بالله، والذين وضعوا مدونات للتعريف بهذا الفن واستمداده من الشرع، وثماره كما أنهم تناولوا أحكام المشيخة والتربية وأمراض القلوب وأدويتها... على غرار ما فعل شيوخ العلوم الأخرى. يقول ابن خلدون: «وصار علم التصوف في الملة علماً مُدُوناً بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط، وكانت أحكامها إنما تتلقى من صدور الرجال، كما وقع في سائر العلوم التي دُوِّنت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك»⁽³⁾.

وفي الأخير يمكننا القول أن الأسس التي بنيت عليها التربية عند المشيخة هي أسس متينة جاءت ثمارها ناضجة، وصنعت شخصيات كان لها الفضل في الإصلاح والتوعية وبناء الشخصية الوطنية ويبدو أن التركيز على الجانب

(1) أنظر الأستاذ أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص 283.

(2) الشيخ أحمد زروق آراؤه الإصلاحية: تحقيق ودراسة لكتابه: «عدة المريد الصادق» (إعداد: إدريس عزوزي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية سنة 1419 هـ - 1998 مطبعة فضالة. ص: 272.

(3) ابن خلدون، المقدمة، 3/ 989، دراسة وتحقيق وتعليق: علي عبد الواحد وافي، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 4، 2006م.

الروحي هو ما جعل الطريقة ناجحة، وحبذا لو انتهجنا هذه السبل في تعليم أبنائنا وتربيتهم وزرعنا فيهم حب المعرفة والعلوم لذاتها لا لغايات مادية فانية.

ابن باديس ومحمد عبده مثالان حيان لنضج ثمار التربية والمشيخة، ففاحت رائحة الحلاوة منهما فانتشرت مبادئ الوطنية التي قاما بزرعها في الأوساط الشعبية، وهما المثال الحي لقوة الشخصية التي بنيت دعائمها على أسس التربية السليمة التي طبعتها المشيخة فيهما.

الأصول التربوية لدى ابن باديس:

إن العمل الديني لابن باديس لا ينفصل عن العمل الثقافي « فالشعب الجزائري شعب مسلم، طبعه الإسلام على تعظيم العلم، وحب التعلم، واحترام المتعلمين»⁽¹⁾

«والمسلمون مطالبون دينيا بأن يكونوا مسلمين اسلاما ذاتيا، ولذلك سبيل واحد، هو التعليم، فلا يكون المسلم مسلما حتى يتعلم»⁽²⁾

واستندت التربية الباديسية إلى المعطيات التالية:

1- إن الشرط الأساسي لأي اصلاح، ليس نشر الفكرة عن طريق الدعاية فقط، والتي تعتبر محدودة النتائج ومرهونة بأقواتها، بل في غرس المبادئ الأساسية للاصلاح في نفوس المؤمنين وبشكل يجعلهم سريعي الاستجابة أي أن تتكون لديهم الملكات»⁽³⁾

⁽¹⁾ المصدر السابق نفسه، 3/ 991.

⁽²⁾ ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، في أربعة أجزاء أعدها وصنفها وقدم لها عمار الطالبي، دار اليقظة العربية، 1968، ج 3 ص 255.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ص 24.

2- العودة إلى التاريخ هي المنفذ الثاني، الذي وجد فيه ابن باديس مجالاً للعمل الثقافي.

3- توجيه ابن باديس نظام التعليم الحر لخدمة الجزائريين ووضعهم أمام مسؤولياتهم.

4- كان التعليم العربي الرسمي مقتصرًا على ثلاث مدارس، مهمتها أعداد الموظفين الذين يمارسون المهمات الخاصة بديانة الأهالي، أما التعليم الحر فقد كانت مسؤولياته واسعة.

وقد كان ابن باديس يستنكر ما يفرضه المستعمر ويقاوم «ذلك لأن العربية هي لغة الدين الذي هو أساس حياتنا ومنبع سعادتنا ولأنها هي اللغة المهمة بين أبنائها، المحرومة من ميزانية بلدها، المطاردة في عقر دارها، المغلقة مدارسها، وأن المدارس الرسمية الثلاث التي لا تقبل إلا عددًا محدودًا لتخريج من يعمل بالوظائف الرسمية ويناسب روحها»⁽¹⁾

هكذا تعلم ابن باديس وعمل على ترسيخ المبادئ السليمة في أذهان المتعلمين من أبناء وطنه فهو شخصية وطنية غيورة على مصالح وطنه.

⁽¹⁾ المصدر نفسه، 217-222.

خلفيات البعد اللغوي وآليات تجسيده عند جمعية العلماء

د. أبو بكر الصديق حميدي

ج. المسئلة

مقدمة:

نعتقد أن استحضار السياقات التاريخية مهم جدا في دراسة هذه الحالات التي تتعلق بجمعية تحوض غمار المغالبة لإعادة بناء الكيان الثقافي في ظل المنظومة الاستعمارية، وإذا كان الأمر يتعلق بمعركة كبرى تتضمن إعادة بعث مفاهيم الوطن، والهوية، والدين... فإن عصب التواصل، ووسيلة غرس المفاهيم الصحيحة وتثبيت القيم المعيارية هو اللغة العربية. ولذلك ركز مشروع الجمعية على اللغة العربية من منظور: لغة تواصل، رمز هوية، لسان شعب، لغة دين، عنوان تميز عن لغة المستعمر.

ومن خلال دراساتي الأكاديمية التي دارت حول الحركة الإصلاحية الجزائرية وقفت على خلفية التناغم الكبير بين التنظير والميدان لتحقيق هذه الأهداف. ومن ذلك:

- 1- الانتشار الواسع حيث الأهمية الديمغرافية حيث بلغت مدارس الجمعية أكثر من 170 مدرسة لتعليم العربية.
- 2- التنوع في التعليم بين البنين والبنات.
- 3- تنوع مستويات التعلم اللغوي بما يصاحب ذلك من علوم.

4 - المرافعات المختلفة في وجه الاستعمار لتوطين العربية في مقامها الطبيعي كلغة شعب ووطن.

5 - مشروع تكوين الإطارات اللازمة لتعليم اللغة العربية وفق الاحتياجات والمستويات المتزايدة من خلال معهد ابن باديس، أو البعثات الطلابية لتونس والمشرق العربي والتي أصبحت في معظمها توظف العملية التعليمية بعد الاستقلال.

من خلال هذه الخلفيات والمعطيات المختزلة يمكن أن نحدد ما إذا كانت الجمعية في مستوى التحدي الذي كانت تواجهه وفق الإمكانيات المتاحة؟ وهل فعلا لديها مشروع على المنظور البعيد يتكفل باللغة كمرجعية دينية ووطنية؟ وماهى الإضافات التي سجلتها لصالح اللغة العربية في مرحلة الاستعمار وما بعده كتراكم لغوي شعبي أو قامات لغوية لها اعتباراتها العلمية.

الواقع اللغوي في الجزائر

لقد سخرت فرنسا كل إمكانياتها المادية والفكرية لتعديل الواقع اللغوي في الجزائر من خلال ضرب المنظومة القائمة على ذلك من مدرسين وكتاتيب ومدارس وتجنيف لمنابع التمويل. واستطاعت قلب المعادلة التعليمية وتكريس سياسة التجهيل. فكان حظ الجزائريين من التعليم ضئيلا جدا فلم يتعد 5 بالمائة إلى غاية سنة 1914 و6 بالمائة سنة 1926، وبلغت الأرقام كان في المدارس الفرنسية سنة 1928 (55476 تلميذ) منهم (3603 بنت) أما التعليم الثانوي لم ينل منه إلا 863 طالبا سنة 1934 أما التعليم العالي فحتى 1930 وبعد مائة سنة من الاحتلال لم يستحق الجزائريون إلا 93 مقعدا.

ولهذا أدرك زعماء النهضة والحركة الوطنية معركة العلم ودورها في الصراع الاستعماري وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس منذ عودته من الزيتونة 1913 فكان أن حمل على عاتقه تأسيس المدارس والجرائد

للتكوين الديني والسياسي، وتأسيس المساجد الحرة للتربية والتهديب فضلا عن العبادة وكذلك النوادي للتهديب والحوار والمثاقفة. وعصب هذه المنظومة كلها اللغة العربية، فهي ليست أداة تعلم فحسب ولكن رمز هوية ودين وشعب.

إن التعامل مع التعليم الحر كانت له أولوية لدى رجال الإصلاح عكس الاتجاه الاستقلالي الذي يرى أن النضال السياسي هو أقرب طريق لاسترجاع الوطن، مع أن لكل تيار مبرراته، فالتيار الأول يرى أن التعليم هو مصدر الفهم والوعي حتى يدرك الفرد ماضيه وحاضره وخاصة أن الفرد الجزائري كاد يفقد شخصيته العربية

أما التيار الثاني (الاستقلالي) اعتقد أن الكفاح السياسي كفيل بحل المشكلة وبث روح الوعي، وقد نجح هؤلاء إلى حد كبير في خلق حركة سياسية دؤوبة بين العمال ثم المثقفين، والواقع أنهم استدركوا شيئا ما بعد الحرب العالمية الثانية وحاولوا أيضا إقامة مدارس حرة تابعة لحزب الشعب.

وفي الحقيقة أنه يوجد تكامل كبير بين التيارين في الأدوار من حيث تكامل التعليم والسياسة، ومن حيث بناء الفرد من حيث السن في مرحلة التعلم ثم مرحلة السياسة، وكذلك التكامل في مواجهة المستعمر.

إن مشروع التوجه الإصلاحية التعليمي مبني على قناعة وتحقيق هدف معين وواضح في ظل معادلة سياسية صعبة، فالاستعمار يمارس التجهيل ويحارب اللغة ويطمس التاريخ ولهذا توجب مواجهة ذلك بالقضاء على الأمية وإحياء اللغة والتراث التاريخي للجزائر وبالتالي فالتعليم لم يصبح يؤدي وظيفة عادية ولكنه أساس لمشروع حضاري لإحياء الأمة الجزائرية.

ويبدو أن الجمعية سارت على منوال المصلحين في المشرق وكان ديدنها التطبيق العملي لشعار جمال الدين الأفغاني "لا جماعة لقوم لا لسان لهم، ولا

عزة لقوم لا تاريخ لهم، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقيم منهم أساطين تحمي وتحيي آثار رجال تاريخها، فتعمل عملهم، وتنسج على منوالهم، وهذا كله يتوقف على تعليم وطني بدايته الوطن ووسطه الوطن وغايته الوطن"

إن الدعوة إلى نشر التعليم والارتقاء به كانت ملحّة من ابن باديس منذ وقت مبكر فقد كتب في جريدة الشهاب منذ (1929) أنه يوجد عدد معتبر من العلماء بقسنطينة وذكر منهم أحمد الحبيباتي، والطاهر بن زقوطة والزواوي الفكون، ويحي الدراجي والمولود بن موهوب، الشيخ الصالح بن العابد، وعبد المجيد بن جامع وأضاف شخصه أخيراً، متسائلاً في الأخير أنه يمكن لهؤلاء باجتماعهم أن يكونوا معهداً علمياً يكون أساس كلية دينية إسلامية بالجزائر؟.

تطور التعليم الحر لدى الجمعية:

وقد كانت المرحلة الأولى من التعليم قبل تأسيس الجمعية محصورة في دائرة ضيقة من حيث الأسلوب وطرق التدريس والمناهج والبرامج، أما بعد 1931 فصار التعليم يستهدف شريحتين الناشئة بالتعلم والعامّة بالوعظ والإرشاد وفي نفس الوقت وضع برامج ومواد تدرس: دينية مثل: التفسير والحديث، والفقه، الفرائض، العقائد، التجويد، الأصول، ولغوية مثل: الأدب، النحو، الصرف، البلاغة، الشعر، المطالعات، الإنشاء وأخرى متنوعة كالمنطق والحساب والجغرافيا والتاريخ.

إن التعليم الإصلاحي في الغالب يعتمد على التمويل المحلي سواء من خلال الجمعيات المحلية التي تنشأ لهذا الغرض أم اشتراكات أعضائها أم إعانات أنصار الإصلاحي في المنطقة أم بعض المحسنين وهذا لتأمين المفروشات والإطعام ورواتب المعلمين، وتتدخل الجمعية في مالية هذه المدارس وخاصة عند عجزها لسبب ما، ولكن الإشراف عليها في تعيين المعلمين، والتفتيش

التربوي والمراقبة الدورية ظل مستمرا، والملاحظ أن التعليم عند الجمعية قد انتابه التنظيم في التأسيس والرجال والبرامج فنلاحظ أنه شمل معظم المدن الجزائرية وإن تركز في البداية بالشرق الجزائري الذي كان يشرف عليه ابن باديس مباشرة ثم العاصمة التي يشرف عليها العقبي، والغرب الشيخ الإبراهيمي الذي استقر في تلمسان. ويمكن تقسيم تطور التعليم الإصلاحي الحر إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى (1931-1940)

انتاب هذه المرحلة تأسيس المدارس الحرة خارج سلطة الحكومة فبلغت سنة 1935 حوالي 70 مدرسة ضمت حوالي 70 ألف طفل وفتاة، من أشهر هذه المدارس مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة ومدرسة الشبيبة الإسلامية بالعاصمة، ومدرسة تهذيب البنين بتبسة.

ورغم المضايقات وقرار ميشال (1933) الذي يحد من نشاط رجال الإصلاح ومرسوم رينيي (30 مارس 1935) الذي يشدد على الوعظ في المساج، فإن مساعي الجمعية التعليمية استمرت بالاحتجاج القانوني ضد الإدارة الفرنسية وفي نفس الوقت توسيع دائرة فتح المدارس سواء للصغار أم أمام الكبار، كما أن اختيار المعلمين في هذه المرحلة يعتمد على خريجي المعاهد الإسلامية الكبرى (الأزهر، الزيتونة، القرويين، وخريجي الجامع الأخضر) وعادة ما تكون لقاءات دورية لتدارس السير التعليمي والمناهج، كما كان الحرص على تغيير وتطوير المحتوى الدراسي حتى يكون أقرب إلى الإفادة وأعون على تحصيل الملكة العلمية وتجنب الكتب الجامدة المعقدة التي لا تتفق ذهننا ولا تبعث في نفس الدارس نشاطاً

وقد استغلت الجمعية الجبهة الشعبية وشعاراتها لتطوير نشاطها، كما ضمنت مطالب المؤتمر الإسلامي قضية التعليم العربي وحظه من المعاملات

المتساوية مع الفرنسية في المراسلات، والصحافة والتعليم إلا أن ضغوط المستوطنين والطرقية وتخوف الإدارة الفرنسية من تنامي خطر التعليم الحر جعلها تمطره بجملة من القرارات التي تضيق عليه مثل مرسوم 13 أكتوبر 1938، وقرار وزير الداخلية chautemps في مارس 1938 ثم ظروف الحرب العالمية الثانية مما أغلق العديد من المدارس وعلى رأسها مدرسة الحديث بتلمسان التي كان يشرف عليها الإبراهيمي ومدرسة القليعة وآخريات في بجاية

أما المرحلة الثانية (1940-1956)

لقد كانت بداية الحرب صعبة على التعليم للأسباب السابقة الذكر، وهذا أضر بسير حركة التعليم والمضايقة عليه فحتى مجيء سنة 1944 - 1945 حيث بدأ الانفراج وبعث التعليم الحر بشكل أوسع، ففي هذه السنة فتحت 73 مدرسة عبر القطر، ويعود ذلك إلى الظروف الدولية التي بدأت ترجح كفة الحلفاء، وخروج زعماء الإصلاح من السجون والمنافي (الإبراهيمي، العباس بن الشيخ الحسين) لتصل في سنة 1948 حوالي 140 مدرسة إضافة إلى المدارس المعطلة، وهذه الأرقام تختلف من سنة لأخرى حسب التعطيل والظروف المالية، وحسب المصادر الفرنسية وصلت في سنة 1954 إلى 150 مدرسة وفي 1955 إلى 175 مدرسة وهو ما يتقارب حسب ما ذكره المدني بوجود 170 مدرسة، أما انتقاء المعلمين فقد أسست لجنة التعليم العليا سنة 1948 للإشراف والمتابعة. وإذا كانت ممارسة التعليم في بادئ الأمر تقتصر على تحصيل علمي يؤهلهم لذلك فإنه ابتداء من 1951 قررت هذه اللجنة شرط شهادة التحصيل الزيتونية وفي 1953 أتبع ذلك بامتحان يحتوي على إلقاء درس وموضوع إنشائي، وسؤال تربوي، وحسب البصائر فإن عدد معلمي الجمعية سنة 1951 بلغ 275 معلما ومعلمة أما عدد المتعلمين لديهم بلغ بنفس السنة 36286 تلميذ وتلميذة منهم 16286 يتلقون التعليم العربي

في النهار فقط بينهم 5696 إناث أما الكتاب الفرنسيين فإنهم يرفعون هذه الأرقام بكثير.

وكانت المرحلة الأولى من التعليم تتوج بشهادة الدراسة الابتدائية منذ 1952 وكانت آخر دورة لامتحان هذه الشهادة في 1955 بترشح 415 طالبا.

التعليم الثانوي:

أنشأ معهد بن باديس في 1947 ليلتحق به الحاصلون على الشهادة الابتدائية ويحظى بالتبعية العلمية للزيتونة ولو بشكل معنوي وشكلي وحضور ممثلي الزيتونة في الامتحانات والمناسبات وبلغ طلبته في 1951 (702) طالبا، وفي 1955 (913 طالبا)، وكان هؤلاء الطلبة بنظام داخلي وماله من تبعات فوجد الإبراهيمي يقول سنة 1951 "ولهذا كان إسكان تلامذة المعهد وعددهم يشارف السبعمئة- كافيا لاستنفاذ الجهد واستغراق الوقت"

وكثيرا ما كان يحظى هؤلاء ببعثات طلابية نحو جامعات الشرق ومنهم من يتوجه حرا، لنيل شهادة التحصيل أو العالمية. وفي سنة 1954 راسل الإبراهيمي فاضل الجمالي رئيس الوزراء العراقي ورئيس مجلس الجامعة العربية أثناء تلك الدورة طابا منه أن يحمل الجامعة العربية على بناء "دار للمعلمين وأخرى للمعلمات في الجزائر، ومعهدا ثانويا أو معهدين تخفيفا للعبء الثقيل الذي تحمله جمعية العلماء والأمة من ورائها".

الحضور الطلابي بين قسنطينة والزيتونة

كانت الزيتونة قبلة طالبي العلم من الجزائر كلها وخاصة من عمالة قسنطينة وضواحيها، حتى اكتظت بهم أروقة الزيتونة فأدلى شيخ الجامع الطاهر بن عاشور من أن الزيتونة صارت تؤدي ربط أواصر الصلات بين القطرين الجزائر وتونس وقال أن عدد الطلبة الجزائريين بها هذه السنة

(1949) يصل لألف ومائتي طالب، فضلا عما يتصل بالزيتونة عن طريق فرعها بقسنطينة - معهد ابن باديس - وتمنى أن تسهل الفروع التي تفتح في شمال غرب تونس لاستقبال الجزائريين وأن تفتح فروع في نواحي وهران والصحراء على غرار معهد ابن باديس، وقدم عدد الطلبة الذين تحصلوا على الأهلية (07) والتحصيل (07) و(طالب) في شهادة العالمية.

قضية إصلاح التعليم

في هذه المرحلة كانت قضية التعليم محل جدل من حيث فاعليتها ونفعها للأمة لأن التقليد والتحفيز والتلقين السطحي هو السائد. وكانت هذه القضية تؤرق ابن باديس في كل المغرب العربي ولذلك قال: كانت طرق التعليم التي درج عليها شيوخنا في قسنطينة وتونس ومصر كذلك جامدة عقيمة لا تعدو عرض المسائل عرضا مشوها لا أثر للعقل الباحث الناقد فيها، فأسمى التعليم عندهم في المعهد الزيتوني بتونس والأزهر بالقاهرة يمثّل عهد انحطاط فكري شامل لا ينهض بأمة ولا يفي بمحاجات العصر لأنه أصبح عبارة عما يأخذه المتعلم ويسمعه من الشيخ تلقينا وحفظا وتقليدا من مسائل وأقوال القدماء وأرائهم، لا يجب أن يفهمه ويقلب وجوه النظر فيه بحثا وتحليلا وتدليلا..." وتداول الحديث عن هذا الموضوع مع شيخه محمد النخلي حول هذا الموضوع فأقره على صحة رؤيته وقال له: "سلط ذهنك وعقلك على ما تسمع أو يعرض عليك من آراء وأقوال، فما اقتنعت بصوابه فتمسك به وما اقتنعت بخطئه وبطلانه فدعه". فوجد عنده تقبلا كبيرا وقناعة مشتركة (48). ليبادر باقتراح برنامج إصلاح المناهج والبرامج الدراسية من حيث المحتوى والتلقين والطرق وإضافة مواد علمية. وفي نفس الوقت راسل المقيم العام ووزير الخارجية على التدخل في الشؤون العامة للتعليم وبرامجه.

منهج الجمعية التعليمي:

حاولت أن تلقن الطلبة العلم ولكن يعزز بشواهد وأمثلة تختار فيها عبرة دينية أو خلقية أو اجتماعية أو سياسية أو وطنية، وكان التركيز كثيرا على الجانب الأخلاقي لما له من أهمية في بناء الأوطان، والأمم إذا كانت الأمم بالأخلاق، والأخلاق بالتربية، فالأمم بعلمائها الذين يقومون على تربيتها وتهذيب أخلاقها وتوجيهها نحو الخير والكمال.

وركز في هذا المنهج على تربية العقائد إذ يقول "إن الذي نوجه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد، وتقويم الأخلاق فالباطن هو أساس الظاهر."

1- الاهتمام بالمرأة: كتب ابن باديس أن البيت هو المدرسة الأولى، والمصنع الأصلي لتكوين الرجال وتدين الأم هو أساس حفظ الدين والخلق، والضعف الذي نجده من ناحيتها في رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت وقلة تدينهن" وكان يهدف إلى نشر القيم داخل البيت وأهم قيمة هي حب العلم ولا يحبه من لا يتعرف عليه ولذلك نجده يستنكر على الذين يحرصون العلم وخيره على الرجال قائلا "لماذا تعاقب المرأة بعلمها؟ هل العلم ورد وصفاء للرجال ومنهل كدر للنساء؟ هل له تأثيران حسن على فكر الذكور قبيح على فكر الإناث"

إن هذا الطرح كان في زمن من يدعو لتجهيل المرأة بطريقة الإقصاء من التعليم وبالموازاة كان هناك دعاة التقدم بلغة التفرنج وإخراجها عن الضوابط الاجتماعية والدينية، وهذا ما دفع بابن باديس إلى العمل على ثلاثة محاور لاحتواء مسألة تعليم المرأة:

1- مجانية التعليم بالنسبة للنساء مهما كانت وضعيتهن الاجتماعية.

2- حث البنات وآبائهم على التعليم في كل دروسه وتبليغ هذا الرسالة في كل رحلاته ورحلات زملائه من العلماء.

3- فتح المجال أمام النساء حتى المسنات للتعلم وسماع الدروس المسجدية وهذا ما كان يفعله في المسجد الأخضر وغيره.

وفي مؤتمر الجمعية الذي عقد في 1937 ناقش تسع نقاط من بينها اثنان تخصصان تعليم المرأة:

1- النظر في تعليم البنت المسلمة ووسائل تحقيقه.

2- النظر في الوسيلة التي تعيد بها المرأة المسلمة سيرة سلفها من تلقي العلم).

وكان ابن باديس يصر أن يكون تعليمها بلغة قومها ودينها، بل يتطلع إلى أن ترتقي في مصاف درجات العلم وأن تستفيد من حظها من البعثات العلمية، ولذلك فكر في إرسالها إلى الخارج، فقبل أنه اتصل بمدرسة دوحه الأدب السورية مراسلا رئيستها: "يسرك يا سيدتي أن تعرفي أن بالجزائر نهضة أدبية تهذيبية تستمد حياتها من العروبة والإسلام، غايتها رفع مستوى الشعب العقلي والأخلاقي، ومن مؤسسات هذه النهضة جمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة، ولما علمت إدارتها بجمعيتكم المباركة بما نشرته عنها مجلة الرابطة العربية، رغبت أن ترسل بعض البنات ليتعلمن في مدرسة الجمعية فهي ترغب في حضرتكم أن تعرفوها بالسبل إلى ذلك".

وفي رسالة لابن باديس للفضيل الورتيلاني حول إرسال البعثات التعليمية جاء فيها: "وأما البعثة الشامية فإني أختار أن تكون من جمعية التربية والتعليم بقسنطينة إذ يمكن أن ترسل من تلاميذها وتلميذاتها ستة أو ثمانية، ولا مانع من أن يكون الطلب الموجه للوزارة من جمعية العلماء والبعثة من جمعية التربية والتعليم، إذ هما كشيء واحد.."

2 - العمل على بعث التراث العربي الإسلامي للجزائر بين الناشئة:

وهذا من أجل حفظ الشخصية الوطنية والوقوف في وجه التجنس والإدماج والتفرنس وغرس الثقة في أبناء الجزائر أن لهم تاريخا وكيانا وتراثا أرسخ من الأمم التي تدعي الحضارة، كما أن هذا السعي كان ابن باديس يهدف من ورائه إنقاذ المعجبين بالحضارة الغربية وخريجي المدارس الفرنسية، حيث كتب في مجلة الشهاب: "نعرف كثيرا من أبنائها الذين تعلموا في غير أحضاننا ينكرون - وربما عن غير سوء قصد - تاريخنا ومقوماتنا ويودون لو خلعنا ذلك كله واندمجنا في غيرنا، وكنا نرد عليهم في كل مناسبة تبدو منهم فيها مثل هذه البوادر السامة الخاطئة".

3 - البعثات الطلابية:

إذا كانت البعثات الطلابية منذ مطلع القرن تتميز بالمبادرات الفردية فإنها بدأت تأخذ شكلا منظما بالتدرج وفي مقدمتها البعثات الميزابية منذ 1914، كما درجت الجمعية على هذا التقليد منذ 1951 أي بعد أول دفعة من خريجي معهد ابن باديس حيث أرسل 26 طالبا نحو القاهرة. ثم توسع الأمر ليشمل بعثات إلى سوريا والعراق والكويت والسعودية حتى بلغ عددهم سنة 1955 (109 طالبا) وطالبة وبعد اندلاع الثورة، واحتياجها إلى المثقفين ساهمت في تشجيع هجرة الطلبة للأقطار العربية لتعويض المعاهد والمدارس المغلقة، وإعداد إطارات المستقبل.

4 - النوادي:

كانت النوادي إحدى وسائل التعليم ونشر الوعي ولذلك حاول الجزائريون الاستفادة من قانون 1901 في نشر المدارس الحرة والنوادي، وخاصة أنه توجد شريحة لا علاقة لها بالمدرسة العربية (زوايا، كتاتيب.....) ولا هي ترتاد المساجد ولذلك كانت النوادي أحسن فضاء للاحتكاك مع هؤلاء من خلال

المحاضرات والدروس وفي المناسبات، لمناقشة القضايا الاجتماعية والسياسية والدينية ولعل أهم نادٍ أسس خلال العشرينات نادي الترقى بالعاصمة الذي كانت تتراده النخبة بتنوعها ومجالا لنشر الأفكار الوطنية والفكرية، ويتداول على منبره شخصيات متنوعة وفي مقدمتهم ابن باديس.

5 - الرحلات.

وحتى أثناء الرحلات التي كان يقوم بها في القطر الجزائري كان يتصل بالعلماء والطلبة ويحث الناس على العلم والإسلام. وعلى تعليم أبنائهم وهذا من خلال الدروس التي كان غالبا يلقيها في أثناء تجواله وهذا المنهج ظل ساريا عند رجال الجمعية وتلامذتها ويمثل نوعا من الدعاية للتعلم والقضاء على الأمية..

- توسيع وتعميق دائرة الحوار الداخلي

- الاهتمام بالمحيط العربي والإسلامي

- الاهتمام بالقضية الفلسطينية

الاهتمام بالجالية الجزائرية في المهجر

العمل على مستوى مكتب المغرب العربي بالقاهرة

خلفيات البعد اللغوي وآفاقه عند جمعية العلماء المسلمين

الجزائريين

عبد الحميد بن باديس أنموذجا

د. مصطفى عبيد.

خ. محمد بوضياف - المطبوعة

مقدمة:

ليس غريبا حين نقول أن اعتقاد علماء الإصلاح بالجزائر وهم أعضاء جمعية العلماء كان يعتبر جهدهم هو حق الأمة عليهم، ولذا وكما كان يرى ابن باديس أن عودته من الحجاز إلى الجزائر هو واجب شرعي وهو حق الأمة الجزائرية عليه وعلى كل علمائها، واعتبر رأي أستاذه الهندي أحكم وأصح من رأي شيخه حمدان لونيسي الذي اقترح عليه أن يبقى في السعودية ولذا كان رأي ابن باديس هو أن العلماء لا يهاجرون في تلك الأيام التي كانت تمر بها الجزائر تحت وطأة الاستعمار الفرنسي الذي استهدف فيها كل جميل وحاول طمس فيها كل حيوي، ولا حياة إلا حياة الإيمان كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَمَلُنَا إِلَّا نَعْمَةً وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ۗ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ كِتَابَ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَالْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ۗ﴾ (1)

وقد كان التعليم هو الركيزة الأساسية التي بنى عليها العلماء عملهم، وقد تعددت انواع التعليم فمنها ما هو تعليم بالمعنى التام للكلمة، ومنها ما كان

(1) سورة يس، 69، 70.

وعظا أو ارشادا، أو تفسيراً أو تدريسا بالمساجد ... وهي كلها تصب في مصب واحد ألا وهو التعليم الذي قال عنه الشيخ مبارك المليي أحد علماء الجمعية: إن جمعية العلماء قد أدركت ذلك المغزى التشريعي الإسلامي في الابتداء بالتعلم، وعرفت تلك الثمرة الطيبة في هناء الإنسانية وسعادة المسلمين، فاهتمت بالتعليم وشرعت لأول مرة لأول عهدا تلقي العظات البالغة والحكم النافعة بالمساجد لإصلاح من يؤمها من المسلمين، وحثت على تأسيس النوادي وتعميرها بالمحاضرات وتطهيرها من المحرمات لإصلاح من لم يعتد الذهاب إلى المساجد ولا يشعر بفائدة في الذهاب إليها، ودعت إلى فتح المدارس الحرة لتعليم الصبيان بالحروف العربية، وتلقين القرآن الكريم، وتلقي مبادئ الإسلام ولغته، وذلك لإصلاح الأبناء وتنشئتهم تنشئة مطمئن معها على حياة ديننا وبقاء جنسنا.⁽¹⁾

ومن ذلك، كان رأي الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس أنه إذا كان منطقيا لا تأثير لشخص لم يحترم نفسه ولم يشعر بها فإنه من باب أولى لا تأثير لشعب لم يعرف نفسه ولم ينزلها في منزلتها الطبيعية بين شعوب العالم. فقال: "...إنما ينفع المجتمع الإنساني ويؤثر في سيره من كان من الشعوب قد شعر بنفسه فنظر إلى ماضيه وحاضره ومستقبله فأخذ الأصول الثابتة من الماضي وأصلح من شأنه في الحال، ومد يده لبناء المستقبل، يتناول من زمنه وأمم عصره ما يصلح لبنائه معرضا عما لا حاجة له به أو ما لا يناسب

⁽¹⁾ أحمد الرفاعي شرفي، مقالات وأراء علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ج 01، مبارك بن محمد المليي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2011، ص 322، 323.

شكل بنائه الذي وضعه على مقتضى ذوقه ومصطلحته".⁽¹⁾ وفي هذه المداخلة حاولنا معالجة الاشكالية التالية: ما الخلفيات التي رآها علماء الجمعية سندا تاريخيا منطقيا وعقليا وشرعيا يكفل لهم انتهاج منهجهم ذلك في خدمة اللغة العربية والدعوة إلى التمكين لها بالجزائر؟ وماهي الآفاق التي كانوا يطمحون إلى تحقيقها من وراء سياستهم الإصلاحية اللغوية تلك؟

1- خلفيات البعد اللغوي العربي بالجزائر في فكر شيخ علماء الجمعية:

1- عزة العربية وارتباطها الوثيق بالإسلام :

يرى الشيخ عبد الحميد بن باديس وهو شيخ علماء الجمعية ورائد النهضة الإصلاحية بها، ورغم كونه أمازيغي صنهاجي، أن العزة تمام العزة إنما هي في الانتماء إلى الإسلام والعربية التي ارتبطت به، فقد كان يرى ان الإسلام والعربية كل مترابط لا يقبل التجزئة فقد كان يرى أن العرب رشحوا لهداية الأمم، وأن الأمم التي تدين بالإسلام وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الإسلام وهو لسان العرب فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها⁽²⁾. فرغم أنه كان يرى أن الأمة الجزائرية أمة أمازيغية ولم يستطع غاز من الغزاة أن يغير نسبها إذ يقول: "فلما جاء العرب وفتحوا الجزائر فتحا إسلاميا لنشر الهداية، لا لبسط السيادة ...

فلا بد أن ننوه هنا إلى أن الشيخ عبد الحميد بن باديس كان معتزا بالعروبة من باب ديني، مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾⁽³⁾

(1) عبد الحميد بن باديس، "محمد ﷺ رجل القومية العربية"، مجلة الشهاب، ج 03، مج 12، جوان 1936 م، المطبعة الجزائرية الإسلامية، الجزائر، ص 104، وفي هذا النص أيضا تعبير واضح على منهج الشيخ عبد الحميد باديس في الإصلاح.

(2) نفسه، ص 104.

(3) سورة يوسف، الآية 02.

وقوله تعالى: ﴿بَلِّغْ لِقَوْمِكَ رِسَالَاتِهِمْ﴾ (1) وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ (2) فقد ربط الله سبحانه وتعالى ذكر رسول الله ﷺ وذكر العرب وهم قومه عليه الصلاة والسلام، بالقرآن العربي. فكانت العربية والعروبة فخر ما بعده فخر بالنسبة للشيخ عبد الحميد بن باديس.

2- انتشار العربية بالجزائر بصفتها لغة هداية ودين، لا لغة استعمار واخضاع:

كما أن تمسك علماء الجمعية بالعروبة كان من أسبابها أيضا دخول الأمازيغ الإسلام وتعلمهم لغة الإسلام العربية، طائعين، فامتزجوا بالعرب بالمصاهرة، ونافسوهم في مجالس العلم، وشاطروهم سياسة الملك وقيادة الجيوش، فاتحدوا في العقيدة والنحلة، كما اتحدوا في الأدب واللغة، فأصبحوا شعبا واحدا عربيا متحدا غاية الاتحاد، ممتزجا غاية الامتزاج. وأي افتراق يبقى بعد اتحاد الفؤاد واتحاد اللسان؟⁽³⁾. وقد أكد ذلك الباحثون المنصفون حيث يقول الأستاذ الدكتور صالح بلعيد: "نعرف أن الإسلام والعربية كان اختيارا ذاتيا لأجدادنا الأمازيغ ولا يمكن أن نراجع هذا الفعل الذي قهر الحملات التنصيرية التي قام بها الأباطرة البيضا بقيادة أسقف الجزائر (Cardinal Lavigerie) عام 1867 ومنيت كلها بالخيبة والفشل".⁽⁴⁾

(1) الشعراء، 195.

(2) الزخرف، من الآية 44.

(3) علي بن محمد، "مرجعيات الهوية الجزائرية في فكر الإمام عبد الحميد بن باديس"، بأعمال الملتقى الدولي حول الفكر السياسي عند الإمام عبد الحميد بن باديس. 18، 19 ماي 2012، مؤسسة الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس، قسنطينة، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ص 31.

(4) صالح بلعيد، في الهوية الوطنية، دار الأمل، الجزائر، 2007، ص 28.

كما كان علماء الجمعية وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس يرون أن الله سبحانه وتعالى قد خص العرب بفضل عظيم، فإضافة إلى أن القرآن قد نزل بلغتهم فإن المنطق الإلهي في تسلسل فقه الدعوة الإسلامية انطلق أيضا من العنصر العربي حين أمر الله عز وجل رسوله ﷺ بأن يبدأ الدعوة من أقربائه حين قال الله تعالى: "وأذرتك الأقربين فخرج رسول الله ﷺ إلى الصفا ثم نادى "يا صباحاه" حتى إذا اجتمعت عليه قريش قال: "أرأيتم إن أخبرتكم إن العدو مصبحكم أكنتم مصدقي؟ قالوا ما جربنا عليك كذبا. قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد... (1)

ولذا قال الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس حول عروبة الجزائر سنة 1936:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب (2)

وفي باب اعتقاد ابن باديس أن عروبة الجزائر هي عروبة دينية وليست عرقية ما قاله سنة 1937:

أشعب الجزائر روعي الفدا
بنيت على الدين أركانها
خلدتكم بها وبكم خلدت
فدوموا على العهد حتى الفنا
تنالونها بسواعدكم
لما فيك من عزة عربية
فكانت سلاما على البشرية
بهذي الديار على الأبدية
وحتى تنالوا الحقوق السنية
وإيمانكم والنفوس الزكية

(1) محمد ﷺ رجل القومية العربية، مقال سابق، ص 104.

(2) عبد الرحمن شيبان، من وثائق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار المعرفة، الجزائر، ص 62. وهذان بيتان هما من قصيدة من أربعين بيتا نظمها عبد الحميد بن باديس وألقاها بمناسبة المولد النبوي الشريف 13 ربيع الأول 1356 الموافق ليوم 11 جوان 1937.

فضحُّوا وها أنا بينكم بذاتي وروحي عليكم ضحية⁽¹⁾

أما سنة 1938 فقد قال قصيدته الشهيرة في العروبة:

الحمد لله ثم المجد للعرب من أنجبوا لبني الإنسان خير نبي
ونشروا ملة في الناس عادلة لا ظلم فيها على دين ولا نسب
وبذلوا العلم مجانا لطالبه فقال رغباه ذو فقر وذو نشب
وحرروا العقل من جهل ومن وهم وحرروا الدين من غش ومن كذب
وحرروا الناس من رق الملوك ومن رق القداسة باسم الدين والكتب
قومي هم، وبنو الإنسان كلهم عشيرتي، وهدى الإسلام مطلبي
أدعو إلى الله لا أدعو إلى أحد وفي رضا الله ما نرجو من الرغب⁽²⁾

ولم يكن فهم الشيخ عبد الحميد بن باديس للغة العربية على أساس عرقي أبدا، وإنما كان منطلقه الحديث الشريف: "...يا أيها الناس الرب واحد والأب واحد وإن الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي" أي أن الجنسية العربية قد حددها الشرع على لسان نبيه ﷺ وهي أن كل من يدخل الدين الإسلامي فهو عربي. ولذا قال عبد الحميد بن باديس: "ينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها... فليس الذي يكون الأمة ويربط أجزاءها ويوحد شعورها ويوجهها إلى غايتها هو هبوطها من سلالة واحدة، وإنما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد. ولو وضعت أخوين شقيقين يتكلم كل واحد منهما بلسان وشاهدت ما بينهما من اختلاف نظر وتباين قصد وتباعد تفكير، ثم وضعت شاميا وجزائريا، مثلا، ينطقان باللسان العربي ورأيت ما بينهما من اتحاد وتقارب في ذلك كله، لو فعلت هذا لأدركت بالمشاهدة

(1) نفسه، ص 65.

(2) نفسه، ص 64.

الفرق العظيم بين الدم واللغة في توحيد الأمم".⁽¹⁾ وكان يؤمن بزيادة العنصر العربي على هذا النحو فكتب بشهابه التي أرسلها على فساد الإدارة الفرنسية ومشاريعها الاستعمارية: علم (يقصد رسول الله ﷺ) أن العرب رشحوا هداية الأمم، وإن الأمم التي تدين بالإسلام وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الإسلام وهو لسان العرب فينمو عدد الأمة العربية بنمو من يتكلمون لغتها، ويهتدون مثلها بهدي الإسلام. علم هذا فبيّن أن من تكلم بلسان العرب فهو عربي وإن لم ينحدر من سلالة العرب، فكان هذا من عنايته بهم لتكثير عددهم لينهضوا بما رشحوا له".⁽²⁾ ولذا كان يقول: "ليس تكون الأمة يتوقف على اتحاد دماها ولكنه متوقف على اتحاد قلوبها وأرواحها وعقولها اتحادا يظهر في وحدة اللسان وأدابه واشتراك الآلام والآمال".⁽³⁾

3- المؤاخاة بين العرب والأمازيغ منذ بدايات الفتح الإسلامي وجهود الفتح المشتركة بين الأمازيغ والعرب:

يعتقد علماء الجمعية اعتقادا راسخا في المؤاخاة بين أهل البلد وبين الوافدين من المسلمين سواء بدافع الهجرة أم بهدف نشر الإسلام أم بأي سبب آخر لأنهم معتقدين تمام الاعتقاد أن الأخوة الإسلامية واجبة. ولذا وفي صورة أشبه ما تكون بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على عهد النبوة، تمت المؤاخاة بين عرب قيس وأمازيغ زناتة خلال عملية الفتح الإسلامي لبلاد المغرب.

(1) أحمد بن محمد، مرجع سابق، ص 28.

(2) محمد ﷺ رجل القومية العربية، مقال سابق، ص 105.

(3) محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، طبعة خاصة الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007، ص 48.

2- آفاق البعد اللغوي:

لم يكن تمسك علماء الجمعية باللغة العربية اعتباطيا أو عبثا وإنما كان فعلا مدروسا في ظل السياسة الاستعمارية التي لم تترك مجالاً إلا وحاولت أن تعيث فيه فسادا فقد عملت ما في وسعها في مجال التاريخ والتعليم والقضاء والآثار.... وحاولت قدر المستطاع ربط الجزائر بالحضارة الغربية انطلاقا من ربطها بحضارة روما. كما اعتبرت جزءا لا يتجزأ من فرنسا وفق دستور 1848 ... وقد يطول الكلام في هذا لكنه معروف، وليس هدفنا التطرق إليه حاليا وإنما فقط لربط افكار الموضوع ببعضها ووفق ما ينير الفهم للقارئ. فقد عملت السياسة الاستعمارية وسعها في جانبيين أساسين مما يهم جوانب موضوعنا هذا ألا وهما:

1- ضرب اللغة العربية واعتبارها لغة دخيلة، وضربت معها اللغة الأمازيغية التي لم يشهد لها التاريخ وأن وظفت في الاستعمالات الإدارية تحت البيزنطيين ولا الرومان ولا الفرنسيين بالقدر الذي كانت عليه أيام الحكم الإسلامي لبلاد المغرب وخاصة على عهد الأمازيغ من المرابطين والموحدين.

2- ضرب الثقافة الجزائرية ومن ورائها الهوية العربية الأمازيغية الإسلامية. ومن نباهة العلماء آنذاك أن تفتنوا لسياسة التفرقة التي أرادت ان تلعب الادارة الاستعمارية على وترها. ومعروف أن القومية العربية كانت نشطة رفقة الرابطة الإسلامية خلال نهاية القرن التاسع عشر وعلى مدار النصف الأول من القرن العشرين في الفترة التي تهمنا في الدراسة فربط العلماء مصير الجزائر ونضالها ونهضتها بمصير الأمم الأخرى من أجل وحدة النضال المشترك فأعطوا له طابع العروبة باعتبارها حركة قوية خلال تلك الفترة... هذا إضافة طبعا إلى ايمان العلماء الراسخ بالعروبة كما أشرنا سلفا.

ومن أجل ذلك يمكننا أن نضبط آفاق البعد اللغوي عند جمعية العلماء الجزائريين في النقاط التالية:

1- استخدام مقوم اللغة العربية للوصول إلى وحدة الشعب الجزائري والقضاء على سياسة فرق تسد التي أرادت فرنسا الاستعمارية بثها بين أبنائه.

2- توظيف عامل اللغة العربية كعامل وحدة بين أبناء المغرب العربي بأكمله وليس في الجزائر فحسب، حيث يقول ابن باديس: "إن أبناء يعرب وأبناء مازينغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنا، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء، وتؤلف بينهم في العسر واليسر. وتوحدهم في السراء والضراء حتى كونت منهم خلال أحقاب بعيدة عنصرا مسلما أمه المغرب العربي وأبوه الإسلام."⁽¹⁾

وفي إطار هذه العروبة لم يتوان الشيخ عبد الحميد بن باديس في دعم ثورة الريف المغربية حين اندلعت رغم ظروف الاستعمار القاهرة والممانعة لذلك. كما لم يتوان في التنبيه إلى خطر المستعمرين فرنسا وإسبانيا عن ثورة الريف التي قادها الشيخ عبد الكريم الخطابي، ولذا أعلن عبر جريدته المنتقد أن ملة المستعمرين سواء الإسبان أم الفرنسيين واحدة وإنهم يريدون ربح الوقت من خلال مطالبتهم بالصلح الذي عرضه على الأمير الخطابي سنة 1925. ففي نظر ابن باديس أن كل محاولات الصلح الفرنسية والإسبانية مع الأمير الخطابي إنما هي مناورة للقضاء على ثورته: "إن إسبانيا حاولت الأمير في شأن الصلح بواسطة آشفيرنا مباشرة عن نفسها وتوسطا عن فرنسا ... وإن الحكومة الفرنسية تؤكد دائما أنها لا تريد الاستيلاء على شبر من أرض الريف وأنها تعمل على إنهاء الحرب بسرعة وتعد الصلح متى جاء أوانه."⁽²⁾

⁽¹⁾ صالح بلعيد، مرجع سابق، ص 28.

⁽²⁾ ابن باديس جريدة المنتقد، ع 03، 16 جويلية 1925، ص 14

ويدافع هنا ابن باديس عن الأمير الخطابي بأنه في ظل كل تلك المحاولات الفرنسية الاسبانية التي تتهمه فيها فرنسا وإسبانيا ادعاءً منهما بأن الخطابي رفض الصلح ولم يرغب في التفاوض لدفعه إلى الصلح وتوقيف مقاومته إلا أن الأمير صرح كما يصرح أنه لا طمع له في غير استقلال بلاده في حدودها الطبيعية⁽¹⁾. معتبرا أن الشرط الوحيد الذي يفتح به باب التفاوض هو الاعتراف بالريف⁽²⁾.

خاتمة:

لقد أدرك علماء الجمعية من البداية أن عامل الثقافة والهوية عامل حاسم في الصراع مع الإدارة الاستعمارية، ولذا أولوه أهمية بالغة وتحذوا بذلك الإدارة الاستعمارية كما تحذوا كثيرا من أنصار الطرح الأمازيغي والتمسك به سواء منهم من كانت نيته حسنة وخالف العلماء في طرحهم أو من حاولت الإدارة الاستعمارية توظيف أفكاره لخدمة مشروعها الثقافي الاستعماري بالجزائر من أجل تغريبها وإبعادها عن الحضارة الشرقية التي تنحدر منه أصول الأمازيغ أيضا كما تقرر الدراسات الحديثة.

(1) نفسه.

(2) مصطفى عبيد، حرب الريف في كتابات ابن باديس من خلال جريدة المنتقد 1925، مداخلة بالملتقى الدولي حول ابن باديس في الثقافة العربية الإسلامية، قسنطينة 17، 18 أبريل 2015.

البعد التاريخي لشعار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين "الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا".

أ. البشير بوقاعدة

ج. سطيف2

مقدمة:

لما اشتدت ضغوط الاحتلال الفرنسي في ثلاثينيات القرن الماضي على الشخصية الجزائرية بكل مقوماتها من لغة وتاريخ وثقافة وحضارة، أنجبت الحركة الوطنية جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي كانت منبرا رائدا للإصلاح على تشعب مناحيه، بقيادة كوكبة من العلماء والمصلحين، المدججين بسلاح الدين الإسلامي والعروبة والوطنية الجزائرية. ذلك أنهم وقفوا على حقيقة الجسور المتينة التي تربط الإسلام باللغة، والجزائري بوطنه ودينه ولغته، وأثر ذلك الفعال في ردء الصدع الذي تسعى الإدارة الاستدمارية أن تزيد من عمقه وفجوته في أوساط الفئة المريضة - التي أنجبتها-، وتوسعه ليشمل من لا تزال مناعته سليمة. وقد نجح العلماء في مسيرة التوعية، وبعث اليقظة، وإحياء الضمير، وتطوير الثقافة العربية الإسلامية، وتوحيد أبناء الشعب الجزائري تحت راية العروبة والإسلام والوطن، وصدق البشير الابراهيمي حين قال: "أن جمعية العلماء تدافع عن الذاتية الجزائرية التي هي عبارة عن العروبة والإسلام مجتمعين في وطن".

من هذا المنطلق رأينا أن نساهم بدراستنا هذه في اثراء إحدى الجزئيات المتعلقة بشعار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي هو: "الإسلام ديننا

والعربية لغتنا والجزائر وطننا " وذلك من خلال إبراز البعد التاريخي لهذا الشعار الذي ساهم علماء الجمعية على ضوئه في نفخ الروح من جديد في كيان مقومات الشخصية الجزائرية، وبعث سبل النهوض الحضاري بالجزائر، وإحياء اللغة العربية، ومدّ روافد المواطنة اللغوية بها، وفق منابع ومشارب الدين الإسلامي الأصيلة والأصيلة.

1- معاول الاستدمار لتهديم الشخصية الجزائرية:

إنّ الحقيقة التي لا مناص منها أنّ المحتل الفرنسي موازاة مع فشل كل مشاريعه الاستدمارية لتحطيم كل ما له صلة برفع لواء المقاومة ضدّه من طرف الجزائريين على اختلاف القيادة التي امتطت جواد هذه المقاومة، زاده قناعة مع مطلع القرن العشرين أنّ طول عمره في الجزائر - مُحتلًا - قرين بموت الشخصية الوطنية الجزائرية المتجذّرة في أعماق الفرد الجزائري، كما بات يدرك يقينا أنّ جهوده العسكرية ينبغي أن تُركّز في هذا المنحى، وإلاّ فإنّ أجله في الجزائر قريب ما دامت تلك الشخصية حيّة.

لذلك بسط الفرنسيون أيديهم على كل ما له صلة بالقضاء عليها، إذ سيطروا على التعليم، والسياسة، والصحافة، واللغة، والدين، وعلى كل المؤسسات الاجتماعية، وتفنّنوا في خلق النظريات الهدامة للقضاء على الأخلاق والقيم والمثل السامية، وتحطيم القوى الروحية للمسلمين الجزائريين بنشر الرذائل والفسق والفجور، كما حاولوا ربط الحضارة العربية الجزائرية بما يتصل بالغرائر الحيوانية، والترف النفسي واللهو المخدر، وغرس كل سموم الفساد التي من شأنها أن تضعع كيان الأمة الجزائرية وتدفع بها إلى الهلاك⁽¹⁾.

(1) عبد الكريم بو الصنصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالجمعيات الأخرى (1931-1945) دراسة تاريخية وإيديولوجية مقارنة، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار، الرويبة، الجزائر، 1996، ص 37.

ولقد كان السلاح الفتاك إلى جانب أسلحة الدمار التي تستعين بها فرنسا لتكميم أفواه الجزائريين عن النطق بالحقيقة وقطع كل آمالهم في الحلم بالاستقلال، هو سلاح رجال الدين أو دعاة التغريب، الذين يتصبون في جهود فرادى وجماعات لإثارة الشكوك حول الإسلام باعتباره المحرك الرئيس لآلة المقاومة والصبر والجلد، والمورد الذي لا ينضب المزود بالطاقة للشحن، والقوة الدافعة للشعب الجزائري للتمسك بحقه في الحرية والسير إليها بكل ما يملك، ليعتق رقبته من ربة العبودية وذل التبعية للمحتل⁽¹⁾.

ولقد فتش هؤلاء الرجال في أوكار الخديعة والمكر والكيد فأوجدوا سبلا شتى قد تمكنهم من احتواء الجزائر أرضا وشعبا ومعتقدا في كيان وطنهم الأم، وإزالة كل عقبة من شأنها أن تحول دون طموحهم للظفر بالجزائر إلى الأبد، وفي طليعتها الدين الإسلامي واللغة العربية، والكيان الأم⁽²⁾.

ومن ذلك أنهم كثفوا من الدراسات التحليلية المعمقة لنفسية المجتمع الجزائري، وأحواله العامة والخاصة، فدخلوا من باب التصوف، الذي رأوا أنه احتل مكانة هامة في خياله، بما يحتله شيوخ الصوفية فيه من أهمية وحضور. وانطلاقا من هذا المرتكز وغيره، شرعوا في نسج خيوط مؤامراتهم ومخططاتهم الاستدمارية. حيث أوهموا ضعاف العقول من الجزائريين أن هؤلاء الشيوخ هم أولياء الله الصالحين؛ يمنعون الرزق ويسطونه لمن يشاؤون، والغاية القريبة من وراء هذا، هي زرع بذور الشرك في عقول

(1) المرجع نفسه، ص 37.

(2) وذلك خصوصا بعد انهيار السدّ العالي والحامي لمعظم أجزاء البلاد العربية الإسلامية؛ وهو انهيار القوة العظمى الدولة العثمانية بعد الضعف الذي دبّ في جسمها، في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

الجزائريين والتعصب الديني والمذهبي بين صفوفهم للقضاء على قيمهم الروحية والفكرية.

هذا، ويضاف إليه، أنّ هناك من رجال الزوايا والطرق الصوفية من لا يزالون على عقائدهم القديمة وفي عزلة من تقلبات العصر وتجدد الفكر الإنساني، بل وازدادوا جمودا - في ظل السياسة الفرنسية - وبعدا عن واقع الشعب الجزائري ومعاناته اليومية، حتى أنّ بعضهم عن وعي أو غير وعي أصبح - كما يذكر أبو القاسم سعد الله - أداة في يد السلطة الفرنسية لإبقاء الجماهير خامدة جامدة سهلة على الاستغلال والسيطرة الاستعمارية⁽¹⁾.

إنّ الحديث عن سياسة الفرنسيين للقضاء على الشخصية الوطنية الجزائرية بكل مقوماتها لا يسعه هذا المجال الضيق الذي خصّصناه له في هذا العنصر من هذه الدراسة، وذلك للوقوف على أبرز ملامحها فضلا عن أنّه ليس القصد بعينه بالدراسة، وإلّا القصد منه هو استعراض المناخ الذي ساهم في تعكير صفو حياة الجزائري، من جهة، ودافعا كبيرا لميلاد حركة المقاومة الجزائرية بكل أشكالها من جهة أخرى، لذلك سنطرقه بشكل أكثر تفصيلا ممزوجا مع مادة هذه الدراسة في باقي عناصرها حسبما تقتضيه الغاية منها.

2- العلماء وسبل الوقاية:

وأمام هذه الجهود المبذولة من طرف ادارة المستدمر لطمس كل ما له صلة بشخصية الجزائري، كان من بين أسوار الوقاية وقلاع المناعة التي كانت درعا حصينا ساهم في حماية الشخصية الجزائرية، هي جهود العلماء المسلمين الجزائريين بين ضلوع جمعية العلماء، التي كانت سفينتهم التي ركبوها لعلاج

⁽¹⁾ محمد مبارك الميلي: رسالة الشرك ومظاهره، ط2، مكتبة النهضة الجزائرية، 1966، ص102،

سعد الله: المرجع السابق، ج3، ص95.

كافة الأمراض والسموم القاتلة - التي نجح المستدمر في بثها في جسم البعض من الجزائريين ويسعى لتعميمه على البقية- وصياغة الدواء الكافي والشافي للقضاء عليها وبعث الروح فيها من جديد لتنمو وتقوى في صدور الجزائريين وعقولهم، فتُنير دربهم، وتُقوي عزمهم على مقاومة المحتل، وافشال مخططاته العسكرية والسياسية والاجتماعية والدينية.

إنّ هذا الجهد في الحقيقة من العلماء، يحتاج إلى القوة والديناميكية المتنامية، وإلى المناهج والطرق الكفيلة بزعزعة تلك المخططات، وردء الصدع الذي أحدثته في جسم الشخصية الجزائرية في أهمّ جوانبها؛ وهو ما لم يغفل عنه علماء الجمعية وفي طليعتهم عبد الحميد ابن باديس، والبشير الابراهيمي، ومبارك الملي، والطيب العقبي وغيرهم.

إنّ مهمة علاج السموم الفرنسية هذه، تقتضي منهم التشخيص الجيد لمواضع ومواطن الضعف التي تسلّل من خلالها السم إلى الجسم، وبناء الوصفة الطبية بإحكام تام، يُراعى فيها كل الجوانب التي فتك بها ذلك السم، وصياغة الدواء الشافي الذي يحتوي على مزيج كل المركبات الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية التي تشكّل هوية الجزائري وشخصيته صياغةً قادرة على إحياء ما مات، وتقوية ما هو ضعيف، وترسيخ ما شابته الشك، وشدّ عضد ما لا يزال حيا، للحفاظ على سلامته وليكون عوناً لهم في أداء المهمة ذاتها.

إنّ هذه المقاومة الضارية التي قادها علماء الجمعية لتحطيم كل الجسور التي أقامها المستدمر للوصول إلى عقل وقلب وفكر ومعتقد وشخصية الجزائري، وجدت جنوداً وأتباعاً يقفون وراءها لتحقيق الغاية.

وأجدني من خلال هذه الدراسة أسعى للوقوف على هذا النشاط - وليس بتوسّع وإثماً لهما- من خلال شعار الجمعية السالف الذكر، والذي

يحمل دلالات عميقة عمق الحضارة الجزائرية وعمق ماضيها السحيق؛ دلالات ترسم مسيرة شعب لم ينقطع عن المقاومة في سبيل ترسيخ هويته والحفاظ على أصالته ومكونات شخصيته، وحماية أرضه وضمأن أمنه وسلامته، مسيرة شعب لم يكلّ ويملّ عبر تاريخه المجيد عن الوقوف في وجه من يستهدف المساس بعقيدته ودينه ومعتقداته الإسلامية الثابتة الراسخة، التي ساهم أبان فترة الفتح الإسلامي في تشييد صرحها على أرض المغرب يوم كان هو الجندي، والزاد، والدليل، والترجمان، كان الفاتح والمقاوم للفتح قبل أن يعي رسالة الفاتحين؛ فقاوم وفتح، وانهزم وانتصر، فكان الفتح المجيد الذي أقبل على البلاد بعهد جديد، حين ألقى الإسلام بضلاله على بلاده، وتشبعت نفسه بتعاليمه، فأصبح جزءاً من كيانه، يحارب لأجله كما يحارب للحفاظ على روحه، بل يبذل روحه للحفاظ عليه، فيموت هو ليحيا غيره به.

فقيم يتمثل البعد التاريخي الذي يحمله شعار الجمعية هذا؟ وإلى أيّ مدى يرسم ملامح شخصية الجزائر ومقوماتها؟ ويربط حاضرها بماضيها، وحاضرها بمستقبلها؟

3- شعار الجمعية، الأبعاد والدلالات:

كتب الشيخ ابن باديس (1889-1940) سنة 1935 عن جريدة المنتقد⁽¹⁾ التي أنشأها سنة 1925 قائلاً: أنها كانت تلفت انتباه الجزائريين المسلمين إلى حقهم في أخذ مكانتهم بين الشعوب وتبين لهم بأنهم يشكلون وطناً له لغته، ودينه وتاريخه⁽²⁾.

(1) كان شعارها ألحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء.

(2) للمزيد من التفصيل، أنظر: بو الصفصاف: المرجع السابق، ص 61.

وهي دعوة صريحة من رئيس جمعية العلماء المسلمين لكافة الجزائريين للانقلاب على واقعهم المرير الذي يعيشونه بين جدران سجن الاحتلال؛ واقع تشرب فيه شرائح عريضة منهم من كأس الجهالة التي تسقيهم بها سياسته التدميرية، واقع تعصف فيه أعاصير التبشير والتمصير بمعتقد الجزائري ودينه لتقتلعهما من جذورهما وتبني على صرح عقله وقلبه حضارة ومعتقدا دخيلا على جسمه وغربا عنه، واقع تستهدف فيه قوى الغرب المسيحي ووطنية الجزائري وشخصيته لينسى ما يكون أصله وجنسه، لغته، ودينه.

إنّ هذا الواقع يقتضي انقلابا جذريا عليه، وذلك بخوض حرب ضروس على الأفكار الهدامة والمعتقدات الباطلة، والسعي الحثيث لِمّ شمل الجزائريين تحت راية الدين الواحد واللغة الواحدة والوطن الواحد. وذلك هو ما اتّخذته العلماء المسلمون الجزائريون شعارا للجمعية التي أسّسوها في الخامس من ماي سنة 1931، لتحقيق بنود ذلك الشعار، الذي كان يحمل بين طيّات بنوده أبعادا تاريخية هامة، يمكن أن نقف على بصيص منها في هذه الدراسة.

والحق، أنّ علماء الجمعية - كما هو مدوّن في مصنفات المصادر على تنوعها - ركّزوا جهودهم على تصحيح المفاهيم والمغالطات التي نثرها المحتل على فراش عقل الجزائريين حتى تُذهب وعي هذا الاخير، فيصبح أسير ما يُملَى عليه؛ لا يُحقّقه أو يمحّصه وإثما يبتلعه كما هو، فيكون عندئذ فريسة سهلة المنال حتى وبدون فعل الصيد. كما ركّزوها على بناء الثقافة العالية في هذا العقل للنهوض بصاحبه لإدراك المجد والحرية وقيادة نفسه بنفسه، ونبذ التعصب الديني والمذهبي وكل أشكال الفرقة والانحراف عن جادة الصواب، ومقاومة كل من كان يداً ضاربة ضدّ الجزائريين من أبناء جلدتهم شأن بعض الطرقيين المنحرفين⁽¹⁾. فالذي يقف على مقالاتهم الصحفية ومحاضراتهم

⁽¹⁾ وغير ذلك من أهداف الجمعية، التي لا يسع المقام لحصرها في هذه الدراسة

وكتاباتهم المختلفة يقف على دعوة صريحة للجهاد ضد المحتل ووعي فائق لواقع الشعب الجزائري المرير، وجهد ملحوظ لإحياء الإسلام والعروبة في الجزائر، كما جاء في جريدة "لسان العرب" سنة 1947، أن أهداف الجمعية تتلخص في نقطتين مهمتين هما: إحياء ما اندثر من تعاليم الإسلام، وإحياء ما مات من مظاهر اللغة العربية⁽¹⁾.

جاء في مجلة الشهاب - التي أنشأها ابن باديس سنة 1925 بعد منع المنتقد من الصدور، وشعارها: "تستطيع الظروف أن تكيفنا ولا نستطيع بإذن الله اتلافنا" - في عددها الصادر في ماي من سنة 1934 أن هدف الجمعية يتمثل في: إصلاح الشعب الجزائري العربي من الوجهة الدينية، والوطنية، والأدبية

(1) ويذكر أبو القاسم سعد الله أن من كتب عن أهداف جمعية العلماء المسلمين، هناك منهم من حصرها في التعليم العربي، ومحاربة الخرافات، وتطهير الإسلام مما علق به من شوائب، بينما ذهب البعض الآخر إلى أنهم ركزوا على محاربة المحتل ومعاداته بكل السبل، في الوقت الذي سعى البعض إلى تقزيم دور العلماء في القضية الوطنية، حين زعموا أنهم مجموعة من أنصاف المثقفين جاءوا إليها من الخارج، أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، ط4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992، ص86، بو الصفصاف: المرجع السابق، ص71، 109. أمّا البشير الابراهيمي فقد لخص أهداف الجمعية في نقطتين أساسيتين هما: إحياء مجد الدين الإسلامي، وإحياء مجد اللغة العربية. ومع هذا، فإنه وفي حقيقة الأمر لا يمكن أن نحصر أهداف الجمعية على ما ساقه البعض من المؤرخين والدارسين، أو حصرها في اتجاه واحد، وذلك أن إنشاء العلماء المسلمين ما اقتصر على ما سطره في قانون الجمعية الأساسي، وإنما كان نشاطهم أوسع من ذلك بكثير، وشمل مجالات أوسع. وقد فصل في هذه النقطة عبد الكريم بو الصفصاف، وبيّن أبرز أهداف الجمعية في الدراسة الأكاديمية التي خصّها بها، انظر: بو الصفصاف: المرجع السابق، ص111-112.

والعلمية⁽¹⁾. أمّا محمد خير الدين وهو أحد أعضاء الجمعية، فقد ضمّن أهداف الجمعية سنة 1935 في مقولته: "إنّ أهداف جمعية العلماء تتمثل في إحياء الإسلام بإحياء الكتاب والسنة، وإحياء اللغة العربية، وآدابها، وإحياء التاريخ الإسلامي وآثار رجاله المخلصين⁽²⁾، ولتنجلي أمامنا أبعاد شعار الجمعية التاريخية، رأينا أن نظرقه بندا بندا، كما هو آت تفصيله تبعا:

أ- الإسلام ديننا:

كان الأساس الأول الذي ارتكز عليه شعار الجمعية هو: "الإسلام ديننا". فالإسلام هو دين الله الذي ارتضاه للبشرية قاطبة دينا للهداية والسعادة الأبدية، وبه بعث الرسل هداةً، فكان آخرهم محمد ﷺ وهذا عملا بما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾⁽³⁾. وأساس الإسلام هو التوحيد، وكتابه القرآن؛ الذي تفسيره يكون بالسنة الصحيحة، أمّا البدعة فهي كل شكل من العبادة التي لا أصل لها في السنة⁽⁴⁾.

والإسلام الذي كانت ترتضيه فرنسا دينا للجزائريين، هو الإسلام الميت الذي لا روح له وإنّما الجسد فحسب، هذا إن رضيت به جسدا. نعم فرنسا تروم للجزائريين دينا يدعو إلى فساد العقول وانحطاط الأخلاق، دينا لا ينفع صاحبه، دينا لا يحمل من الإسلام إلّا اسمه. حتى أنّ بعض المؤرخين الفرنسيين الذين كتبوا عن تاريخ الجزائر وهو "روبير أجيرون" يسمي الإسلام

(1) محمد خير الدين: مذكرات، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص296، سعدالله: المرجع السابق، ج2، ص397.

(2) سعدالله: المرجع السابق، ج3، ص86.

(3) سورة، آل عمران، الآية: 19.

(4) عماد الدين ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج3، تح، مصطفى السيد محمد وآخرون، قرطبة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص36.

في فترة الاحتلال باسم الإسلام الجزائري، وكأن للجزائر اسلاما خاصا بها يتميز عن الإسلام الحقيقي الذي عليه الأمة الإسلامية. ولا غرابة أن يصدر هذا القول من هذا الكاتب الفرنسي المعادي للقضية الجزائرية، فالسياسة الفرنسية - كما قلنا - لا يروق لأصحابها إن فضل الجزائري الإسلام على النصرانية، وعجزت عن سجنه مرغما بين جدرانها، وإنما يروق لها أن يغترف الإسلام الزائف الذي تسججه هي وفق ما يخدم مصالحها التدميرية.

ولا يخلجنا الريب أبدا، أن الإسلام هو الطريق السليم الذي إن سلكه الشعب الجزائري أدرك غايته المنشودة، غايته في الحرية والاستقلال وغايته في التقدم والرقي، وغايته في التماسك والوحدة الوطنية، وغايته في الأخوة والمحبة الإنسانية، وغايته في نبد الظلم والعبودية، وغايته في نصرة المضطهدين بين مخالب المحتلين والغاصبين. ومن هنا، ومن خلال ما أمطرته سحب المحتل الفرنسي من خرافات وشوائب وضلالات على أرض الإسلام في الجزائر، وشربت منها بعض العقول والأنفس من أبنائها، سعت جمعية العلماء إلى تحجيف تلك الينابيع التي أحدثتها وتطهيرها، وإحلال محلها الإسلام الصافي من منابعه الطاهرة، وذلك من خلال النشاط التعليمي والتربوي الذي انتصبوا له في المدارس والمساجد ونحو ذلك من مؤسسات التعليم والتربية والوعظ والارشاد⁽¹⁾.

ولا مرية أيضا أن كل علماء الجمعية كانوا متشبعين بالأفكار المعادية للاستعمار، وبالروح المتقدة حماسا لإحداث التغيير والثورة ضد أفكار المحتل الضالة وضلالاته المضللة، وعلى الجمود الفكري الذي نجم عن سياسته لوأد الثقافة الجزائرية العربية، كما تشبّعوا بالمبادئ الداعية إلى العودة إلى منابع

⁽¹⁾ محمد الصالح الصديق: الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس من آثاره ومواقفه، دار البعث

الإسلام الصحيحة الصافية النقية التي سار عليها السلف الصالح، وتطهيره من كل الشوائب والبدع والخرافات التي أنتجها المحتل سعياً منه لعزل الإسلام عن روح الحضارة والعصرنة وحبس أصحابه بين جدران سجون الجهل والشرك والبداءة⁽¹⁾.

وبناء على ما ينطوي عليه هذا الأساس من أهمية بالغة في حياة الفرد الدنيوية والأخروية، وضعه ابن باديس ورفاقه الفصل الرئيس في شعار الجمعية لا يجيدون عن مبادئه أو العمل لإحيائها قيد أنملة، وفي هذا الأساس يقول عبد الكريم بو الصفصاف: وكان ابن باديس يريد أن يقول للشعب الجزائري على اختلاف مشاربه ومذاهبه، أن الإسلام هو مناط الفخر والاعتزاز، وهو ما يجعل المسلمين مطالبين بالتعرف عليه والتمسك به، وتطبيق أحكامه السمحاء التي تمكنهم حتماً من التقدم والرقي⁽²⁾⁽¹⁵⁾.

والإسلام في بعده التاريخي بالنسبة للجزائري، يعتبر هو الذي وحد أجداد الجزائريين بدعوته السمحاء إلى الأخوة والتضامن والمحبة فيما بينهم وبين عناصر الإنسانية قاطبة، وهو الذي سوى في الكرامة البشرية والحقوق الإنسانية بين شتى الأجناس والألوان والأعراق التي شكّلت كيانه في الماضي. وليس دعاوي المحتل الباطلة التي يتبجح بها باسم مبادئ الديمقراطية الفرنسية الزائفة والمدنية الأوروبية الخادعة، التي لا تمت للإنسانية بصلة، كيف لا، والتميز بين الأوروبي والجزائري في شتى مظاهر الحياة هو عمود السياسة الفرنسية وسنامها، فالعدل لا يقوم عنده إلا على أساس المنفعة والعرق واللون ونحوها من الأمور المقيتة التي ذمها الإسلام ودعا إلى اجتنابها.

(1) أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 2001، ص 9-10.

(2) بو الصفصاف: المرجع السابق، ص 113.

ولو رجعنا إلى ماضي الجزائر وتاريخها المجيد الحافل بالأحداث بعد فترة الفتح الإسلامي لوقفنا على مجتمع متماسك رغم اختلاف الألوان المكونة لجسمه، مجتمع يضم أخلاطا من البربر والعرب والترک وحتى العجم امتزجوا في طينة واحدة شدّت تماسكها وصقلها الإسلام في قالب واحد، دفع عنها كل نعارات الجاهلية المقيتة من مظاهر التمييز والفرقة والتباين والاختلاف، وحتى وإن حدث اختلاف في الفكر والرؤية كان الاجتماع في الحل والمخرج الذي يُشير به علماء الإسلام استنباطا من الشرع الصالح لكل زمان ومكان. وكان هذا الاتحاد قوة في وجه الخطر الخارجي الذي كثيرا ما أحرق بالبلاد وكانت المقاومة هي السبيل لتأمين البلاد وحدودها، بل وأكثر من ذلك فقد اجتمعوا كتلة واحدة لتحقيق مطامح التوسع والسيطرة لتوحيد البلاد تحت حكم واحد كشأن ما قام به أجدادنا من مثل حماد بن بلكين (405-419هـ/1014-1028م) في العهد الحمادي من جهود للاستقلال بمنطقة المغرب الأوسط والانفصال عن الأسرة الزيرية خصوصا بعد تأسيسه لقاعدة بلاده العسكرية الحصينة وعاصمة دولته المستقبلية مدينة القلعة، والذي كان له الفضل في رسم ملامح الكيان الجزائري في العصر الوسيط⁽¹⁾. ثمّ واصل بنوه مسيرة الحفاظ على هذا الكيان، والسعي لضم بلاد المغرب الأدنى إلى حظيرة سلطانهم لتوحيد البلاد المغاربية تحت حكم السلطة الصنهاجية شأن

(1) محمد ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج9، صححه، محمد الدقاق، ط4، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـ-2003م، ص86، رشيد بورويبة: الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، المطبعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007م، ص26-27.

ما قام به الناصر بن علناس (454-481هـ / 1062-1089م)، وكذا المنصور (481-498هـ / 1089-1106م)⁽¹⁾.

ولكن لما وقعت الجزائر بين مخالب المحتل الفرنسي شرع في تنفيذ مشروعه التدميري للبنية الاجتماعية والسياسية والدينية والثقافية للجزائري، حيث اختار لمشروعه ذلك أنجع الوسائل وأقدرها وأنكأها، وكان من الأوتار التي لعب عليها، هي العزف في أذان العامة من الفقراء والمحرومين والجهلة والمستضعفين- بسبب سياسته التعسفية- على نغم النزعة البربرية المقيتة، من خلال السياسة المعروفة بـ"فرّق تسد". وبذلك عمل المحتل على التمييز بين الشعب الجزائري المسلم، وذلك بإشعال نار الصراع المذهبي وتأجيجها، وزرع مظاهر الجهوية والفرقة والعنصرية والعصبية القبلية وتدعيمها، حيث اعتقد أنّ عقول سكان القبائل أكثر خصوبة لزرعها ونموها، بزعمه أنّ إسلامهم سطحي، وأنهم أعداء فطريون للعرب⁽²⁾.

والمحتل في هذا المنحى، يعتبر القبائل شعبا منحدرًا من الغالين والرومان والبربر المسيحيين من العهد الروماني، وحتى من الوندال، ولأجل هذا تنامت طموحاته في أن يعتمد عليهم في إحياء مجده الضائع المزعوم بالجزائر، وربط شعبها بأصله وجنسه، وكان من مظاهر سياسة التفرقة بين الجزائريين،

(1) عبد الرحمن ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج6، ضبطه، خليل شحادة، راجعه، سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1421هـ-2000م، ص27، إسماعيل العربي: دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1998م، ص202، عبد الحليم عويس: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، ط2، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1411هـ- 1999م، ص180.

(2) بو الصفاصفا: المرجع السابق، ص127.

أن تُمنح امتيازات لبعضهم، ويُحرم البعض الآخر منها، كإعطاء للقبائل تمثيلاً خاصاً في المجالس المالية⁽¹⁾.

ولا ريب أنّ هذا الاجراء من شأنه أن يُحسّس الجزائريين المخمورين بنبيذ السياسة الفرنسية الجهنمية الإغرائية بالفرقة والتمييز، بدعوى هذا بربري وهذا عربي، ويجد مع مرور الوقت وتصاعد سياسة التمييز إلى قلوبهم طريقاً مُعبداً للاقتناع بمخططات المحتل التمييزية.

والحقيقة التي لا مناص منها، أنّ البربري أو الأمازيغي كان قد فتح قلبه وعقله للإسلام مذ عرف حقيقة هذا الدين الجديد ونبل وسمو مبادئه وتعاليمه وصلاحياتها لكل زمان ومكان خلال القرن الأول من الهجرة السابع للميلاد، بل والأكثر من ذلك أنّ البربر كانوا يعتزّون أيّما اعتزاز بالإسلام ويفتخرون بالانتساب إليه مذ مرحلة الفتح وإلى يومنا هذا.

ولم تكن حيلة المحتل الفرنسي التفريقية لتنتطلي على سكان القبائل الجزائريين، وإنّما من وقع في شباكها كان سيقع بربرياً كان أو عربياً، ذلك أنّ هذه الفريسة المصطادة كانت تعيش فراغاً روحياً وعلمياً وتاريخياً، نتيجة حالة الجهل والفقر الذي تعيشه، وألوان السياسة الإغرائية الفرنسية لزعة أركان إسلامهم ووطنيتهم وعروبتههم؛ فضحايها سياستها خليط من العرب والبربر الجزائريين المسلمين، الذين سلّبت شخصيتهم لصالح المدنية الغربية الزائفة.

وإذا كانت الجمعية قد سعت إلى التقريب المذهبي بين المالكيين والإباضيين والبربر دون تمييز من حيث الأصل والمذهب، حيث ضمّت بين أعضائها عناصر مذهبية متنوعة من أهل السنة ومن الإباضية) بهدف خلق كتلة موحدة تضم جميع المسلمين الوطنيين الذين سخّروا حياتهم وعلمهم في سبيل الجزائر عن طريق التعليم والتربية والنضال السياسي ونحوها، فإنّ

⁽¹⁾ المرجع نفسه، ص 128.

مجتمع المغرب الأوسط (الجزائر) قد اجتمع في العصر الوسيط وتماسك على اختلاف ألوان المذاهب التي اعتقدها بنو جلدته.

وفي هذا المضمار، يقول أبو القاسم سعد الله عن جمعية العلماء المسلمين، أنها ضمت خليطاً من العلماء جاءوا من مختلف أنحاء القطر الجزائري، ومن مختلف الاتجاهات الدينية، فكان فيهم المتطرفون وهم المصلحون عندئذ، وفيهم الرجعيون وهم غير المصلحين من رجال الدين الجزائريين⁽¹⁾. وحتى وإن اختلفت منطلقات هذا الخليط الفكرية بشأن طريقة الإصلاح ومظهره، فإنها كانت تلتقي في محطات عدة أبرزها أن الألم الذي تعيشه مصدرة واحد وهو المحتل الفرنسي، بل إن الرؤية الإصلاحية التي يتبناها العلماء المصلحون من مثل ابن باديس ونظرائه كانت هي السائدة، وفق ما سطره في أهدافها العلنية مثلما ضمّنه شعار الجمعية، وكما يقرّه السيد "جوزيف ديارمي" الذي رأى سنة 1932 أنّ أهداف جمعية العلماء تتمثل في "فهم لغة القرآن، والعودة إلى الثقافة الإسلامية القديمة، واعتبار المغرب العربي كقلعة للعبقرية الشرقية في وجه الغرب، وتنقية وتبسيط الدين الإسلامي"⁽²⁾.

ولا يختلف اثنان في أنّ بداية تشكّل الإطار الجغرافي للجزائر الحالية عقب مرحلة الفتح الإسلامي يرجع إلى عهد دولة بني رستم التي تأسست سنة 160هـ/ 776م، هذه الدولة ذات المذهب الإباضي التي كانت عاصمتها تيهرت، والتي كانت تضم أخطا من الإباضية والمعتزلة والشيعة والمالكية⁽³⁾.

(1) سعدالله: المرجع السابق، ج3، ص83.

(2) المرجع نفسه، ص86.

(3) محمد العرابوي: في مواجهة النزعة البربرية وأخطارها الانقسامية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص137، محمود إسماعيل عبد الرزاق: الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1406هـ-1985م، ص230.

وبسقوط الدولة الرستمية سنة 296هـ / 909م وخضوع إقليم المغرب الأوسط للسيادة الفاطمية الشيعية، وعلى الرغم من الفوارق الباهرة بين المذهب الشيعي والمذهب السني المسيطر على البلاد الجزائرية (المغرب الأوسط) فإن ذلك لم يمنع من أن يعيش هذا المذهب الغريب بين أظهر المغاربة السنة المالكية. ولقد حدث التعايش المبكر بين أهل السنة مع القادم الفاطمي أبي عبد الله الشيعي إلى بلاد المغرب الأوسط وبالضبط إلى أرض كتامة التي حمته وأوته ونصرته، بل وكانت ساعده الأيمن في القيام بمهامه العسكرية للتأسيس لدولة الفواطم على أرض المغرب، ولم تحدث الفرقة بين أهل المذهبين بشكل كبير إلا بعدما أظهر الشيعة الفاطميين تعنتا في مذهبهم ومبالغات لا تمت بصلة إلى الدين، وفوق ذلك سعوا لنشرها في البلاد طوعا وكرها، عندها كان النفور شديدا بين أهل السنة المالكية والشيعة، وانتهت مسيرة الصراع بينهما بعد انتقال الفاطميين إلى أرض مصر بطرد الشيعة من المغرب الأوسط وسيطرة المذهب السني المالكي⁽¹⁾.

وهذا ما كان يمنع من وجود بعض المذاهب الغير سنية بين أوساط مجتمع المغرب الأوسط في عهد الحكم الصنهاجي ولا حكم الموحدون وحتى الزينانيين للبلاد، بل وبمجيئ الترك العثمانيين تعايش المجتمع الجزائري مع هذه العناصر الغير عربية وكان القاسم المشترك وموحد المقامات هو الإسلام.

(1) محمد بوركة: «الحياة الاجتماعية على عهد الدولة الرستمية (160-296هـ / 777-909م)»، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 1420-1421هـ / 1999-2000م، ص 15، محمد الناصري: «عوامل اختفاء المذهب الإسماعيلي من إفريقية الشمالية»، مجلة دعوة الحق، العدد العاشر، السنة الأولى، وزارة عموم الأوقاف، الرباط، المغرب، 1377هـ-1958م، ص 32.

ولا خير للجزائريين إلا في اتباع الإسلام دينا خالصا الضامن لسعادتهم، وعدم الانخداع والانسحاق وراء الإغراءات التي تسوق لها فرنسا لخداع المغرورين بمظاهر المدنية الزائفة، والعدالة الاجتماعية التي هي أبعد في مظهرها عن الإنسانية بل هي أقرب إلى الدعوات المتطرفة التي تعرقل سير الحضارة الإنسانية وفقا للسليقة البشرية.

لقد رام علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من خلال صياغة هذا الشعار القول: أن الإسلام هو دين العالمين، وهو دين الجزائريين أبا عن جدّ، دين يمتدّ بالجزائري إلى مرحلة أجدادنا الفاتحين. والحق أنّ هذا المبدأ معلوم بالضرورة، فكانوا عندها يرومون أكثر من ذلك، وهو التأكيد للمحتل الفرنسي-الظالم، المعتصب لحق غيره، المستعبد للبشر، الزاعم أنّه جاء لنشر رسالة الحضارة، واخراج العباد من حياة التخلف إلى حياة الرقي والحضارة ومن حياة التعصب والظلم إلى نور العدل والديمقراطية في النصرانية المحرفة - أنّ مبادئ الإسلام الرفيعة ليست وليدة العصر بل كان العدل في الإسلام هو وكل مظاهر الرحمة، والحياة الكريمة خالد في تاريخ الإسلام والمسلمين. وهي دعوة من العلماء للمحتل للوقوف على ذلك من جهة، ومن جهة أخرى دعوة للجزائري المسلم إلى الرجوع إلى منابع الإسلام الصافية الطاهرة.

يقول ابن باديس بشأن التحام الشعب الجزائري العربي الأمازيغي تحت راية الإسلام: إنّ أبناء يعرب وأبناء مازيغ، قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنا، ثم دأبت تلك القرون تمزج بينهم في الشدة والرخاء وتؤلف بينهم في العسر واليسر وتوحدهم في السراء والضراء حتى كونت منهم خلال أحقاب بعيدة، عنصرا مسلما جزائريا أمّه الجزائر وأبوه الإسلام⁽¹⁾.

(1) بو الصنصاف: المرجع السابق، ص 132.

وكأن ابن باديس يريد أن يقول: هل يُعقل أنّ صبيًا صغيرًا يرضى أن تُطلق أمّه، ويفترق أبويه، فيعيش حياته يتيماً؟ كلا ولا، كذا هو الإسلام والشعب الجزائري، لا يمكن أن تفصل بينهما الدهور وعادياتها ما دام من صقل بينهما ووحد بينهما وشيّد بينهما الواحد هو الإسلام، دين الله الواحد للبشر أجمعين.

ومن شروط نجاح الإصلاح والدعوة أن يكون المصلح والداعي خير قدوة، لذلك كان علماء الجمعية قدوة في الصلاح والتمسك بمبادئ الإسلام، وذلك سبيل إلى لفت أنظار النخب العلمية والثقافية على اختلاف مشاربها إلى كنوز المدنية الإسلامية السمحة، لتحذو حذوها في مسيرة الكشف عن أباطيل المستدمر وسياسته المتتهجة، وللوقوف على تصوّر منطقي سليم للحياة في كنف الحضارة الإسلامية بعيداً عن التعلّق بالزائف المنسوج بخيوط في ظلام.

أمّا النجاح الحقيقي من خلال ما يرضيه شعار الجمعية هذا، هو أن يُفلحوا في تطهير العقيدة من كل شائبة قاتلة، لأن العقيدة هي أساس الدين، فإن صلّحت العقيدة فإنّ ما بعدها أيسر للصلاح ويكون صائباً، أمّا إن فسدت العقيدة، فإنّ ما يتبعها فاسد وإن صلّح. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾⁽¹⁾.

لذلك أولت الجمعية عناية فائقة بعملية تطهير العقيدة من الشكوك والأباطيل، التي علقت بها جراء بعض الممارسات الطرقية التي خدرت عقول الجزائريين من العامة، الذين أوهمهم بعض شيوخها أنّهم واسطة بينهم وبين ربهم، بل إنّ بعضهم بلغت به الجرأة على الله أن يدّعي الألوهية، وكذلك جراء نشاط الكنيسة المعادي للإسلام لتشويه الإسلام في عقول البشر من العامة طبعاً، لأن الإسلام محفوظ من الله، يقول تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا

⁽¹⁾ سورة النساء، الآية: 116.

الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴿١﴾، حتى قيل أنّ علماء الجمعية هم الذين أحيوا حقيقة الإسلام باثني في الشخصية الجزائرية وعيا دينيا، وقوميا^(٢).

كما أنّ شعار الجمعية هذا، جعل حجر الزاوية في الدعوة والإصلاح لتحرير البلاد من ظلم الاستعمار يكمن في القدرة على خلق مجتمع جديد، يعبد الله الواحد ويدين بالإسلام لا غير، وهذا الجهد يقتضي تصفية العقول من رواسب الماضي البغيض الذي خلفه المحتل، وتطهير النفوس من الخرافات الضالة، وهذا المجتمع هو القادر على قيادة سفينة الثورة والكفاح، كفاح السلاح وكفاح الأفكار، يكافح وفق رؤية ثابتة، ومنهج قويم، ومبدأ واضح، وغاية سليمة.

فالإنسان قبل أن يخوض حرب السلاح ضدّ المحتل ينبغي أن يتقن حرب الأفكار، حتى لا يكون فريسة سهلة المنال إن انتصر فضلا عن الانهزام، فإذا لم يتحرّر العقل من الجهل والشرك وفساد العقيدة، فإنه لا يمكنه أن يخوض حرب السلاح ضدّ من سلبه حريته وعقله، لذلك كان استرجاع العقل سبيلا إلى استرجاع الحرية وطرد العبودية من عقله وأرضه.

ب- العربية لغتنا:

كانت فرنسا تدبّر علنا وفي الخفاء بكل ما أتيت من قوة لإحلال اللغة الفرنسية محلّ العربية، وإعادة صقل اللسان الجزائري على غير طبيعته التي خلّقت عليها وتوارثها جيلا عن جيل مذ أنعم الله على البلاد المغاربية برسالة الإسلام، الذي أنزله الله جل في علاه بلسان عربي مبين، حتى كادت اللغة العربية أن تندثر في الجزائر. وكان العصب الحساس الذي أرادت فرنسا أن

(١) سورة الحجر، الآية: ٠٩.

(٢) بو الصمصص: المرجع السابق، ص ٢٠٦.

تقطعه حتى لا يشعر الجزائري بعروبه ولا يتذوق طعمها وينسى امتداده إليها، أن عملت على ضرب الثقافة العربية الإسلامية بالجزائر، والتركيز على فرنستهم وخاصة سكان القبائل لاستغلال النزعة البربرية كما مرّ بنا، وكذا تفعيل سياسة التنصير والتجنيس، وتشويه التاريخ المحلي حتى يتسنى لهم ادخال التحريفات والتشويهات عن انتمائهم العربي وللأمة الإسلامية.

كما كان من الخطط التي اعتمدها المحتل لتوسيع دائرة الفرقة والتمييز بين أبناء الجزائر الواحدة الأمازيغ الذين عربهم الإسلام، هو نشر فيروس بين أوساط المجتمع الجزائري في منطقة القبائل، يعمل هذا الفيروس على إضعاف مناعتهم ليقنعوا بأنّ العرب استعمروا بلاد المغرب، وأنّ هدف الفاتحين المسلمين هو استغلال خيرات البلاد وممتلكات أهلها⁽¹⁾.

ولقد كانت جهود العلماء في مجال الحفاظ على طبيعة لسان الجزائري العربي المسلم وتقويم ما اعوجّ منه واصلاح ما أفسده المحتل تأخذ منحى متصاعدا، وتحقق نجاحا بعد آخر، ولعلّه ذلك ما يلخصه البشير الابراهيمي (1889-1965) في قوله: "اللغة العربية هي لغة الإسلام الرسمية، وهذه اللغة على الأمة الجزائرية حقان أكيدان، كل منهما يقتضي وجوب تعلمها فكيف إذا اجتماعا؟ حق من حيث أنها لغة دين الأمة بحكم أنّ الأمة مسلمة، وحق من حيث أنّها لغة جنسها أن الأمة عربية الجنس، ففي المحافظة عليها تعليمها، وذلك كله لأنها مفتاح الدين، أو جزء من الدين"⁽²⁾.

والابراهيمي من خلال هذا النص، يبيّن أهمية اللغة في التاريخ الإسلامي لكونها لغة القرآن، ولا يمكن للإنسان أن يفهم حقيقة الإسلام ويمثل لها بمرونة تامة إلا إذا فهم اللغة العربية، فضلا عن القول أنه يحجر في دراسة

(1) المرجع نفسه، ص 130 - 133.

(2) سعدالله: المرجع السابق، ج 2، ص 393.

تعاليمه ومبادئه وأسسها، ذلك أنّ هذا الأخير يتطلّب ضلوعه فيها وتحكمه في قواعدها. والعربية هي جزء من هوية الفرد الجزائري لا يمكنه أن ينسلخ عنها، فإذا انسلخ منها كان كالجسم الذي انسلخ منه جلده، فأضحى عريانا لا يمكنه أن يبرأ إلا إذا عاد إليه جلده أو لغته.

وهو إلى جانب هذا، يسوق لنا طريقة الحفاظ على هذه اللغة، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتعليمها في المدارس والكتاتيب، والتركيز على ذلك، بل وجعل تعلمها من أسباب فهم الدين وادراك تعاليمه، فتكون فضلا عن أنّها جزء من هويته، وسيلة لفهم الأجزاء الأخرى منها.

كما أنّ البنيان الثقافي الذي شيّده العلماء الجزائريون المسلمون كان حصينا، واستطاعوا بفضلهم أن يأووا بداخله عقل وقلب الجزائري من وساوس الشيطان الفرنسي لهم، للوقوع في جريمة التخلي عن عروبتهم والانقلاب عليها، وذلك تحت شعار العربية لغتنا. فالجزائريون شعب واحد في الدين، واللغة، والتاريخ، والمشاعر والأحاسيس أيام السلم أو الحرب في ظلال الحرية أو ظلم الاستعمار. وفي هذا المضمار، يقول ابن باديس سنة 1938 في مقال بعنوان كيف صارت الجزائر عربية: "ما من نكير أنّ الأمة الجزائرية كانت أمازيغية من قدم عهدا وأنّ أيّ أمة من الأمم التي اتصلت بها ما استطاعت أن تقلبها عن كيانها ولا تخرج بها عن أمازيغيتها أو تدمجها في عنصرها، بل كانت هي تبتلع الفاتحين، فينقلبون إليها ويصبحون كسائر أبنائها، فلمّا جاء العرب وفتحوا الجزائر فتحا اسلاميا لنشر الهداية... واقامة العدل الحقيقي بين جميع الناس لا فرق بين العرب الفاتحين والأمازيغ أبناء الوطن الأصليين. دخل الأمازيغ الإسلام وتعلموا لغة الإسلام العربية طائعين، ووجدوا أبواب التقدم في الحياة كلها مفتوحة في وجوههم، فامتزجوا بالعرب بالمصاهرة ونافسوهم في مجالس العلم والأدب وشاطروهم سياسة الملك وقيادة الجيوش. وقاسموهم كل مرافق الحياة، فأقام الجميع

صرح الحضارة الإسلامية، يعربون عنها وينشرون لواءها بلغة واحدة هي اللغة العربية الخالدة، فاتحدوا في العقيدة والنحلة. كما اتحدوا في الأدب واللغة فأصبحوا شعبا واحدا عربيا متحدا غاية الاتحاد، ممتزجا غاية الامتزاج، وأي افتراق يبقى بعد أن اتحد الفؤاد واتحد اللسان؟⁽¹⁾.

ومقولة ابن باديس تلخص لنا تاريخ العربية في الجزائر وصلة شعبها بها، وما كان بينهما من أحداث صيرتهما جسدا واحدا، فلا العربية يمكنها أن تستغني عن جسمها، ولا الجزائري يسمح بأن تغادره روحه.

إن صلة الجزائري بعروبه أصيلة وعريقة وضاربة جذورها في أعماق تاريخ الجزائر البعيد. لقد كان لذلك العربي الفاتح الفضل في نشر الرسالة المحمدية في بلاد المغرب، وبهذه الأرض كان الأمازيغي عونته وشريكه في توسيع نطاق الإسلام ودائرة معتنقيه، ثم بعد ذلك امتزج العربي بالبربري، وشكلا مجتمعاً واحداً له أعرافه وتقاليده المستوحاة من ينابيع الإسلام. ومع تدفق العرب الهلالية إلى بلاد المغرب الأوسط مع مطلع النصف الثاني من القرن 5هـ/ (11م) تزايد عدد العرب في الجزائر، وانتشروا في نواحيها وأقاليمها، وانصهروا في بوتقة العروبة والإسلام، وحسنوا كثيرا من لسان الجزائريين العربي⁽²⁾.

وعلى منهج ابن باديس سار بقية علماء الجمعية، حيث استنكروا مشاريع فرنسا التغريبية والتفريقية، وحاربوا سياسة البربرية بكل الوسائل المتاحة بالعمل الصحفي أو الدعائي أو التعليمي والتربوي وغيرها، وهاجموا النخب

⁽¹⁾ بو الصمصاف: المرجع السابق، ص 131.

⁽²⁾ المدني: المرجع السابق، ص 29. وحول الهجرة الهلالية وآثارها على بلاد المغرب الأوسط، انظر: ابن الأثير: المصدر السابق، مج 8، ابن خلدون: المصدر السابق، ج 6، شهاب الدين النويري: نهاية الإرب في فنون الأدب، ج 24، تح، عبد المجيد ترجيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الفرنسية التي سارت في فلكتها بشدة من مؤرخين، وكتاب، وأدباء، ورجال الدين. ولعل من بين ما يُبرز فشل فرنسا في مسعاها أنّ من علماء الجمعية وأعضائها وكثير من تلامذة ابن باديس النجباء الذين كانوا منحدرين من منطقة القبائل كانوا سيفه المسلول في وجه سياسة التغريب الفرنسية والسياسة البربرية، ومن ذلك - على سبيل المثال لا الحصر - "الفضيل الورتلاني"، و"السعيد الصالحي"، و"باعزيز بن عمر"، الذي يذكر بو الصفصاف أنّه كان يكتب مقالات راقية في صف جمعية العلماء، كما كانوا يعتقدون جازمين أنّ العربي هو من يتكلم اللغة العربية لغة الجزائري المسلم. هذا، ويضاف إليهم النشاط الكبير الذي تقوم به الزوايا بمنطقة القبائل في سبيل كشف حقيقة المحتل الفرنسي ومكره وخُذعه تحت مسمّى البربرية ونحوها، والتي كان أصحابها من أتباع المصلحين⁽¹⁾.

وعلى هذا الأساس يذكر الدارسون لتاريخ جمعية العلماء المسلمين أنّ علماءها لم يغفلوا في عملية الإصلاح والتربية عن تعليم اللغة العربية وفق الطرق التعليمية والتربوية العصرية للحد من عملية التغريب والتجنس والقضاء عليها، ومن ذلك أنّ مبارك الميلي (1897 - 1945) استطاع أن يستقطب حوله اهتمام الشباب بمنطقة الأغواط التي أقام بها مدة سبع سنوات، وذلك حين أحسن اتباع طرق التدريس العصرية، التي جعلت الشباب يجتمع حوله ويأخذوه الشوق لإدراك أسرار اللغة ومكوناتها البديعة، واستنباط المعاني والوقوف على دلالتها⁽²⁾.

(1) بو الصفصاف: المرجع السابق، ص 134-134.

(2) سعدالله: المرجع السابق، ج 2، ص 404، بو الصفصاف: المرجع السابق، ص 81.

كما ثار ابن باديس على المناهج وطرق التدريس السائد في عصره ووصفها بالجمود والسطحية، وأنها لا تنتج إلا معلما جامدا مقلدا، ودعا في مقابل ذلك إلى اتباع الطرق العصرية التي تدفع إلى التفكير الجاد والابداع المتميز⁽¹⁾.

ولا ريب أن الطريقة في التدريس تلعب دورا لا يستهان به في شدّ انتباه الطلبة، واقبالهم على تعلّمها، وشغفهم بذلك، خصوصا عندما تكون الوسائط متعدّدة والمنافسون للمادة المُدرّسة كثر، بل والأكثر من ذلك أن تكون الجزائر محتلّة، إذ تشبّثت اهتمامات الطلبة والدارسين، ويكون صاحب الطريقة المثلى في التدريس هو من يستقطب الطلبة إلى درسه وشدّ انتباههم إليه، فضلا عن حذق المدرس وكفاءته العلمية وأخلاقه وتربيته، لذلك اضطلع علماء الجمعية بكل طرق الدعوة الإسلامية الصحيحة وطرائق التدريس لإقناع الناس بالاصطلاح القويم، وكان سييلهم إلى تفعيلها هو استعمال كل الأساليب العلمية والكلامية المتاحة، كالتركيز على البيان العربي الساحر، والتذكير بأعجاز الأمة العربية الإسلامية المجيدة، ونحوها⁽²⁾.

ويُذكر في هذا المضمار، أنّ المعاصرين الفرنسيين لاحظوا أن العلماء أدخلوا بيداغوجية وطنية جديدة في حملتهم التعليمية لم تكن معروفة في الجزائر قبل الحرب، ومن ذلك أنّ ابن باديس استخدم هذا النمط الجديد من مناهج التدريس في محاضراته التي كان يلقيها بالمساجد الجزائرية، بغية اعداد طلبة الجزائر لمسؤولياتهم الوطنية، فكان يعلمهم المحفوظات العربية والأناشيد الوطنية التي من شأنها أن تقوي الحماس في صدورهم ضد المحتل وثقوي صلتهم بعروبتهم، وتاريخ بلادهم العريق، فكان الطلبة يحفظونها وينشدونها

(1) عمار طالي: ابن باديس حياته وآثاره، ج3، دار النهضة، دمشق، ص219.

(2) بو الصفصاف: المرجع السابق، ص120.

في المناسبات الاجتماعية والدينية، وكانت تبعث فيهم وفي غيرهم ممن يسمعونها ويحضرها روح الوطنية، والتضامن الإسلامي، والحرية⁽¹⁾.

وبعيدا عن النظرة الضيقة، دعا علماء الجمعية إلى تجديد عروبة الشمال الأفريقي، ووحدته، فالبلاد المغاربية والعربية هي وحدة لا تتجزأ حتى وإن فصلت بينها الحدود الجغرافية، فاللغة هي إحدى موارد امداد هذه الوحدة، واللغة بالإضافة إلى الإسلام هي الجامع والموحد بين شعوب المغرب، والوطن العربي، وذلك بفضل الإسلام الذي أقرها لغة للقرآن ولغة للتخاطب والحوار. وفي هذا السياق دعا البشير الإبراهيمي إلى "عروبة الشمال الأفريقي بجميع أجزائه كيفما كانت الأصول التي انحدرت منها الدماء والينابيع التي انفجرت منها الأخلاق والخصائص، والنواحي التي جاءت منها العادات والتقاليد، وهي أثبت أساس، وأقدم عمر، وأصفي عنصر من الإنجليزية الانجليزي، وألمانية الألمان، هذه العروبة، الأصيلة، العريقة

في هذا الوطن هي التي صيرته وطنا واحدا لم تفرقه إلا السياسة، سياسة الخلاف في عصوره الوسطى، وسياسة الاستعمار في عهده الأخير"⁽²⁾.

ولبلوغ ذلك، أدخل العلماء تدريس تاريخ العرب إلى مؤسسات التدريس بالجزائر. وكان الهدف من ذلك هو بعث عاطفة الولاء للوطن الجزائري بصفة خاصة والعالم العربي والإسلامي بشكل عام⁽³⁾، وكذا تعليم الطلبة أن جميع سكان افريقيا الشمالية من أصل عربي، وأن للعرب السبق في العديد من الابتكارات والأبحاث العلمية، فإليهم الفضل في اكتشاف أمريكا، وهم

(1) سعد الله: المرجع السابق، ج 2، ص 400.

(2) بو الصنصاف: المرجع السابق، ص 70-71.

(3) الزبير بن رحال: الإمام ابن باديس رائد النهضة العلمية والفكرية 1889-1940، دار الهدى،

عين مليلة، الجزائر، 1997، ص 29.

أول من حاول الطيران، وأنّ ما عليه أوروبا حينذاك من تطور كان انطلاقاً مما بلغت الحضارة الإسلامية من تطور ورقي في العصر الوسيط، وأنّ ذلك التطور ليس حكراً على الغرب، وإنّما يمكن للعرب والجزائريين تدارك ما فاتهم أو ما فرطوا فيه إذا ما رجعوا إلى القرآن، وتشبّثوا بالإسلام ديناً والعربية لغة والجزائر وطناً، وفهموا مكنونات هذا الكتاب وعملوا بما جاء به وأقره، عندها سيستعيدون مجدهم الضائع، ويحظون بأن يكونوا أمة القرآن وأمة العلم والإسلام.

وبفضل العلماء عرف الجزائريون تاريخهم واستفاقوا من سباتهم، وأجروا بين أحداثه، ترسم هذه الأخيرة في مخيالهم فصول الصراع التي خاضها أجدادهم عبر الزمن لاصطياد الحرية، وامتطاء جواد الاستقرار والتطور، وتحديد ملامح الكيان الذي يعيشون فيه وبناء حضارته، وأدركوا عندها أنّ المسؤولية ملقاة على عاتقهم لمواصلة درب الصراع من أجل الحرية والسيادة التامة على الممتلكات، وإتمام مسيرة البناء لبلوغ الرقي والازدهار⁽¹⁾.

ج- الجزائر وطنا:

وطن الجزائر، هي تلك البلاد التي كانت تعرف بعد الفتح الإسلامي بالمغرب الأوسط وبقيت على ذلك حتى القرن السادس عشر للميلاد، أين اجتمعت البلاد تحت الإدارة المركزية العثمانية، فاتخذوا لهذه البلاد عاصمة في منطقة جزائر بني مزغنة الساحلية، فعمرت المنطقة وتوسع عمرانها كثيراً، فأطلقوا عليها اسم الجزائر، ثم عمّموا الاسم على كامل البلاد.

وإنّ كُنّا في هذه الدراسة لسنا بصدد الخوض في غمار مسألة إلى أي عهد يرجع طرح فكرة الكيان الجزائري، ومن صاحبها؟ وما دامت دراستنا تتعلق

⁽¹⁾ انظر كذلك: سعدالله: المرجع السابق، ج2، ص401.

بشعار الجمعية وأبعاده التاريخية، فإننا نقول أن ابن باديس قد طرح الفكرة خلال الثلاثينيات من القرن الماضي. وفي هذا السياق يقول أبو القاسم سعد الله: أنه وعلى الرغم من اتفاق الكثير من الكتاب أن علماء الجمعية بعيدون عن السياسة، إلا أنهم يتفقون في الوقت ذاته على أن هدفهم البعيد هو السياسة، لأنهم لا محالة يصطدمون بها في مسيرة الإصلاح التي يخوضون غمارها، ذلك أن إدارة المستدمر لا محالة تكون لنشاطهم بالمرصاد، لأنها تعتبرهم خطرا على وجودها بالجزائر، فلا خيار لهم عندها إلا ولوج ميدان السياسة⁽¹⁾.

ولقد مرّ بنا أن المحتل ركّز أيما تركيز على عامل التفرقة من حيث الأصل والجنس والعرق والمذهب لتحقيق مآربه الاستنزافية لبلاد الجزائر وشعبها، وهذه السياسة لو نجحت فإنها تُضعف شعور الجزائريين بوطنيتهم وإيمانهم بها، وتجعلهم يستسلمون بسهولة لاعتناق شخصية غريبة عن كياناتهم، من صنع المحتل الفرنسي على مقياس بعض العقول المخمورة.

وقد تصدّى العلماء المصلحون لهذا النشاط العدائي الفتاك، وسارعوا في خضمه إلى تغذية عقل الشباب الجزائري وفكره بالأفكار الوطنية، والمشاعر الدينية، من خلال تدريسه لتاريخ بلاده وجغرافيتها، ودينه، ولغته، لأن الجزائري لا يحيا إلاّ بذلك في وطنه. وعليه، نجد أن فرنسا لما أدركت أن الخطر بات يُهدق بها من طرف علماء الجمعية، وأن هؤلاء العلماء قد أحدثوا تغييرا جذريا في العقلية الجزائرية بعدما صار الجزائريون لا سيتنشقون إلا هواء الجزائر العربية المسلمة بين أحضان الوطن الواحد، سارعت إلى غلق المدارس والمساجد والكتاتيب التي كانوا يدرسون فيها⁽²⁾.

(1) المرجع نفسه، ص 87.

(2) بو الصفصاف: المرجع السابق، ص 139.

وقد كان للتكوين العلمي الذي حظي به علماء الجمعية وتنشئتهم العلمية والتربوية دورها الفعال في تحقيق مآربهم القريبة والبعيدة لإفشال مشاريع المحتل ومخططاته التدميرية، فابن باديس قوة علمية وجر من الدهاء في الإصلاح، والتربية، والسياسة، والمقاومة، والابراهيمي كان أحد بحور العلوم الإنسانية ورائدا في الإصلاح، وكذاك شأن البقية من علماء الجمعية، الذين ما كانوا يدرسون ويحصّلون من الشهادات والعلوم إلا ليخلصوا بلادهم من ربة الجهل وعبودية المحتل وشراك الظلم والمهانة. ولا ريب أنّ هذا التكوين الرفيع، والمنهج السليم في الإصلاح والمقاومة، وتسخيرهم لكل امكاناتهم في سبل إنقاذ الجزائر من براثن الاحتلال قد زاد من وطنيتهم عمقا وترسيخا، ما جعل الشعب الجزائري يلتفّ حولهم ويكون عونهم لتحقيق طموحهم وطموح كل الجزائريين.

وبفضل العلماء عرف الجزائريون تاريخهم واستفاقوا من سباتهم، وأجروا بين أحداثه، ترسم هذه الأخيرة في خيالهم فصول الصراع التي خاضها أجدادهم عبر الزمن لاصطياد الحرية، وامتطاء جواد الاستقرار والتطور، وتحديد ملامح الكيان الذي يعيشون فيه وبناء حضارته، وأدركوا عندها أنّ المسؤولية ملقاة على عاتقهم لمواصلة درب الصراع من أجل الحرية والسيادة التامة على الممتلكات، وإتمام مسيرة البناء لبلوغ الرقي والازدهار⁽¹⁾.

ولعلّ كتاب المؤرخ مبارك المليّي "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" الذي انتهى من كتابة الجزء الأول منه سنة 1928 والثاني سنة 1932، ليبيّن وعي علماء الجمعية بضرورة إعادة كتابة تاريخ الجزائر كتابة صحيحة بعيدة عن كل التزييف والتحريف الذي طاله من طرف الكتابة الفرنسية⁽²⁾. ولقد ركّز المليّي

(1) سعدالله: المرجع السابق، ج2، ص401.

(2) المرجع نفسه، ص401.

في كتابة تاريخه على فكريتي الإصلاح والوطنية، وسعى إلى كشف التاريخ الجزائري للجزائريين، الذين أضحوا - وللأسف - يدركون تاريخ الأجنبي ولا يعقلون تاريخهم المجيد، وإذا كان منهم من يدرك جزءا من تاريخ بلاده فإنّ الكثير مبتور من ذاكرته فصول عدّة منه، وخاصة حقبة التاريخ الوسيط، التي كثيرا ما تقفز عليها الكتابة الفرنسية عن قصد لبتّر تاريخ الجزائر وفصله عن أزهى عصوره أيام حضارة الإسلام، وحتى تربط تاريخهم بالروم والوندال الذين سبقوهم لاحتلال بلاد الجزائر في قديم الأزمان.

كما يُبيّن ادراك العلماء أيضا لوقوع دراسة التاريخ على إحياء وطنية الجزائري وقوميته وهويته وشخصيته، التي تريد فرنسا أن تبتلعها بأغاليطها وأكاذيبها وتزييفها لحقائق التاريخ. ويذكر سعد الله أنّ أحد الفرنسيين يقول عن تاريخ الميلّي أنّه ذكريات من الشهامة الوطنية التي تساعد الجزائريين على بعث نهضتهم السياسية والوطنية، أمّا الجزائريون فقد اعتبروه بتاريخه باعث الأمة الجزائرية من جديد⁽¹⁾.

وكان للنشاط الدؤوب والديناميكية العالية من طرف العلماء لمقاومة الفكر الاستعماري والنزعة البربرية التي خلقها وأشكال التقسيم العرقي والاثنوغرافي التي انتهجها، صداه الايجابي الكبير في حسم نتائج معاركهم الفاصلة بدحض أباطيل المحتل، وبناء العقل الواعي بمصير بلاده، وتاريخ أجداده، وطينة لسانه، كلها مجتمعة تحت عنوان: الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والوطن الجزائري بلادنا وأرضنا، ولا حياة للجزائريين إلّا بها مجتمعة.

وفي هذا المضمّر، يذكر الكاتب الفرنسي (تيان لاقوتير T.Lacotire): أنّ مجددي فكرة الوطن الجزائري هم بالأحرى الذين أسسوا جمعية العلماء ومن الممكن أن نجد أن بيان هذا المذهب في ردّ ابن باديس على مقال فرحات عباس؛

(1) المرجع نفسه، ص 401.

إذ عندما نفى هذا الأخير وجود أمة جزائرية في التاريخ، ردّ عليه ابن باديس بأنه "نظر في الماضي والحاضر ووجد أنّ الأمة الجزائرية قد تكونت عبر العصور، وأنّ هذه الأمة ليست فرنسية ولا تستطيع أن تكون فرنسية ولا تريد أن تكون فرنسية"⁽¹⁾.

ولا كوتير بهذا القول، يُرجع لابن باديس ورفاقه في الكفاح ضمن زمرة العلماء الذين قادوا سفينة الحركة الوطنية ضدّ المحتل الفرنسي بفكرهم، الفضل الأكبر في تجديد وإحياء فكرة الوطن الجزائري، التي سعى المستدمر سعيًا حثيثًا لقتلها ودفنها إلى الأبد، لكنه فشل أمام نشاط الجمعية الفعّال.

وللحفاظ على الشخصية الوطنية الجزائرية من الاندثار والذوبان في مستنقع المحتل الساعي لقطع الحبل المتين الذي يشدّ الجزائري إلى وطنه وتاريخه، ويفصله عن ذلك فصلا تاما، فيصير مبتور الهوية، فيلبسه عندها هويته هو، عمل العلماء وفي طليعتهم ابن باديس على وضع حدّ لنشاط المحتل لتجنيس الجزائريين وإدماجهم في المجتمع الفرنسي، وندّدوا بقوة ضدّ قوانينه التي تكرس التمييز بين الجزائريين وتهمينهم، واعتبروا هذه القوانين خطرا على وجود الكيان الجزائري، وأصدروا الفتاوى بتكفير كل مسلم جزائري يتنازل عن أحواله الشخصية، بل إنّ العربي التبسي (1895-1957) كما ينسبه أقاربه وتلامذته له كان أشدّ عداوة للمحتل الفرنسي، حيث يقول: "من عاش فليعيش بعداوته لفرنسا ومن مات فليحمل معه هذه العداوة إلى القبر". وقال أيضا: "من يتزوّج فرنسية يدخل الاستعمار إلى بيته"⁽²⁾.

(1) أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 241، سعدالله: المرجع السابق، ج 3، ص 86، بو الصمصاف: المرجع السابق، ص 63.

(2) الخطيب: المرجع السابق، ص 241، سعدالله: المرجع السابق، ج 3، ص 86.

وبالموازاة مع الحرص اللامتناهي من علماء الجمعية على إحياء روح الوطنية وتقوية المفعول الذي يغذيها في نفوس الجزائريين حتى تقوى مناعتهم على صدّ أيّ فيروس لضربها حتى ولو كان قاتلاً، دعوا أيضاً إلى حسن الجوار بين شعوب المغرب العربي وحسن التعايش معها، ووحدة شعوبها وكذا شعوب العالم الإسلامي قاطبة، وتوحيد الجهود لصدّ الغازي النصراني القادم من الشمال المدجج بأسلحة التفرقة والتشتيت والتمييز لبلوغ مآربه التوسعية⁽¹⁾.

خاتمة:

وفي ختام دراستنا هذه لا يسعنا إلا أن نشيد بالجهود الإصلاحية الجبارة التي بذها علماء الجمعية في خدمة القضية الوطنية للنهوض بالعقل والفكر الجزائري لإدراك حاله والتخطيط لمآله، تخطيطاً محكماً جديراً بأن يقود سفينة الجزائر قيادة سليمة لإرسائها في ميناء الحرية والاستقلال.

كما أنّه ونظير الأهمية الكبيرة التي ينطوي عليها الإصلاح الديني والتعليمي والتربوي والتوعوي من أجل إعداد الجيل ذي الفكر الناضج والقادر على خوض غمار الكفاح العسكري المسلح، كان لعلماء الجمعية الفضل الكبير في غرس بذور الوطنية وإحياء الإسلام والعروبة في نفوس الجزائريين، حتى اعتبر هؤلاء العلماء بمثابة رسل الثورة التحريرية والمنظرين لها.

وكانت جهود العلماء المسلمين الجزائريين الإصلاحية المجسّدة في شعار الجمعية بأبعاده التاريخية جسوراً متينة مدها العلماء بين حاضر شعبهم وماضيه العريق، ليدرك من خلالها أصله الأصيل وعرقه المتين، ودينه الطاهر، ولسانه العربي، وكيانه الحقيقي المتشكّل عبر العصور والدهور، وفصول تاريخه بما

⁽¹⁾ سعدالله: المرجع السابق، ج3، ص105.

تجسّده من بطولات شعب لا تحصر على مرّ التاريخ في سبيل مقاومة العاديات
والمغيرات، وبناء الحضارة الإنسانية المستوحاة من عمق الشريعة الإسلامية
الطاهرة، والمشحونة بالعروبة الأصيلة.

قضية العروبة في اهتمامات جمعية العلماء المسلمين

أ. عبد الجليل رحومني
ج. سيدي بلعباس

تمهيد:

لقد شكلت العديد من القضايا الوطنية محل اهتمام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، هذا الاهتمام الذي جاء كرد فعل على السياسة الفرنسية الرامية إلى فرنسة المجتمع الجزائري، وطمس وتزييف الهوية الجزائرية العربية، وتعتبر قضية اللغة العربية من أبرز هذه القضايا التي أثارت اهتمام أعضاء الجمعية، لأنها الدعامة الأساسية لبناء المجتمع الجزائري، ومن هنا فإن التركيز على عروبة الجزائر كان الهدف منه الوقوف ضد السياسة الاستعمارية من جهة، ولإثبات الانتماء العربي، وإحياء الروح الوطنية في نفوس الأجيال من جهة ثانية.

أولاً: جمعية العلماء المسلمين الناشئة والتأسيس

لا أريد في هذه الورقة البحثية التحدث بالتفصيل عن كيفية تأسيس جمعية العلماء وعن أهدافها لأن ذلك ليس موضوع بحثنا، كما أن لا الظرف ولا المناسبة يسمحان بذلك، ولكن هذا لا يمنعنا بكل تأكيد من الإشارة إلى كيفية إنشائها وذلك حتى تتمكن من معالجة هذا الموضوع من كل جوانبه، تتفق أغلب المصادر على أن اللبنة الأولى لتأسيس "جمعية العلماء المسلمين" تعود إلى سنة

1913، وذلك عندما كان الإمام ابن باديس⁽¹⁾ مقيماً بالمدينة المنورة مع العلامة البشير الإبراهيمي،⁽²⁾ وفي هذا الصدد يقول البشير الإبراهيمي: "وأشهد الله على تلك الليالي من عام 1913 هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين التي لم تبرز للوجود إلا في عام 1931.⁽³⁾

في عام 1928 تحقق عزم ابن باديس ووجه دعوته إلى الطلاب العائدين من جامع الزيتونة والمشرق العربي الذين رأى فيهم مقدرة واستعداداً للعمل في سبيل الدين والوطن، ولبى دعوته الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والشيخ مبارك الملي، والشيخ الطيب العقبي، والشيخ العربي التبسي، والشيخ السعيد الزاهري، والشيخ محمد خير الدين.

بعد اجتماع 72 من علماء القطر الجزائري وطلبة العلم، يوم الخميس ماي 1931 بالعاصمة الذي حضره المتطرفون والمصلحون والرجعيون، تم اختيار نادي الترقى للاجتماع، وتألف المجلس الإداري من ثلاثة عشر عضواً على رأسهم الشيخ عبد الحميد ابن باديس الذي لم يحضر إلا في اليوم الثالث

(1) من مواليد 4 ديسمبر 1889 بقسنطينة أبوه محمد بن مصطفى بن مكّي بن باديس، وأمه زهيرة بنت علي بن جلول، ينتسب إلى أسرة كبيرة تمتد جذورها إلى قبيلة صنهاجة البربرية التي لعبت دوراً كبيراً في تاريخ البلاد أثناء العصور الإسلامية المزدهرة في المغرب الإسلامي، ينظر: بشير بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر من 1830 إلى 1989، ج1، دار المعرفة، الجزائر، 2006، ص 399.

(2) ولد الشيخ البشير الإبراهيمي يوم 14 جوان 1889 براس الوادي في نواحي سطيف، وعام 1889 هو عام مولد الكثير من عظماء الأمة الإسلامية في العصر الحديث. ينظر: بشير بلاح، المرجع السابق، ص 411.

(3) الزبير بن رحال، الإمام عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والفكرية 1889-1940، دار الهدى، الجزائر، 2009، ص ص 67-68.

والأخير للاجتماع، فكان انتخابه غيايبا، ⁽¹⁾ فأنفق المجتمعون لوضع القانون الأساسي للجمعية، وعينوا للرئاسة المؤقتة الشيخ أبا يعلي الزواوي، وللكتابة الأستاذ محمد الأمين العمودي، ووضع القانون، وتلاه كاتب الجلسة على رؤوس الأشهاد فأقرته الجمعية العمومية بالإجماع، ⁽²⁾ ولقد اكتسى هذا الاجتماع طابع المرونة، ولعل هذه المرونة لتوحيد الصفوف وهذا ما جعل الإدارة الفرنسية تسارع للاعتراف بالجمعية والموافقة على قانونها الأساسي بعد 15 يوما فقط من تقديمه. ⁽³⁾

بعد الاجتماع العام الذي تم فيه المصادقة على مشروع القانون الأساسي للجمعية عقد اجتماع يوم الأربعاء، في اليوم الموالي بقصد انتخاب الهيئة الإدارية، فاقترحت عليها جماعة فوق الاجتماع على اختياره أعضاء المجلس الإداري وكان على النحو الآتي: ⁽⁴⁾

اسم العضو	مهمته
عبد الحمد ابن باديس	رئيسا
محمد البشير الإبراهيمي	نائبا للرئيس
محمد الأمين لعمودي	الكاتب العام
الطيب العقي	نائب الكاتب العام
مبارك الملي	أمين المال

⁽¹⁾ أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، ط4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص83.

⁽²⁾ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1929-1940)، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص71.

⁽³⁾ أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص83.

⁽⁴⁾ الزبير بن رحال، المرجع السابق، ص73.

إبراهيم بيوض	نائب أمين المال
المولود الحافظي	عضو مستشار
الطيب المهاجي	عضو مستشار
مولاي بن شريف	عضو مستشار
السعيد اليجري	عضو مستشار
حسن الطرابلسي	عضو مستشار
عبد القادر القاسمي	عضو مستشار
محمد الفضيل اليراني	عضو مستشار

وحتى تتمكن الجمعية من تنفيذ برامجها فقد أصدرت العديد من الجرائد كانت لسان حالها نذكر منها:

1- السنة النبوية المحمدية: ظهر أول عدد من هذه الجريدة الأسبوعية في مارس 1933، وأسندت رئاسة تحريرها إلى الشيخ الطيب العقبي والشيخ السعيد الزاهري تحت إشراف الإمام عبد الحميد ابن باديس الذي أشار في مقالها الافتتاحي إلى أسباب صدورها، ومما جاء فيه: "...أسسنا هذه الصحيفة الزكية وأسميناها (السنة النبوية المحمدية)، لتنشر بين الناس ما كان عليه النبي ﷺ، وسلوكه القويم وهديه العظيم".⁽¹⁾

2- الصراط السوي: أصدرت جمعية العلماء المسلمين جريدة "الصراط السوي" بعد أيام من إصدار الاستعمار لجريدة "الشرعية" تحت إدارة ابن باديس، بتاريخ 11 سبتمبر 1933.⁽²⁾

⁽¹⁾ عبد الحميد ابن باديس، "بواعثنا - عملنا - خطتنا - غايتنا"، جريدة السنة النبوية، ع1، الجزائر، مارس 1933، ص1.

⁽²⁾ علي مرحوم، "رسمية لغتنا بأيدينا"، جريدة البصائر، ع15، الجزائر، ديسمبر 1947، ص13.

3- الشريعة النبوية المحمدية: كانت هذه الجريدة هي الأخرى تحت إدارة ابن باديس، وهي لسان حال جمعية العلماء، واسند التحرير فيها إلى العقبي والزاهري، وأما صاحب امتيازها فكان الأستاذ أحمد بوشمال، ظهرت في 17 جويلية 1933،⁽¹⁾ وتجدد الإشارة إلى أن جريدة "الشريعة" لم تتغير سواء من حيث الشكل أم من حيث المضمون، إلى غاية توقيفها في 19 أوت 1933.

4- جريدة البصائر الأولى: (1935م - 1939م) بعد الانقطاع عن النشاط الصحفي والذي استمر حوالي ستين سعت الجمعية لدى الإدارة الاستعمارية للسماح لها بإصدار صحيفة جديدة، وتم لها ما أرادت وتحققت الأماني بميلاد جريدة "البصائر"، فهي الصحيفة الرابعة لجمعية العلماء ولسان حالها، تعتبر من أهم صحفها وأكبرها شهرة وانتشارا، حيث ظهر أول عدد منها في 27 ديسمبر 1935م،⁽²⁾ ظهرت في البداية تحت إدارة الشيخ الطيب العقبي ثم تحت إدارة مبارك الملي، وأما صاحب الامتياز فكان الشيخ خير الدين.⁽³⁾

5- جريدة البصائر الثانية: (1947- 1956) كانت تصدر البصائر السلسلة الثانية أسبوعيا باللغة العربية وبشعار جديد وهو: "العروبة والإسلام"، فظهر أول عدد منها في 25 جويلية 1947م، حيث كانت تصدر أعدادها التسع الأولى كل يوم جمعة، ثم أصبحت تصدر كل يوم الاثنين ابتداء من العدد العاشر إلى غاية العدد 211 لتعود بعدها إلى يوم الجمعة مرة أخرى، ودام صدورها حوالي تسع

⁽¹⁾ أحسن تلياني، جريدة النجاح حقيقتها ودورها، المؤسسة الوطنية للثقافة، الجزائر، 2007، ص 29.

⁽²⁾ علي مرحوم، المرجع السابق، ص ص 14-16.

⁽³⁾ الشيخ بوشيشي، "صحافة التيارين الإصلاحي والتقليدي البصائر والبلاغ أنموذجا"، مجلة العصور الجديدة، ع 16، وهران، ديسمبر 2010، ص 69.

سنوات، ظهر منها خلال هذه الفترة 316 عددا، وكان صدور آخر عدد لها بتاريخ 06 ابريل 1956م.⁽¹⁾

وهكذا تأسست جمعية العلماء الجزائرية وتبلورت ونضجت على يد ابن باديس وتلاميذه وأنصاره خلال العشرينات، وهكذا نشأة الصحافة الإصلاحية وتأسست النوادي وظهرت المدارس الحرة ومساجد الوعظ والإرشاد في كثير من القرى الجزائرية ومدنها من أجل الدفاع عن الهوية الوطنية واللغة العربية، وكان ابن باديس هو العصب المحرك لهذه الحركة.⁽²⁾

ثانيا: جمعية العلماء المسلمين والهوية الوطنية العربية

لقد آمنت الجمعية بالهوية الوطنية العربية وقامت بتكريسها وغرسها في الأجيال سواء بنشرها في المدارس الفرنسية، أم في مدارسها الخاصة، فقد أرجع الإبراهيمي سبب سقوط العالم الإسلامي إلى انزواء علماء الدين الإسلامي عن الواقع وتركه للحكام الجهلة الذين يفتقرون إلى الحس الوطني العربي،⁽³⁾ فقامت الصحف الفرنسية بشن حرب ضد ابن باديس والجمعية دون هوادة، وعلى صحف الجمعية والمدارس التي يقوم العلماء بتقديم الدروس والتعليم العربي الحر فيها.⁽⁴⁾

والجدير بالذكر فإن الجمعية قد نادت باليقظة الوطنية العربية، والإصلاح وإعداد جيل جديد يفهم الإسلام ويهتم بقضية العروبة والمواطنة التي تمثل القاعدة الأساسية لا للتقدم فحسب، وإنما للحياة الحرة الكريمة من جهة

(1) محمد البشير الإبراهيمي، "استهلال"، جريدة البصائر، ع 1، الجزائر، جويلية 1947، ص 1.

(2) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، 84.

(3) نفسه، ص 92.

(4) محمد حمزة، مواقف ابن باديس السياسية من خلال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1931-1940، مذكرة ماجستير، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، 2000-2001، ص 88.

أخرى، وذلك ما تجسد بخلق نظام دراسي عربي حر عصري، ومتفتح يقوم خطه العام على ثلاثة محاور: الإسلام ديننا، العربية لغتنا، والجزائر وطننا، وهذا في حقيقته برنامج سياسي، يكفي انه يقر بأن الجزائر وطن عربي مسلم في وقت تنكر فرنسا هذا تماما،⁽¹⁾ ظنت فرنسا أنها استولت على العقول والعواطف والشعور، وعملوا منذ البداية للقضاء على الهوية الوطنية واللغة العربية، وسلكوا لهذه الغاية سبيلين هما:

أولاً: إهمالهم لتعليم اللغة العربية في مدارس البلاد وجعلوها فرنسية بحيث لو تسنى لجزائري أن يدخل هذه المدارس لا يخرج منها إلا فرنسياً.

ثانياً: العمل بكل قوة على محاربة اللغة العربية وإحياء الوطنية البربرية،⁽²⁾ وإبراز المعالم المسيحية الموجودة في الجزائر والتي تعود إلى فترة ما قبل الفتح الإسلامي للمنطقة، وكذا بالتنقيب على الآثار المدفونة في الأراضي الجزائرية، والتي تعود إلى العهد الروماني حتى يتم إقناع الناس أن الأصل في الجزائر هو الديانة المسيحية، وبالتالي يجب الرجوع إلى هذا الأصل ونبذ الإسلام واللغة العربية.⁽³⁾

ورغم كل هذه المحاولات التي قامت بها فرنسا للقضاء على الهوية العربية لم ينفعها شيئاً، بل قام المسلمون وعلماء الدين والجمعيات الإسلامية بتأسيس المدارس لتعليم اللغة العربية، وهكذا استطاعت الجمعية أن تنقذ المجتمع الجزائري من ضياع هويته ولغته، وأن يحافظ على دينه وعقيدته على الرغم من أن هذه المدارس العربية والإسلامية لم تكن تفي بالغرض لأن

(1) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 92.

(2) محمد بهي الدين سالم، ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، ط 1، دار الشروق، بيروت، 1999، ص 24.

(3) إبراهيم لونيبي، بحوث في التاريخ الاجتماعي والثقافي للجزائر إبان الاحتلال الفرنسي، دار هومة، الجزائر، 2013، ص 223.

تعليمها كان ناقصا وقاصرا على تعليم اللغة والدين فقط،⁽¹⁾ غير أننا نجد المؤرخ أبو القاسم سعد الله⁽²⁾ يفند ذلك بقوله: "... أن جمعية العلماء لم تهتم بالتعليم الديني واللغة العربية فقط، بل نادوا بتعليم كل العلوم وجميع اللغات الحية على أساس أنها مكملة لتعاليم الإسلام والثقافة العربية، ولعل هذا ما يفسر لنا ميل جمعية العلماء لحزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري".⁽³⁾

ولإنجاز هذه المهمة الضخمة قامت الجمعية بإنشاء المطبعة الإسلامية، وجريدة المنتقد ثم "الشهاب" في قسنطينة وساهم العقبي في جريدة "صدى الصحراء"، ثم أنشأ بدوره مطبعة وجريدة أسماها: "الإصلاح" في بسكرة، أما الإبراهيمي فلم يؤسس مطبعة ولا جريدة خلال العشرينات، ولكنه كان على صلة وطيدة بابن باديس.⁽⁴⁾

(1) محمد بهي الدين سالم، المرجع السابق، ص 24.

(2) أبو القاسم سعد الله: من مواليد 1937 بقمار بواد سوف شاعر، وأديب ومؤرخ جزائري يعرفه الوسط المثقف بشمال إفريقيا حق المعرفة من خلال مؤلفاته العديدة بدأ دراسته العليا بالقاهرة إبان الثورة التحريرية الجزائرية، وحصل على ماجستير الأدب سنة 1960 بالقاهرة وواصل دراسته العليا بكلية التاريخ، حيث تحصل على شهادة دكتوراه دولة سنة 1965 من جامعة منيسوتا بالوم.أ، توفي في 18 ديسمبر 2013 بعد مرض عضال ألزمه الفراش، من مؤلفاته: كتاب الحركة الوطنية الجزائرية بستة أجزاء، وكتاب تاريخ الجزائر الثقافي من تسعة أجزاء وكتاب أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر من خمسة أجزاء. ينظر: أبو القاسم سعد الله، قضايا شائكة (أحاديث في شؤون الفكر والأدب والتاريخ)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص ص 8-9.

(3) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 92.

(4) أبو القاسم سعد الله، خلاصة تاريخ الجزائر المقاومة والتحرير 1830-1962، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2007، ص 109.

ولعل هذا ما دفع بالسلطات الفرنسية إلى إصدار قرار في 8 مارس 1938 الهدف منه تضيق دائرة التعليم العربي الحر، ومنع العلماء من التدريس حيث نص القرار على: "إغلاق المدارس العربية الحرة التي لا تملك رخصة العمل، ومنع كل معلم تابع للجمعية من مواصلة التعليم في المدارس المرخصة إلا بعد أن يتحصل على رخصة تعليم تقدمها له السلطات المعنية".⁽¹⁾

لما أخذت الحركة العربية الوطنية تتقوى وتشتد أصبح الجزائريون لا يرضون عن عروبتهم بديلا، وقامت ثورات وتعالص صيحات وصرخات من كل جانب، قامت الحكومة الفرنسية بالاستجابة إلى مطالب الشعب الجزائري وأن تبادر وتتولى التعليم العربي لكي لا يفلت من يديها ويسير في طريقه السوي،⁽²⁾ لذلك نجد الإبراهيمي في كل مناسبة يوجه فيها رسالة إلى جيل المستقبل يبرز فيها حب الوطن والوطنية، ومن هؤلاء طلبة العلم المهاجرين الذين حثهم على طلب العلم والاستزادة منه من أجل رفع مستوى العلم والتعليم بين أبناء وطنهم فكتب لهم مقالا في جريدة البصائر الثانية - يعبر بصدق عما تحويه كلمات الإبراهيمي من دلالات وطنية صادقة - يقول فيه: "...وان هذا الوطن وهو أبو الجميع يتطلع من وراء هذه الهجرة إلى إحياء وتعمير وإعادة مجد وبناء تاريخ ... لا يعذلكم عن حب وطنكم إلا ظالم ولا يصرفكم عن إتقان وسائل النفع إلا اظلم منه، انتم اليوم جنود العلم، فاستعدوا لتكونوا غدا جنود العمل، إنَّ وطنكم مفتقر إلى جيل قوي البدن، قوي الروح...."⁽³⁾

(1) محمد حمزة، المرجع السابق، ص 89.

(2) محمد بهي الدين سالم، المرجع السابق، ص 25.

(3) محمد البشير الإبراهيمي، "إلى أبنائي الطلبة المهاجرين في سبيل العلم"، جريدة البصائر، ع9،

الجزائر، أكتوبر 1947، ص 1.

والجدير بالذكر هو أن الجمعية جعلت من الدين والعلم مطية للغاية الأسمى وهي خدمة الوطن والنهوض به، لأنه يمثل الوطنية الحقّة وهو ما أشارت إليه كلمات الإبراهيمي الصريحة للأمة التي قال فيها: "هذه الحركة العلمية الجليلة القائمة بالقطر الجزائري هي أساس متين للوطنية الحقيقية، وهي التوجيه الصحيح للأمة الجزائرية، فغايتها التي ترمي إليها هي تصحيح القواعد المعنوية من عقل وروح وذهن، وتقوية المقومات الاجتماعية من دين ولغة وفضائل وأخلاق، تلك هي الأسس الثابتة التي بنيت عليها الوطنيات في الأمم، هذه حقيقة لا يماري فيها إلا مكابر أو جاهل"،⁽¹⁾ ولذلك أنشأت بعض المدارس التي تدرس اللغة العربية مع الفرنسية، ولاسيما مدرسة القضاء، المفتين، العدول، المدرسين، الأئمة والمترجمين الرسميين.⁽²⁾ هكذا خطا الفكر الإصلاحى في الجزائر خطوة هائلة ووثبة إلى الأمام بالنسبة للفكر والثقافة، فالفكر الإصلاحى بطبيعته الوسطية التوفيقية هو الذي خلق ثقافة وطنية قومية، لأنه بنى أسسها ومكّن لها في الوطن، وغدّد أهلها بأفكاره ونشرها بين جماهيره على نطاق واسع.⁽³⁾ وباختصار فإن الجمعية لم ينحصر اهتمامها بالقضايا الوطنية العربية كما رأينا، بل اهتمت بقضايا المغرب العربي كله، فكان قادة الجمعية على معرفة ببعض الشخصيات البارزة في الساحة مثل محمد الخضر حسين، وعبد العزيز الثعالبي، ومحمد إبراهيم الكتاني، وعلال الفاسي وغيرهم، كما اهتمت بالشخصيات الدينية مثل عبد الحى الكتاني، وعبد الرحمان بن زيدان، ومحمد العربي العلوي وغيرهم، كما نجد الجمعية

(1) محمد البشير الإبراهيمي، ثلاث كلمات صريحة، جريدة البصائر، ع54، الجزائر، أكتوبر 1948، ص 69.

(2) محمد بهي الدين سالم، المرجع السابق، ص 25.

(3) عبد الله ركيبي، عروبة الفكر والثقافة أولا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 44.

قد ساندت الحركات الاستقلالية والطلابية في الأقطار المغاربية كلها، وهذا لدليل قاطع على اهتمامها بقضايا المغرب العربي كله.⁽¹⁾

ثالثاً: جمعية العلماء المسلمين وقضية اللغة العربية

لقد عمل الاستعمار الفرنسي منذ البداية على محاربة اللغة العربية وسعى إلى تدميرها،⁽²⁾ وإحلال محلها اللغة الفرنسية، وذلك بإقامة المدارس الفرنسية بغرض استئصال اللغة العربية،⁽³⁾ لأن الاستعمار الفرنسي كان يدرك مدى خطورة اللغة العربية فحاربها وحرّم أهلها من تعليمها وفُرّضت عليه اللغة الفرنسية،⁽⁴⁾ لأن فرنسا كانت تعتقد بأن نشر اللغة الفرنسية في أوساط الجزائريين يمكنها من تحقيق أهدافها باعتبار أن اللغة هي الوعاء الأساسي الحامل لكل الإنتاج الحضاري المنتج بهذه اللغة من دين وعلم وفلسفة وقوانين وأعراف وتاريخ وعادات.⁽⁵⁾

لهذا رأت الإدارة الاستعمارية ضرورة محاربة اللغة العربية، هذا فضلاً عن التشكيك في قدرة اللغة العربية على مسايرة التطور العلمي لتظل عالية على

(1) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط1، ج4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ص 150-151

(2) إبراهيم لونيبي، المرجع السابق، ص 97.

(3) البشير الإبراهيمي، "من المجلس الإداري إلى جمعية العلماء"، جريدة البصائر، ع51، الجزائر، سبتمبر 1948، ص1.

(4) باعيز بن عمر، اللغة العربية والدين بالجامعة الجزائرية، جريدة البصائر، ع5، الجزائر، سبتمبر 1947، ص6.

(5) إبراهيم لونيبي، المرجع السابق، ص 117.

مصطلحا تهم، وكذا تشكيك المجتمع الجزائري في قيمة تراثه الحضاري،⁽¹⁾ وذلك من أجل فرض سيطرتها التامة والنهائية على الجزائر التي لا يمكن لها أن تتحقق إلا بفرض اللغة الفرنسية، وهذا ما يؤكدُه الدوق دوروفيقو بقوله: "إنَّ الجزائر لن تكون حقيقة من الممتلكات الفرنسية إلا بعد أن تصبح لغتنا لغة قومية فيها، وحتى تتأقلم فيها العلوم والفنون التي يقوم عليها مجد بلادنا....."، والمعجزة التي ينبغي تحقيقها هي إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية تدريجياً، ومتى كانت اللغة الفرنسية لغة السلطة والإدارة فإنها لن تلبث أن تنتشر بين الأهالي....."⁽²⁾

وهكذا سعت فرنسا لمحاربة اللغة العربية بمختلف الوسائل حتى عجم لسان أهل الجزائر أو كاد،⁽³⁾ وكانت النتيجة الحتمية بعد كل هذه المحاولات الفرنسية لمسح اللغة العربية أن تولي جمعية العلماء المسلمين اهتماماً بالغاً بمسألة اللغة العربية التي أصبحت شغل الشاغل للجمعية، لأن اللغة تعتبر إحدى دعائم الهوية والشخصية الجزائرية التي ناضلت الجمعية من أجلها، وفي هذا الصدد يقول عبد الحميد ابن باديس متحدثاً عن اللغة العربية: "لغة الدين.... لغة القومية، ولغة الوطنية المغروسة، أنها وحدة الرابطة بيننا وبين ماضينا، وهي وحدة القياس التي نقيس بها أرواحنا بأرواح أسلافنا، وبها نقيس من يأتي من بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين أرواحهم بأرواحنا،

(1) عبد الجليل رحوني، اهتمامات المجلة الإفريقية بتاريخ الجزائر العثمانية (1830م-1520)، مذكرة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجليلي اليابس، سيدي بلعباس، 2014-2015، ص 47.

(2) إبراهيم لونيبي، المرجع السابق، ص 118.

(3) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في....، المرجع السابق، ص 22.

وهي وحدة اللسان الذي نعتز به، وهي الترجمان عما في القلب من عقائدنا وما في العقل من أفكار، وما في النفس من الآلام والأمال.⁽¹⁾

انطلاقاً من هذه الشهادة يمكن القول أن موضوع اللغة العربية لقي الاهتمام البالغ من طرف أعضاء الجمعية، فقد سعت أن تكون هذه اللغة أحد مشاريعها الإصلاحية لأنها لغة الدين وقرآنه، ومن ثم فهي لغة المسلمين، وهذا ما يؤكد الشيخ البشير الإبراهيمي بقوله: أن اللغة العربية هي لغة الأمة هي ترجمان أفكارها وخزان أسرارها، والأمة الجزائرية ترى في اللغة العربية زيادة على ذلك القدر المشترك أنها حافظة لدينها وأنها صلة بينها وبين ربها.⁽²⁾

إن السياسة الفرنسية المنتهجة ضد اللغة العربية كان لها الأثر الواضح على الفئة التي تتردد على نوع من المدارس الفرنسية التي كانت من نتائجها أن زهد أبناؤنا في تعليم لغتهم فانصرفوا عنها،⁽³⁾ كما نجد الاستعمار الفرنسي قد تفنن في مخططاته للقضاء على هذه اللغة، والذي بلغ ذروته بتشجيع العامية بدل العربية الفصيحة، فقام جوني فرعون سنة 1832 بنشر كتاب خاص بقواعد اللغة العربية والعامية الجزائرية بعنوان: «Grammaire des Français»,⁽⁴⁾ élémentaire d'arabe vulgaire ou Algérien a L'usage

(1) عبد الحميد ابن باديس، "التقرير الأدبي ألقاه الشيخ عبد الحميد بن باديس بدار جمعية التربية والتعليم"، جريدة البصائر، ع 171، الجزائر، جوان 1936، ص 5.

(2) محمد البشير الإبراهيمي، "أختلاف ذهنين في معنى التعليم العربي"، جريدة البصائر، ع 152، الجزائر، افريل 1951، ص 01

(3) باعزيز بن عمر، المرجع السابق، ص 6.

(4) إبراهيم لونييسي، المرجع السابق، ص 106.

كما ألفوا كتبًا عديدة ملئت بالحكايات الخاطئة لمحاربة اللغة العربية،⁽¹⁾ وبذلك ظهرت العديد من المحاولات والجهود لتأليف قواميس خاصة باللغة العربية والعامية، ولذا لا غرابة أن نجد بعض العسكريين قد تعلموا اللهجة العامية، وذلك حتى لا يجدوا أنفسهم محاطين بأناس يتحدثون بلهجة لا يفهمونها هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى هو قبر اللغة العربية الفصحى التي هي لغة القرآن الكريم.⁽²⁾

ولعل هذا ما دفع بالشيخ باعيز بن عمر للتعبير عن الوضع الكارثي الذي وصلت إليه اللغة العربية بقوله: "اللغة العربية في الجزائر مظلومة، ظلّمها الأجانب المتفوقون فعاملوها معاملة أقصتها عن ميادين الحياة كلها من إدارية وغيرها، وسلبتها حقها كلغة التعليم العام في أرضها حتى أن كل مناقشة في الموضوع تتجاهل بالقصد وجودها، فهي غائبة في ميزانية التعليم العام وأجنبية بصورة خاصة جعلتها دون لغات الأجانب مقاما واعتبارا، وظلمها بعض أولي القربى من الذين يساهمون في هذا الوضع الشاذ بمعاملتهم المحقفة بحقها".⁽³⁾ اقتنع ابن باديس أن أهم الوسائل الفعالة لإحياء النهضة الوطنية العربية هو تغيير ذهنية الجزائريين، ولا يتحقق ذلك إلا بتكوين مجتمع متمسكا بعقيدته الإسلامية، وبلغته الوطنية، وإقناع الشعب بضرورة المقاومة وذلك بتصحيح تصوراتهم الخاطئة التي بثت فيهم، وإصلاح ما أفسده المحتلون من خلال الجرائم الثقافية التي ارتكبوها في حق اللغة العربية والشعب الجزائري، وحث الناس على الاهتمام باللغة العربية والدفاع عنها بقوله: "ومن يبتعد عن اللغة العربية فقد ابتعد عن عبادة الله،

(1) باعيز بن عمر، اللغة العربية بالمدارس الثانوية، جريدة البصائر، ع 10، الجزائر، أكتوبر 1947، ص 2.

(2) إبراهيم لونييسي، المرجع السابق، ص 107.

(3) باعيز بن عمر، سير التعليم العام في الجزائر، جريدة البصائر، ع 237، الجزائر، جويلية 1953، ص 1.

ومن يتعد عن عبادة الله فسيلاقي عذاباً شديداً،⁽¹⁾ فاللغة العربية كانت لغة الحديث منذ قرون.⁽²⁾

والجدير بالذكر أن أعضاء الجمعية كانوا يجدون ترحيباً من أهالي المناطق أينما حلوا باستقبال حسن مما شجعهم على تكرار زياراتهم لمختلف المناطق حتى أصبحت عادة لدى الجمعية في إرسال علمائها خاصة في شهر جويلية من كل عام للتفقد والإشراف على فتح النوادي وتأسيس المدارس، وكانت غايتهم الأساسية تثبيت اللغة العربية لسان هذا الدين وترسيخ الإسلام الصحيح الذي لا بديل عنه في عقول الناس.⁽³⁾

وفي هذا الصدد كتب عبد الحميد ابن باديس في إحدى الصحف الناطقة باسم الجمعية: "أن الأمة التي لا تحترم مقوماتها من جنسها ولغتها ودينها وتاريخها لا تعد أمة بين الأمم، ولا ينظر إليها إلا بعين الاحتقار مع القضاء عليها في ميادين الحياة بالتفهم والاندحار".⁽⁴⁾

فقد اعتبرت السلطات الفرنسية أن اللغة العربية لغة أجنبية بين أهلها لا يسمح لها بالظهور وفي هذه المناسبة يقول باعزيز بن عمر معلقاً على هذه النظرة الاستعمارية: "لا شك أن الذي أوحى للاستعمار أن يتسم في وجه العربية ويخطب ودها بعد أن كاد يصعق من الحديث عنها هو هذا المروع أو الدستور الذي كانت له اليد الطولى في سن بنوده....."⁽⁵⁾ ورغم هذه القرارات الفرنسية

(1) محمد حمزة، المرجع السابق، ص 22.

(2) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في....، المرجع السابق، ص 25.

(3) محمد حمزة، المرجع السابق، ص 23.

(4) عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر، ط 1، دار ريجانة للنشر، الجزائر، 2002، ص 171.

(5) باعزيز بن عمر، "هل هذه بداية جديدة للغة العربية؟"، جريدة البصائر، ع 59، الجزائر، ديسمبر

1948، ص 2.

الداعية إلى جعل اللغة العربية لغة أجنبية، ومنع أعضاء الجمعية من إلقاء الخطب ودروس الوعظ في المساجد كل ذلك لم يكن عائقا يقف أمام الجمعية في استحداث طرق ووسائل المقاومة في الحركة التعليمية، وذلك باللجوء إلى مواصلة إنشاء المدارس العربية الحرة وتقديم المساعدة لها بعيدا عن أعين الاستعمار، مما أعطاها دفعا لمحاصرة السياسة التعليمية الفرنسية بالجزائر بهدف تحقيق الإدماج، وإحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية.⁽¹⁾

وهكذا قام أعضاء الجمعية بالدفاع عن اللغة العربية، وهذا لا يعني إقصاء اللغة الفرنسية، بل على العكس اللغة العربية أولا لأنها منهل الحياة والحلقة الأولى ثم اللغة الأجنبية، فلا أحد ينكر فوائد تعلم لغة أخرى، وقد رغب الإسلام في تعلم لغات أخرى، لكن لا ينبغي أن تكون على حساب لغة الأم وهي اللغة العربية،⁽²⁾ وبذلك بدأت بوادر النهضة التعليمية تأتي بثمارها، وتتحرك قلوب الشباب الجزائري بعد طمس الاستعمار لهويته ولغته.⁽³⁾

بعد الحديث عن موقف الجمعية من اللغة العربية أغتنم هذه الورقة البحثية للإشارة إلى موقف الجمعية من اللهجة الأمازيغية، هذه الأخيرة التي كثر الحديث عنها في الفترة الأخيرة في بلادنا، إنَّ المدارس لموقف الجمعية من اللهجة الأمازيغية يلاحظ بوضوح تام بأن الجمعية كانت تتحاشى الحديث عن العروبة والإسلام بحضور البربرية، وركزت على مسألة الإسلام فقط،

(1) محمد حمزة، المرجع السابق، ص 24.

(2) منصور رحمانى، "اللغة الفرنسية في الجزائر بين الحاجة الحضارية وخلفات الاستعمار"، مجلة المعيار، ع 10، منشورات جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، سبتمبر 2005، ص ص 121-122.

(3) محمد حمزة، المرجع السابق، ص 24.

وهذا لا يعني أنه إنكار للهوية لكنه هو اعتزاز بالعروبة،⁽¹⁾ واعتبرت الدين الإسلامي هو القاسم المشترك بين جميع شرائح المجتمع بصرف النظر عن عروبتهم أو أمازيغيتهم.⁽²⁾

وما تحسن الإشارة إلى ذكره أن قضية الأمازيغية لم تحظ بالاهتمام البالغ لدى كتاب الجمعية ويرجع ذلك لعدة عوامل من أهمها تأثير أعضاء الجمعية بالبعد المشرقي وسعيهم في الحفاظ على وحدة الأمة،⁽³⁾ لأن الاستعمار الفرنسي كثيرا ما كان يطرح قضية النهوض بالأمازيغية ليس حبا فيها، ولكن بهدف تقسيم المجتمع الجزائري، لذلك نجدا أعضاء الجمعية قد زهدوا في تناول مثل هذه القضايا، ومن هنا يتبين لنا بوضوح تام بأن مسألة الأمازيغية لم تكن من أولويات جمعية العلماء، فإذا أشارت إليها فإنها لا تشير إليها إلا في إطار رد الفعل بعد استخدامها من طرف الإدارة الاستعمارية لضرب اللحمة الوطنية، فقد كان رجال الجمعية على علم أن ما يحاك من دسائس في دواليب الإدارة الاستعمارية ليس هدفه النهوض بالأمازيغية بقدر ما هو سلاح فتاك موجه ضد اللغة العربية.⁽⁴⁾

إن ما كان يسعى إليه الاستعمار هو إشغال المجتمع الجزائري بنفسه وتعطيله وتدمير هويته عن طريق خلق النعرات بين الأمازيغية والعربية، وفي

(1) رابح لونيبي، التيارات الفكرية في الجزائر المعاصرة بين الاتفاق والاختلاف 1920 - 1954، ط1، دار كوكب العلوم للنشر، الجزائر، 2009، ص 338.

(2) Boualem (Bessaih) , Les Grandes Figures de La Résistance Algérienne, Alger, Par: l'épée et la Plume 1830 -1954, Casbah Edition, 2009, p 202.

(3) جيرون شارل رويير، تاريخ الجزائر المعاصر، تر: عيسى عصفور، ط 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982 ص 135.

(4) محمد البشير الإبراهيمي، "موجة جديدة"، جريدة البصائر، ع 42، الجزائر، جويلية 1948، ص 1.

هذه المناسبة يقول العربي ولد خليفة: "لا سبيل لإشغال الجزائر بنفسها وإضعافها من الداخل، إلا عن طريق خلق اشتباك مهلك يستنزف قواها ويعطل وظائف هويتها....."، ولم تدخل الهوية في صراع مع أي لغة أو لهجة عبر جهة من الوطن.⁽¹⁾

هكذا كان مبدأ جمعية العلماء "نحن برابرة عربنا الإسلام"، فالفتح العربي الإسلامي للشمال الإفريقي لم يكن احتلال لأرض البربر بل كان تخلصاً لهم من حكم الرومان، وتحجيرها من برائين الوثنية، وهنا يقول أحدهم أن الأمة الوحيدة التي استطاعت بعقريتها الدينية والسياسية أن تهضم البربر هضماً أبدياً هي الأمة العربية الفاتحة المنقذة لمظالم الجبارين.⁽²⁾

وفي نهاية هذه الورقة البحثية لا أدعي بالقول أننا قد تتبعنا بالتفصيل كل تصريحات ومواقف جمعية العلماء حول هذه القضية، وهي قضية اللغة العربية، لكن بناء على ما تقدم ذكره نستنتج بأن جمعية العلماء قد ناضلت كثيراً في سبيل الحفاظ على الهوية الوطنية واللغة العربية، فقد أدركت الجمعية بأن الأمم لا تنهض إلا بالحفاظ على لغتها ونشرها والتعبير بها، واللغة لا تنهض بكثرة الأقوال بل أن سبيل النهوض بها لا يكون إلا بإصدار الجرائد، وإنشاء المدارس وتعريبها فهو السبيل الوحيد الذي تحيا به العربية، وأختم بالمقولة الشهيرة للفيلسوف الألماني "فيخته" إذ يقول: "...أن الذي يفقد لغته ينتهي به الأمر إلى الذوبان".

⁽¹⁾ العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، دار الثقافة للنشر، الجزائر، 2007، ص 185-186.

⁽²⁾ محمد الصادق بسبيس، "الاتحاد الفرنسي مصرعه بالمغرب المسلم العربي"، جريدة البصائر، ع 17، ديسمبر 1947، ص 3.

الشعر وخطاب الهوية لدى شعراء جمعية العلماء المسلمين

الجزائريين

محمد العيد آل خليفة أنموذجا

د. مختار سويلم

ج. غرداية

الشعر ديوان العرب؛ هكذا هو عندهم في الجاهلية؛ سجل للأيام وحامل للأخبار ووسيلة إعلام، تباروا حول قريضة وتنافسوا وتفاخروا في امتلاك نواصيه وتكاثروا بنبوغ الأبناء فيه.

وبعد أن أشرقت شمس الإسلام على الجزيرة العربية حافظ الشعر العربي - الذي أشرب معاني الدين الجديد - على تلك المكانة وثبتتها؛ حيث اتضح قيمته وبرزت مكانته من خلال أقوال النخبة فيه؛ فقد جاء في الأثر عن سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قوله: (أرووا الشعر؛ فإنه يدل على محاسن الأخلاق، ويقي مساوئها...) (1). ونُسبت إليه - رضي الله عنه - مقولة يقول فيها: "علّموا أولادكم لامية العرب؛ فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق" (2)، ولعل في القول الأخير ما يستوقف القارئ لينبّهه إلى قيمة الشعر عبر مضمونه دون الإخلال بالشكل؛ حيث يلعب الإيقاع دوراً حاسماً

(1) المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين الأبهسي، ج1، ص95، طبعة 1412هـ - 1992م، دار مكتبة الحياة، بيروت.

(2) بغض النظر عن تشكيك البعض في نسبة اللامية للشنفرة

في تقبّل الأذن لهذا الخطاب، خاصة إذا علمنا أن أغلب القصائد تُشد أمام المألّ وتُلقي على المسامع، فتتلقّها الأذان لتعمل عملها في إيقاظ الأحاسيس وإثارة العواطف.

لقد كان الخطاب الشعري وسيلة مثلى للتعليم والتربية في نطاق عامل شفوية الأدب؛ وهو ما يؤكده القول الآنف الذكر لسيدنا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- "علّموا أولادكم لامية العرب؛ فإنها تعلّمهم مكارم الأخلاق" لذلك يمكن القول أن التعليم والتربية عن طريق الشعر الهادف شكل آخر وطريقة غير مباشرة في مناهج التدريس قد يتجاوز أصحابها النمط التقليدي المعروف: معلم يلقن معارف علمية وتربوية إلى طلابه في الصفّ.

إذا لا غلوّ- والأمر كذلك- في اعتبار التعليم والتربية بواسطة الشعر نشاطاً جريئاً وإجراءً متميزاً يُساعد المربي في رسالته التعليمية عبر إيقاظ مدارك النشء، وشحن قواهم العاطفية. وذلك أن الشعر وسيلة متممة قادرة على تحقيق ذلك الرهان بأيسر حيلة وأقصر طريق.

وإذا كانت النظريات اللسانية ترى في العمل الأدبي والشعري خاصة خطاباً فوق العادة؛ لأنه مُشبع بالانزياحات التي تخرق المتوقّع؛ فإن هذا الخطاب سيحقق غايةً صاحبه عندما يفاجئ المتلقي، ويشدّ انتباهه بقدرته على تطويع اللغة وانقيادها إلى سلطته؛ إلا أن اللغة لا تنصاع إلا لمن يملك زمامها ويُحسن ركوب أمواجها، وذلك أن اللغة مشاعر وثقافة وهوية.

وبما أن لغة الأمة عنوان ثقافتها وحضارتها⁽¹⁾ لكونها سمة انتماء الإنسان للجماعة، وحاملة لجينات هويته؛ فإن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين -إبان الاحتلال الفرنسي- دأبت على الاهتمام بالهوية الجزائرية العربية من

(1) في العلاقة بين اللغة العربية وهوية الأمة، (مداخلة)، د رابح ملوك، الجزائر

خلال الحرص على تعليم اللغة العربية، وتربية النشء على قيم الدين الإسلامي عبر قنوات تعليمية مباشرة كالمدارس والنوادي؛ إلا أن الظاهر أن الرهان على الأعمال الأدبية المحفزة كان له الشأن كذلك في دعم هذا الجهد، ولعل أبرز عمل أدبي آنذاك. تتل في القصائد الشعرية التي كانت ترفع المعنويات وتثير الحماس في النفوس؛ خاصة إذا علمنا أن هذه القصائد كانت تُلقى في مناسبات هامة كافتتاح مدرسة أو اختتام موسم دراسي أو اجتماع هيئة فاعلة.

ولعل الشاعر محمد العيد آل خليفة انفرد بهذه الخاصية وتميّز، مما أهله إلى أن يحظى بألقاب عديدة كاعتباره شاعر النهضة الجزائرية وشاعر الشمال الإفريقي، وأمير شعراء الجزائر⁽¹⁾. وهو ما سيكون موضوع هذه المداخلة؛ التي ستركز على البحث في مضامين خطاب الشاعر محمد العيد آل خليفة وعلاقة هذا الخطاب بالهوية الجزائرية العربية، ودوره الإصلاحية، عن طريق طرح الإشكال التالي: مامدى أهمية الدعوة التي يحرص أصحابها على الأخذ بأسباب الرقي العلمي بتعلم العلوم باللغة الفصحى والتزود من مناهل الأخلاق عبر التعرف على جواهر الدين الإسلامي؟ وما هو مقام اللّغة العربية في التراتب العلمي لأبعاد الهوية عند جمعية العلماء من خلال الخطاب الشعري لمحمد العيد آل خليفة؟

إن الباحث في ديوان الشاعر محمد العيد آل خليفة يجد أن الكثير من القصائد ارتبطت بمناسبات القى الشاعر فيها قصائده بحضور جمهور غفير من الناس، كان بينهم الطلبة ومعلموهم، وقد كانت هذه القصائد تفعل فعلها في نفوس المستمعين، بل إن بعض القصائد تكفل بالقائها بعض شيوخ الجمعية إكبارا لناظمها واعترافا بشاعريته كالشيخ البشير الإبراهيمي الذي ألقى قصيدة

⁽¹⁾ هذا اللقب أطلقه الإمام عبد الحميد بن باديس على الشاعر سنة 1940م.

"ختمت كتاب الله" خلال مناسبة تكريم العلامة عبد الحميد بن باديس بعد ختمه تفسير القرآن الكريم⁽¹⁾. وما دام هذا الانتاج الأدبي يحظى بهذا الشرف، فهل يمكن أن يكون هذا الشعر وسيلة تعليمية وتربوية؟ علماً أن الحالة هذه (الإلقاء) تجمع المعلم والمتعلم. لعل جواب هذا السؤال يتلخص في بيتين لمحمد العيد نفسه ضمن قصيدة "يا معشر الطلاب" حيث يقول:⁽²⁾

يا معشر الطلاب هل من منصتٍ منكم لوحي الشعر في إلهامه؟
أسديه مني حكمة مملوءة عظة يردها مدى أيامه

إذا مضمون قصائد شاعرنا حكم وعظات وتوجيهات؛ صاغها لتكون نبراساً يهتدي به المتلقي ويستفيد، وهذا المتلقي ما هو إلا شباب ونشء هذه الأمة، وما هو إلا ثلّة من شيوخها وعلمائها الذين تحملوا عبء محاربة الجهل، وهو كذلك ثلة أخرى من أهل الخير والصلاح في المجتمع الذين كانوا يدعمون جهود الجمعية مادياً ومعنوياً. وإذا أمعنا النظر في هذه العناصر الثلاثة التي تؤلف المتلقي ألفيناها تكاد تكون هي المقصودة في قول أبي الدرداء-رضي الله عنه:-
..كُنْ عالِماً أو مُتَعَلِّماً أو مُسْتَمِعاً أو لا تَكُنْ الرَّابِعَ فَتَهْلِكُ"

سنلاحظ أن الخطاب الموجه إلى هذا المتلقي يشمل قطاعات حيوية من المجتمع، لذا سيختلف هذا الخطاب بحسب مسؤولية كل فئة من هذه الفئات ودورها في هذا المشروع التعليمي، فماذا كان يقول لكل فئة؟

(1) ينظر: ديوان محمد العيد آل خليفة، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ص 146.

(2) الديوان: ص 85.

إن الإجابة على هذا السؤال تكمن في نتاجه الشعري؛ لكنها تستوجب علينا تنظيمها في محورين:

أولاً: صيغ هذا الخطاب:

من المفيد التذكير بأن مضمون شعر محمد العيد يحمل رسالة تعليمية تربوية إلى النشء، وقد اختار الأسلوب الطلي المباشر بمختلف صيغه مطيةً لذلك، من مثل قوله: ⁽¹⁾

يا معشر الطلاب هل من آخذ بالذكر أو متمسك بعصامه؟
فتشرفوا بالأخذ من آدابه وتعرفوا بجلاله وحرامه

حيث جمع بين النداء والأمر بغية حضّ الطلبة على الأخذ بكتاب الله والتحصّن به، كما يكرر ذات الأسلوب دافعاً هذه الفئة إلى المحافظة على الموروث القديم والاعتزاز به في قوله: ⁽²⁾

وبثوا فنون العلم والحكم بينكم ولا تؤثروا الجديد منها على البالي

ويعمد إلى طلب مباشر آخر؛ عندما يحذر الشباب من مغبة فقدان لسان الضاد؛ حيث يخاطبهم ناهياً عن التفريط فيه بقوله: ⁽³⁾

لكم اللسان الفدّ في إيضاحه رَغما على الساعين في إبهامه
لا تُهملوا هذا اللسان ففقدكم في فقده ودوامكم بدوامه

⁽¹⁾ الديوان: ص 86.

⁽²⁾ نفسه: ص 120.

⁽³⁾ نفسه: ص 86.

ونلاحظ أن هذا الشاهد يُثبت أن مسألة الفصحى مسألة وجودية بالنسبة للشعب الجزائري. أما رسالته التي يخاطب بها العلماء وأصحاب شأن الطلبة، فهي رسالة توجيه وإرشاد؛ حيث يوظف خبرة المربي في مخاطبة العقول مركزًا على أسلوب الأمر؛ لكن بغرض الالتماس كما في قوله: (1)

بني وطني أعلوا المدارس تُعلِّكم بتعليم جهّال وإرشاد ضلّال
وصونوا بها الفصحى التي بكتابكم أشادت ببرهان وساعت كسلسال

و في قوله أيضًا: (2)

أيها الشعب خذ من العلم حظًا لم يشبه زيغ ولا إحداد!
واجعل الدين للبين دليلا يسهل الطبع منهم والقياد

وقد يُؤثر مسلك إثارة العاطفة من باب الاعتراف بذوي الفضل؛ حيث يدغدغ عواطف المربين بمدح جهودهم في هذا السبيل والاقرار بانقياد الجميع لسلطتهم؛ مما يشجع أصحاب الشأن على الاستمرار في البذل والتنافس في العناية بالطلبة وهو ما يترجمه قوله مخاطبًا فئة المعلمين: (3)

تَه فخارا يا معشر العلم قد دَانَ لك الشعبُ شيخه وغلّامه
حفظ الله معشر العلم ما طاب له بدؤُ هو طاب ختامه

وتقوده متابعته لمسار العملية التعليمية - بحكم مسؤوليته كمدرس في مدارس الجمعية - إلى عرض خبرته على زملائه القدماء والمبتدئين؛ فينصح قائلا: (4)

وإذا ما أردت تثقيف نشءٍ فارقب النشء سلّم اكتساب

(1) نفسه: ص 121.

(2) نفسه: ص 116.

(3) نفسه: ص 111.

(4) - نفسه: ص 84.

ويذكر بقوله: (1)

ومن فرض أهل العلم إرشاد حيرٍ وتعليم جهّال وإيقاظ نومٍ

أما ذرو الأيدي البيضاء وأصحاب الفضل والمعروف؛ فيحضّمهم على
البذل ومواصلة الجهد في خدمة مشاريع التعليم ورعايتها عن طريق
تحسيسهم؛ فيقول: (2)

أذوي العمائم سايروا قرآنكم وتتبعوا هدي الرسول الأشفع
وابنوا المدارس نضرةً مزدانة تحكي المغارس في الربيع المونع

لقد تبين لنا أن الشاعر استعمل أسلوباً مباشراً - كان أمراً في الغالب -
وذلك أن هذا الأسلوب يعقد صلة وثيقة بين المخاطب والمخاطب، ويُفعل
مضمون الرسالة في التأثير على المتلقي وسرعة استجابته للطلب، وذلك أن
الأمر "عند العرب ما إذا لم يفعله المأمور به سُمي المأمور به عاصياً" (3).

ثانياً: أبعاد هذا الخطاب

أما المحور الآخر فنركزه على البحث في أبعاد الهوية في خطاب الشاعر،
وذلك أن محمد العيد آل خليفة وهو يتواصل مع الفئات الثلاث جعل نصب
عينيه ثلاثة أبعاد تشكل الهوية، وهي: اللغة العربية والدين الإسلامي،
والتاريخ، وهي أبعاد - في حقيقة الأمر - تتكامل فيما بينها وتتعاون لتجسيد

(1) نفسه: ص 89.

(2) نفسه: ص 214.

(3) الصاحبي، أحمد بن فارس، تح: أحمد صقر، مؤسسة المختار، مصر، ط1 / 1425هـ -

2005م، ص 308.

الهوية العربية الإسلامية، يقول الشاعر بخصوص البعد الأول من هذه الأبعاد عندما طفق يخاطب الطلاب: (1)

لكم اللسان الفدّ في إيضاحه رَغْمَا عَلَى السَاعِينَ فِي إِبْهَامِهِ
لَا تُهْمَلُوا هَذَا اللِّسَانَ فَفَقَدَكُمْ فِي فَقْدِهِ وَدَوَامِكُمْ بِدَوَامِهِ
فَكَأَنَّمَا هُوَ عِقْدٌ دَرٌّ فَائِقٌ رَصْفًا وَعِلْمَ النُّحُوِّ سَيْلِكَ نِظَامِهِ
وَكِفَاكُم فِي النُّحُوِّ قَدْرَ أَنْكُم رَاوُونَ عِلْمَ النُّحُوِّ عَنْ عَلَامِهِ

يدرك الشاعر جيدا أن اللغة العربية مطاردة في عقر دارها من قبل المحتل؛ لذا راح يحث الطلبة على التَّشَبُّثِ بهذه اللغة، وضرورة الاهتمام بعلم النحو؛ بما يصون اللسان من الوقوع في اللحن. وها هو - مرّة أخرى - يشجّع التَّشَبُّثَ على الاعتزاز بالانتماء إلى هذه اللغة، والحفاظ على ذلك باستعمالها في جميع مجالات الحياة؛ فيقول: (2)

- تَعُوذْ لِسَانَ الضَّادِ نَطْقًا تَعُدُّ بِهِمْ عَدًّا إِلَى الدُّنْيَا وَتُنْشِرْ بِهِ فِهْرًا
أَلْسِنًا وَإِنْ طَالَ الْمَدَى نَسْ لِيَعْرَبِ تَطْوِلْ بِنَا فَرَعًا وَنَزَكُوا بِهَا جِذْرًا؟

كما يدعو النشء أن يفتخر بالانتماء إلى لغة القرآن الكريم التي سادت غيرها من اللغات في يوم من الأيام؛ عندما ينشد قائلا: (3)

فِيَا نَشْأَنَا الشَّرْقِيَّ هِيَا إِلَى الْعُلَى كَرَكِبٍ لَهُ فَصْحَى اللِّغَاتِ كِرَائِدِ
لِسَانَ كِتَابِ اللَّهِ وَالْمُصْطَفَى مَعًا وَمُفَخَّرَةِ الْعُرْبِ الْجُدُودِ الْأَمَاجِدِ
وَكُنْزِ عُلُومِ الشَّرْقِ فِي عَصْرِ نَهْضَةٍ لَنَا سَادَاتِ الْمَعْمُورِ مِنْ غَيْرِ جَاهِدِ
وَلَا يُنْكَرُ الْفَصْحَى وَحَسَنَ مِرَانِهَا وَوَفَرَ غِنَاهَا غَيْرُ خَصْمٍ مَعَانِدِ

(1) الديوان: ص 86/87.

(2) نفسه: ص 402.

(3) نفسه: ص 490.

ولعل الشاعر بهذه الدعوة ينشد زرع الثقة في نفوس الناشئة التي كاد يستقرّ في أذهانها عجز لغة الضاد خارج الكتاب؛ وهو ما كان يروّج إليه المحتل مع بعض ضعاف النفوس من الجزائريين باستعمال مختلف وسائل الدعاية لديه ومسخرا جميع الامكانيات التي مجوزته.

لم يقتصر اهتمام الشاعر بهذه الفئة فيما يخص هذا البعد فقط؛ بل تعداه إلى المعلمين والمربين وهم عصب هذا المشروع وعماده؛ فهي هو محمد العيد آل خليفة يوجه كلامه إليهم قائلا: (1)

بني وطني اعلوا المدارس تُعلِّكم بتعليم جهّال وارشاد ضلال
وصونوا بها الفصحى التي بكتابكم أشادت ببرهان وساغت كسلسال

ولا يُخفى على الشاعر فضل هؤلاء على الأمة جمعاء؛ بحرصهم على تعليم الفصحى للناشئة، لذا عمّد إلى مدح صنيعهم والثناء عليهم بقوله: (2)

ويا داعي الفصحى وراعي فوجها وحارس مرماها بناظر ناقد
لك الله فاهناً بالذي أنت أهله من الحمد فاظفر بالمنى والمرشد
بعارفة للضاد منك رَفَعْتَهَا وَقَدَّمْتَهَا للناشئات الصواعد
أثارة علم في الأثرات سمحة وخالدة محمودة في الخوالد

أما بخصوص البعد الثاني من أبعاد الهوية؛ ونعني به الدين الإسلامي، فيفاجئنا الشاعر باستعمال كلمة "القرآن الكريم" للدلالة على ذلك؛ اقتناعاً منه أن الكتاب دليل الإسلام وواجهته الملموسة، ولا عجب في ذلك، أوليس القرآن الكريم معجزة الإسلام الخالدة؟

(1) نفسه: ص121.

(2) نفسه: ص491.

في هذا الصدد، لم يكن الشاعر يفصل بين مدلول القرآن الكريم واللغة العربية في كثير من الأحيان؛ بحيث كان يترافق اللفظان في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى كان لفظ القرآن يُغني عن ذكر لغة الضاد، يقول الشاعر بمناسبة افتتاح نادي النهضة بالبليدة: (1)

يا فتية النادي ومعره الألى ساقوا إليه به القلوب وشاقوا
داووا به مرضى الهوى كمصحة فيها لكل وجيعة ترياق
واحموا به الأخلاق من إخلاقها يعظم لكم في الصالحات خلاق
فكوا به الأعناق من أطواقها فلطالما قعدت به الأطواق
وعليكم القرآن فهو من الهوى حام وليس كنوره إشراق

يرى الشاعر في هذا النادي وسيلة حماية من تردّي الأخلاق، وعامل وقاية من مغبة الانحراف بفضل إخلاص طاقمه وتفانيهم في خدمة الدين والوطن. ويحرص - في مناسبة أخرى - على توجيه الشباب إلى الاعتصام بهدى الوحيين؛ فيقول: (2)

يا شباب العلى اعتصم بالتآخي زانك الله في العلي من شباب
أنشر السنة الكريمة واعمل بهداها وخُذْ بجدّ الكتاب

ولأهمية هذا البعد في الحفاظ على الهوية؛ ارتأى شاعرنا رسم خطة طريق تضمن نجاح تدابير تربية الأبناء، وذلك بالانصراف إلى الذكر الحكيم لتدارس آياته واستنباط أحكامه؛ مما يحقق الفلاح في الدين والدنيا، يقول: (3)

هلمّ بني قومي إلى الذكر ثمّله ففي الذكر أخلاق سمت ومكارم

(1) نفسه: ص 91.

(2) نفسه: ص 84.

(3) نفسه: ص 130.

ولست أرى القرآن إلا مناجماً أتدرون ما تحوي عليه المناجم؟
على الدين والدنيا وعلميها معاً شهوداً وغيباً فهو بالكف لقاءم
فربوا عليه الناشئين تُلح لهم به طرُقٌ مشروعة ومعالم

ويخصّ بخطابه - في هذا الشأن - أصحابَ العمائم لمكانتهم في المجتمع
وعلاقتهم بمشاريع جمعية العلماء، وذلك أنهم المدد والسند، فيقول لهم: (1)

أذوي العمائم سايروا قرآنكم وتتبعوا هدي الرسول الأشفع
وابنوا المدارس نضرة مزدانة تحكي المغارس في الربيع المونع

إن قراءة التاريخ والتمعن في منعطفاته؛ قد تعيد الحياة للسلوك وتهب
النشاط للفكر، لتحرّر بذلك الأجساد من عقال قيودها الحاضرة، فقد صدق
من قال: "الحاضر غرس الماضي والمستقبل جني الحاضر والتاريخ سجل الزمن
لحياة الشعوب والأشخاص والأمم" (2).

كان الشاعر محمد العيد آل خليفة - كغيره من المرين - يعتبر دراسة تاريخ
الأمّة نافذةً مفتوحةً يطلّ عبرها الشباب على ماضيهم المجيد؛ ليتزودوا من
تجارب السلف ويأخذوا من آثارهم العبر، لأجل ذلك فسح المجال لهذا البعد،
ومنحه نصيباً موفوراً لا يقل أهمية عن البعدين الآخرين، يقول مخاطباً
الشباب بمناسبة احتفالية في مدرسة الشبيبة سنة 1932: (3)

شباب الجزائر طيّب الإخاء فقد حُزت في رعيه الأسبقية
وطُف حول مورده المستطاب كما طافت النحلُ الخلية

...../.....

(1) نفسه: ص 140.

(2) هذه العبارة ترد في شارة البداية للبرنامج الإذاعي "نافذة على التاريخ" لإذاعة دولة الكويت.

(3) الديوان: ص 380 / 381.

أناديك للخير خير نداء وأوصيك بالحق حق الوصيه
...../.....

إلى البذل فهو الملاذ المنيع إلى العلم فهو السبيل السويّه
إلى الكشف عن تركات الجُود فكم بينها من كنوز خفيّه
إلى بعثِ سُلطاننا المشرقيّ وبعثِ فتوحاتنا المغريّيه

إنها نصيحة غالية من لدن صاحب تجاربٍ يحمل هموم الوطن، ويُرشِد
الخلف إلى أقوم طريقٍ. ويقول أيضا: (1)

أدوي العمائم راجعوا تاريخكم من مُنذُ عهدِ (الدّاي) حتى تُبّع
أدوي العمائم علّموا وتعهّدوا بالوعظِ والذّكرى ذواتِ البرقِ

اللغة العربية والدين الإسلامي والتاريخ مثلث ارتكزت عليه جهود
الجمعية الإصلاحية؛ وليس من الغريب أن تجتمع هذه الأبعاد في هذا
الخطاب الشعري، وذلك أن الشاعر محمد العيد آل خليفة ليس ببعيد عن
الخط الإصلاحية؛ بل هو أحد إدارتها الذين رسموا خط توجّهها
في أحلك الظروف التي مرت بها الأمة الجزائرية من أجل الوقوف في وجه
الرامين إلى الإدماج أو الساعين إلى الذوبان في ثقافة الإفرنج.

فاللغة العربية فكر الإنسان العربي ولسانه، وفي نفس الوقت هي للمسلم
الصلة والانتماء، إنها الشكل والأداة التي تميّز الأمة الجزائرية عن الوافد
المحتل. أما الإسلام فهو الفكر الذي غدّى اللغة العربية وانقذها من التلاشي
والاضمحلال، إنه المنهل الذي تستقي منه اللغة حياتها، أما التاريخ فيغني
اللغة بمختلف أحداثه ليكون هو المرجع وتكون هي الوعاء الذي يحفظ
ثقافتنا وتراثنا وإرثنا الحضاري. تلکم هي الأبعاد الثلاثة التي قام عليها

(1) نفسه: ص140.

خطاب أمير الشعراء محمد العيد آل خليفة، لتهز اللغة العربية كإحدى أهم القيم التعليمية لتلقي رسالة الشاعر؛ بيد أن روعة قصائده تكمن في اللغة كقيمة في الهوية؛ بل هي أهم مكون من مكوناتها. ليبقى علينا - ونحن نملك مثل هذه النماذج - طرح التساؤل التالي: - هل يُعقل أن تجتهد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في المحافظة على المواطنة اللغوية بكل أبعادها في تلك الظروف الصعبة إبان الاحتلال، ونكاد نعجز - ونحن نعم بالاستقلال - عن تحييب اللغة العربية إلى الناشئة ليصل الأمر بالبعض إلى حدّ المطالبة باستعمال الدارجة في التدريس؟!

مدونة آثار محمد البشير الابراهيمي

دراسة وصفية تحليلية _ نماذج لحقل التربية

د/ عزاز حسنية

ج. سيدي بلعباس

الديباجة:

لا ينكر أحد دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في إحياء اللغة العربية والحفاظ على الثقافة الإسلامية بفضل نخبة من العلماء تبنا الفكر الإصلاحى منهجا لمسارهم ومسيرتهم الحياتية التي بدأت عملها الفعلي ونشاطها الرسمي في الخامس من شهر ماي 1931م بالجزائر العاصمة، تاريخ أرادت له جماعة من الناشطين أن يكون البداية الحقيقية لعمل هذه الجمعية في إعادة الهوية اللغوية والدينية التي كاد يفقدها الجزائريون بسبب أعمال المستدمر العاشم والخنونة المؤيدين لنظامه في الجزائر.

ولتحقيق أهداف الجمعية المسطرة والمدروسة، ركزت على تربية النشء تربية إسلامية صحيحة من أول خلية في المجتمع ألا وهي الأسرة انتقالا إلى المدرسة ثم المسجد وأخيرا مختلف المنابر والتجمعات من أجل النهوض بهمة الفرد الجزائري لإصلاح أمتة والتخلص من قيود الاستعمار.

عملت الجمعية جاهدة بفضل علمائها على محاربة الجهل والامية والفساد الأخلاقي والاجتماعي الذي أغرق في وحله المجتمع الجزائري وخاصة الشباب، وهي خطة معروفة لدى الاستعمار للسيطرة على العقول والأهواء

واستبعاد أي محاولة أو مبادرة للمطالبة بالحقوق المسلوبة، لكن هيهات؟ لم يعلم هذا المستعمر أنّ هذه الأمة ولودة ودودة بأبنائها البررة، ولم يقرأ تاريخها جيدا ولم يستفد من تجارب استعمارات سابقة لم تنجح في دحض عزيمة هذه الأمة التي ساهمت في الحفاظ على اللغة العربية بفضل أعلام، أعمالهم كفيلة بالتعريف بهم، من بين هؤلاء العلامة المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس (1889/1940م)، والعلامة رائد البيان العربي الشيخ محمد البشير الابراهيمي (1889/1965 م) وغيرهما⁽¹⁾.

إذن من بين الأعلام الذين حافظوا على ثوابت الأمة ومقوماتها الشيخ الإبراهيمي الذي عاش فترة مخضمة، أي ما بين الاستعمار والاستقلال، كانت فترة حافلة بالأحداث والمواقف والتقلبات، والأسفار والرحلات. والجهود الكبيرة والأعمال الجليلة التي قام بها الشيخ، كانت محل اهتمام عدد من الباحثين والمؤلفين⁽²⁾ باستعراض مسيرة حياة الإبراهيمي والمراحل التي مر بها والأحداث التي عاصرها والمواقف التي وقفها من هذه الأحداث، والجهود التي بذلها في خدمة دينه ولغته ووطنه.

(1) ذكرت هذين العلمين على سبيل المثال؛ لأن للجزائر أعلام كثر قبل الفترة الاستعمارية وأثناءها وبعدها وهم جهود كبيرة في الحفاظ على الهوية اللغوية.

(2) من بين المؤلفات التي دونت حول مسيرة العلامة الابراهيمي، نذكر: الإمام الراحل محمد البشير الإبراهيمي في ذكراه الأولى، جمع وتقديم: محمد الطاهر فضلاء، 1967م، والبشير الإبراهيمي: عظيم من الجزائر، عادل نويهض (لبنان)، 1986م، ومحمد البشير الإبراهيمي شيخ العلماء وفارس البيان، بشير كاشة الفرحي، (الجزائر)، 2004م، والشيوخ البشير الإبراهيمي: إمام في مدرسة الأئمة، محمد عمارة (مصر)، 2011م.

الموضوع:

الشيخ البشير الابراهيمي⁽¹⁾ "رحمه الله" رجل مفكّر، ومصالح وعالم من أعلام الجزائر البررة، له أعمال كثيرة وجليّة، وقبل أن يكون هذا الرجل رجل فكر وسياسة وإصلاح كان رجل أدب وشعر، صاحب خطبة وكلمة، ناسج لغة، مبدع ألفاظ، مبتكر أقوال، يشدّ القلوب والعقول بنسجه اللغوي وسجعه اللفظي، وبتضلّعه في علوم اللغة وآدابها وفنونها.

ولطالما تحمستُ للموضوعات المتعلقة بشخصه وعلمه وعمله ونضاله وكتاباته وإسهاماته للنهوض بالأمة الجزائرية، - وبقى مقصرين في حق الرجل قريين من الناكرين للجميل، فما ذكرناه عنه نزر قليل وهو من فعَلْ الكثير الكثير-، حيث شاركت في أحد الملتقيات⁽²⁾ بإحدى الجامعات الجزائرية، وتمحور الموضوع حول الأدب كونه رسالة وإصلاح فكان لي أن اخترت لمداخلتي عنوان: "تجليات الفكر الإصلاحية في خطابات الابراهيمي (نصوص من منظوم أدبه ومنتوره)، فوجدت نفسي أكتب عن الإبراهيمي حينما يتعلق الأمر بالرسالة ويرتبط الأدب بالإصلاح، وكان مرجعي في النصوص آثار محمد البشير الابراهيمي"، وأستقرأ من مقالاته تجليات الإصلاح فاستوقفتني نسيجه اللغوي وتناغم مقالاته الصوتي، ووجود الايقاع

(1) حمد البشير الابراهيمي (1889-1965م) رجل أدب وفكر وعلم، وأحد المؤسسين البارزين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ينظر: البشير الإبراهيمي: عظيم من الجزائر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط1، 1406هـ، 1986م، والبشير الإبراهيمي أديبا، محمد عباس، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1987م، والشيخ البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، محمد مهداوي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1408هـ، 1988م.

(2) الملتقى الدولي الأول أيام 16-17/04/2013 (الأدب رسالة وإصلاح) نظمه مخبر الحركة النقدية، جامعة د. الطاهر مولاي بسعيدة.

الموسيقي، فكتاباته تشدّ السمع، وتجعل القارئ يعدّ عدته اللغوية ويجهز قريحته ويستحضر ذاكرته المعرفية.

وتشكّل مقالات الابراهيمى لوحات كلامية رائعة تتضح فيها لغته المتنوعة المتلونة من لغة الحزم إلى لغة السخرية إلى لغة الغضب ثم إلى لغة الحزن والشجن، وكلّ لوحة إلاّ ولها ريشتها وألوانها مشكلة من زخرف البديع ورونق المديح، مثل ما كان الحال في مقالته "مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة"، مقالة كتبها الإبراهيمى في رثاء أعزّ صديق له وأيّ صديق؛ إنه رفيق الدرب والصاحب في الحرب، والملازم في العلم والمرباط في التعليم، إنه الأخ في الإرشاد والشقيق في الإصلاح، إنه الشيخ العلامة عبدالحميد بن باديس - رحمه الله - الذي توفاه الله في 16 أبريل 1940.

وقد شاركت بهذه المقالة في ملتقى آخر⁽¹⁾ بعنوان: "توظيف الصوت في الدلالة على المعنى في كتابات الإبراهيمى - مناجاة مبتورة، لدواعي الضرورة: نموذجاً"، وأنا أشارك مرة أخرى في الملتقى الدولي: "دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحفاظ على اللغة العربية وأثره في الهوية اللغوية" بمدخلة عنوانها: مدونة آثار محمد البشير الإبراهيمى دراسة وصفية تحليلية (نماذج لحقل التربية)، لأعود مرة أخرى لآثار الإبراهيمى واصفة إياها ومحللة لمقالاته التي حصرتها في حقل التربية وعلاقتها بالتعليم، وأثر هذه المقالات في الحفاظ على الهوية اللغوية.

وقبل استعراض أفكار الابراهيمى التي تناولت أهم القضايا التربوية، لا بد من التعريف بالمصطلحات الأساس في هذا العنوان، وهي ثلاث وحدات

(1) الملتقى الوطني الأول يومي 20_21/10/2014 (التراث الأدبي الجزائري - قراءة صوتية دلالية-)

نظمه مختبر: "الدلالة في المستويات اللسانية في التراث الأدبي الجزائري"، جامعة السانية وهران.

أساسية: مدونة آثار إبراهيمي، محمد البشير إبراهيمي، الدراسة الوصفية التحليلية لمقالات في التربية.

مدونة آثار الابراهيمية هي مدونة متكونة من خمسة أجزاء، جمعها وقدمها نجله الإمام الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، وكانت الطبعة الأولى من المدونة بمساعدة الأستاذين "حمزة بوكوشة ومحمد خمار" وقد صدر الجزء الأول سنة 1978 والجزء الثالث سنة 1981، والجزء الرابع سنة 1985، والجزء الخامس "في قلب المعركة" سنة 1994، و"عيون البصائر" تمثل الجزء الثاني من هذه الطبعة الأولى، وقد اعتمدت في تحليلي على طبعة دار الغرب الإسلامي ببيروت منتقاة المقالات التي تحدث فيها الشيخ الابراهيمية عن التربية، وهو مجال مهم من المجالات الكثيرة التي تطرق إليها الشيخ هادفاً من ورائها إبراز سبل تحقيق النهضة والصحة التي يريدها للأمة ولل فرد الجزائري، وهي المهمة التي تسعى إلى تحقيقها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. فنهضة الأمة مرهون بنهضة الفكر، وهذا الأخير مرهون بنوع التربية والتعليم، وكل ذلك يساهم في توجيه وإرشاد وإصلاح وبناء فكر المجتمع الجزائري.

لقد كانت للشيخ الابراهيمية نظرتة الخاصة إلى التربية، وهي نظرة لها مراجع فكرية معينة، ولعلّ مرجعه الأول والأساسي هو الدين الإسلامي، فقد استقى أفكاره ومنهجه التربوي من نظام التربية في الإسلام، وأراده أن يكون نظاماً تربوياً لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومرجعه الثاني هو الواقع المعيش، إذ عقد مقارنة بين التعليم العربي القديم والتعليم الأجنبي العصري، فبين مميزات هذا وذاك وعيوبهما كما أفاد من مشكلات الواقع الذي كان واقعاً مضطرباً لا يخدم الأمة ولا يمكنه القيام بمهمة تربية جيل. وهذه المهمة هي التي أضحت الشغل الشاغل والهلم الدائم للشيخ كما اعتبرها قضية حياة.

إنّ قضية تربية النشء من أهم القضايا المطروحة في عيون البصائر، اخترنا مقالات منها يبرز فيها المشروع التربوي لدى الشيخ الإبراهيمي، وقبل عرض أفكاره التعليمية ومنهجه التربوي سنقف عند مفهوم التربية، إذا رجعنا إلى الأصول اللغوية، فإننا نجد لكلمة التربية معان عديدة منها: ربا الشيء يربو ربواً ورباءً: زاد ونما وأربيتَه: نميته لقوله تعالى ﴿وَمَاءَ آتَيْتُم مِّن رَّبِّكَ لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾⁽¹⁾ - ربي على وزن خفى بمعنى نشأ وترعرع. - ربّ "رب" يقال ربّ فلان الأديم: أصلحه بالشب ونحوه حتى يصلح شيئاً فشيئاً، ورب الضيعة يربها إذا أتمها وأصلحها.

ويقال ربي فلان فلاناً إذا تعهده بالرعاية والحماية وحسن توجيهه إلى طريق الخير والفلاح، ومنه قيل للحاضنة رابة وربيه لأنها تقوم بتدبير أمره من تربية وترعى شئونه.

وحول هذه المعاني نجد تفاسير متعددة للرب في شرح قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽²⁾ نذكر أقربها وهو ما جاء في كتاب «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» وهو قوله: "الرّبّ في الأصل مصدر بمعنى التربية، وهى بلوغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً ثم وصفه تعالى للمبالغة"⁽³⁾، فترية الناشئ على هذا الأصل تكون بالعمل على إيصاله إلى الكمال شيئاً فشيئاً في حياته بصورة تضمن له الأمان والاطمئنان وفى السعادة وصلاح الحال.

(1) الآية 39، سورة الروم.

(2) الآية 01، سورة الفاتحة.

(3) ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، م1، 2، ص26، 25، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، بيروت.

تتكون التربية من مجموعة من العناصر أهمها: (1)

- المحافظة على فطرة النشء ورعايتها.

- تنمية المواهب والاستعدادات، وهي كثيرة ومتنوعة.

- إيصال كل مربى إلى درجة كماله الخاصة التي هيأه الله لها.

ويمكن تعريف التربية تعريفاً جامعاً بأنها: العمل على تحقيق النمو المتزن في جو اجتماعي ينسجم مع سن الناشئ وطبيعة طفولته ويعتمد على ميوله ودوافعه واهتماماته في غير إجبار ولا إكراه، فيكون التوازن الدقيق بين مطالب الروح ومطالب الجسم (2).

أمّا التربية اصطلاحاً، فهي "مجموعة التصرفات العملية والقولية التي يمارسها راشد بإرادته نحو صغير، بهدف مساعدته في اكتمال نموه وتفتح استعداداته اللازمة وتوجيه قدراته، ليتمكن من الاستقلال في ممارسة النشاطات وتحقيق الغايات التي يعدلها بعد البلوغ، في ضوء توجيهات القرآن والسنة" (3)، فهي في نظر المربين ذلك الجهد الإنساني الهادف، الذي يوجه لرعاية الفرد والمجتمع، ويسعى لبناء الفكر وتثقيف العقل وتقويم السلوك، وتقوية البدن، وتنمية المواهب، من أجل تحقيق الغاية التي يتطلع إليها الإنسان في حياته، وهي بلوغ الكمال الإنساني، أي بناء الشخصية السوية، كما يكاد يجمع أغلب فلاسفة التربية الحديثة على أنّ التربية "هي تحقيق

(1) ينظر: عبد الرحمن الباني، مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام، ص 14، 07، المكتب الإسلامي بيروت، لبنان، سنة 1403هـ، 1983م.

(2) ينظر: تركي رابع، النظريات التربوية، ص 56، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1982م.

(3) أحمد فريد، التربية على منهج أهل السنة والجماعة، ص 19، 17، المكتبة التوفيقية، مصر.

النمو والحياة لدى الناشئ"⁽¹⁾، والتربية الحديثة أيضا هي الانتقال من "فكرة التعليم القصير المدة إلى فكرة التربية المستمرة"⁽²⁾، فهي تعتمد على الاستمرارية والحداثة في التعليم من السلوك والمعرفة.

والتربية من منظور الإمام الإبراهيمي لا تخرج عن هذه المعاني، فهو ينظر إلى الجهود التي يبذلها العلماء والمعلمون والمسؤولون في رعاية أفراد المجتمع إنما هو إعداد الأفراد للحياة الحاضرة والحياة المستقبلية، من خلال الدعوة إلى بناء عقولهم ونفوسهم وتنمية مواهبهم الفطرية وتنشئتهم على صحة الإدراك ودقة الملاحظة. ونستخلص هذه النظرة من عدد من أقواله، منها مقالته المتعلقة بحقوق الجيل الناشئ، يقول فيها: "للجيل الآتي علينا حقوق أولية مؤكدة، لا تبرأ ذمنا منها عند الله، ولا تسقط شهادة التاريخ علينا بها، إلا إذا أديناها كاملة غير مبخوسة؛ وملاك هذه الحقوق أن نعدّهم للحياة على غير الطريقة التي أعدنا بها آباؤنا للحياة"⁽³⁾، وقوله أيضا: "أنتم حراس هذا الجيل الجديد، المؤمنون عليه والقوامون على بنائه؛ وأنتم بناءة عقوله ونفوسه، فابنوا عقوله على أساس من الحقيقة، وابنوا نفوسه على صخرة من الفضائل الإنسانية... ربوهم على ما ينفعهم وينفع الوطن بهم... ربوهم على استخدام المواهب الفطرية من عقل وفكر وذهن؛ وعلى صدق التصور وصحة الإدراك ودقة الملاحظة والوقوف عند حدود الواقع"⁽⁴⁾.

(1) النحلاوي، عبد الرحمن، التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة، المكتب الإسلامي، بيروت، ص 04.

(2) محمد الناصف، تأملات في التربية والتعليم، ص 41، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، سنة 1984م.

(3) آثار محمد البشير الإبراهيمي ج 3 (عيون البصائر)، جمع وتقديم د. أحمد طالب الإبراهيمي،

دار الغرب الإسلامي ط1، سنة 1997 ص 273.

(4) آثار محمد البشير الإبراهيمي ج 3، ص 271، 272.

فالعامل التربوي التعليمي عملية تواصلية بين المعلم والمتعلم، والشيخ الابراهيمي في هذه الأقوال يحدد خلاصة ما ينبغي أن تسعى إليه جهود المعلمين خاصة وعامة الكبار والمسؤولين عن رعاية الصغار في مجال تنشئة الأجيال وفق إرادة المجتمع، فهو يحدد لنا الطريقة وأسلوب العمل الذي يجب أن يعتمد في عملية الإعداد والتنشئة، بحيث يكون أسلوباً ملائماً لمجريات العصر ومنسجماً مع حاجات الأجيال المتجددة.

وبما أن العملية التعليمية تعتمد على أربعة أركان أساسية، وهي: المعلم والمتعلم والمادة التعليمية ووسائل التعليم، ولعل الركن الأساس الذي يجب إعداده لإنجاح هذه العملية هو المعلم؛ فإن الشيخ الابراهيمي يوضح في هذا السياق مضمون الإعداد، فيعدد المجالات التي ينبغي التركيز عليها مع المعلمين، أبرزها: الأخلاق والآداب والأفكار والاتجاهات، هذه الجوانب التي تشكل التراث الفكري والقيمي، أو الأمتعة كما يسميها "الأمتعة التي يرثها جيل عن جيل، ومنها يتكوّن مزاجه وتحدد شخصيته وأفكاره".⁽¹⁾

والسبيل الذي يؤدي إلى توريث هذه القيم والاتجاهات التي يرغب المجتمع في نقلها إلى أجياله هي المدرسة، والمدرسة التي يعنيها الإبراهيمي هي المدرسة العربية أي المدرسة التي تؤسسها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، تلك المدرسة التي تعبر عن ذاتية الأمة وتجسد مقوماتها، وتحافظ على ثوابتها، وترتكز في برامجها على الأصول الحضارية والثقافية التي نشأت الأمة في كنفها، تلك المدرسة التي تقدم "تعليماً عربياً يسير العصر وقوته ونظامه... تعليماً عربياً عليه طابعها، وفيه أثر يديها، وله ما لها من روح، وعليه ما عليها

⁽¹⁾ المصدر نفسه ج 3، ص 273.

من سمات" (1). هذه الرؤية الشاملة للإمام الإبراهيمي حول التربية، وهذه هي المعاني المستخلصة من آرائه وتوجيهاته للمعلمين.

أمّا السياسة التربوية التي خطط لها الإبراهيمي بدأت بدراسة السياسة الحقيقية في البلاد التي كانت تعاني ويلات الاستعمار، ولعلمه بدور التعليم في تنوير العقول وتحرير القيود، أقدم المستعمر على سياسة تجهيل الشعب الجزائري ونشر الأمية، ومن كان له الحظ في التعليم لم يكن بأحسن حال من سابقه؛ لأنه كان تعليماً موجهاً يخدم سياسة الاستعمار؛ لذلك توجه الإبراهيمي برسالته مباشرة لرئيس الجمهورية الفرنسية، طرح فيها أفكاره وشرح فيها ما يعانيه الشعب الجزائري من ظلم وحرمان، وما يطلبه بخصوص حقه في التربية وتلقي العلم في ظل جمهورية تزعم أنّ مبادئها: العدالة والمساواة والإخاء، فبعد أن ذكره بالانتهاكات والمظالم التي ارتكبت في حق التعليم ومؤسساته ورجاله، صرّح له بما يؤمن به الشعب قائلاً: "إنّ الشعب الجزائري قد أصبح - من طول ما جرب ومارس - في حالة يأس من العدالة، وتسفيه للوعود والعهود وكفر بهذه الديمقراطية التي يسمع عنها ولا يراها، وإنه أصبح لا يؤمن إلّا بأركان حياته الأربعة: ذاتيته الجزائرية، وجنسيته ولغته العربيتين، ودينه الإسلامي، لا يستنزل عنها... ولا يبغى عنها حولاً، ولا بها بديلاً" (2).

فهو يصرّح علناً لا خفية أنّ ثمة أركان أساسية ستستلهم منها قضايا التعليم، ويعتمدها الإبراهيمي وكل أعضاء جمعية العلماء لإصلاح أوضاع التعليم بل لبناء الأسس الحقيقية له بعد الوقوف على واقع السياسة المنتهجة

(1) نفسه ج 3، ص 284.

(2) نفسه ج 3، ص 92، 93.

في كيفية التعامل مع الدين واللغة، والمساجد وقضايا التعليم، هذه الأركان هي التي يود الإبراهيمي أن يبنى عليها السياسة التعليمية.

كما تحدث عن الإصلاح الاجتماعي، والإصلاح لا يكون إلا بالوقوف على العلل والنظر إلى ما خلفه السلف وتصحيح الأخطاء، غير أن سيرة السلف الصالح في التعامل مع الدين واللغة والتاريخ، كانت مثالا للاقتداء ومنهاجا للعمل بها، يقول شيخنا في هذا الصدد: "أقام سلفنا الصالح دين الله كما يجب أن يقام، واستقاموا على طريقته أتم استقامة، وكانت أدواتهم لفهم القرآن، روح القرآن وبيان السنة ودلالة اللغة والاعتبارات الدينية العامة، ومن وراء ذلك فطرة سليمة وذوق متمكن ونظر سديد... وكان العلماء هم المرجع الأعلى للعامة في كل ما يُحزبها من شؤون دينها يرجعون إليهم بلا عصبية... وكان العلماء يمثلون الاستخلاف الديني والوراثة النبوية تمام التمثيل، يقودون الأمة بالحق إلى الحق ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا تأخذهم في الله لومة لائم"⁽¹⁾، إذ لا بد لكل أمة تريد أن تستأنف سيرها إلى حياة العزة والكرامة من ثلاثة أشياء يتألف منها كيانها وثبتت بها شخصيتها: لغتها ودينها وتاريخها، لذلك وجب على الشباب أن يقوي الصلة بهذه الأمور، لتكون هذه الدعامة (الشباب) صحيحة قوية وتكون ذخيرة وعتادا للأمة، وصدق الشاعر حينما قال:

وإذا فاتك التفات إلى الما ضي غاب عنك وجه التأسّي⁽²⁾

أثار الشيخ الإبراهيمي مسائل يهدف من ورائها توجيه العلماء ولفت انتباه المعلمين إليها، استنطق التاريخ وكشف مسيرة العلماء ونظر إلى واقع

⁽¹⁾ نفسه ج 1، ص 164، 163.

⁽²⁾ ينظر: أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2،

سنة 1992، ص 27.

التعليم، فاستلهم مجموعة من الأفكار بعد الدراسة والتمحيص لتناول قضايا التربية والإصلاح الفكري والاجتماعي، من هاهنا، يمكننا طرح هذا السؤال: ما هو المنهج الذي انتهجه الابراهيمي والطريق الذي سلكه لتحقيق أهداف الجمعية في تربية شباب الأمة؟

المنهج التربوي للبشير الابراهيمي:

لقد أعدّ الشيخ الابراهيمي خطة فكرية واضحة المعالم لمعالجة القضية التربوية التعليمية، وجعلها سبيله في تناول قضايا التربية وتحديد مفاهيمها وإبراز أركانها، وتقرير الوسائل لتحقيق تطلعات الأجيال، وكذلك تطلعات الأمة في هذا الجيل.

لم يفصل الابراهيمي بين التعليم والتربية، فالأول بالنسبة له وسيلة والثاني غاية، ولتحقيق الهدف المنشود والبعد المقصود لجمعية العلماء لا بدّ من الجمع بين الوسيلة والغاية، هكذا فعل الابراهيمي حيث انطلق بنظرة شمولية عامة تترابط فيها أركان العملية التربوية.

كما جعل التربية قبل التعليم، وقد تبين ذلك في قوله: "أحرصوا كل الحرص على أن تكون التربية قبل التعليم، واجعلوا الحقيقة الآتية نصب أعينكم، وهي أن هذا الجيل الذي أنتم منه لم يؤتَ في خيبته في الحياة من نقص في العلم، وإنما خاب أكثر ما خاب من نقص الأخلاق"⁽¹⁾ "إذن لا بدّ من تربية العقل وتزكية النفس، وتهذيب الوجدان، وصقل الذوق، وتقويم الأخلاق؛ لأنها طبيعة البشر على فطرتهم، وسجيتهم دون فساد من اختلاط وتغيير للطباع، فهذا الشاعر الكبير أحمد شوقي يقول:

إنّما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبوا أخلاقهم ذهبوا

(1) آثار محمد البشير الابراهيمي ج 3، ص 264.

هذا ما يريده الابراهيمى أولا تهذيب النفس وتغيير سلوك المتعلم إلى الحسن والفضيلة واحترام الآخر ليتيحاً لاستقبال العلوم وإعداده لما هو أعظم لإنقاذ هذه الأمة.

نظرة الشيخ الابراهيمى إلى التعليم:

لقد اتفق الإبراهيمى مع أعضاء الجمعية وخاصة الشيخ عبد الحميد بن باديس على خطة تعليمية، ولإنجاحها يجب أن يتدرج المعلمون في تلقيهم العلوم للمتعلمين، فليس المهم الكم بقدر الكيف ونوعية المواد التعليمية الموجهة إليهم، يقول في هذا الصدد: "كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة في تربية النشء هي: أن لا نتوسع له في العلم، وإنما نربيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل"⁽¹⁾.

وهو هنا لا يقلل من أهمية المادة العلمية، وإنما ينظر إليها على أنها وسيلة لبناء شخصية المتعلم، فالمعرفة لا ترقى على الغاية التي تنشدها من وراء التعليم إذا انحصر اهتمامنا في النظر إليها على أنها غاية في حد ذاتها، لذلك يوجّه اهتمام المعلمين إلى التركيز على الجانب الكيفي في تقديم المعرفة وتحقيق الغاية من المعرفة متوقف على طريقة التناول، وانتقاء نوع المعرفة التي ترمج، والكم الذي يجب أن يتلاءم مع الوعاء الزمني؛ لأن ما يرمى إليه التعليم الجيد هو نوع الأثر الذي تحدثه المعرفة في فكر المتعلم وفي وجدانه وسلوكه، وليس كثرة المعلومات،⁽²⁾ لذا يجعل الإبراهيمى الغاية من الدرس

⁽¹⁾ آثار محمد البشير الابراهيمى ج 5، ص 280.

⁽²⁾ ينظر: الدكتور عبدالقادر فضيل، التربية عند الإمام محمد البشير الإبراهيمى دراسة تحليلية للمنهج التربوي الذي خطّه لجمعية العلماء وعالج من خلاله مسائل التعليم، (مقالات حول الإبراهيمى).

إنماء الفكر وتربية ملكة التعليل والتدريب على الاستنباط وبناء الأمور على أسبابهم والنتائج على مقدماتها⁽¹⁾.

لقد أحسن الإمام الإبراهيمي بهذه المسؤولية التي تكفلت جمعية العلماء بها لتتوب عن الأمة في القيام بما تستطيع من هذه المسؤولية لذا أوضح للعلماء العاملين معه والسائرين على دربه، وللخيرين من أبناء هذه الأمة ممن يستطيعون الإسهام في تحمّل جزء من هذه المسؤولية فقال: "للجيل الآتي علينا حقوق أولية مؤكدة، لا تبرأ ذمنا منها عند الله، ولا تسقط شهادة التاريخ علينا بها، إلا إذا أدّيناها كاملة غير مبخوسة، وملاك هذه الحقوق أن نعدّهم للحياة على غير الطريقة التي أعدّنا بها آباؤنا للحياة"⁽²⁾.

فهو لا يتصور النموذج التعليمي نمطاً ثابتاً يتوارثه جيل عن جيل، وصالح لكل زمان ومكان، وإنما يتصوره نموذجاً حياً متغيراً حسب الزمان والمكان والتغيرات المستجدة، فما يصلح اليوم قد لا يصلح غداً، وما عرفناه في عهود مضت قد لا يتلاءم كله مع واقعنا الجديد.

- المدرسة التي يتطلع إليها:

ينطلق الإبراهيمي في رسم صورة المدرسة التي تتطلع إليها الأمة من تحليل واقع التعليم الفرنسي الذي كان سائداً في البيئة الجزائرية، يقول عن هذا التعليم: "والتعليم الأجنبي - على تفاهته في الكيف وقلّته في الكم وعلى اضطرارنا إليه وإقبالنا عليه - يسبقه جهل، وتقترن به آفات، وتعقبه مفسد، وهو - على ذلك كله - يفتح عيناً ليعمي عيناً، ومن بلغ إلى غايته ممّا أصبح

(1) ينظر: آثار محمد البشير الإبراهيمي ج 3، ص 273.

(2) المصدر نفسه ج 3، ص 273.

بالطبيعة متنكراً لماضيه ودمه وقومه، لأنّ ذلك التعليم وجده فارغاً فملاً بما يشاء هو، لا بما نشاء نحن..."⁽¹⁾.

لذا يضع الإبراهيمي تصوراً للتعليم الذي تريده الأمة، والمدرسة التي يتطلع إليها، وينطلق في هذا التصور من شرحه لنوع التعليم المراد تأسيسه فيقول: "الأمة تريد تعليماً عربياً يساير العصر وقوته ونظامه، لا تعليماً يجعل جرائم الفناء وتحمله نذر الموت"⁽²⁾، هو هنا يصوّر خصائص النظام التعليمي الوطني الذي يجب أن تسعى إليه الأمة، ويركّز في تحديد معالمة على خاصيتين:

الأولى: أن يكون تعليماً عربياً في لغته وأهدافه ومضامينه، بحيث ينسجم مع مقومات الأمة وموروثها الحضاري.

الثانية: أن يكون وطنياً وليس مستورداً، ولا تسهم في صنعه أفكار أجنبية، فلا بدّ أن يكون نابعاً من عبقرية الأمة، وعليه طابعها وخصوصياتها، بحيث تصنعه بنفسها ووفق إرادتها، وتضمنه الروح التي تعيش في أعماق كل فرد من أفرادها، فكأنه يريد أن يبيّن للحكومة الجزائرية التي ستولى تنظيم التعليم في عهد الجزائر المستقلة أنّ مسؤولياتها هي تشكيل نظام تعليمي وطني يستجيب لحاجات الأمة ويتلاءم مع خصوصياتها⁽³⁾.

وحيثما نقول المدرسة، فإننا نعني بذلك المعلم والمتعلم والتعليم بشكل عام، وقد تحدثنا عن أهم خصائصه من منظور الشيخ الإبراهيمي، كما وجّه اهتمامه للمعلمين وبيّن لهم كيفية التعامل مع المتعلم للوصول إلى أهداف

⁽¹⁾ نفسه ج 3، ص 275.

⁽²⁾ نفسه ج 3، ص 283.

⁽³⁾ ينظر: الدكتور عبدالقادر فضيل، التربية عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي دراسة تحليلية للمنهج التربوي الذي خطّه لجمعية العلماء وعالج من خلاله مسائل التعليم، (مقالات حول الإبراهيمي)

التعليم ومراميه وغاياته وأبعاده، ولتحقيق ذلك وكلت إليه مهام حددها الشيخ في قوله: "إنّ كثيراً منكم في حاجة إلى الاستزادة من التحصيل ... فاعرفوا كيف تدخلون من باب التعليم إلى العلم، ومن مدخل القراءة إلى الفهم، وتوسعوا في المطالعة يتسّع الاطلاع"⁽¹⁾ قادرين على أدائها عالمين بواجباتهم في مجال التعامل مع الأطفال.

غاية الغايات من التربية:

- توحيد النشء الصاعد في أفكاره ومشاربه، وضبط نوازعه المضطربة، وتصحيح نظراته إلى الحياة ليكون ذلك سبيلاً لتخريج جيل متلائم الأذواق متحدّ المشارب، نظر إلى الحياة في واقعها المتغير، ويسعى في طلب الوسائل الملائمة بإرادة قوية تدفعه إلى العمل في خدمة الدين والوطن .

غاية الغايات من التعليم:

- تثقيف الجيل في دينه ولغته، وتعريفه بنفسه من خلال الإمام بمعرفة تاريخ أمته.

تمام الغايات:

لا تتمّ غايات التعليم ولا غايات التربية إلا بتوحيد منهاج التربية أي المجالات التي يتجه الاهتمام فيها إلى بناء مكونات الإنسان، وبتوحيد برنامج التعليم (الذي يركّز الاهتمام فيه على تمكين المتعلم من أهم المعارف المتصلة بلغته ودينه وتاريخه وحقائق الحياة المحيطة به).

⁽¹⁾ آثار محمد البشير الابراهيمي ج 3، ص 268.

ولا يتم توحيد المنهاج والبرنامج وفق هذا الأساس إلا بتوحيد جهاز الإشراف والتسيير، ولا يتم ذلك إلا بتوحيد الإشراف العام⁽¹⁾.

بهذه الأفكار رسم الإبراهيمي الصورة المنهجية التي ينبغي أن يكون عليها التعليم نظاماً وهدفاً ومضموناً. كما أضاف جملة من التوجيهات للمعلمين والعلماء العاملين في حقل تكوين الإنسان ونشر المعرفة إلى جملة من الغايات،⁽²⁾ منها:

— تحرير العقول من الأوهام والضلالات في الدين والدنيا.

— تحرير النفوس من تأليه الأهواء والرجال.

— الدفاع عن الذاتية الجزائية التي هي عبارة عن العروبة والإسلام مجتمعين في وطن.

— إحياء مجد اللغة العربية وآدابها وتاريخها.

— تذكير المسلمين بحقائق دينهم، وسير أعلامهم، وأمجاد تاريخهم.

— ضرورة إحياء مجد الدين الإسلامي بإقامته كما أمر الله أن يقام، بتصحيح أركانه الأربعة: العقيدة، العبادة، المعاملة، الخلق.

— توجيه الاهتمام إلى إنشاء جيل قرآني يتقن حفظ القرآن وأدائه ويحسن فهمه والعمل به.

يريد الإبراهيمي أن يجمع بين الحياة العملية والعلمية؛ لأنه لا فائدة من علم لا يتحول إلى عمل أو سلوك، ولا أهمية لعمل لا يكون أساسه العلم، لذا يلحّ الإبراهيمي على العلم فيقول مخاطباً أبناء الأمة: "إنكم لا تكونون

⁽¹⁾ ينظر: آثار محمد البشير الإبراهيمي ج 3، ص 275.

⁽²⁾ ينظر: آثار محمد البشير الإبراهيمي ج 3، ص 56، 62.

أقوياء في العمل إلا إذا كنتم أقوياء في العلم، ولا تكونون أقوياء في العلم إلا إذا انقطعتم له، ووقفتم عليه الوقت كله، إن العلم لا يعطي القيادة إلا لمن مهره السهاد، وصرف إليه أعنة الاجتهاد"⁽¹⁾. وهذا هو لب العملية التربوية أن يشمل العلم جميع جوانب الحياة.

وهذا هو المنهج الذي سار عليه الإمام ابن باديس، فالعلم عنده مقدم على العمل، وهو وحده الإمام المتبع في الحياة في الأقوال والأفعال والاعتقادات مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾⁽²⁾، والجزائر اليوم تحتفل بيوم العلم⁽³⁾ كل سنة في ذكرى وفاة الشيخ العلامة الذي عرف قيمة العلم وجعله منطلقاً لعمل الجمعية.

خاتمة:

حقل التربية وحقول أخرى في المدونة ما هي إلا النزر القليل مما ذكره الابراهيمى وكتب عنه، فحرر العقول قبل تحرير الأجساد، كما أراد بهذا التأليف تكوين الرجال وإصلاح العباد والبلاد، وقد أكد ذلك في آخر حياته بقوله: "لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع الجهود التي تأكل الأعمار أكلا، ولكنني أتسلى بأبني ألفت للشعب رجالا، وعملت لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده، وصححت له دينه ولغته، فأصبح مسلما عربيا وصححت له موازين إدراكه، فأصبح إنسانا أيبا وحسي هذا مقربا من رضى الرب ورضى الشعب" هكذا كان الشيخ الابراهيمى عالما عاملا، مناضلا ومفكرا.

⁽¹⁾ آثار محمد البشير الابراهيمى ج 3، ص 203.

⁽²⁾ الآية 36، سورة الإسراء.

⁽³⁾ هو يوم 16 من أبريل.

دفاع الإبراهيمي عن أصالة اللغة العربية في الجزائر.

١/ حاكم عمارية

٢. الدكتور مولاي الطاهر - سعيدة

تمهيد:

جاء على لسان الدكتور مصطفى شميعة بان الغيرة على اللغة العربية هي قبل كل شيء تعبير عن الارتباط العضوي بين الفرد وجماعته، هي إخلاص للتربية التي ولد عليها الإنسان، ووفاء عميق للوطن والجماعة، فالإنسان يحيا باللغة ويعيش تغيراتها وتطورها بحكم أنها كائن ينمو مع النمو التدريجي للواقع، لهذا توجد اللغة مع الفرد وجودا كينونيا تتقوى بقوته وتتحصن بجرصه وصدق غيرته على وجودها في حياته" ومن أجل هذه الغيرة الصادقة على اللغة العربية سعى كثير من محبيها إلى الدفاع عنها، إن شعرا أو نثرا، ومن هؤلاء المدافعين أعضاء جمعية العلماء المسلمين الذين ساهموا بإخلاص في تثبيت اللغة العربية عند كثير من المواطنين الجزائريين. فكيف تأتي لهم ذلك في ظل الاستعمار الفرنسي الغاشم؟

ثورة الفكر والقلم:

إخلاصا من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لدينهم وللغة العربية لم يتوان أعضاؤها في الدفاع عنها، غير أن وسيلة دفاعهم لم تكن بالسلاح المادي وإنما كانت بالقلم، فقد ساهموا هم كذلك بكتاباتهم، خاصة ابن باديس، ومحمد البشير الإبراهيمي في الثورة الجزائرية، ويقصد بمفهوم الثورة التغيير لمسار الحياة، في حالتها التي لا ترضي الأمة في الأوضاع الاجتماعية

والسياسية والاقتصادية والثقافية، وحركة الإصلاح هي كذلك ثورة تهدف في عمقها إلى التغيير من الوضع الذي لا يرضي الأمة.

وعلى هذا الأساس، فرجل الإصلاح هو رجل ثوري، لذلك فكما يتعدد سلاح الثورة تتعدد وسائل الإصلاح، وعلى هذا الاعتبار، فالإبراهيمي يجعل من الكلمة سلاحاً، وعنصراً مكوناً للثورة، يتجلى هذا من خلال كتاباته إذ يقول "من أراد أن يخدم هذه الأمة فليقرأها كما يقرأ الكتاب وليدرسها كما يدرس الحقائق العلمية، فإذا استقام له ذلك استقام له العمل، وأمن الخطأ فيه وضمن النجاح والعلم به، فإن تصدى لأي عمل يمس الأمة من غير درس لاتجاهها، ولا معرفة بدرجة استعدادها كان حظه الفشل".

ومن منطلق تصريح الإبراهيمي، نستنبط أن أي أدب لا يحقق مفعوليته على تماس بحياة المجتمع. وبتطويره القائم في ميادينه المختلفة يظل قاصراً وأقرب إلى التصور المثالي والنظري المجرد، وهذا الأمر يقتضي من الأديب أو أي مبدع مصلح أن يعايش محن مجتمعه وكل منعطفات حياته، لذلك عزا الإبراهيمي إلى نفسه مهمة الدفاع عن اللغة العربية في معظم كتاباته الموجهة إلى الشعب الجزائري عامة، وإلى الشباب خاصة، تلك الكتابات التي كان يسعى من خلالها إلى ترسيخ كل القيم الإسلامية وعلى رأسها اللغة العربية لأنها محور الداء والدواء، فهي دواء لأهلها وداء لأعدائها الذين كان سعيهم الأول هو القضاء على اللغة، إذ بالقضاء عليها فلا دين ولا هوية، وشعب بلا هوية (لغة، دين، تاريخ، أرض) شعب نكرة.

يقول د: محمد عباس: "تكون اللغة العربية في كتابات الإبراهيمي حصيلة التفاعل الملموس مع نزعتة العربية الإسلامية، فاللغة عنده تتلاحم مع الإسلام والعربية تلاحماً مكيناً، وتؤثر في اتجاهه الفكري تأثيراً بيناً صريحاً، لأنه يتخذها مبدأً جوهرياً، ومكوناً رئيساً من مكونات هويته الأصلية".

ويؤكد هذه الرؤية التحليلية قول الإبراهيمي من أن اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة بل هي في دارها وفي حماها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، ومشتدة الاواخي مع الحاضر طويلة الأفتان في المستقبل، ممتدة مع الماضي لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على السنة الفاتحين، ترحل برحيلهم وتقيم بإقامتهم، فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي إقامة الأبد، وضرب بجرانه فيه أقامت معه العربية لا تريم ولا تبرح ما دام الإسلام مقيما لا يتزحزح، ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس، وتنصاغ على الألسنة واللهوات، وتنساب بين الشفاه والأفواه.

إن نص الإبراهيمي وإن كان يقرن إحلال اللغة العربية في الجزائر بدخول الإسلام إليها عن طريق الفاتحين، كون أهل الجزائر هم أمازيغ عربهم الإسلام كما هو متداول تاريخيا، فإنه بهذا النص يؤصل لوجود اللغة العربية في الجزائر لغة القرآن الكريم التي استطابت لها النفوس وجرت على السنة القوم مناسبة كالمياه العذبة التي تنحدر من أعالي الجبال. كيف لا؟ وهي اللغة التي يتلى بها كلام الله المعجز لكلام البشر، وبها تبدأ الصلوات وتختتم؟ إن هذا النص، موجه إلى متلق قد يدعي أن العربية في الجزائر غريبة وأجنبية خاصة ذلك المستعمر الغاشم الذي حاول نشر أباطيله في أذهان الجزائريين حول أصالة اللغة العربية، ولدحض هذه المزاعم، انبرى الإبراهيمي مؤصلا، وحجته في ذلك المنهج التاريخي الذي يقيد الحقائق في ضوء التاريخ للغة العربية، ويكون من هذه الحقائق صخرة من معدن الحق تتكسر عليها أمواج الباطل.

ويذكرني قول الإبراهيمي بما ورد على لسان الدكتور نهاد موسى في كتابه "اللغة العربية في مرآة الآخر حين قال: "وكنتم أمحل في خاطري مطلين، يتعلق أولهما بالعربية وموقفي منها، وهو موقف يتخذه كثير من أبناء العربية

والمشتغلين بها، ويتمثل في احتفائهم بالعربية في خصائصها الذاتية، وتجربتها المشهورة في التاريخ ومزاياها المتعددة من جهة أنها "لسان النص المقدس" والعروة الوثقى، ورمز الهوية، ولسان التواصل في الفضاء العربي، ومفتاح كتاب التراث النقدي الممتد في الزمان العربي الإسلامي ستة عشر قرناً مع تفردا في أنها أطول اللغة الحية عمراً.

وهذه شهادة ثانية من علم من أعلام اللسانيات في المشرق العربي على أن اللغة العربية مزايا متعددة لأنها تشمل لغة النص المقدس على رأس قائمة المزايا، مما يجعلها رمزا للغة العربية ووسيلة للتواصل في الفضاء العربي، بالإضافة إلى أنها السبيل للاطلاع على التراث العربي الغزير، وعلى أعلامه البارزين في كل مجالات الحياة خاصة اللغويين كالخليل وتلميذه سيويو والجاحظ وابن جني وعبد القاهر الجرجاني، وغيرهم، ومن البلاغيين كحازم القرطاجني والمفسرين كابن كثير ومسلم والطبري، وعلماء الطب كعلي ابن سهل والرازي، وكذلك ابن سينا الطبيب الفلكي والفيلسوف الرياضي، بالإضافة إلى الزهراوي (1036-1013م) وكتابه "التصريف لمن عجز عن التأليف" وغيرهم من الذين خدموا اللغة العربية بعلومهم فارتقت الحضارة العربية الإسلامية وازدهرت بفضل جهوداتهم الجبارة التي ترجمها الغربيون إلى لغاتهم فكتب لهم السبق في الحداثة لأنهم حافظوا على كل ما أخذوه من العرب ودرسوه لأبنائهم بلغاتهم القومية، وأصبحنا نحن الآن وكأن كل العلوم وفدت من أوروبا أو أمريكا. فلماذا آل العرب إلى هذا المستوى المتدني؟ ولماذا انهارت وتلاشت الحضارة العربية الإسلامية؟

إن الجواب هو عدم احتفاء العرب بلغتهم العربية وانبهارهم باللغات الأجنبية خاصة الإنجليزية في المشرق العربي، والفرنسية في المغرب العربي الكبير.

إننا نلاحظ وبكل أسف كيف أن كثيرا من الأسر والعائلات العربية أنها تفتخر بأنها تجيد لغة الآخر نطقا وتحصيلا علميا.

إننا والحالة هذه لا نعترض على أن نتعلم لغة الآخر، ولا نعترض كذلك على الانفتاح على الآخر، فقد خلقنا من أجل أن نتعارف ونتواصل، والتواصل هو التفاعل أي التشارك في الاكتساب وفي اخذ المعلومات والثقافات، ولكن ليس على حساب المخطاط لغتنا رمز هويتنا أو التقليل من قيمتها؟

لقد دافع الإبراهيمي وبكل ما أوتي من وعي إنساني وثقافي وديني عن اللغة العربية، ولقد نجح هو وكل رواد جمعية العلماء المسلمين من الإغلاء من شأن اللغة العربية على الرغم من أن الوسائل كانت عزيزة عليه ونادرة، ومن الصعب بمكان نشر الوعي في كل أنحاء التراب الجزائري آنذاك، خاصة في القرى والمداشر لأن وسائل الإعلام آنذاك لم تكن متطورة كما هي عليه الآن، ثم إنها حتى ولو وجدت كجريدة البصائر والعيون والشهاب فلم يكن بالإمكان الحصول عليها بكل سهولة إذ عيون الاحتلال كانت مفتحة على كل حركة من حركات المواطنين. محيي بلادهم، ولكن وعلى الرغم من ذلك لم تندثر اللغة العربية ولم يستسلم الشعب الجزائري لتحديات الاستعمار الغاشم الذي حول بيوت الله إلى كنائس ومنع أن يذكر فيها اسمه، كما منع تدريس اللغة العربية أو حتى النطق بها.

إن اللغة العربية هي من الأعمدة الصلبة، القوية لكل وطن عربي وهي من التراث الراسخ في القدم كما -أنف الذكر- وإننا لا نحتاج إلى البرهنة على ما لها من إمكانات لغوية ومصطلحية وبشرية ومعرفية هائلة، السبب الذي يخول لها مواكبة كل عصر دون عناء كثير، إنها قائمة بذاتها منذ زمن بعيد، وهي التي علينا أن نفتح عليها وأن نحتضنها قبل غيرها تقديسا للقرآن الكريم واحتراما لسيادة الوطن وحفاظا على جزء كبير من هويتنا، وعلى

الرقعة الجغرافية التي نسميها العالم العربي، وكذلك على وطننا الجزائر وكل انفتاح على غيرها من اللغات الأجنبية يجب أن يكون من أجل تزويدها بالعتاد العلمي والمعرفي الذي تفتقر إليه الآن لأسباب تاريخية وظرفية ومرحلية معروفة.

إن ارتباط أي دولة من دول العالم بغير لغتها واحتضانها للغة أجنبية عن لغة أهلها ليخسر كل دولة كثيرا في كل مجالاتها الحياتية وخاصة على الصعيد العلمي، والاقتصادي والثقافي... إن الارتقاء والانجراف والذوبان في لغة أجنبية سيجعل لا محالة اللغة الأم، أو اللغة القومية أو اللغة الأصل- يجعلها- مهمشة ومحتقرة من قبل ذويها.

إن اللغة الانجليزية وكذا الفرنسية تتمتعان بمرتبة علمية عالية في العالم العربي وهذا يشكل خطرا كبيرا على اللغة العربية، وإن كانت محفوظة من لدنه عز وجل مصداقا لقوله تعالى "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" فإن الخطر يكمن في عزوف الشباب العربي عن ممارستها حتى في حياته اليومية، والدليل على ذلك أن معظم لافتات المطاعم والمقاهي وكثير من المؤسسات الوطنية لاتزال أسماؤها باللغة الأجنبية الاستعمارية وحتى وسائل الإعلام الحديثة خاصة تلك التي تروج للدعايات الاقتصادية، فإنها تبث بلغات الاستعمار، وهذا على أقل تقدير يخدم تلك اللغات خدمة لا مثيل لها، في حين إنهم يبشون المنتوج المحلي بالدرجة التي لا نعتقد أبدا أنها تخدم اللغة العربية الفصحى.

إن الفعل يحدده القصد والغاية المرجوة من كل الوسائط الحديثة تكنولوجية وإعلامية وترويجية أو غيرها يجب أن تكون لغتها العربية الفصحى، خاصة وأن تلك الإشهارات يتم تقديمها أو عرضها بشكل متكرر، فلماذا إذن لا يكون القصد الأول هو الترويج للنطق ولتعلم اللغة العربية الفصحى؟

المقال الصحفي ودوره في نشر اللغة:

لكل جنس من الأجناس الأدبية خاصية تميزه عن غيره، ولا تتضح ملامحه مالم يتمسك بالسمات الخاصة به، ولا يعقل أن يتقمص جنس معين كل الخصائص الفنية. أو كل الأبعاد التداولية التي يسعى إلى تحقيقها كل مؤلف أو مبدع، ومن هنا كانت المقالة الصحفية جنسا أدبيا فنيا هادفا إلى التوعية والتنبيه أو إلى التغيير في سلوك الأفراد أو الأوضاع أو إلى المتعة والتأمل. والمقالة الأدبية كما يصنفها إدمون جنسون "قطعة نثرية ذات طول معتدل تلم بالمظاهر الخارجية للموضوع بطريقة سهلة سريعة، وهي بذلك أكثر الفنون الأدبية استيعابا ومعالجة لشتى الموضوعات بما توفره من تأملات، أو تصورات أو مشاهدات تغلب عليها العفوية والسرعة، لذا كان مما اهتمت به الإصلاح الاجتماعي.

وكما هو معلوم فإن الإصلاح هو ضد الفساد، وبذلك يكون الأدب الإصلاحي ما أُلّف لغرض إصلاح ما هو فاسد أو به خلل في مختلف الميادين الاجتماعية والسياسية والدينية والفكرية والأدبية والعلمية، لذلك ارتبط هذا الخطاب في الجزائر بالحركة الإصلاحية التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى، واكتملت فكرتها من خلال ما دار في المحافل الأدبية والفكرية الجزائرية إلى أن تتوج بتأسيس جمعية العلماء المسلمين التي فتحت الباب أمام العلماء المصلحين في كامل القطر الجزائري.

ولأن غرض المقالة الصحفية بالدرجة الأولى هو التوعية وتوجيه سلوك الأفراد، فقد حظي هذا الجنس الأدبي بحصة الأسد في أدب إبراهيمي إذ إنه يغطي مساحة كبيرة في الأدب الجزائري الحديث انطلاقا من فكره وكتاباته من جهة، ولما تمثله من صورة عاكسة لشخصية إبراهيمي من جهة ثانية، هذه الشخصية التي تظهر لأي دارس بصورة كاملة الوضوح بنزعاتها

ومواقفها، وبتحركاتها إلا في أدبه المقال، ويستطيع القارئ أن يستكشف ذاتية الإبراهيمي وهي تهيمن على الفكرة المطروقة، تصبغ الموضوع بحرارة وجدانه وحماسة لهجته لذا فهو دوما يدعو إلى التغيير ويصحح المفاهيم ويجرر العقول ويوقظ الضمائر ويبعث الهمم

إن المتتبع لأثار الإبراهيمي ولنن المقال الصحفي خاصة، يدرك دون عناء أن البشير الإبراهيمي شخصية عظيمة علمية وثقافية، كما إن له منعظا تاريخيا ايجابيا في تاريخ الجزائر الحديث، فقد أعطى للجزائر ولأمتة خلاصة فكره وحسه وجهاده، فكان عطاؤه تراثا إنسانيا عميقا.

وجدير بالذكر، أن مذهب الإبراهيمي موضوعي وواقعي، لأنه ومن خلال معظم كتاباته يقرب المسافة بين الإنسان العربي وواقعه، ويجسد واقع الجزائر في ماضيه وحاضره ومستقبله، فالإبراهيمي رجل شارك في صنع حركة التاريخ الحديث ورتق الفتوق التي أحدثها عتو الزمن على مدى حقبة زمنية متطاولة، فكانت له يد بيضاء على أمتة في فك العقول من أسرار اعتقالها، وتحرير الحقائق من شوائب الأوهام وأكبالها وهو لذلك قال: "من أراد أن يخدم أمتة فليقرأها كما يقرأ الكتاب، وليدرسها كما يدرس الحقائق العلمية فإذا استقام له ذلك، استقام له العمل...."

لغة الأمة والدعوة إلى الاحتفاء بها:

يستعمل لفظ "الأمة" بمفهومها وإيحاءاتها وظلالها الدلالية الخاصة التي تستمدتها من رمزياتها وحوالتها الحضارية في الثقافة الإسلامية، أي بالمفهوم الذي يجعل من "الأمة" كيانا أوسع وأشمل من الدولة أو الشعب أو الوطن في المعجم السياسي العصري، كيانا موحدًا في الانتماء الحضاري والثقافي متضامنا في العواطف والمشاعر والأهداف، عابرا للقارات، متعاليا على الأعراق والقوميات، مترفعا عن كل عوائق الاختلاف الطائفي واللغوي،

وما هنالك من ألوان وأشكال وجنسيات، متجاوزا الحدود الوهمية الناتجة عن التقسيمات السياسية الضيقة، وما وسمه الاحتلال الأجنبي من خرائط وفق مصالحه وأهوائه ومطامحه.

إذن، يبدو جليا أن الإبراهيمي بتلفظه في نصه السابق "من أراد أن يخدم أمته" كان يدرك تماما ماهية الأشياء، لذلك كان يعطي لكل لفظ حقه من المعنى الحقيقي وما لفظ "الأمة" إلا دليل على اختياره المقصود لكل كلمة وردت في كتاباته، وعلى هذا الأساس فإننا حين نضع العربية في مجموعها الكلي (فصحى ولهجات) إزاء مواطناتها من اللغات المحلية غير العربية من زاوية أخرى، نجد أن العربية تظل وحدها القابلة لأن تحوز بكل تجرد وموضوعية لقب "لغة الأمة" في مقابل كل لغة أو لهجة أخرى من اللغات أو اللهجات الوطنية المحلية التي يصدق عليها أن توصف "بلغة الأم" عند من يتكلم بها ويستعملها سليقة في أسرته وقبيلته وعشيرته، أو منطقتة الجغرافية المحدودة، وذلك باعتبار أن العربية هي اللغة التي تشترك في التفاهم بها مكونات الأمة كلها بمختلف شعوبها ودولها ولغاتها.

ويحضرني قول أحد وزراء لبنان وهو الفضل شلق عن علاقة اللغة العربية بلفظ الأمة فيقول: "ليست اللغة في أي مكان من العالم شيئا يقرر بالقوة ولا يقرر أمد نهاية لغة وبداية أخرى، وليس لدينا شعور بالخطر على اللغة العربية، وهي شيئا لم يقرره ولم يحفظه القدر (لأنها كانت موجودة قبل نزول القرآن الكريم)، بل قرره وحفظه وجود الأمة فإن تكون اللغة العربية لغة موجودة وذات أولوية، بل الوحيدة هي المسألة الأساس، ليس مهما وجود صعوبات في اللغة العربية، ومتاهات النحو والإعراب، والعلاقة بين الفصحى والعامية، كلها مسائل يمكن معالجتها، الإشكالية الحقيقية هي الأمة، وجودها أولا وجودها، ووجود الأمة يرتكز الآن على اللغة وعلى

السياسة، لا على الدين (وأخص بالذكر الدين)، ولا على أي شيء آخر، نحن أمة لغتها الفصحى وكفى الأمر"

وإذا كان الفضل شلق يدعو العالم العربي إلى الاحتفاء باللغة العربية، لا بالدين "ذلك أن" الإسلام "سيظل ديننا شامخا، باعتباره خاتم ديانات الله في الأرض، ولن يصيبه تشويه أيا كانت محاولات خصومه، ولن يحتاج إلى تصحيح إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فقد تكفل رب العزة بحفظ دينه وكتابه، ولكن المسلمين هم الذين يحتاجون إلى حتمية الحوار حول صورتهم الآن تصحيحا أو تعديلا أو ما يقاس على علمهم وسلوكياتهم من مفردات حين يمتد الحوار أو يدور الحديث حول تشويه صورة الإسلام أو الرغبة في تصحيحها لدى الغرب، وكذا حول ضعف اللغة العربية أو تدهورها، فإن الموقف يحتاج بالتأكيد إلى ضبط حدود المفردات وبيان مقاصد المصطلح في حجمه الطبيعي".

ومن منطلق تصحيح ما يعتقده الغرب عن العرب وعن المسلمين، ومن منطلق ضبط المفردات العربية التي يتخذها الغرب حجة علينا لا حجة لنا انبرى الإبراهيمي مدافعا عن اللغة العربية ناعتا إياها بلغة الأمة" لما للفظ الأمة من دلالة عميقة لا تكتمل ماهيتها إلا لمن خبر لغة قومه، أو ليس الابراهيمى بصاحب مقالات. وصاحب المقال هو - بالضرورة - "صاحب رأي وموقف له فكره وثقافته، وله أيضا نظرتة ورؤية مما يجعله يحيط من خلاله بالقضية، ويلم بأطراف المشكلة التي يعالجها، فالمقال بهذا المعنى وسيط ناقل له تميزه وخصوصيته طبقا للوظيفة المنوطة به من جانب، وأداة التواصل والنقل من جانب آخر". لقد تفاعل الابراهيمى مع موضوع الدفاع والدعوة إلى اللغة العربية من منطلق قناعته هو أولا بأبعاد هذه المهمة.

ودفاعا عن لغة الأمة انبرى الأدب الجزائري الحديث إلى اتخاذ اللغة العربية حدثا حيا ومشكلة من مشكلات المجتمع الجزائري التي ظلت تمس مصير الشعب، فصارت اللغة العربية موضوع الساعة في فنون الشعر والنثر من قصة ومسرح، وكانت هذه الموضوعات تهدف بطبيعة الحال إلى رد محاولات الذوبان التي تدعمها حركة الفرنسة التي لا تزال الجزائر تعاني منها تحت وطأة بعض المروجين لها، والمفتخرين بإتقانها نطقا وممارسة، على حساب هويتهم العربية، وقد كانت كتابات الإبراهيمي في ظل الحقبة الاستعمارية أحكم إصابة للهدف من غيره ممن كتب مدافعا عن اللغة العربية وداعيا إليها عبر كتاباته، وكثيرا ما كانت كتاباته تخضع إلى عوامل دينية وقومية ووطنية وإلى تجاوب حضاري مع اللغة العربية التي تكفلت مسيرة التاريخ الطويلة، تصارع الأعداء كسفينة في لجة بحر تتلاطمها أمواجه الزاخرة، وتتقاذفها تياراته الرهيبة، فلم تنل منها شيئا بفضل مناعتها الراسخة.

إن موقف الإبراهيمي النبيل ليزرع في أنفسنا الغيرة على اللغة العربية، وليحفزنا للدفاع عنها خاصة وأنا نعيش في زمن منفتح على كل ثقافات العالم بفضل ما تقدمه تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة أو كما يجلو للبعض أن يسميها - العولمة - .

لقد حاول أعداء اللغة العربية منذ فجر التاريخ الإسلامي أن يشتموا ويفككوا الوحدة العربية، خاصة وأنه بعد الفتوحات الإسلامية قد اعتنق الإسلام كثير من الأقوام المجاورة، وراحوا يدينون بدينها ويتكلمونها طوعا لا كرها، خاصة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لما وجدوه في تعاليم الإسلام ومبادئه من رحمة وأخلاق فاضلة، أو لم يقل سبحانه وتعالى مخاطبا رسوله الكريم محمد خاتم الأنبياء والرسول «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك»

وانطلاقاً من سماحة الإسلام، والانتشار السريع للدين الإسلامي وللغته العربية افتعل المستعمر التجزئة في المغرب العربي وأقامها على "صراع عنصري بين العرب والبربر" يبغي من وراء ذلك إثارة الفتنة وزرع الضغائن بين بني الأمة الواحدة، فسولت له نفسه زعماً بأن اللغة العربية قد قهرت البربرية ومحتها من الوجود، ولا بد للبربرية أن تثور لاسترجاع كيانها لذلك وقف الإبراهيمي وقفة الرجل الحكيم ليفند هذا الزعم المفتعل مخاطباً كل أهالي الجزائر شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً ووسطاً قائلاً "وطار إلى البربر منها قبس لم تكن لتطيره لغة الرومان وزاحمت البربرية على ألسنة البربر فغلبت وبزت وسلطت سحرها على النفوس البربرية فأحالتها عربية، كل ذلك باختيار لا أثر فيه للجبر واقتناع لا يد فيه للقهر وديمقراطية لا أثر فيها للاستعمار، وكذب وفجر من يسمي الفتح الإسلامي استعماراً، وإنما هو راحة من الهم الناصب، ورحمة من العذاب الواصب، وإنصاف من الجور الروماني البغيض..."

نبذة عن تاريخ علاقة اللغة العربية باللغات الأجنبية:

عاشت اللغة العربية في بيئة الجزيرة العربية مجاورة لعديد من الأقوام والحضارات، فكانت علاقاتها هادئة غير متوترة، وذلك مرده أن تلك اللغات الأجنبية لم تكن ترغب في الهيمنة وفرض نفسها بالقوة، وإنما جاء اتصالها بالعربية بطريقة عادية (تجارة، سياحة، رحلات، احتكاك علمي وثقافي، ترجمة...) أو عابرة كما حدث في لقاء العربية باليونانية في عهد ترجمة العلوم الذي أسس للنهضة الثقافية العربية، وفي لقاء العربية باللاتينية في عهد ترجمة العلوم العربية الذي أسس للنهضة الأوروبية، وفي لقاء العربية ولغات الإفرنج خلال الحروب الصليبية. وعلى الرغم من لقاء العربية بكل تلك اللغات لم تكن هناك صراعات ولا هيمنة لغوية، فقد كانت كل لغة تستعير ما تحتاجه من اللغات المجاورة أو المحتك بها، أو المتعامل معها تجارياً.

أما حالياً فإن اللغات الأجنبية تأتي "على ظهر دبابة أو وراء سلاح ناري (وربما مجرد قرار حكومي تعسفي وفي نيتها القيام بفعل انقلابي في جنح الظلام، تقتحم المكان على اللغة الوطنية صاحبة الشرعية وهي آمنة في سربها، مطمئنة في خدرها أو في بيتها بين أهلها وذويها، لتحاول فرض سيطرتها على الأرض، وتقييد حريتها، وتحديد مجال حركتها واستعمالها، وأخذ مكانها ودفعها للانزواء والانكفاء، ثم إلى الانسحاب من الميدان كله ذليلة صاغرة".

إن القصد من إيراد هذا النص الذي يتحدث عن تاريخ علاقة اللغة العربية باللغات الأجنبية هو محاولة لتوضيح أنه لم يكن للعربية أعداء قبل مجيء الإسلام، ولم تكن هناك صراعات لغوية، وحتى عندما جاء الإسلام، فقد اعتنقه كثير من أبناء الحضارات المجاورة على اختلاف مشاربهم وخاصة الفرس الذين كان أغنياؤهم يبعثون بأبنائهم لتعلم تعاليم الدين الجديد، وليتخرجوا من منابر المساجد الإسلامية مفسرين وأئمة، و تمثل لهذا بسببويه الذي قعد للغة العربية محاولا بذلك أن يعصم كل ناطق بها من الوقوع في اللحن أو الإلغاز، محبا للغة العربية لا مرغما على ذلك.

وإذا كان إبليس لعنه الله - قد عصى ربه الذي خلقه، فكيف لا يكون للغة القرآن الكريم أعداء وفي مقدمتهم اليهود الذين يجركون عجلة العالم كله مقنعين وبدون قناع، محاولين القضاء على كل عربي مسلم ولقد سبق الذكر بأن وسائل السلاح تتعدد - من وسائل مادية إلى وسائل معنوية، ولعل سياسة "فرق تسد" هي من وجهة نظري من نسيج اليهود لذلك حاول الإبراهيمي أن يدحض مزاعم المستعمر الذي حاول التفرقة بين أمازيغ الجزائر وعربها، موضحا أنهم دخلوا الإسلام طوعا لا كرها، كما أنهم سحروا بفصاحة اللغة العربية فأحبوها، وما فكروا أبدا أن تكون مزاحمة للغتهم "فما من شك إن أسلوب المواجهة في هذا النص يقوم على قاعدة

الاستدلال عن وعي وثبات، وهما صفتان تميزان طريقة الإبراهيمي في الدفاع عن العربية والدعوة إليها.

يوجد في نص الإبراهيمي ربط للغة العربية بالدين إشارة إلى عدالة الإسلام السمحة، ورحمة الله التي وسعت كل شيء، وكأن الإبراهيمي بنصه هذا يوكل لنفسه مهمة الإمام الذي يشرح تعاليم الدين الإسلامي لغير المسلمين داعياً إلى تعلم اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم، موضحاً أن هذا الدين يحسن الحوار، وأنه يجمع بين معاني الأخوة في الدين واللغة، وينبذ كل نزعة شعوبية، إن لغة هذا الدين تتركز في جسد المسلم ولذلك لم يستطع المستعمر القضاء عليها لأنها قابعة في أعماقه.

فالملاحظ أن الإبراهيمي يميل في مناقشته لمسألة اللغة إلى إقناع المتلقي، والدليل على ذلك أنه في معظم مقالاته، خاصة فيما يتعلق بقضية اللغة والدين، فإنه يعرض الفكرة ثم تجده يشرح ويعلل أو يفترض مستقصياً كل الحجج التي تمكنه من دحض المزاعم وإبطالها، وهذا هو أسلوب الحجاج أو الاحتجاج لقضية ما، وحتى لا تنشأ الفتنة بين أهالي الجزائر (عرب وأمازيغ) يورد نصاً يقول فيه: "من قال إن البربر دخلوا الإسلام طوعاً، فقد لزمه القول بأنهم قبلوا العربية عفواً، لأنهما شيئاً متلازمان حقيقة وواقعاً، لا يمكن الفصل بينهما، ومحاول الفصل بينهما كمحاول الفصل بين الفرقتين".

ونشير إلى أن نص الإبراهيمي هذا أو قناعاته تتفق مع ما أورده ابن باديس في الموضوع نفسه حين قال: "فأقام الجميع (العرب والبربر) صرح الحضارة الإسلامية يعربون عنها، وينشرون لواءها بلغة واحدة هي اللغة العربية الخالدة، فاتحدوا في العقيدة والنحلة كما اتحدوا في الأدب واللغة، فأصبحوا شعباً واحداً عربياً متحداً ممتزجاً غاية الامتزاج، وأي افتراق يبقى بعد أن اتحد الفؤاد واتحد اللسان".

إن اتحاد اللسان الجزائري دليل على اتحاد أفئدتهم، والدليل على ذلك أن أول رصاصة انطلقت كانت من جبال الأوراس، ثم عمت ثورة التحرير كل التراب الجزائري، حيث شارك فيها الجميع (العرب والأمازيغ) وتاريخ الجزائر المجيد يشهد على ذلك سواء اعترف المستعمر والخونة بذلك أم لم يعترفوا.

إن تاريخ الجزائر حافل ببطولات أبنائها من ثوار بالسلاح أو بالأقلام— ولقد شارك كل محب لهذا الوطن بالغالي والنفيس، وبديهي أن تشارك النخبة المثقفة بفكرها وأقلامها، وهذا ما حدث بالفعل مع رواد جمعية العلماء المسلمين الذين ظل سعيهم يهدف إلى تحرير الإنسان من كل قبضة طاغية تزاحم كيانه، وتقيده فيه شرعية حريته الطبيعية وإن جاز الاقتصار على ضرب من رواد الأمة العربية والإسلامية ورواد الوعي الإنساني جاز لنا أن نذكر أعلاما مفكرين دعوا إلى مبادئ سامية هدفها تنبيه شعوبهم من مساعي الاستعمار الدنيئة، ومن تلك المبادئ، كرامة الإنسان ومثلها "جمال الدين الأفغاني"، وتنوير الأذهان، ومثلها "محمد عبده" وصحبة الحرية ومثلها "الكواكي" وإذا كان كل واحد من تلك المبادئ يمثل السمة البارزة في جهاد كل مصلح من الذين ذكروا، فإننا نجد لها كلها مجتمعة في رواد أعضاء جمعية العلماء المسلمين، خاصة في ابن باديس، وفي محمد البشير الإبراهيمي الذي تمثل كتاباته كل الأبعاد التربوية والتعليمية والتوعوية، وفي مقدمتها دفاعه عن اللغة العربية، لغة الدين الإسلامي، ورمز الهوية الجزائرية، كيف لا؟ وهو ذلك الباحث الذي تنوعت مكتسباته العلمية من خلال رحلاته وتنقلاته إلى البلدان العربية (الحجاز، تونس، دمشق) (Espace_réservé) (1) وتمثل جريدة البصائر في سلسلتها الثانية (1947-1956) (Espace_réservé) (1) أنضج مرحلة اكتملت فيها أدوات الإبراهيمي التعبيرية والفنية، وازدهر فيها إنتاجه كما ونوعية (نثر، شعر، زجل، ومقالات)، حيث أوتي فيها كل أسباب النهوض في فن الكتابة.

وإذا كنا قد اخترنا الإبراهيمي كنموذج لبحثنا فإننا لا ننكر ولا نتنكر لما بذله كل رواد جمعية العلماء المسلمين من جهود وتضحيات من أجل الحرية والتوعية والحفاظ على اللغة العربية رغم بشاعة الاستعمار الفرنسي آنذاك، الذي كان يقوم بطمس كل ما يرمز إلى الهوية الجزائرية العربية من لغة ودين وتاريخ، وسبيلهم في ذلك كان حرق المساجد أو تحويلها إلى كنائس كي لا يذكر فيها اسم الله، ومنع تدريس اللغة العربية في المدارس والتحفيز على تعلم اللغة الفرنسية.

إن الهوية لا تتجزأ أبداً إلى أنصاف، إنها هوية واحدة تتشكل لدى كل فرد انطلاقاً من المورثات المتمثلة في الدين واللغة والتاريخ والعرق، ولكن لا يمكن لفرد أو جماعة أن يكونوا حبيسي هوية ذات بعد واحد، لأن الهوية تتميز بطابعها المتقلب الذي يمكن أن يخضع لتأملات مختلفة واستخدامات تتأثر بالبيئة الاجتماعية والثقافية التي برزت فيها، كما تتأثر بتجاربها مع الآخر، سواء في المجال المعرفي أم في مجال الصراع، ولكن وعلى الرغم من كل التقلبات التي تفرض نفسها، فإن الهوية هي ما يصمد من الإنسان عبر الزمن، وعلى حد تعبير الدكتورة ماجدة حمود: "إن أجدادنا لم يشعروا بالخوف على هويتهم لأنهم كانوا أقوياء واثقين بأنفسهم في عصر النهضة".

إن الغوص في أدغال اللغة العربية ليكشف لنا أن الإنسان العربي دون غيره يعايش تنوعاً في الهوية بين العربية والأجنبية التي تنسجم في لحظة الوثام، وتضطرب في لحظة الاضطهاد التي تضطره إلى إدراك أهمية هويته والعودة إلى مكوناته الأصلية (لغة، دين، تاريخ)، تلك الهوية التي تمنحه الإحساس بوجوده وبتميزه واختلافه عن الآخر وبضرورة الحفاظ على هذه المكونات مهما كانت التحديات على ألا يكون مفهومه للهوية ضيقاً لا يسمح له بالانفتاح على الآخر إذ كلنا (كل بشر) يتغذى من ثقافة الآخر.

وبعد هذا العرض البسيط لبعض النصوص المنتخبة من كتابات الإبراهيمي الداعية والدافعة عن أصالة اللغة العربية وعن وحدة الشعب الجزائري (عربا وأمازيغا) فإنه لا يسعنا إلا أن نمثل ونتمثل، نمثل واقفين وقفة احترام وإجلال لكل من ساهم في الحفاظ على اللغة العربية في الفترة الاستعمارية، وفي مقدمتهم رواد جمعية العلماء المسلمين -رحمة الله عليهم جميعا- وأن نمثل خطاهم النبيلة داعين ومدافعين عن اللغة العربية رمز هويتنا، فالجميع يصلي ويتلو القرآن باللغة العربية، فلماذا نجد لغة المستعمر؟ ولماذا يريد بعض المفسدين زرع فتنة التفرقة بين الجزائريين بافتراض مشاكل لا أساس لها في الواقع غير افتراض المغرضين لإحلال الربيع العربي بالجزائر، وما مشكل اللغة الأمازيغية في بعض المدن الجزائرية، وما خلق مشكل المذاهب الدينية في غرداية إلا دليل على إشعال نار الفتنة في أوساط الشعب الجزائري المتربص به من قبل خونة يخدمون الشيطان.

إننا أمام وضع خطير جدا في بلادنا، لذلك يجب أخذ الحيطة والحذر من كل أمر مفتعل "لأننا شعب واحد متحد الفؤاد واللسان" كما قال ابن باديس. إن مهمة الحفاظ على اللغة العربية ملقاة على كل جزائري غيور على وطنه، وفي مقدمة المواطنين أولا صناع القرار السياسي الذين بإمكانهم التحكم في زمام الأمور، باستشارة النخبة المثقفة من علماء اللسانيات، وعلم النفس، وأطباء، ومهندسين، وإعلاميين، ومتخصصين في المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

إنه لو تضافرت جهود كل هؤلاء، ما استطاعت يد طاغية مهما بلغت قوتها أن تنجح في مساعيها، وعليه فأول القطاعات التي يجب أن تهتم باللغة العربية هي قطاع التعليم، خاصة في ظروف العولة هذه لأن التعليم هو الأساس في ارتقاء الشعوب والحضارات وتطورها. وذلك بإعادة النظر في مناهج التدريس من الابتدائي إلى الجامعي لتحقيق نجاح يحدد سمات

المستقبل ومكانة الجزائر من خريطة العالم العلمية، ويصنف حياتها ورقبها في ظل تطورها العلمي.

إن أهداف وغايات التعليم لا تتحقق إلا بتطوير تقنيات تعليم اللغة العربية لتساير متطلبات العصر المتنوعة، والاهتمام باللغة تعليماً وتعلماً وذلك بالاستفادة من العلوم الأخرى، ومختلف الدراسات الآلية والحاسوبية لتطوير البحث العلمي في مجال تعليم اللغة العربية.

ثم إنه يجب على المتخصصين في تعليم اللغة العربية أن يطوروا مصطلحاتهم لتستوعب العلوم والتكنولوجيا التي تتطور بسرعة هائلة نتيجة لثورة المعلومات وهذه المهمة نرى أنها موكلة لمجامع اللغة العربية، وحركة الترجمة في العالم العربي.

أن ظهور التعليم *la didactique* في السبعينات من القرن الماضي في فرنسا اختزل الكثير من جهود السابقين حول تعليم اللغة الفرنسية في فرنسا، وكذا اللغات الأجنبية التي يحتاجونها، وذلك أنهم وضعوا قوانين علمية استنبطوها من اللسانيات النظرية، ووضعوها موضع الاختبار والتجريب قصد الإفادة منها في تعليم اللغة وتعلمها.

إنه يجب على المتعلمين بلغات أجنبية كالأطباء والمهندسين، وأساتذة اللغات الأجنبية أن تكون لهم الغيرة على اللغة العربية لغة الأمة، خاصة هم لأنهم محظوظون إذ تعلم لغة أجنبية يسمح لهم بالاطلاع على ثقافة الآخر وكيف أن هذا الآخر معتز بلغته لا بأي لغة أخرى مهما بلغت تلك اللغة من الانتشار والرقي والهيمنة، يقول الفضل شلق أعرف من التجربة الذاتية، وأنا قد درست الهندسة بلغة غريبة، أنك مهما أجدت اللغة الأجنبية، فإنك لا يمكن أن تفهمها فهما صحيحاً إلا باللغة الأم، اللغة قيمة ثقافية، ميمة (جينة) خصصت لهذا الأمر، ويراد لنا أن لا نستخدمها، وهذه قيمة الأئمة

(الأسلبة)، لست عالم تربية ولكنني أعرف أن كل الأمم الصاعدة التي تحدث تقدما اقتصاديا (واجتماعيا وسياسيا وعسكريا) تعلم أبناءها منذ الصغر بلغاتها الأم، بميماتا الثقافية... نتعلم التقنيات بأي لغة، أما روح العلم فإننا لا نتعلمها إلا بلغتنا الأم"

وأختم ورقتي البحثية هذه بطرح بعض الإشكالات واقترح بعض الحلول:

هل اللغة العربية قادرة الآن على مواكبة العصر وتحدياته والى أي مدى يمكنها الاستفادة من العلوم الأخرى، والدراسات المختلفة لاسترجاع مكانتها السابقة؟ وهل يمكن للفصحى أن تعمم في كل الوطن العربي؟

والجواب لم لا مادامت كل الوسائل متاحة ماديا ومعنويا، والقصد انه يجب علينا استغلال واستثمار كل ما تقدمه التكنولوجيا الحديثة في المستوى البيداغوجي أولا حتى نرقى إلى مستوى النضج المعرفي، لأن التعليم هو ثورة التطور وراقي الحضارات، إذ لم توجد حضارة وصلت إلى الهيمنة أو الازدهار دون اهتمامها أولاً بقطاع التعليم ومن ثم القطاع الاقتصادي فالاجتماعي، ويستحيل أن تتطور أمة لا تحترم لغتها.

في الحقل اللغوي إذا أردنا سياسيا، استطعنا عمليا، ولذلك لا بد من إيجاد كل الحلول التي تعيد لغتنا العربية ماء وجهها، وأن نحبها إلى الأجيال القادمة، ومسؤولية حماية اللغة العربية تقع على الدولة والمجتمع والأسرة والفرد، كل حسب طاقاته وقدراته، وخاصة الدولة لأنها صاحبة القرار الأول والأخير، إذ هي التي تصدر القوانين التي تنظم كل شؤون الدولة وفي مقدمتها الأمن اللغوي.

إن الإحساس بالأهمية اللغوية من جهة وقدسية المرمى من جهة ثانية ليلزمنا بالتجند لصيانة اللغة العربية عن طريق ما يلي:

بعض المقترحات للنهوض باللغة العربية

- 1- الانفتاح على إنجازات الآخر.
- 2- تحديد مناهج التدريس من الابتدائي إلى الجامعي.
- 3- تحفيز وتشجيع التلاميذ بهدايا أو بعثات إلى دول عربية إذا هم أتقنوا اللغة العربية نطقاً وكتابة وإبداعاً.
- 4- دور وسائل الإعلام، راديو، تلفزيون، صحافة، إشهار، دعاية في النطق باللغة العربية الفصحى.
- 5- تدريس اللغة الوطنية الثانية (الأمازيغية) في الابتدائي والمتوسط وترك الاختيار في مرحلة التعليم الثانوي أو الجامعي.
- 6- عقد أيام دراسية وندوات وطنية أو عربية لمدارس اللغة العربية والتراث العربي من شعر ونثر ومقامات وغيرها مما تركه لنا خير سلف.
- 7- إجراء مسابقات ومنافسات حول حفظ الشعر الجاهلي، القرآن الكريم، المقامات الفنية ابن مالك كتاب سيويه وغيره من أمهات الكتب كالبيان والتبيين، العقد الفريد، الخصائص، دلائل الأعجاز...
- 8- استثمار التكنولوجيات الحديثة في كل ماله علاقة بتعليم اللغة العربية وتعلمها وفي كل ما من شأنه خدمة اللغة العربية.
- 9- استثمار اللسانيات والدراسات اللغوية الحديثة في تعليمية اللغة العربية.

- 10- اهتمام المجامع اللغوية العربية واتصالها مع بعضها الكترونيا على الأقل لتوحيد المصطلحات ومناقشة الرؤى والتزود بالآراء والخبرات.
- 11- الترجمة والتعريب حتى تساير اللغة العربية الركب الحضاري في كل مجالاته.
- 12- تعريب المصطلحات الطبية، وترجمة الوثائق إلى العربية في المؤسسات التي لاتزال إداريا تابعة لغويا للمستعمر.
- 13- عدم الاتكال على دولة عربية واحدة للحفاظ على اللغة العربية، بل لابد من تضافر كل الجهود والاستشارة "وأمرهم شورى بينهم".
- 14- تنمية قدرات الأساتذة في كل القطاعات لضمان الجودة في التعليم.
- 15- تدعيم إدارة التعليم العالي وتمويله بإنشاء مخابر وهيئات وعقد ندوات من أجل ترقية اللغة العربية وتحبيبها إلى كل الطلاب كيفما كانت تخصصاتهم.
- 16- المشاركة في الشبكات، ونقل التكنولوجيا وتنمية الموارد البشرية.
- 17- يجب إنشاء مراكز للمصطلحات العلمية في كل جامعة على أن يتولى مجمع اللغة العربية التنسيق بين هذه المراكز في الجامعات المختلفة.
- 18- الاستثمار في استخدام المصطلح الأجنبي ومرادفه العربي حتى يتسنى لنا متابعة التطورات العلمية العالمية المتسارعة.
- 19- إنشاء مجلة أو إضافة باب في كل مجلة جامعية يختص بترجمة الأبحاث العلمية الحديثة المتخصصة.
- 20- على مجامع اللغة العربية التعاون مع مراكز المصطلحات العلمية في الجامعات ومراكز البحوث والمؤسسة القومية للترجمة على توحيد المصطلحات العلمية كلما أمكن ذلك.

- 21- يجب أن تنشط الحملات الإعلامية على جميع الأصعدة لبيان أهمية التعريب الشامل وفوائده الجمة على لغتنا العربية وتدعيمها باعتبارها الركيزة الأساسية في استقلالنا. وفي القضاء على التخلف العلمي في العالم العربي.
- 22- لا يجب علينا أن نتغذى من عائدات النفط لنستهلك سلعا تتحول بسرعة إلى خردة. وكل هذه المقترحات تخضع للسلطة السياسية صاحبة القرار.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

- 1- الإبراهيمي - جريدة البصائر 21/ع04 / 1948 وعيون البصائر.
- 2- إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية) د. ماجدة حمود - عالم المعرفة مارس 2013 العدد 398 الكويت.
- 3- البشير الإبراهيمي أديبا - محمد عباس. ديوان المطبوعات الجزائرية. وهران. د. ط. د ت، (رسالة ماجستير نوقشت لجامعة بغداد - كلية الأدب - 1983).
- 4- الخطاب الإصلاحى الجزائري ومظاهره بين الواقعية والفنية د: زروقي عبد القادر مجلة دراسات جزائرية، مختبر الخطاب الأدبي الجزائري، جامعة وهران، عدد 06. 2008.
- 5- رفقا بالإسلام ولغة القرآن - د. عبد الله التطاوي من كتابة اللغة والمتغير الثقافى (الواقع والمستقبل)، الدار المصرية اللبنانية القاهرة ط1- 2005-
- 6- لغة الأمة ولغة الأم، (عن واقع اللغة العربية في بيئتها الاجتماعية والثقافية) - عبد العالي الودغيري، دار الكتل العلمية بيروت، ط1. 2014.
- 7- اللغة العربية في الجزائر عقيلة حرة ليس لها ضرة - جريدة البصائر 41-1948.

- 8- اللغة العربية في مرآة الآخر - د:نهاد الموسى - المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط1-2005
- 9- اللغة والدولة المفقودة (الإنسان يسكن لغته)الفضل شلق - مجلة النهضة (مجلة فكرية) العدد التاسع خريف 2014 الرباط المغرب (طباعة المعارف الجديدة).
- 10- في الحاجة إلى الاستعانة باللغة الفرنسية لا إلى تبنيها بالترسيم المقنع - موسى الشامي - كتاب اللغة العربية وسؤال الهوية.
- 11- الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية، أنور الجندي - مطبعة الرسالة - مصر - د.ط-د.ت
- 12- واقع اللغة العربية في السياسة التعليمية الراهنة د: مصطفى شميعة - من كتاب - اللغة العربية وسؤال الهوية - مطبعة انفو - برانت- المغرب -2013.

استثمار جهود البشير الإبراهيمي اللغوية في المنظومة التربوية بين الواقع والمأمول

أ / نزهة خلفاوي م. و. ب. ع. ت. ن. ل. ع.

وحدة البحث بئلمسان

تمهيد

تهدف هذه الورقة البحثية إلى مناقشة واقع استثمار نصوص البشير الإبراهيمي في المنظومة التربوية، وما يمكن أن تتركه من أثر في ترسيخ الهوية الوطنية لدى الجيل الناشئ، فإذا كان البشير الإبراهيمي يرى بأن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد تأسست لغرضين نبيلين هما إحياء مجد الدين الإسلامي وإحياء مجد اللغة العربية، فإنه قد كرس حياته خدمة لهذين الغرضين. فهو المدافع عن اللغة العربية ضد مستعمر يحاول من خلال طمس معالمها القضاء على الدين الإسلامي تدريجياً.

من هنا جاءت أعمال الرجل الفكرية الإصلاحية ذات الطابع التعليمي التربوي غزيرة وفعالة، ما جعل المنظومة التربوية تستثمر نصوصه في إعداد البرامج والمقررات الدراسية، وإذا كان الهدف الأسمى من التعليم هو بناء فرد صالح فاعل في المجتمع متشبع بمقومات هويته وعلى رأسها اللغة العربية، فهل كان اختيار نصوص البشير الإبراهيمي المدرجة في البرامج الدراسية موفقاً بحيث تخدم تلك الأهداف النبيلة من جهة ومشروع الرجل الذي هو مجد ذاته مشروع الجمعية والأمة من جهة أخرى؟ وما السبيل إلى الاستثمار الأمثل لتلك النصوص وغيرها مما يصلح أن يكون سنداً تربوياً ناجحاً؟

1- الوعي اللغوي عند البشير الإبراهيمي:

ما يزال المثقفون والمفكرون والباحثون داخل الجزائر وخارجها يولون اهتماما كبيرا لكل ما يتعلق بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وها نحن نقف على أعمال روادها منقيين في فكرهم وآرائهم كلما فتح النقاش حول قضية اللغة والهوية الوطنية، كيف لا واللغة والهوية متماهيتان في مبادئ الجمعية التي اتخذت من الإسلام دينا والعربية لغة والجزائر وطنا شعارا لها تنشُد من خلاله الارتقاء بالأمة عن طريق الإصلاح التربوي والعلمي، فهذا مؤسسها الإمام ابن باديس يقول: "العروبة والإسلام والعلم والفضيلة، هذه هي أركان نهضتنا وأركان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي هي مبعث حياتنا ورمز نهضتنا، فما زالت هذه الجمعية منذ كانت تفقهنا في الدين وتعلمنا اللغة وتثرينا بالعلم وتحلينا بالأخلاق الإسلامية العالية وتحفظ علينا جنسيتنا وقوميتنا وتربطنا بوطينتنا الإسلامية الصادقة"⁽¹⁾. مفصلا القول في مبادئ الجمعية فالتمسك باللغة والدين والعلم والأخلاق السمحة هو ما يمكننا من الحفاظ على هويتنا وثوابتنا.

إن الحديث عن إحياء اللغة العربية ونشرها وتطويرها يحتم علينا التوقف عند أعمال شيخ المجاهدين في الدفاع عنها الإمام محمد البشير الإبراهيمي فهو السياسي والأديب والفقير بعلم الدين اتخذ من كل هذا سندا يوجه فكره الإصلاحية فسار بخطى ثابتة مدافعا عن اللغة العربية ومكانتها في الجزائر فهو القائل في إحدى مقالاته بعنوان "اللغة العربية في الجزائر": "اللغة العربية في الجزائر ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها وبين حماها، وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفتان في

⁽¹⁾ تركي رابح، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وروادها الثلاثة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ط1، 2004، ص358.

المستقبل، ممتدة مع الماضي لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام، على ألسنة الفاتحين، ترحل برحّالهم، وتقييم بإقامتهم، فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي إقامة الأبد وضرب بجراحه فيه أقامت معه العربية، لا تريم ولا تبرح، ما دام الإسلام مقيما لا يتزحزح. ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس، وتنساع في الألسنة واللهوات، وتنساب بين الشفاه والأفواه، يزيدا طبيًا، وعدوية أنّ القرآن بها يتلى، وأن الصلوات بها تبدأ وتختتم."

المتأمل لكلمات الإبراهيمي يستطيع أن يدرك بأن قضية اللغة العربية محسومة عنده فلا مجال للخوض في قضايا المرجعية اللغوية تلك القضايا التي تحاول الكثير من الأطراف المتربصة بالبلد وثوابته إشاعتها حتى تضطرب الرؤى في فكر أبنائه وتتشتت في أذهانهم ثوابتهم، وقد كانت له كلمة في مثل هؤلاء فهو القائل: "إنّ العربية هي لسان العروبة الناطق بأبجادهما، الناشر لمفاخرها وحكمها، فكل مدع للعروبة فشاهده لسانه، وكل معتز بالعروبة فهو ذليل إلا أن تمده هذه المضغة اللينة بالنصر والتأييد، فلينظر أدياء العروبة، الذين لا يريدون ألسنتهم على بيانها، ولا يريدون أفكارهم على حكمتها في أية منزلة يضعون أنفسهم." لقد تفتن الإبراهيمي منذ ذلك الوقت لأدياء العروبة الذين يخفون في طيات خطاباتهم خططا لطمس معالمها، قد تكون خططا على المدى البعيد.

إن هذا الخطر الذي كان يتهدد اللغة العربية جعل الإبراهيمي يعلن على لسان الجمعية عن أهم أسباب قيامها قائلًا: "إنّ جمعيتكم هذه أسست لغايتين شريفتين، لهما في قلب كلّ عربي مسلم بهذا الوطن مكانة لا تساويهما مكانة، وهما: إحياء مجد الدّين الإسلاميّ وإحياء مجد اللغة العربيّة... وأمّا إحياء مجد اللسان العربي، فلاّنه لسان هذا الدّين والمترجم عن أسرار ومكنوناته، لأنّه لسان القرآن الذي هو مستودع الهداية الإلهية العامّة للبشر كلّهم، لأنّه لسان محمّد بن عبد الله ﷺ صفوة الله من خلقه، والمثل الأعلى لهذا النوع الإنسانيّ

الذي هو أشرف مخلوقات الله، ولأنه لسان تاريخ هذا الدّين ومُجَلّي مواقع العبر منه، ولأنّه - قبل ذلك وبعد ذلك - لسان أمة شغلت حيزًا من التاريخ بفطرتها وآدابها وأخلاقها وحكمها وأطوارها⁽¹⁾.

ومن أجل إحياء مجد اللغة العربية نرى الإبراهيمي يشيد بها مبرزًا أسرار قوتها ففي خطاب له بعنوان "العربية: فضلها على العلم والمدنية وأثرها في الأمم غير العربية" يبين قدرة هذه اللغة على استيعاب العلوم مشيرًا إلى أهمية التعريب الذي كان في مرحلة من المراحل سبيلًا إلى بناء المعرفة والحضارة العربية، فنراه يقول: "قامت اللغة العربية في أقل من نصف قرن بترجمة علوم هذه الأمم ونظمها الاجتماعية وآدابها فوعت الفلسفة بكل فروعها والرياضيات بكل أصنافها والطب والهندسة والآداب والاجتماع وهذه هي العلوم التي تقوم عليها الحضارة العقلية في الأمم الحاضرة والغابرة وهذا هو التراث العقلي المشاع الذي ما يزال يأخذ الأخير عن الأول وهذا هو الجزء الضروري في الحياة، الذي إما أن تنقله إليك فيكون قوة فيك أو تنتقل إليه في لغة غيرك فتكون قوة في غيرك، وقد تظن أسلافنا إلى هذه الحقيقة فنقلوا العلم ولم ينتقلوا إليه". لقد امتلك الإبراهيمي من الوعي ما جعله يميز بين أن تستفيد من لغة الغير لتبني ذاتك ومعرفتك وحضارتك التي هي مصدر قوتك، وبين أن تذوب في لغة الغير فتفقد ماهيتك وحضرك وماضيك فلا يغدو مستقبلك سوى ظلا باهتا لغيرك، من هنا أولى ورفاقه من رواد الجمعية أهمية كبيرة للتعليم عموما وتعليم اللغة العربية والتعليم باللغة العربية خصوصا فهو القائل في مقال له بعنوان "التعليم العربي: اللغة العربية هي لغة الإسلام الرسمية، ومن ثمّ فهي لغة المسلمين الدينية الرسمية ولهذه الأمة الجزائرية، حقان أكيدان: كلّ منهما يقتضي وجوب تعلمها، فكيف إذا

⁽¹⁾ مجلة الشهاب- الجزء التاسع، المجلد التاسع- غرة ربيع الثاني 1352هـ/ أوت 1933م

اجتماعا، حق من حيث أنها لغة دين الأمة بالحكم أنّ الأمة مسلمة، وحق أنها لغة جنسها بحكم أنّ الأمة عربية الجنس، والدين معاً. ومن هنا نشأ ما نراه من حرص متأصل في هذه الأمة على تعلم العربية.

إنّ التعليم وإصلاحه في ميثاق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مشروع حضاري يحفظ للوطن هويته وتاريخه ويدفع بأبنائه نحو العلم والمعرفة، لقد وعى الشيخ الإبراهيمي وزملاؤه بأن الوقوف في وجه الاستعمار يبدأ ببناء المواطن الجزائري وترسيخ هويته وتثقيفه فعملوا على ذلك وكان من نتائج وعيهم ذلك أن صنعوا قادة ثوريين متعلمين واعين بحجم المسؤولية الملقاة على عاتقهم.

واليوم وبعد مرور أكثر من ربع قرن على حصولنا على الاستقلال السياسي من نير الاستعمار مازلنا نكافح في سبيل الملف اللغوي في منظومة التربية والتعليم كون اللغة هي التعبير الأسمى عن الهوية الحضارية، وما نأسف له أن حال اللغة العربية - على مدى عقود دولة الاستقلال - لم تكن في يوم أفضل مما كانت عليه في أمسه.⁽¹⁾

2- اللغة والهوية في المنظومة التربوية الجزائرية:

لقد أصبح التعلم شاغل الجميع، دول وتكتلات إقليمية ومنظمات دولية بل ومؤسسات تجارية وإعلامية أيضا حفاظا على الريادة والتنافسية وضمانا للبقاء فالتعلم اليوم من أبرز مظاهر التنافس الدولي⁽²⁾ فالتعليم والتنمية صنوان في مجتمع المعرفة إذ لا سبيل إلى بلوغ الغايات الإنسانية النبيلة

⁽¹⁾ عبد السلام المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي . دراسة وتوثيق -، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر، ط1، 2014، ص106.

⁽²⁾ نبيل علي ونادية حجازي، الفجوة الرقمية، عالم المعرفة، الكويت، 2005، ص 268 .

والسامية من حرية وعدالة وكرامة وتقدم إلا بالتعليم، واللغة تصنف اليوم في قمة الهرم المعرفي.

إن الأخطار والتحديات التي تهدد اللغة العربية اليوم تحول بين الطفل العربي وتكوين هويته العربية وثقافته ولغته القومية⁽¹⁾، ونظرا إلى شيوع وشمولية اللغة فهي مسؤولية الجميع، مسؤولية المجمع والجامع ومؤسسات التربية وأجهزة الإعلام والمنظمات الثقافية، مسؤولية جهاء النخبة وبسطاء العامة، مسؤولية الشاعر والعامل والناشر والكاتب والقارئ والمدرس والطالب.. واللغة أبرز السمات الثقافية فما من حضارة إنسانية إلا وصاحبته نهضة لغوية، وما من صراع بشري إلا ويبطن في جوفه صراعا لغويا⁽²⁾، هذا ما يتضح جليا في الملف اللغوي في مسار النظام التعليمي بالجزائر منذ مرحلة ما قبل الاستعمار وإلى يومنا هذا.

كان التعليم في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي منتشرا انتشارا واسعا بين أبناء الشعب الجزائري من خلال الكتاتيب التي يقبل عليها الأطفال إقبالا كبيرا يشمل القراءة والكتابة وحفظ القرآن الشريف بالإضافة إلى الدور الكبير الذي أدته المساجد والزوايا فقد كانت بها برامج تشمل علاوة على تحفيظ القرآن الكريم والحديث الشريف اللغة العربية والبلاغة والفلسفة والتاريخ والجغرافيا والرياضيات وعلم الفلك⁽³⁾.

وبعد دخول الاستعمار الفرنسي أرض الجزائر ظهرت نزعة جديدة ترمي إلى تعميم التعليم بالجزائر وخطت وزارة التعليم الفرنسية تنظيما جديدا يتبع التعليم في فرنسا بحكم سياسة الإدماج التي أعلنتها الحكومة الفرنسية. فأمرت

(1) عبد السلام المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي، ص 319 .

(2) نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، عالم المعرفة، الكويت، 1994، ص 232.

(3) محمد الهادي بن سقني، دليل التشريع المدرسي، وحدة التشريع والتنظيم المدرسي، 2011.

بتطبيق قانون 12 جوان 1881 المتعلق بمجانبة التعليم وقانون 28 مارس 1882 المتعلق بإجبارية التعليم الابتدائي الساري المفعول في التراب الفرنسي وبالفعل أصبح عدد المدارس يرتفع من سنة إلى أخرى كما ارتفع عدد التلاميذ ولكن نسبيا بكثير إذا قارناه بعدد الأطفال الذين هم في السن الدراسي الإلزامي فإنه يمثل 2%.

ورغم القوانين المتخذة في فرنسا وغير المطبقة في الجزائر والتي كانت تنص على المساواة بين أبناء الأهالي وأبناء الأوروبيين مُنِعَ الكثير من الأطفال الجزائريين المسلمين من التعليم. وفي نهاية القرن التاسع عشر كانت نسبة التمدرس 8.3% بالنسبة لأبناء الجزائريين و84% بالنسبة لأبناء الأوروبيين.⁽¹⁾

ورغم أن حظوظ الجزائريين من التعليم كانت قليلة إلا أن الإدارة الاستعمارية عملت على حرمان تلك الفئات المستفيدة من تعلم لغتهم العربية ومن ثم حاولت طمس معالم شخصيتهم وهويتهم.

ولما أقيمت الاحتفالات الاستفزازية التي نظمتها الحكومة الفرنسية عام 1930 م مرور مئة عام على احتلال الجزائر كانت عاملا قويا في سرعة إخراج فكرة تكوين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من حيز الأمانى⁽²⁾ التي ظلت تحتضنها قرابة سبعة عشر سنة أي منذ عام 1913 عندما التقى الشيخ ابن باديس بأرض الحجاز بالشيخين الطيب العقبي ومحمد البشير الإبراهيمي معلنا عن نيته في إنشاء حركة إصلاحية كضرورة للقيام بنهضة شاملة تعيد للجزائريين ثوابتهم التي عمل المستعمر على طمس معالمها.

(1) محمد الهادي بن سقني، دليل التشريع المدرسي، وحدة التشريع والتنظيم المدرسي، 2011.

(2) تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر،

المؤسسة الوطنية للاتصال، الجزائر ط5، 2001. ص90.

كادت اللغة العربية تضحل في أرضها ومعها الشخصية الجزائرية المسلمة لولا جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وما بذلته من جهود جبارة إذ شرعت بعد تأسيسها في فتح مدارس ابتدائية حرّة بعد حملة لا نظير لها وتبرع المخلصون من الجزائريين المسلمين بأموال جزيلة على جمعية العلماء واثقين بضرورة استرجاع اللغة والثقافة العربية مكانها القديم. كانت تدرس جميع المواد بما فيها العلوم باللغة العربية من طرف معلمين جزائريين وأقبل على هذه المدارس خاصة في المدن الكبرى الكثير من الأطفال فبلغ عدد المدارس الحرة ما يقارب 150 مدرسة تضم أكثر من 4500 تلميذ وتلميذة لأن جمعية العلماء اعتنت كثيرا بتعليم البنات.

ويجدر بالذكر أن الإدارة الفرنسية بذلت كل ما في وسعها لعرقلة تأسيس هذه المدارس وأغلقت الكثير منها بالخصوص أثناء الحرب العالمية الثانية.

أمّا بالنسبة للتعليم الثانوي اهتمت الجمعية به أيضا واعتنت بإرسال العشرات من الطلبة إلى مختلف الدّول العربية وعلى وجه الخصوص إلى جامع الزيتونة بتونس⁽¹⁾.

ورثت الجزائر، بعدما استرجعت سيادتها منظومة تربوية كانت أهدافها تتمثل في محو الشخصية الوطنية وطمس معالم تاريخ الشعب الجزائري. إذن كان من اللازم أن تغير هذه المنظومة شكلا ومضمونا وتعوض بمنظومة جديدة تعكس خصوصيات الشخصية الجزائرية الإسلامية ولكن كان من الصّعب أن يغير هذا النظام بين عشية وضحاها.

⁽¹⁾ محمد الهادي بن سقني، دليل التشريع المدرسي، وحدة التشريع والتنظيم المدرسي، 2011.

وقبل الإصلاح الشامل الذي طرأ في 1980 بإقامة المدرسة الأساسية اتخذت عدة إصلاحات وتعديلات جزئية ولكن ذات أهمية كبرى وقد تمت بناءً على ثلاثة اختيارات.

- الاختيار الوطني بإعطاء التعريب ما يستحق من العناية.
- الاختيار الثوري بتعميم التعليم وجعله في متناول الصغار والكبار.
- الاختيار العلمي بتفتح التعليم نحو العصرية والتحديث وبالتحكم في العلوم والتكنولوجيا.

ارتفع عدد التلاميذ بصفة مطردة منذ الاستقلال حتى بلغ ما يقرب من ربع عدد السكان، حيث يستقبل التعليم الأساسي وحده أكثر من سبعة ملايين من الأطفال وارتفعت نسبة التعليم من 20% إلى ما يقرب من 100%⁽¹⁾.

وعلاوة على مجانية التعليم وفّرت الدولة الكتاب المدرسي لتلاميذ التعليم الابتدائي مقابل الدينار الرمزي ولتلاميذ التعليم المتوسط والثانوي بأسعار مقبولة. أضف إلى ذلك توفير الإيواء للكثير من التلاميذ وتأسيس 26 داخلية ابتدائية لفائدة أبناء الرحل. واستفاد العديد من الأطفال من المنح والمطاعم المدرسية.

وشرع ابتداء من السنة الدراسية 1963/1964 في تعريب السنّة الأولى من التعليم الابتدائي وتمّ تدعيم اللغة العربية فيما تبقى من السنوات الأخرى وكذلك في التعليم المتوسط والثانوي.

وابتداء من سنة 1967 شرع في تدريس التاريخ والتربية المدنية والجغرافيا فيما بعد باللغة العربية عبّرَ مُختلف أطوار التعليم. وكذلك أصبح تعليمُ الدروس والحساب بالمنح باللغة العربية في طور التعليم الابتدائي انطلاقاً من

⁽¹⁾ محمد الهادي بن سقني، دليل التشريع المدرسي، وحدة التشريع والتنظيم المدرسي، 2011.

نفس السنّة. فصارت منذ ذلك الوقت اللغة الفرنسية تدرس كلغة أجنبية لا غير. ويجدر الذكر أن التكوين في جميع المعاهد التكنولوجية للتربية أصبح أيضا يعطى باللغة العربية بالنسبة لجميع الأنماط⁽¹⁾.

وبعد ما غادرَ مُعظَمُ المعلمين الفرنسيين المدارس كان من الضروري أن نجدَ البديلَ وبالفعل تمّ توظيف مئآت من الموظفين بمستوى ثقافي ضعيف وبدون كفاءة تربوية وعملت وزارة التربية جادة على تكوينهم ورفع مستواهم الثقافي والمهني عن طريق الأيام التربوية والتربصات القصيرة والورشات الصيفية بالخصوص.

ورغم هذه المجهودات الجبارة، كان من اللزوم أن نستعين بالتعاون الأجنبيّ. فتمت في العشرية الأولى إعارة الكثير من المتعاونين من الأقطار العربية الشقيقة وكذلك من دول أخرى وابتداء من سنة 1970 أسندت للجزائريين وحدهم جميع المناصب ذات المسؤولية على جميع المستويات.

وبفضل مضاعفة الجهود والإكثار من المعاهد التكنولوجية للتربية تمّ القضاء على التعاون الأجنبي في التعليم الابتدائي والمتوسط وأيضا في التعليم الثانوي.

إنّ النظام التربوي الذي ورثناه من العهد القديم، كان يتسم بالازدواجية من حيث الهياكل والبرامج والشهادات. إذن كان من الضروري أن نعمل على توحيدِهِ. فتم ابتداء من سنة 1964 توحيد البرامج بين المدارس الابتدائية ومدارس التعليم العام من جهة، والمدارس التي كانت تابعة لجمعية العلماء الجزائريين والمصادق عليها من جهة أخرى. كما قامت الوزارة بتوحيد الامتحانات والمسابقات كامتحان الدّخول للسنّة الأولى متوسط في سنة 1967 وامتحان التعليم المتوسط في سنة 1974.

(1) نفسه

ومع انطلاقة المخطط الرباعي 1970-1973 أنشئت معاهد تكنولوجية في كل ولاية حتى يتلقى فيها التلميذ المعلم والتلميذ الأستاذ تكوينا أوليا قبل الشروع في التدريس فأسسَ في سنة 1981 مركز وطني وثلاثة مراكز جهوية لتكوين إطارات التربية⁽¹⁾.

بعد أكثر من عشر سنوات حافلة بمجهودات في سبيل تشييد المدرسة الجزائرية، تمّ إصلاحٌ شامل يرمي إلى تغيير المنظومة التربوية تغييراً جذريا علما بأن الهدف من المهام المسندة للمدرسة الجزائرية تتمثلُ قبل كل شيء في بناء شخصية أصيلة ونشر حَضَارَتِنَا العربية الإسلامية. وبعد المراحل الانتقالية المعقدة التي عشناها، شرع في التفكير في منظومة تربوية جديدة وقامت الوزارة بعدة تجارب ميدانية. فتجسدت هذه الجهود في اتخاذ أمر 16 أفريل 1976 الذي هو بمثابة أرضية تعتبر قانونا مَدْرَسِيًّا. يتضمن هذا النص تنظيم التربية والتكوين، فيستمد هذا النظام الجديد مبادئه من القيم العربية الإسلامية وينص على:

- إجبارية التعليم ومجانيته وتعميم استعمال اللغة العربية وجعل النظام التربوي من اختصاص الدولة.

- نص أيضا الأمر على تفرّع النظام التربوي إلى أربعة مستويات: التعليم التحضيري والأساسي والثانوي والعالي.

وبخصوص التعليم الأساسي، دخل حيز التنفيذ سنة 1980 بعد فترة امتدت من 1976 إلى 1979، يمكن وصفها بفترة الترددات ومحاولات التراجع عن أمرية 16 أفريل 1976.

(1) نفسه

تغيّرت بالفعل المدرسة الأساسية من حيث محتواها وأعدت أوقات وبرامجٍ ومناهج تدريس جديدة كما تمّ تأليف كتب مدرسية ووسائل تعليمية جديدة ولكن لم يتم تحديث المدرسة الأساسية إداريا بناء على أمرية 16 أفريل 1976⁽¹⁾.

واستمرت الإصلاحات منذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا على أن الورشة الكبرى للإصلاحات كانت تلك التي تمت بدءا من سنة 2003 حيث اعتمدت المدرسة الجزائرية بيداغوجيا جديدة هي المقاربة بالكفاءات فتحوّلت أهداف واستراتيجيات تعليم اللغة العربية فأصبحت تدرس وفق المقاربة النصية وهي إيديولوجيا جديدة في تعليم اللغة تعتبرها وحدة لا ينبغي تجزئتها حيث أن المتعلم يبني مكتسباته المتعلقة بروافد هذه اللغة في إطار متسق يدور حول وحدة نصية ولا ينعزل عنها وتحمل تلك الوحدة النصية من الأفكار والمعاني ما يراد لذلك المتعلم بلوغه، مما يجعله فردا متفاعلا مع المعارف يمتلك من الكفاءات ما يساعده على الإنتاج فهو لم يعد يكتفي بالاستهلاك بل تعداه إلى الإبداع والتطوير والتجديد⁽²⁾.. كل ذلك وهو يعي موقعه من الحضارة العالمية متمسكا بثوابته الوطنية، وفي النصوص المختارة له سند ومعين على التعرف على ماضيه وفهم حاضره ليحسن التخطيط لمستقبله.

3- الإبراهيمي في منهاج اللغة العربية للطور الثانوي:

تعتبر المقاربة بالكفاءات بيداغوجيا وظيفية تجعل المتعلم يتحكم في مجريات الحياة بك ما تحمله من تشابك في العلاقات وتعقيد في الظواهر الاجتماعية وبالتالي فهي اختيار منهجي يمكن المتعلم من

(1) نفسه

(2) الوثيقة المرافقة لمنهاج السنة الثالثة من التعليم العام والتكنولوجي - اللغة العربية وآدابها-

اللجنة الوطنية للمناهج، مديرية التعليم الثانوي 2006، ص.5.

النجاح في الحياة من خلال تثمين معارفه المدرسية وجعلها صالحة للاستعمال في مختلف مواقف الحياة.

إن المقاربة بالكفاءات تستهدف تنمية قدرات المتعلم العقلية والوجدانية والمهارية ليصبح بمرور المراحل الدراسية مكتمل الشخصية قادرا على الفعل والتفاعل الإيجابيين في محيطه المدرسي والاجتماعي وعموما في حياته الحاضرة والمستقبلية. وحتى يكون المنهاج الدراسي في خدمة هذا التوجه، كان من الضروري التركيز على الكيف المنهجي بدلا من الكم المعرفي من خلال نظام الوحدات الذي يمكن من التركيز على مضامين بعينها تتوافر على شروط التماسك والتكامل وتمكن المتعلم من كيفية الاعتماد على نفسه وتفجير طاقاته، وإحداث تغييرات ضرورية في ذاته للتكيف مع حاجات طارئة. إنه مسعى يمكن المتعلم من اكتساب كفاءات ذات طابع مهاري وسلوكي يتكيف مع الواقع المعاصر سواء في عالم الشغل أم المواطنة أم الحياة اليومية⁽¹⁾.

وقد أعد منهاج اللغة العربية للطور الثانوي - حسب واضعيه- ليحقق فضلا عن الغايات التعليمية غايات تربوية لأنه يثير بعض القضايا والمشكلات المعاصرة في العلاقات الإنسانية، مثل قضايا العولمة والبيئة والتسامح الديني وثقافة الحوار وغيرها.. كما أنه يراعي فضلا عن تنمية الروح الوطنية تنمية روح التسامح والروح الإنسانية.. من هنا أدرجت

(1) الوثيقة المرافقة لمنهاج السنة الثالثة من التعليم العام والتكنولوجي - اللغة العربية وآدابها-، اللجنة الوطنية للمناهج، مديرية التعليم الثانوي 2006، ص 9.

العديد من النصوص لشعراء جزائريين مع مراعاة الانفتاح على الثقافة العربية والثقافة الإنسانية⁽¹⁾.

منهاج اللغة العربية المقسم على السنوات الثلاث يقدم مادة أدبية دسمة ترافقها روافد لغوية من نحو وبلاغة وعروض، تقدم في كل سنة ضمن اثنتي عشر محورا، ينطوي كل محور على نص أدبي وآخر تواصلية ونص للمطالعة.

تتم دراسة النص الأدبي في إطار العصور الأدبية المتعاقبة بدءا بالأدب الجاهلي فأدب عصر صدر الإسلام فالأدب الأموي فالأدب العباسي والمغربي والأندلسي وصولا إلى أدب عصر الضعف وانتهاء إلى الأدب الحديث.

تتم في النصين الأدبي والتواصلية المعالجة الأدبية والنقدية ويستثمر النصان من الناحية النحوية والبلاغية بغرض ضبط اللغة وتنمية ملكة التذوق الفني عند المتعلم مع تمرير رسائل تربوية من خلال النص الأدبي أما نص المطالعة الموجهة فيتميز بطوله النسبي ويعالج قضية فكرية أو سياسية أو اجتماعية أو علمية⁽²⁾

ولا يعد تاريخ الأدب - أثناء دراسة عصر أدبي - غاية في حد ذاته، بل يبقى موضوعا في خدمة الأدب حيث يتم التركيز على النصوص التي تعكس المظاهر التي تطبع العصر وتميزه عن سواه ثم العمل على تدريب المتعلم على التفاعل مع المنتج الأدبي بحيث يتمكن من ترسيخ معارفه عن العصر الذي

(1) كتاب الجديد في الأدب والنصوص والطالعة الموجهة للسنة الثالثة من التعليم الثانوي العام والتكنولوجي، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، 2011.

(2) كتاب الجديد في الأدب والنصوص والطالعة الموجهة للسنة الثالثة من التعليم الثانوي العام والتكنولوجي، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، 2011.

يدرسه من خلال المظاهر الفكرية والأدبية السائدة فيه⁽¹⁾. ومن ثم تمرر رسائل تربوية من خلال تلك النصوص المختارة فنصوص العصر الجاهلي مثلا تحت على قيم الكرم والفروسية من خلال نصين لحاتم الطائي وعنزة بن شداد.. أما النصوص المختارة من الأدب المغاربي مثلا فتربط المتعلم بتاريخه فهي تعالج بعض قضايا الشعر في عهد الدولة الرستمية كقضية العلم وأهميته دون أن تغفل التأريخ لبعض تفاصيل تلك المرحلة.

أما إذا بحثنا عن نصوص للبشير الإبراهيمي في منهاج اللغة العربية فعلينا أن نتوجه لبرنامج السنة الثالثة كونه المكمل لسلسلة العصور الأدبية والخاتم لها من خلال نصوص من العصر الحديث، وقد أدرج البشير الإبراهيمي في الوحدة التعليمية التاسعة التي تتضمن ما يلي:

- النص الأدبي: منزلة المثقفين في الأمة. لمحمد البشير الإبراهيمي

- النص التواصلي: المقالة والصحافة ودورهما في نهضة الفكر والأدب.

لشوقي ضيف

- نص المطالعة الموجهة: الأصالة والمعاصرة -ازدواجية مفروضة أم

اختيار-. لمحمد عابد الجابري

- التعبير الكتابي: كتابة مقال حجاجي موضوعه العلم وبناء الحضارة.

- المشروع: إنتاج تقصية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ببيان أهم

نشاطاتها، مع الحرص على إثبات صور أهم أعضائها.

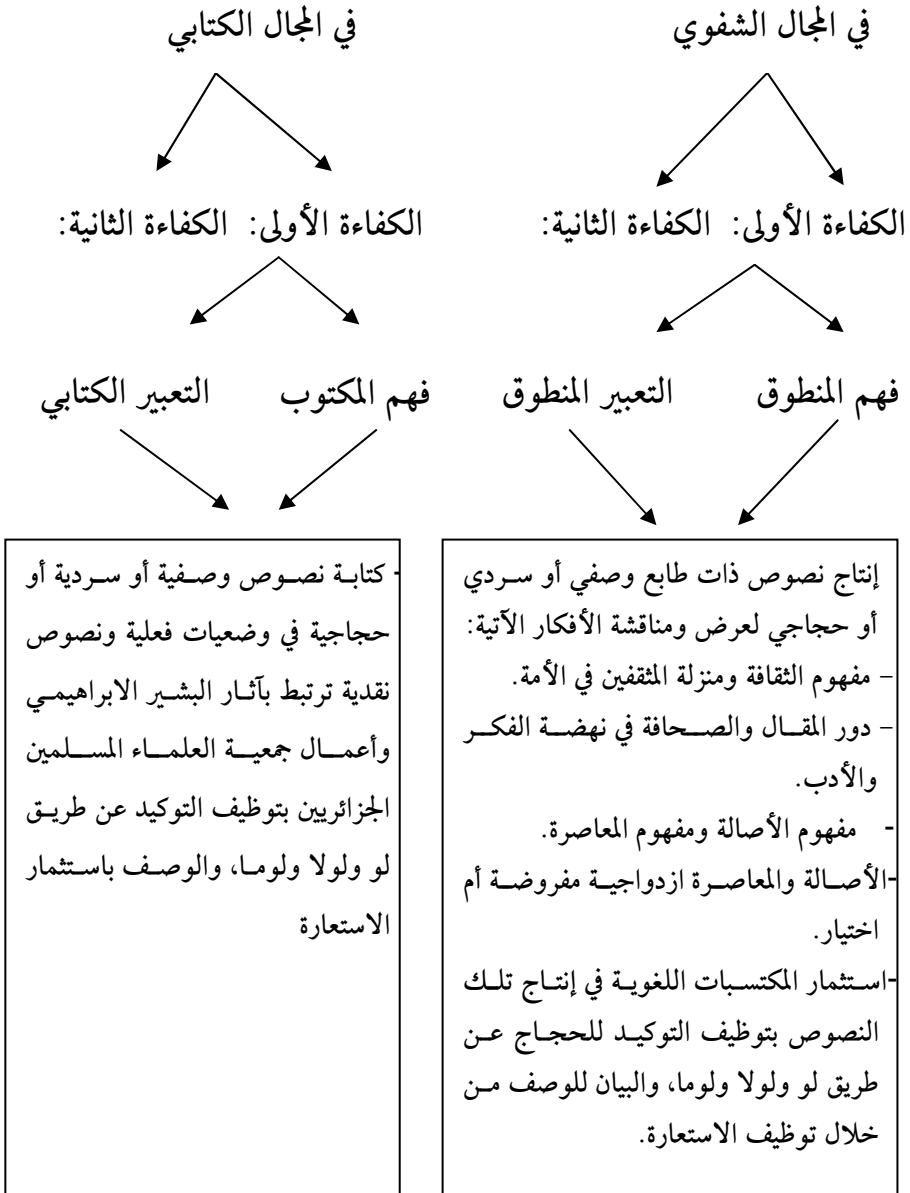
⁽¹⁾ كتاب الجديد في الأدب والنصوص والطلالعة الموجهة للسنة الأولى من التعليم الثانوي العام والتكنولوجي، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، 2011.

أما عن الكفاءات المستهدفة من هذه الوحدة التعليمية فإن أهمها:

- التعرف على شخصية البشير الإبراهيمي.
 - دراسة المعاني والأفكار وأساليب التعبير المختلفة وجمال اللغة في نص الإبراهيمي.
 - استنتاج خصائص فن المقال شكلا ومضمونا.
 - الوقوف على دور رجال الإصلاح في ازدهار فن المقال.
 - تصنيف النص الأدبي حسب نمط كتابته
 - إعراب لو لولا لوما والتعرف على الأفعال المزيدة مجرفين أو ثلاثة أحرف وتوظيفها في التعبير
 - التعرف على بلاغة الاستعارة وجمالها وتوظيفها في التعبير.
 - استثمار مكتسبات النصين الأدبي والتواصل في إنتاج نص حجاجي - مقال - يبين دور العلم في البناء الحضاري.
 - توظيف المكتسبات التاريخية وتنمية روح العمل الجماعي بغرض التعريف بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأعمالها وأهم روادها.
- بعد دراسة النصين الأدبي والتواصل ونص المطالعة الموجهة والتوقف عند الكفاءات المستهدفة في الوحدة التعليمية التاسعة يمكن أن نرتب أهدافها، فمنها ما هو تعليمي بحت ومنها ما هو تربوي:

• الأهداف التعليمية:

في مقام تواصل دال يكون المتعلم قادرا على تسخير مكتسباته لفهم وإنتاج نص بنمط محدد يتوفر على البنية الدلالية والشكلية:



• الأهداف التربوية:

لعل من أهمها:

- دفع المتعلم إلى اكتشاف المفهوم الحقيقي للثقافة مما يجعله يعي دور المثقف في أمته وحجم المسؤولية الملقاة على عاتقه بالإضافة إلى المكانة المرموقة التي يحظى بها بعيدا عن أشباه المثقفين وأدعياء الثقافة.
- دفع المتعلم إلى اكتشاف شخصية أحد مثقفي الأمة، شخصية الشيخ البشير الإبراهيمي واستثمار أفكاره في بناء شخصيته "المتعلم" وعقليته.
- دفع المتعلم إلى اكتشاف دور الصحافة في تثقيف المواطن متى ما اعتنت باللباب دون القشور، وفي ذلك توجيه له نحو اختيار الأكثر نفعاً له من الصحف.
- دفع المتعلم إلى اكتشاف مفهوم الأصالة ومفهوم المعاصرة وتحديد موقعه منهما مما يساعده على بناء أفكاره وتصوراتهِ واتخاذ خياره بما يحفظ له هويته وشخصيته.

نتائج البحث:

في ختام هذه الدراسة خلصت إلى النتائج الآتية:

- إن قضية اللغة العربية في الجزائر كانت محسومة عند البشير الإبراهيمي وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين فلا مجال للمفاضلة بينها وبين لغة المستعمر الدخيلة أو بينها وبين لغة أخرى.
- إحياء مجد اللغة العربية في الجزائر يعد من أهم أسباب قيام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وذلك بتعليمها وجعلها اللغة الرسمية في المؤسسات التعليمية والإعلامية والإدارية.

-ميز الإبراهيمي بين الاستفادة من لغة الغير لبناء الذات والمعرفة والحضارة وبين الذوبان في لغة الغير حد فقدان الماهية والماضي والحاضر فلا يغدو مستقبل الأمم الذائبة في لغة غيرها سوى ظل باهت للغير.

-التعليم وإصلاحه في ميثاق الجمعية مشروع حضاري يحفظ للوطن هويته وتاريخه ويدفع بأبنائه نحو العلم والمعرفة حيث اللغة تصنف في قمة الهرم المعرفي.

-إن التحديات والتشويش الذي يتهدد اللغة العربية اليوم يحول بين الطفل وتكوين هويته العربية وثقافته ولغته القومية، وها نحن بعد مرور أكثر من ربع قرن على استقلالنا السياسي ما نزال نكافح من أجل الملف اللغوي في منظومتنا التربوية.

-مر تعليم اللغة العربية في الجزائر بمراحل عسيرة قبل وأثناء وبعد الاستعمار وصولا إلى الإصلاحات الأخيرة لسنة 2003 التي اتخذت من المقاربة بالكفاءات بيداغوجيا للتعليم وعقدت آمالها على إنتاج متعلم كفاء قادر على التفاعل مع المعارف التي يكتسبها يمتلك من الكفاءات ما يساعده على الانتاج والإبداع والتطوير وهو يعي موقعه من الحضارة العالمية متمسكا بثوابته الوطنية.

-يهدف منهاج اللغة العربية للطور الثانوي إلى استثمار النصوص من الناحية النحوية والبلاغية بغرض ضبط اللغة وتنمية التذوق الفني عند المتعلم مع تمرير رسائل تربوية تعالج قضايا فكرية أو أخلاقية أو اجتماعية أو ثقافية..

-أحال منهاج اللغة العربية للطور الثانوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين من خلال استثمار نص أدبي للبشير الإبراهيمي في برنامج السنة الثالثة إضافة إلى توجيه تلاميذ السنة الأولى والسنة الثانية لقراءة كتاب تاريخ الجزائر لمبارك المليي.

-أدرج في الوحدة التعليمية الحادية عشرة نص حول اللغة والشخصية
استثمر كنص للمطالعة الموجهة في وحدة تعليمية تعالج قضية الأدب
المسرحي ولربما كان يجدر أن يستثمر ذلك النص في الوحدة التاسعة كمكمل
لقضايا الثقافة والهوية والأصالة.. لكان أكثر فاعلية وهو يستثمر في سياق
أنسب لما يحمل من أفكار.

خاتمة:

في ختام هذه الورقة البحثية قد أجب باقتضاب عما طرحت من
تساؤلات، فالغوص في موضوع كاستثمار أعمال رواد جمعية العلماء
المسلمين الجزائريين في المناهج التربوية يتطلب نفساً أطول وعملاً زمرياً
تشارك فيه كل الأطراف المعنية من تربويين وباحثين ولغويين وأعضاء من
الجمعية وواضعي المقررات الدراسية حتى يكون كل تدخل وفق خطة
تربوية مدروسة من مختلف الجوانب والأبعاد. لكن هذا لا يمنع من الإفصاح
عما خلصت إليه بعد رحلة تتبعتها فيها أثر علم من أعلام الإصلاح في
الجزائر باحثاً عن بعض ومضاته في المنظومة التربوية.. لأجب من هذا المقام:
إن كانت اللغة أداة الفكر ووعاء الثقافة والمعبرة عن قيمنا وأصالتنا
وجذورنا وهويتنا وإن كان لا بد لأبنائنا أن يرتبطوا بلغتهم وما يجسدها كي
يرتبطوا بمجتمعهم وقيمهم، فإن استثمار نصوص رواد الفكر الجزائري سواء
كانوا من أعضاء الجمعية أو غيرهم مازال بحاجة إلى إعادة نظر، فهل يكفي
نص واحد لعلم من أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين خلال ثلاث
سنوات كاملة من التعليم الثانوي؟! في حين يتكرر اسم أديب أو مفكر عربي
- مع احترامي الشديد لكل مفكر عربي استثمرت نصوصه في المنهاج - في
السنة الواحدة أكثر من مرتين.

إن الملف اللغوي في منظومتنا التربوية في اعتقادي بحاجة إلى جهود المختصين المخلصين من الغيورين على هذا الوطن ولغته وثوابته ليعيدوا قراءته ويقفوا على ما فيه من الثغرات والعثرات، ويعيدوا بناءه بما يتناسب والأهداف الرامية إلى ترسيخ الهوية الوطنية وبناء الفرد الصالح الفاعل قبل تعليمه ما يحو عنه صفة الأمية.

المصادر والمراجع:

-القرآن الكريم

- 1- الإبراهيمي -جريدة البصائر 21/ع04 / 1948 وعيون البصائر.
- 2- إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية) د ماجدة حمود -عالم المعرفة مارس 2013 العدد 398 الكويت.
- 3- البشير الإبراهيمي أديبا -محمد عباس. ديوان المطبوعات الجزائرية. وهران. د.ط.د.ت، (رسالة ماجستير نوقشت لجامعة بغداد - كلية الأدب -1983).
- 4- الخطاب الإصلاحية الجزائري ومظاهره بين الواقعية والفنية د: زروقي عبد القادر مجلة دراسات جزائرية، مختبر الخطاب الأدبي الجزائري، جامعة وهران، عدد 06. 2008.
- 5-رفقا بالإسلام ولغة القران - د. عبد الله التطاوي من كتابة اللغة والمتغير الثقافي (الواقع والمستقبل)، الدار المصرية اللبنانية القاهرة ط1-2005-
- 6-لغة الأمة ولغة الأم، (عن واقع اللغة العربية في بيئتها الاجتماعية والثقافية) - عبد العالي الودغيري، دار الكتل العلمية بيروت، ط1. 2014.
- 7-اللغة العربية في الجزائر عقيلة حرة ليس لها ضرة -جريدة البصائر 41-1948 .

8-اللغة العربية في مرآة الآخر - د:نهاد الموسى- المؤسسة العربية
للدراسات والنشر بيروت ط1-2005

9-اللغة والدولة المفقودة (الإنسان يسكن لغته)الفضل شلق - مجلة
النهضة (مجلة فكرية) العدد التاسع خريف 2014 الرباط المغرب(طباعة
المعارف الجديدة).

10-في الحاجة إلى الاستعانة باللغة الفرنسية لا إلى تبنيها بالترسيم المقنع -
موسى الشامي - كتاب اللغة العربية وسؤال الهوية.

11-الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية، أنور
الجندي -مطبعة الرسالة -مصر -د.ط-د.ت

12-واقع اللغة العربية في السياسة التعليمية الراهنة د:مصطفى شميعة- من
كتاب -اللغة العربية وسؤال الهوية -مطبعة انفو -برانت- المغرب -2013.

مفهوم التجديد عند البشير الإبراهيمي

أ. نسيمه سعدي

أ. حياة عمارة

ح. نلمسان

مقدمة

يعدّ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي علما من أعلام الإصلاح في الجزائر، ووجها بارزا من وجوه البلاغة والأدب وأحد أشهر الكتاب الجزائريين المحدثين، تبنّى مشروعا حضاريا عظيما رأى فيه خلاص أمته من الاستعباد والذل والهوان لا لأجل استرداد حرّيتها وخلصها من ربة الاستعمار الفرنسي فحسب، بل لاستعادة المكانة التي خوّها إيّاها الإسلام. وكان التجديد مبدأ انطلاقه وفتحة أعماله. وإذا كان أدبه يمثّل مرحلة النضج في استكمال أدوات الكتابة، وذروة الارتقاء في فنّ القول وديباجة العبارة واستحضار البيان العربي في أزهى عصوره فذلك لأنّ الإطار الحضاري الذي يتحرّك داخله الإبراهيمي هو إطار الحضارة العربية الإسلامية. كان ذلك دأبه وكلّ الأدباء المصلحين الذين استطاعوا أن يشقوا طريقهم في إطار حركتهم الإصلاحية إلى مصادر التراث العربي الإسلامي وكنوز الأدب العربي في عصوره الزاهية ومضوا ينهلون من المنابع الثرية لهذه وتلك ويغترفون في الوقت ذاته من روافد النهضة الفكرية والأدبية الحديثة في المغرب والمشرق. " ذلك لأنهم آمنوا إيمانا راسخا أنّ إنقاذ الجزائر من خطر الفرنسة والتنصير لن يكون إلّا عن طريق عملية الإحياء التي تتمثّل في إحياء

الإسلام بتطهيره من الخرافات والأساطير التي شوّهت معالمة من ناحية، والعودة إلى الماضي العريق فكرياً وثقافة وتراثاً مع صياغته على وجه يساير العصر من ناحية ثانية. فهو يرى أنّ الدعوة إلى تمثّل القديم بقضه وقضيضه هي دعوة إلى الجمود. والدعوة إلى التغريب والتّحديث بدورها هي دعوة إلى الانسلاخ الحضاري، والمسح القومي. وفي كلا الدعوتين شرّ وبيل على الأمة. لذا نجد الشيخ الإبراهيمي يقف موقفاً وسطاً فهو حين يذهب إلى إحياء التراث العربي والمحافظة على مقومات الأمة لم يكن يريد الركون إلى الماضي بل الإفادة منه واستلهامه واستخلاص العبر يقول "ولئن قال لنا أقوام إنكم تعيشون في الماضي القديم لنقولنّ إنّنا نعيش بالاستمداد من الماضي والعمل للحاضر والاستعداد للمستقبل".

التجديد عند الإبراهيمي:

يتمثّل التجديد عند الإبراهيمي في مسايرة التطور ومعايشة الواقع الإنساني دون الانسلاخ عن القيم والتنكر لكلّ قديم، وهو بمعنى آخر العودة إلى الإسلام لفهمه فهما سليماً وتطبيقه تطبيقاً صحيحاً مع الانفتاح على الواقع المعاصر وانتقاء ما يجب أخذه، وقد أشار الشيخ إلى هذا المنهج التجديدي القويم حين تحدّث عن الجمعيات ودورها الإصلاحية إنّ الجمعيات لا تبقى ولا يضمن لها الدوام إلّا إذا كان في المعنى الذي أسست لأجله عنصر من عناصر التّجديد لطائفة أو لأمة، وتكون قواعد العمران وأصول الأديان مقتضية له في حياة تلك الأمة الروحية والمادية، وما من جديد في حياة الأمة إلّا وله أصل اندثر وذهبت منه العين أو الأثر. فتقوم الجمعيات بإحيائه أو تجديده، فيكون لها الاجتماع - وفيه قوّة - مؤازر من معنى الجدّة وفيه قوّة أخرى فتصير القوتان للجمعية بمثابة جناحين تطير بهما إلى الكمال...". فالتجديد في نظره هو عملية متكاملة بين العودة إلى القديم والتطلّع إلى الجديد في آن واحد، وإنا لنلتمس هذا المعنى الشمولي لدى

الإمام حين يشير إلى نوع خاص من المحافظة "... حافظة مهدّبة تسيرنا في طور الانتقال وتكون لنا قنطرة نعبر عليها من قديمنا إلى الصالح الذي ننشده وتقينا شرّ الذبذبة التي هي وليدة الطفرة."

ويقوم التجديد عند الإبراهيمي على أربع ركائز هي: الدين، الأخلاق، العلم، والمال. وهي أسس مترابطة و متماسكة يكمل بعضها البعض، ويُشترط لتحقيقها التفاف أبناء الأمة الواحدة واجتماعهم، وبند كل ما من شأنه تفرقتهم من أهواء وتخرّب وتشيع، يقول "إذن نحن محتاجون إلى تكوين اجتماع خاص تنتج عنه نهضة منظمة في جميع لوازم حياتنا القومية الخاصة، وألزم هذه اللوازم أربع: الدين الأخلاق، والعلم والمال." لذلك نجدّه يصوّب اهتمامه نحو هذه الأسس يتعهّدها بالإصلاح لأجل تحقيق الهدف الذي ينشده وأقرانه المصلحون "إنّ الهدف في الأخير الذي يحدّده التاريخ لهذه الجمعية هو اليوم الذي يصبح فيه المسلمون كلّهم بهذا الوطن ولا مرجع لهم في التماس الهداية إلاّ كتاب الله وسنة رسوله صلّى الله عليه وسلّم، ولا سلطان على أرواحهم إلاّ لله الحيّ القيوم، ولا مصرف لجوارحهم وإرادتهم إلاّ الإيمان الصحيح تنشأ عنه الأعمال الصالحة..."

ولإدراكه الراسخ أنّ تحقيق ذلك الهدف السامي لن يكون أمرا هيّنا بالنظر للظروف الاستعمارية التي كان يرزأ تحتها الشعب الجزائري، جعل الشيخ الإبراهيمي الإصلاح العلمي الخطوة الهامة الثانية في العملية التجديدية بعد الإصلاح الديني الذي كان يعدّه ضرورة ملحة.

✓ الإصلاح الديني:

عرفت الجزائر وضعا دينيا مزريا لاسيما وقد ركّز عليه المستعمر معتبرا إياه الحاجز المنيع الذي يقف حجرة عثرة أمام أطماعه السياسية، ومن ثمّ كان لا بدّ من إجراء تحويل ديني، إن لم يكن إلى المسيحية فليكن إلى الانحلال

والتميّح. يقول الشيخ الإبراهيمي "جاء الاستعمار الفرنسي إلى هذا الوطن كما تجيء الأمراض الوافدة تحمل الموت وأسباب الموت. والاستعمار سمّ يجارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح. وهو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية، وعبث بجرمة المعابد وحارب الإيمان بالإلحاد والفضائل بحماية الرذائل والتعليم بإفشاء الأمية، والبيان العربي بهذه البلبلة التي لا يستقيم معها تعبير ولا تفكير." وإزاء ذلك المخطّط الاستعماري البغيض كُتف رجال الإصلاح نشاطهم لتغيير المفهوم الديني السائد والعودة بالدين إلى أصله النقي، فأخذوا على عاتقهم الدعوة إلى التوحيد وغرس العقيدة الصحيحة في النفوس. يقول الإبراهيمي متحدّثاً عن جمعية العلماء وأهدافها التجديدية "إنّ الحدّ الأخير الذي يحدّه التاريخ لهذه الجمعية هو اليوم الذي يصبح فيه المسلمون كلّهم بهذا الوطن، ولا مرجع لهم في التماس الهداية إلّا كتاب الله وسنة رسوله، ولا سلطان على أرواحهم إلّا الله الحيّ القيوم، ولا مصرف لجوارحهم وإرادتهم إلّا الإيمان الصحيح تنشأ عنه الأعمال الصحيحة... يوم يصبح المسلمون متساوين في العبودية لله، لا يعبدون غيره ولا يدعون سواه، ولا يسلمون وجوههم إلّا إليه، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله."

وقد أدرك الإبراهيمي أنّ نشر العقيدة الصحيحة لا يتحقّق إلّا بتطهيرها ممّا علق بها من شوائب الشرك والبدع ممّا أحدثه في دين الله المحدثون، وأشرك به مع الله غيره المشركون "والعقيدة الحقّة لها ميزان دقيق وهو الكتاب والسنة. فإذا عرضنا عقائد الناس على ذلك الميزان وجدناها طائشة، فأبى سبيل نسلكه لتقويمها؟ إن اقتصرنا على بيان العقيدة الصحيحة واجتهدنا في إقامة الأدلّة، فإنّ التأثير يكون قليلاً، لأنّ النفوس قد اصطبغت بعوائد وتقاليد مستحكمة، والفطر قد فسدت بما لا بسها من خرافات وأوهام، فالواجب إذن أن نبدأ بمحاربة تلك البدع والخرافات بطرق حكيمة تقرب من أذواق

النّاس، فإذا ماتت البدع والخرافات وصفت الفطرُ من ذلك الشّوب سهل تلقين العقيدة الصحيحة وتلقّتها الأمة بالقبول"

وعلى الرغم من أن فرنسا كانت تستهدف - ضمن خططها الاستعمارية - الدين الإسلامي في المقام الأوّل، فإنّ رجال الإصلاح أعرضوا عن مواجهة هذا الاستعمار المادّي ليوجّه ضرباتهم إلى الاستعمار الروحي الذي يمثله مشايخ الطرق المؤثرون في الشعب، المتجرون باسم الدّين، المتعاونون مع الاستعمار المادّي عن رضا وطواعية من أجل تجهيل الأمة لئلا تفيق بالعلم، وتفكيرها لئلا تستعين بالمال على التحرّر. فكان من سداد الرأي وإحكام التدبير البدء بمحاربة الاستعمار الثاني لأنه أضرّ خطرا وأهون دفاعا. فإحياء الدّين الإسلامي في الجزائر كان يقتضي تنقيته من الشوائب التي علقّت به كخطوة أولى تمهّد الطريق لخطوة ثانية... يقول الشيخ الإبراهيمي كان معقولا جدّا أنّ الإصلاح الدّيني لا يطمئنّ به المضجع في هذه الدّيار، ولا ترسخ جذوره إلّا إذا مهّدت له الأرض ونقيت. ولا بدّ بعد وجود المقتضيات من إزالة الموانع. وموانع الإصلاح بهذه الدّيار وعوائقه هي طائفة أو طوائف تختلف اسما وصفة وتتحدّ رسما وغاية."

ويؤكد الشيخ الإبراهيمي أنّ عمليّة إزالة الموانع تعدّ خطوة أولى في طريق التجديد حين يواجه من يعيب عليه - وأقرانه من المصلحين - انشغاله بالردّ على المنحرفين في العقيدة وصرف الجهد والوقت في ذلك فيقول "وقد يظنّ الظانون وتنطق ألسنتهم بهذا الظنّ أنّ هذه المنكرات التي نحاربها ونشتدّ في حربها هي قليلة الخطر، ضعيفة الأثر، وأننا غلونا في إنكارها وأنفقنا من الأوقات والجهود في حربها، ما كان حقيقا أن يصرف في ناحية أخرى أهمّ كالإصلاح العلمي، وفات هؤلاء أنّ اللوازم القريبة لتلك المنكرات التي تشتدّ الجمعية في محاربتها التزهيد في العلم وإفساد الفطر وفشل العزائم وقتل الفضائل النفسية، وإزالة الثقة بالنفس من النفس وتضعيف المدارك وتخدير

المشاعر، وهي رذائل لا تجتمع واحدة منها مع ملكة علمية صحيحة، فكيف بها إذا اجتمعت. فكان من الحكمة أن تبتدئ الجمعية بتطهير النفوس من الرذائل، وأن تجعل من صرخاتها عليها نذيرا للناشئة أن تتلّخ نفوسهم بشيء من أوضارها. "ثم إنّ هؤلاء المرابطين لا يمثلون في الواقع إلاّ وجهها آخر من أوجه الاستعمار البغيض في نظر الإبراهيمي" إنّ المرابطة هي الاستعمار في معناه الحديث المكشوف وهي الاستعباد في صورته الفظيعة.

ويركّز الشيخ الإبراهيمي - في العملية الإحيائية التي تبنّاها- على تلك الطقوس الصوفية التي أحدثت وثنية في الإسلام مبتعدة عن أصالة الدين الحنيف فيقول القوم عارفون بالله وإن لم يدخلوا كتابا، ولم يقرأوا كتابا، وكلّ ما ينتسب إليهم عارف بالله بمجرد الانتساب أو بمجرد اللحظة من شيخه. وقد كان قدماؤهم يتخذون من مراحل التربية مدارج للوصول إلى معرفة الله فيما يزعمون...

إنّ مثل تلك الطقوس الغريبة عن الإسلام أحدثت شرخا كبيرا بين أبناء المجتمع الواحد فبدل التساوي في الكرامة والحقوق والواجبات، انقسم المجتمع إلى مشايخ ومقدّمين وإخوان. وبدل الأخوة بين كافّة أعضاء المجتمع، عمّ التحزب والتعصّب لتعدّد الطرق واختلافها...لذا نجد الشيخ الإبراهيمي يسعى بمعية أقرانه من ينضون تحت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد ركّزوا جهدهم للتصدّي للطرفيين لأجل إصلاح المفهوم الدّيني، وقد عمدوا إلى تعرية أدياء الدّين وفضح سوءاتهم بعد أن كان الأوليا يحيطون أنفسهم بقداسة مرعبة مرهبة للبطاء من الشعب، وقد أصبح الدّين في عرف هؤلاء تعبديا لا يقبل إلاّ التسليم وفي حرمة هذه القداسة، والحرم الأمن لهذه الولاية، عاش الانحراف الدّيني أزهى عصوره، وطوّح حتّى الوثنية العمياء، ونفض أدياء الدّين أيديهم من كلّ واجب أمر به الدّين، واستحلّوا كلّ ما نهى عنه، وتعالوا بقداستهم إلى ما فوق الفرائض والواجبات، واستوى

الحلال والحرام في اجتهادهم، وامتزجت العريضة بالحوقلة في مواسمهم وموالدهم. وقد عمد الإبراهيمي إلى فضح ذلك الانحراف، وتعقب ذلك الحرم الآمن الذي يختفي وراءه أولئك الأدعياء ممزقا بذلك حجب القداسة وأستار الغموض التي كانوا يحيطون أنفسهم بها، يقول "إنّ هذه القلعة هي معقل الأسمى والملاذ الأحمى لأصحابنا اليوم. فكلّ راقص صوفي. وكلّ ضارب بالطبل صوفي. وكلّ عابث بأحكام الله صوفي. وكلّ ماجن خليع صوفي. وكلّ مسلوب العقل صوفي. وكلّ آكل للدين بالدنيا صوفي. وكلّ ملحد في آيات الله صوفي." وقد جابه المصلحون تلك الطائفة من الطرفين المنحرفين المتزمتين، وحاربوها ودحضوا ادّعاءاتها وطقوسها البعيدة كلّ البعد عن تعاليم الدين الحنيف، سلاحهم في ذلك العلم والحوار المقنع والموعظة الحسنة فمنا بالدعوة إلى ما كان عليه السلف الصالح من التمسك بالقرآن الشريف والصحيح من السنّة الشريفة. وقد عرف القائمون بتلك الدعوة ما يلاقونه من مصاعب وقُحْم في طريقهم من وضع الذين شبّوا على ما وجدوا عليه آباءهم من خلق التساهل في الزيادات والذبول التي ألصقتها بالدين المغرضون أو أعداء الإسلام الألداء والغافلون من أبناء الإسلام." وكان الواجب والأمر كذلك أن يصوّب الشيخ عمله لمحاربة هذه الظواهر الدخيلة على الدين الحنيف، يأتي في مقدّمتها ظاهرة التزمّت التي شاعت في أوساط الطرفين. هؤلاء الذين يتشبّثون بالماضي وبالنصوص القديمة من الفقه أو الدين دون أن يلتفتوا إلى مستجدّات العصر وما يتطلّبه من تفسير يتناسب مع الحاضر ويدفع الناس إلى الفهم الصحيح للإسلام.

✓ الإصلاح الأخلاقي

تعرّض الإبراهيمي إلى الواقع الاجتماعي لأمتّه، واهتمّ لشؤون مجتمعه وانبرى يحارب بعض المظاهر الدخيلة عليه، في مقدّمتها الانحلال الخلقي. وهو حين يتناول هذه القضايا ويعالجها يسعى لبناء الشخصية الجزائية

وإعدادها إعدادا وطنيا سليما من خلال نظرة شمولية تتعدى المفهوم الضيق للوجه التعبدي من الإسلام. فهو يرى في هذا الأخير دستورا متكاملًا من شأنه إحداث نهضة حقيقية، يقول "ويا ويح الجاهلين أيريدون من كلمة الإصلاح أن نقول للمسلم قل: لا إله إلا الله مدعنا طائعا، وصلّ لربك أوّاهَا خاشعا، وصم له مبتهلا ضارعا وحجّ بيت الله أوّابا راجعا. ثمّ كن ما شئت نهبه للتّاهب، وغنيمة للغاصب ومطيّة ذلولا للركاب. إن كان هذا ما يريدون فلا ولا قرّة عين... وإثما نقول للمسلم إذا فصلنا: كن رجلا عزيزا قويّا عالما هاديّا محسنا كسوبا معطيا من نفسك، آخذا لها عارفا للحياة سبّاقا في ميادينها، صادقا صابرا هيّنا إذا أريد منك الخير، صلبا إذا أردت على الشرّ. ونقول له إذا أجملنا: كن مسلما كما يريد منك القرآن وكفى...". فالإبراهيمي يرسم للمسلم الطّريق السويّ لبناء مجتمع سليم قوامه الدّين ودعائه الوحدة والتّماسك، لذا نجدّه يدعو إلى الوحدة الاجتماعية في ظلّ وحدة دينية إنّ التّفرّق شرّ كلّ. وشرّ أنواع التّفرّق ما كان في الدّين، وأشنع أنواع التّفرّق في الدّين ما كان منشؤه الهوى والغرض، ونتيجة التّعادي والتّباغض وأثره في نفوس الأجانِب السّخرية من الدّين، والتّنقّص له واتّخاذ أعمال أهله حجّة عليه. وما أعظم جناية المسلم الذي يقيم من أعماله الفاسدة حجّة على دينه الصّحيح، وما أشنع جريمة المسلم الذي يعرّض -بسوء عمله- دينه الطّاهر التّقي للزّراية والاحتقار.

فالإصلاح الأخلاقي لا يستقيم ولا تقوم له قائمة إلا إذا كان يدور في فلك الإصلاح الدّيني "ومردّ هذا أنّ الدّين الإسلامي هو المرجع الأوّل في هندسة حياة الإنسان في كلّ جوانبها، وفي تحديد مصيره، وهو بذلك يحدّد مصير هذا الإنسان ويهيّئه إلى تحمّل مسؤوليته أمام الله، وأمام نفسه وأمام العباد."³

والمتّبع لإنتاج الإبراهيمي الفكري يجده مرآة عاكسة تعكس الانحلال الخلقي الذي كانت تعيشه الجزائر. غير أنّه لم يكن يتوقّف عند حدّ فضح

ذلك الانحلال وتعريته، بل كان يجدد في إيجاد الحلول المناسبة له. وكان يرى بثاقب نظرته أنّ الأمة الجزائرية كانت تعاني وجاراتها المتّحدة في الدّين والجنس، المقاربة لها في العادات والمصطلحات عدّة مشاكل اجتماعية لا يسع المصلحون إغفالها، ولا السّكوت عليها بعد ظهور آثارها، وتحقّق أضرارها. وستعالج البصائر طائفة من أمّهاتها ببيان نتائجها، وبيان وجه الرّأي في علاجها، سائلة من حملة الأقلام وحملة الألسنة وذوي الرّأي أن يظاهروها في هذا العلاج، ومن الأمة أن تقوم بواجبها من السّمع والطّاعة والتّنفيد. فإنّ من بعض هذه المشاكل ما لو تّمدى وامتدّ لأتى ببيان الأمة من القواعد وقضى عليها بالمشخّ أولًا والتّلاشي أخيرًا.

ويوازن الإبراهيمي بين واقع الأمة وتعاليم الإسلام فيجد بونا شاسعا بين هذه الأخيرة وبين ما يعيشه المجتمع من عادات وتقاليد دخيلة وما ذلك إلا نتيجة ابتعاده عن حدود الله. مثل ذلك ما يراه في الزّواج الذي حاد عن مهمّته الأصلية "ولو أنّنا وقفنا عند حدود الله ويسرنا ما عسّرته العوائد من أمر الزّواج لما وقعنا في هذه المشكلة، ولكننا عسّرنا اليسير، وحكّمتنا العوائد في مسألة خطيرة كهذه، فأصبح الزواج الذي جعله الله سكنا وألفة ورحمة سبيلا للقلق والبلاء والشّقاء..."

وهو حين تناوله لقضية الزواج لا ينظر إليها من زاوية ضيقة تقف عند حدود بناء الأسرة فحسب، بل تتعدّها إلى أبعد من ذلك بكثير، إذ يرى في الزّواج سبيلا للدّود عن الوطن وحافزا للاستماتة منافحة عن العرض والشّرف أيّها الشّبّان! إنكم لا تخدمون وطنكم وأمّتكم بأشرف من أن تنزوّجوا فيصبح لكم عرض تدافعون عنه وزوجات تحامون عنهنّ وأولاد يوسّعون الآمال. هنالك تتدرّبون على المسؤوليات وتشعرون بها، وتعظم الحياة في أعينكم وبذلك تزداد القومية في نفوسكم. إنّ الزّوجة والأولاد حبال تربط الوطني بوطنيته وتزيد في إيمانه... "وما ذلك إلا لأنّه يؤمن أنّ

الأسرة هي التّواة الحيوية، والأساس المتين الذي يبنى به مجتمع سليم خال من الأسقام الاجتماعية. لذلك نجدّه يتعهّد الشّباب بالرّعاية والمتابعة، ويسدي له النّصح والتّوجيه ويحثّه على العلم لأجل تربية النّشء تربية سليمة تؤهّله لخوض غمار المعركة ضدّ المستعمر الذي يسوم أبناء الجزائر أشنع أنواع الظّلم في ظلّ غياب العدالة الاجتماعية... فكيف لا تنسى العدل أمّة لبثت في ظلمات الظّلم أحقابا، وعقبت في ظلّ يحمومه أعقابا؟ أم كيف تذكره بعد أن محت آيته آية السيّف، فلم تنعم منه بإمامة الطّيف؟ وكيف يجد العدل مجالا بين حاكم لا يسأل عمّا يفعل وبين محكوم يسأل عمّا لم يفعل؟ وكيف يجد العدل سبيلا إلى نفوس زرع فيها الاستعمار- أوّل- بذرة احتقار المسلم الجزائري..."

فانعدام العدل وافتقار الأمّة إليه يعود إلى المحتلّ الذي وجد في الجزائر مرتعا له، ينعم في خيراته ويحرم أبناءها، بل حرّمهم من أدنى حقوقهم، حرّمهم من حرّيتهم وسلبهم منها وداس على كرامتهم حتّى لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك.

وقد خصّ الإبراهيمي الشّباب الجزائري بمقالات عدّة يحثّه فيها على مكارم الأخلاق ويؤكد على ضرورة التمسك بتلايب الدين. وتعدّ مقالاته الشّاب المسلم الجزائري كما تمثله لي الخواطر. "سجلا أخلاقيا عظيما. وهي أحاديث وخواطر يتجلّى فيها الإبراهيمي أبا حكيما ومرّيا مجرّبا ووطنيا فاضلا خبيرا، ومسلما مؤمنا. فهو يتمنى أن يرى شباب الجزائر مقداما على ما فيه صلاحه وصلاح وطنه (من عمل وعلم)، ثمّ صلاح الأمّة الإسلامية (عن طريق الوحدة)، وأخيرا صلاح الإنسانية جمعاء. وهنا تتجلّى النظرة الشمولية لديه، فهو يرى في صلاح الفرد الواحد طريقا إلى إصلاح الأمم، وهو ما يجسّد التّزعة الإنسانية عنده. ولن يحقّق الشّاب الجزائري تلك الآمال إلّا إذا اقتدى بخير الأنام -عليه الصّلاة والسّلام- وامثل لأوامره وسار على

خطاه " أتمثله محمدى الشمائل، غير صحّاب ولا عيّاب، ولا مغتاب ولا سبّاب، عفا عن محارم الخلق ومحارم الخالق، مقصور اللسان إلا عن دعوة الحقّ، أو صرخة في وجه الباطل متجاوزا عما يكره من إخوانه، لا تنطوي أحنأؤه على بغض ولا ضغينة..."

ويصرّ الإبراهيمى على مسألة التعايش والتّلاحم بين أبناء الأمة الواحدة تحت غطاء واحد هو غطاء الدّين، ومن ثمّ يلحّ على ضرورة تقديم الدّين عن الوطن أتمثله مقدّما لدينه قبل وطنه، ولوطنه قبل شخصه، يرى الدّين جوهرًا والوطن صدفاً، وهو غوّاص عليهما يصطادهما معا، ولكّنه يعرف الفرق بين القيمتين فإنّ أخطأ في التّقدير خسر مرتين..."

إنّ تلك الخواطر الّتي وجّهها الشّيخ للشّباب تحمل في طيّاتها معاني ودلالات عميقة تعكس رؤية صاحبها الاستشراقية، رؤية تشعّ بالأمل والتّفاؤل بعد أفضل، ومستقبل زاهر يبنى بسواعد شباب سلاحه العلم، ومطيّته العمل للنّهوض بالوطن نهضة حقيقية قوامها الدّين والوحدة. فالتجديد عنده يعني إحياء تعاليم الدّين بعد طمسها من قبل المبتدعة وأهل الضلال والانحراف. فهو يتّصل بعلاقة الإنسان المسلم مع الإسلام من حيث الفهم والعمل والتّطبيق، ولا يتّصل بجوهر الإسلام من حيث هو عقائد وعبادات ومعاملات. ذلك أنّ جوهر الإسلام ثابت لا يعتريه التّطور ولا التّغيير ولا التّبديل..."

✓الإصلاح العلمى:

لقد كان الإبراهيمى يؤمن إيمانا مطلقا بالإصلاح العلمى، وبضرورة تقديمه على سائر أنواع الإصلاح الأخرى، ذلك لأنّها لا تستقيم ولا تقوم لها قائمة إلاّ به، يقول إنّ الإصلاح العلمى هو ناحية من نواحي الإصلاح الكثرية الّتي يجب أن تعطىها جمعية العلماء المسلمين فضل اهتمام واعتناء. ولو

لم يحدث من الحوادث ما جعل اتّجاه الجمعية إلى الإصلاح الديني أقوى لكان الإصلاح أوّل ما تعالجه، وتبذل فيه جهودها، لأنّه ألصق باسمها، وأكثر ارتباطا بجرفة رجالها. ويكفينا دليلا على خطر الإصلاح العلمي وقيّمته أنّ أكبر عناصر الإصلاح الديني الذي لا يمتري في لزومه عاقل يستمدّ قوّته من شيء يسمّى علما وأشياء تسمّى علماء. فالعلم في نظر الشيخ هو السبيل الأمثل لإحياء الدّين، ومن ثمّ كان من الأحرى أن يمثّل نقطة انطلاق العملية التجديدية، لكننا نجده في المرتبة الثانية بعد الإصلاح الديني، ويعود ذلك لرغبة الشيخ وأعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في القضاء على الدجل والانحراف الذي تفشى في أوساط الشعب الجزائري. ويبرّر الشيخ أسباب تقديم الدّين وإصلاحه على العلم في قوله "وإذا كان الإصلاح العلمي بمعناه العام المتعارف هو اختيار أقرب طرائق الإلقاء لذهن المتعلّم واختيار أقرب الكتب لأداء المعنى الصحيح لفهمه وتدريبه على تطبيق النظريات على العمليات - إذا كان هذا الإصلاح لم يتمّ في مصر وتونس، وحالهما غير حالنا وهما تملكان من الوسائل لذلك ما لا نملك وتتصلان من النظام والإدارة بما لا نتصل به، مع صراخ المتعلّمين ومناداتهم بضرورة الإصلاح ومؤاتاة روح النظام العصري لهم، فكيف يتمّ لنا شيء من ذلك ونحن قليل مستضعفون، لا نملك بعد الاعتماد على الله إلاّ ثقتنا بأنفسنا وأبناء بررة من شبابنا الصالح المرجو للصالحات المدّخر لحمل راية الإصلاح بعدنا، المرشح لاقتحام ميادينه، الذي لم يفسد التّعليم القديم الجاف عليه أمره، ولم يחדش ملكاته. ومع ذلك استطعنا أن نخطو في الإصلاح العلمي خطوات واسعة وأن نلفت الأنظار إلى عملنا القليل."

فانعدام الوسائل، وتفشّي الجهل، وقلة الوعي بأهميّة العلم، إضافة إلى الابتعاد عن تعاليم الدّين...كلّها عقبات تحول دون التوجّه إلى الإصلاح العلمي في المقام الأوّل. لكنّها عوامل لم تكن لتثبّط من عزيمة الشيخ وأقرانه.

فقد أشار الإبراهيمي إلى المنهج الذي تبنته جمعية العلماء لتحقيق الإصلاح العلمي في قوله "وأمانا سيبلان ستتخذهما الجمعية من وسائلها لغايتها من الإصلاح العلمي. أولهما:

- مؤتمر سنوي تعقده بالعاصمة العلمية مدينة قسنطينة، يحضره كلّ القائمين بالتعليم من أعضائها العاملين، فتتبادل الآراء، وتتلاقح الأفكار وتستفيض المباحث عن أصول التربية والتعليم وأقوم طرائقها، وعن الأساليب والكتب التي تجمع بين العلم والعمل. وسيكون من نتائج هذا المؤتمر توحيد التعليم. وهو الرغبة التي لم تزل مناط آمال المصلحين بهذا الوطن.

- وثانيهما عكاظ علمي سنوي تقيمه في مدينة الجزائر على إثر اجتماعها العام وتمتد أيامه إلى ما فوق الأسبوع. ويلقي كلّ أعضائها العاملين محاضرات ليتمرنوا على الخطابة في مواضيع الدعوة والإرشاد. وسيعمل المجلس الإداري لوضع نظام مفصل لهذين المؤتمرين. فإذا تمّ لنا ما نريد منهما ووفّقنا لتحقيقها كانت الغاية منّا قاب قوسين أو أدنى. فالإبراهيمي، وعلى قلّة ذات اليد وجهود الفكر والتفوق على القديم، يرسم منهجا واضح المعالم يمكن الجمعية من بلوغ غايتها وبالتالي تحقيق الإصلاح العلمي. وهو ينادي بضرورة... صرف القوّة كلّها وتوحيد الجهود متضافرة إلى التعليم المثمر وتكوين طائفة جديدة منسجمة التعليم، مطبوعة بالطبع الإصلاحية علما وعملا، مسلّحة بالأدلة مدرّبة على أساليب الدعوة الإسلامية والخطابة العربية. حتّى إذا كثر سواد هذه الطائفة استخدمت في الحملة على الباطل والبدع...

والإبراهيمي، وهو يسعى للإصلاح العلمي، أولى اللغة العربية عناية خاصّة، ذلك لأنّه يؤمن إيمانا راسخا أنّها وعاء الإسلام وحافظة قرآنه وتراثه. وقد عرف بشدّة حبه لها وتعلّقه بها، لاسيما وأنّه كان يرى فيها أساس الهوية وعنصر الانتماء للأمة الجزائرية ويوقن أنّ اندثارها يعني موت الأمة، يقول إنّ

هذه الأمة تعتقد وتموت على اعتقادها أنّ لغتها جزء من كيائها السياسي والدّيني وشرط في بقائها... " وهو يؤكّد أنّ لغة الأمة هي ترجمان أفكارها وخزانة أسرارها، وأنّ الأمة الجزائرية تعتقد جازمة أنّها حافظة دينها ومصحّحة عقائدها، ومدوّنة أحكامها، وأنّها صلة بينها وبين ربّها، فهي لذلك عليها يد الضنّانة، وما نوّد أن تبدل بها لغات الدّنيا وإن زحرت بالآداب وغاضت بالمعارف، وسهلت سبل الحياة، وكشفت عن مكنونات العلم. فإن أخذت بشيء من تلك اللّغات فذلك وسيلة إلى الكمال في أسباب الحياة الدّنيا، أمّا الكمال الروحاني والتمام الإنساني لا تنشده ولا تجده إلاّ في لغتها الّتي تكوّن منها تسلسلها الفكري والعقلي وهي لغة العرب."

وأبناء الجزائر لا يستطيعون ولا يريدون استبدال لغتهم الأمّ بلغات أجنبية، ولئن استعانوا بهذه الأخيرة في الأمور الدنيوية فإنهم احتفظوا للعربية بمكانتها ذلك لأنّها السبيل الوحيد لتحقيق الكمال الروحي والتمام الإنساني. وهو ما يحسب للغة العربية كونها تستطيع أن تعيش مع مختلف اللغات والحضارات وتعايشها، كما تستطيع أن تستوعب تاريخ وحضارة الإنسانية وقد كانت هذه اللّغة ترجمانا لكثير من الحضارات المتعاقبة الّتي شادها العرب بجزيرتهم، وفي أوضاع هذه اللّغة إلى الآن من آثار تلك الحضارات بقايا وعليها من رونقها سمات، وفي هذه اللّغة من المزايا الّتي يعزّ نظيرها في لغات البشر الاتّساع في التّعبير عن الوجدانيات، والوجدان أساس الحضارات والعلوم كلّها. فاللغة العربية ليست جامدة غير قادرة على استيعاب ما وصلت إليه الحضارات، بل إنّها لغة طيّعة تستطيع احتواء حضارات متعدّدة، ذلك ما يؤكّده في خطابه لأبنائها من الجزائريين أيّها الإخوان: لو لم تكن اللّغة العربية لغة مدنية وعمران، ولو لم تكن لغة متّسعة الآفاق غنيّة بالمفردات والتراكيب لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها ينقلوا إليها علوم اليونان وآداب فارس والهند ولألزمتمهم الحاجة إلى تلك العلوم

تعليم تلك اللغات ولو فعلوا لأصبحوا عربا بعقول فارسية وأدمغة يونانية ولو وقع ذلك لتغيّر مجرى التاريخ الإسلامي برمته... لو لم تكن اللّغة العربية لغة عالمية لما وسعت علوم العالم وما العالم إذ ذاك إلاّ هذه الأمم التي نقل عنها المسلمون." لهذه الأسباب ولكون اللّغة العربية عنده تتلاحم مع الإسلام والعروبة تلاحما مكينا، وهي تمثّل له مبدأ جوهريا ومكوّنا رئيسيا من مكوّنات هويّته الأصيلة وهويّة أمته، نجد الإبراهيمي ينادي بوجود إحيائها ونشرها بين أبناء الجزائر لأجل إفشال مخطّطات العدو الصليبية الرامية للقضاء على اللّغة العربية في الجزائر. وقد وضع الأصبع على مكنن الداء حين صرّح "مشكلة العروبة في الجزائر أساسها وسببها الاستعمار الفرنسي، وهو عدوّ سافر للعرب وعروبتهم ولغتهم، ودينهم الإسلام... ويبيان ذلك مع الإيجاز أنّ الاستعمار الفرنسي صليبي النزعة، فهو منذ أن احتلّ الجزائر عامل على محو الإسلام لأنّه الدين السماوي الذي فيه من القوّة ما يستطيع به أن يسود العالم، وعلى محو اللّغة العربية لأنها لسان الإسلام، وعلى محو العروبة لأنها دعامة الإسلام، وقد استعمل جميع الوسائل المؤدّية إلى ذلك ظاهرة وخفيّة سريعة ومتأّية، وأوشك أن يبلغ غايته بعد قرن من الزمن متّصل الأيام والليالي في أعمال الحو لولا أن عاجلته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على رأس القرن بالمقاومة لأعماله والعمل على تخبيب آماله." فبالرغم من أنّ المحتلّ قد استطاع أن يفرض أحكامه وقوانينه الجائرة بالقوّة، وتمكّن أن يخفي الإرث العربي الإسلامي ويشلّه زمنا طويلا إلاّ أنّه لم يتمكّن من القضاء عليه وإتلافه ذلك لأنّه يرتبط ارتباطا وثيقا بمعاني الكينونة والهويّة: كينونة الشعب الجزائري وهويّته. هذا الأخير الذي ظلّ صامدا أمام جبروت المحتلّ يردّ مكائده وافتراءاته التي تنكر عليه جنسه ولغته وقوميّته، لاسيما وقد كان زعماء الإصلاح يشدّون أزره ويدعونه إلى إحياء اللّغة العربية وبعث الدّين الإسلامي بعثا جديدا. يقول الشيخ الإبراهيمي اللّغة

العربية في الجزائر ليست غريبة ولا دخيلة بل هي في عقر دارها وبين حمايتها وأنصارها وهي ممتدة الجذور مع الماضي مشددة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل لأنها دخلت هذا الوطن. ممتدة مع الماضي لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على السنة الفاتحين، ترحل برحيلهم، وتقيم بإقامتهم. فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي إقامة الأبد وضرب بجرانه فيه أقامت معه العربية لا تريم ولا تبرح مادام الإسلام مقيما لا يتزحزح ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس وتنسأخ في الألسنة واللّهوات، وتنساب بين الشفاه والأفواه يزيدا طيبا وعدوية أن القرآن بها يتلى وأن الصلوات بها تبدأ وتختتم. "ولأنّ اللّغة العربية كذلك، ولأنّها تمثّل إحدى أهمّ ركائز الأُمّة ومقوماتها، كان لها على الشعب الجزائري حقّان: حقّ من حيث أنّها لغة دين الأُمّة بحكم أنّ الأُمّة مسلمة. وحقّ أنّها لغة جنسها بحكم أنّ الأُمّة عربية الجنس. وفي المحافظة عليها محافظة على الجنسية والدين معا. يقول اللّغة العربية هي لغة الإسلام الرسمية، ومن ثمّ فهي لغة المسلمين الدّينية الرّسمية وهذه الأُمّة الجزائرية حقّان أكيدان كلّ منهما يقتضي وجوب تعلّمها فكيف إذا اجتمعا. حقّ من حيث أنّها لغة دين الأُمّة بحكم أنّ الأُمّة مسلمة، وحقّ أنّها لغة جنسها بحكم أنّ الأُمّة عربية الجنس، ففي المحافظة عليها محافظة على جنسية ودين معا..."

وتمسّك الإبراهيمي بالدين والعروبة كان يرتبط ارتباطا وثيقا بفكرة الجهاد والاستشهاد في سبيل جزائر عربية إسلامية. وهو اتّجاه كان عمليًا وحيويًا في قضية التحرير الوطني العام لأنّها كانت الردّ الطبيعي على السياسة الاستعمارية الصليبية التي سلكتها فرنسا في الجزائر "ولو نشاء لقلنا أحيينا اللّسان العربي والتّخوة العربية وأحيينا دين الإسلام وتاريخه المشرق، وأعدنا لهما سلطانهما على النفوس وتأثيرهما في العقول والأرواح وشأنهما في الاتّعاظ والأسوة. فأحيينا بذلك كلّ الشعب الجزائري فعرف نفسه فاندفع

إلى الثورة يحطّم الأغلال ويطلب بدمه الحياة السعيدة والعيشة الكريمة
ويسعى إلى وصل تاريخه الحاضر بتاريخه الغابر."

خاتمة:

يعدّ الإبراهيمي من أبرز أقطاب الحركة الإصلاحية بالجزائر، وأحد أعظم
رموز نهضتها الثقافية والأدبية. أوقف حياته، وسخر يراعه للدفاع عن قضايا
الوطن العربي والأمة الإسلامية. وقد تميّز عمله ب:

- التجديد: ويعني مسaire التطوّر ومعايشة الواقع دون الانسلاخ عن
القيم والتنكر لكلّ قديم. فإحياء التراث العربي، والمحافظة على مقومات
الأمة لا يعني بأيّ حال من الأحوال الرّكون إلى الماضي بل الإفادة منه
واستلها مغانيه واستخلاص العبر منه.

- الإصلاح العلمي يحتلّ المكانة البارزة في التجديد بعد الإصلاح الدّيني.
لأنّ الانحرافات السلوكية التي تكدر صفو الواقع الإسلامي، إنّما مردّها في
الغالب الأعمّ إلى سوء الفهم لتعاليم الدين.

- فهم الدين على طريقة السلف الصالح قبل ظهور الخلاف بين المسلمين
أو المذاهب الإسلامية، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، وهي
القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

- اعتبار الدين صديقاً للعلم، ولا موضع لتصادمهما إذ لكل منهما وظيفة
يؤديها، وهما حاجتان من مستلزمات البشر لا تغني إحداها عن الأخرى.

- الاهتمام باللّغة العربية كونها وعاء الدين الإسلامي وحافظة قرآنه،
والعمل على إحيائها لتستعيد مكانتها كلغة دين، وعلم وثقافة.

المصادر والمراجع:

- 1- أبو القاسم سعد الله- الحركة الوطنية الجزائرية - بيروت- دار الغرب الإسلامي.
- 2- أحمد الخطيب - جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر- الجزائر- المؤسسة الوطنية للكتاب - 1985م.
- 3- البصائر- س1 - ع37- 1936
- 4- البصائر- ع41 - 1948م.
- 5- صالح خرفي- الشعر الجزائري الحديث-الجزائر- المؤسسة الوطنية للكتاب-1984م.
- 6- صالح خرفي- المدخل إلى الأدب الجزائري-الجزائر- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - 1983.
- 7- عبد الله شريط - الأديب العربي والشعب- مجلة الأصالة- الجزائر- ع13- س3- 1983م.
- 8- عبد الملك مرتاض- نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925-1954-الجزائر- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - ط2- 1985.
- 9- محمد البشير الإبراهيمي- آثار الإبراهيمي- الجزائر- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - ط1- ج1.
- 10- محمد البشير الإبراهيمي- عيون البصائر- الجزائر- شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع - 2007 .
- 11- محمد الدراجي- الحركة الإصلاحية في الجزائر- الجزائر- دار قرطبة للنشر والتوزيع - 2008 - ط1- ص47.

- 12- محمد عباس - البشير الإبراهيمي أديبا- الجزائر- الديوان الوطني
للمطبوعات الجامعية- المطبعة الجهوية بوهران-1984.
- 13- محمد ناصر- المقالة الصحفية - المقالة الصحفية الجزائرية نشأتها
تطورها أعلامها من 1903 إلى 1931 - وزارة الثقافة - 2007م - ج 1
- 14- نور سلمان- الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير- بيروت-
دار العلم للملايين - 1981م.

الخطاب الإصلاحى عند الشيخ العربى التبسى وأثره فى الهوية اللغوية

أ/ عبد القادر معبد

ج. مهلود معمري - نيزي وزو-

مقدمة:

كان قادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يدركون أن الشعب الجاهل لا يمكنه الحصول على استقلاله من أعدائه، كما أنه عاجز عملياً عن المحافظة عليه بعد تحقيقه؛ لأنه لا يستطيع أن يقدر الاستقلال حق قدره، لهذا اتخذوا من المدرسة أداة رئيسية لمحاربة الاستعمار.

وقد كان سبب اختياري لهذا الموضوع مرتكزا على الخطاب الإصلاحى عند الشيخ العربى التبسى؛ لأن الخطاب الإصلاحى هو الذى أصلح حال المجتمع الجزائرى، وزرع فيه حب العلم والدين والتمسك بالوطن، ولأن الشيخ العربى التبسى واحد من كبار رجال الإصلاح فى الجمعية وأحد أعلامها ومدرسىها النشطين، الذين عملوا على إحياء اللغة العربية والتراث الدينى للأمة، وتطهير الإسلام من الشوائب التى علقته به خلال عقود الاستعمار، ولأن الخطاب الإصلاحى جاء بالخير العميم على الكثير من مناطق الوطن وبخاصة مسقط رأسه مدينة تبسة.

« وقد كان ابن باديس ورفقاؤه يرون أن التعليم أهم سلاح للوقوف فى وجه المستعمر، لهذا نجد الشيخ العربى التبسى كرّس كلّ وقته منذ عاد إلى

أرض الوطن سنة 1927 في تربية وتكوين الناشئة، فكان ينظم دروساً للعامّة، ودروساً وحلقات للخاصة، وحلقات مغلقة للمدرسين والمعلمين والمريدين، فأنشأ مدرسة التهذيب* بتبسة، واعتنى بها، ثم اتجه إلى مدينة (سيق)⁽¹⁾ بالغرب الجزائري، حيث لقي حفاوة كبيرة من أهلها، ومكث بينهم لمدة سنتين فأسس أعيان تبسة لجنة خاصة أرسلوها إليه لإقناعه بالرجوع، إلا أنه رفض طلبهم إلا بموافقة أهل سيق وبإلحاح من اللجنة وافق أهل سيق على رجوعه إلى مدينة تبسة.

والسبب الأخير هو محاولة التعرف على بعض الخصائص الأسلوبية والفنية في نصوص الشيخ العربي التبسي، وجهوده الإصلاحية الرائدة في الحفاظ على الهوية اللغوية للمجتمع الجزائري.

فما مفهوم الخطاب الإصلاح عند الشيخ العربي التبسي؟

وما هي معالم الهوية التي أحيها في الأمة الجزائرية؟

وما هي أهم الأشكال والخصائص الكتابية المتضمنة في آثاره؟

1- تعريف بالشيخ العربي التبسي:

ولد العربي بن بلقاسم بن مبارك بن فرحات التبسي بقرية (أسطح) جنوب غرب تبسة بأقصى الشرق الجزائري سنة 1321 هـ/ 1895 م⁽²⁾.

* كانت مرحلة إدارة الشيخ لمدرسة تهذيب البنين والبنات بتبسة ما بين (1933م - 1947م).
⁽¹⁾ هي دائرة تابعة لولاية معسكر تبعد عن وهران بـ 52 كلم وعن معسكر بـ 49 كلم، وعن مدينة أرزيو الساحلية 37 كلم. اسمها القديم في العهد الروماني تاساكورا ومعناه مجرى نهر مكرة. وفي العهد الإسلامي مدينة سيق نظرا لكثرة السواقي فيها وفي العهد الاستعماري أطلق عليها 'سان دوني دي سيق' وبعد الاستقلال أصبح اسمها من جديد سيق.

⁽²⁾ محمد علي ديبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج1، ط1، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر،

1974، ص 42- بتصرف-

ابتدأ العربي التبسي حفظ القرآن على يد والده، وفي سنة 1324 هـ / 1907م رحل إلى زاوية ناجي الرحمانية جنوب شرقي مدينة خنشلة بالشرق الجزائري فأتم حفظ القرآن خلال ثلاث سنوات، ثم رحل إلى زاوية مصطفى بن عزوز ب(نفطة) جنوب غرب تونس في سنة 1327 هـ / 1910م وفيها أتم رسم القرآن وتجويده وأخذ مبادئ النحو والصرف والفقه والتوحيد.

يقول محمد علي دبور: "وكان أساتذته لإعجابهم بصلاحه، وبره العظيم وبجده وتقدمه في العلم، ولسنه أيضا، وما أورثه من النضوج، يحبونه حبا جما، ويرونه صديقهم فيقربونه، فيزورونه في بيته، ويحضرونه في مجالسهم الخاصة، وكان من مشايخه هؤلاء الشيخ عثمان بن المكي الأستاذ المصلح الغيور. وكان العربي وزملاؤه النجباء شديدي الصلة به خارج الدرس.⁽¹⁾

ثم التحق بجامع الزيتونة بتونس سنة 1331 هـ / 1914م حيث نال شهادة الأهلية ثم رحل إلى الأزهر بمصر سنة 1339 هـ / 1920م فمكث فيه إلى غاية سنة 1346 هـ / 1927م ثم رجع إلى تونس وحصل على شهادة التطويق (العالمية) بجامع الزيتونة.⁽²⁾

عاد إلى الجزائر سنة 1347 هـ / 1927م فاشتغل بالتعليم العربي الإسلامي في تبسة وغيرها من أرض الجزائر وشارك في الحركة الإصلاحية التي كان يقودها الشيخ عبد الحميد بن باديس بقلمه بما كان ينشر له في الجرائد والمجلات ودروسه التي كان يلقيها في المساجد.

وفي سنة 1355 هـ / 1935م اختير كاتبا عاما لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ثم نائبا لرئيسها الجديد الشيخ البشير الإبراهيمي وذلك سنة 1360 هـ / 1940م .

(1) المرجع نفسه، ص: 61 - بتصرف -

(2) المرجع نفسه، ص 68، 69 - بتصرف -

ولما رحل الشيخ البشير الإبراهيمي إلى المشرق سنة 1371 هـ / 1952 م تولى الشيخ التبسي رئاسة الجمعية إلى أن توقف نشاطها. وقد سجن الشيخ عدة مرات من طرف الاحتلال الفرنسي لمواقفه الصريحة ضد الاستعمار، وفي 4 رمضان 1376 هـ 4 أبريل 1957 م خطفه الفرنسيون من مقر سكنه واغتالوه. رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه.

وقد جمع له الدكتور أحمد الرفاعي الشريفي* مجموعة مقالاته التي نشرت في بعض المجلات كالشهاب وغيرها تحت عنوان (مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر) نشرت في جزئين أحدهما طبع سنة 1402 هـ والآخر سنة 1404 هـ.

أما عن اختفائه واستشهاده فقد اعتمد الدارسون في التأريخ لوفاة الشيخ على بلاغ جمعية العلماء المنشور في جريدة المقاومة، الذي يعد اختفائه ابتداء من ليلة الخميس 04 / رمضان / 1377 هـ، الموافق لـ 04 / 04 / 1957 م، والذي

* الشيخ الدكتور (أحمد شرفي الرفاعي)... عالم قسنطينة الكبير، هو من مواليد 1934 ببلدية خنشلة ولاية خنشلة، وفي 1350 هـ الموافق لـ 1932 م ببوحماسة ولاية خنشلة حسب شهادات الأقارب، درس بقسنطينة في معهد عبد الحميد بن باديس من 1948 إلى 1952 وانتقل إلى جامع الزيتونة بتونس ودرس به سنوات 1954 - 1956، ودرس بالأزهر في القاهرة سنوات 1956 - 1957، ودرس بجامعة بغداد سنوات 1958 - 1961، وواصل دراسته العليا بكلية الآداب جامعة القاهرة سنتي 1961 - 1962.

حائز على الأهلية من تونس سنة 1953، وعلى الثانوية العامة (البكالوريا) من الأزهر سنة 1957 كما درس بكلية دار العلوم بالقاهرة سنة 1957 - 1958، وحائز على ليسانس الآداب من بغداد سنة 1961، وحائز على شهادة النجاح للسنة التمهيدية للماجستير في الآداب من كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة 1962، ودكتوراه الطور الثالث من جامعة الجزائر سنة 1979. نقلا عن جريدة الشهاب - بتصرف -

أعاد نشره الأستاذ علي مرحوم، وقد روى الشيخ محمد علي دبور طريقة وفاة الشيخ العربي بأنه أُلقي به من الطائرة في البحر⁽¹⁾.

ويروي الدكتور أحمد عيساوي قصة استشهاده الحقيقية من خلال حوار أجراه مع أحد مجاهدي المنطقة الخامسة في الولاية التاريخية الأولى أوراس النمامشة الرائد أحمد الزمولي* حيث يروي قائلاً: "... وبعد عدة أيام من التعذيب جاء يوم الشهادة، حيث أعدت للشيخ بقرة كبيرة مليئة بزيت السيارات والشاحنات العسكرية والإسفلت الأسود وأوقدت النيران من تحتها إلى درجة الغليان والجنود السنغاليون يقومون بتعذيبه دونما رحمة... وطلبوا منه الاعتراف وقبول التفاوض وتهدئة الثوار والشعب والشيخ يردد بصمت وهدوء كلمة الشهادة: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم وضع من قدميه في البقرة المتأججة فأغمي عليه، وكانت آخر كلمة تلفظ بها رحمة الله: لا إله إلا الله محمد رسول الله. ثم أنزل شيئاً فشيئاً إلى أن أدخل بكامله فيها فاحترق وتبخر وتلاشى... ويتابع الصديقان أن ذلك اليوم كان على وجه التقريب حوالي 10 أو 12 أو 13 من شهر أبريل من سنة 1957م، وهو اليوم الذي قررا فيه الالتحاق بصفوف الثورة التحريرية، لهول ما رأياه من فظاعة

(1) محمد علي دبور، مرجع سابق، ج2، ص274، 275.

* الرائد سي أحمد الزمولي: من مواليد تبسة سنة 1937م، تعلم في مدرسة تهذيب البنين والبنات بتبسة، التي كان يديرها الشيخ العربي التبسي، ثم انتقل للتعلم في مدرسة وزاوية قلعة سنان التونسية سنوات 1950م، 1954م، إلى أن التحق بصفوف الثورة منها يوم 23/11/1954م، وصار كاتباً للقائد شريط لزهو ولنايبة القائد محمد بن علي، تقلب في مناصب قيادية أثناء الثورة وبعدها، وهو الآن يشتغل بالمحاماة. نقلا عن منارات من شهاب البصائر لأحمد عيساوي ص70.

المستعمر، وبقيًا يحتفظان بالسر إلى أن حملته - يقول سي أحمد الزمولي - من سنة 1964م، ولم أبح به لأحد إلى أن استجوَّبتني يا بني⁽¹⁾

2- أعماله الإصلاحية:

إن الحديث عن أعمال العربي التبسي تبرز من خلال سيرة حياته وفكره، وغايته هي الإسهام في النهضة الجزائرية، والتنقل بين المدن والقرى، شمالا وجنوبا، شرقا وغربا في سبيل نشر اللغة والدين، ومقاومة البدع، وتربية النشئ، وتأسيس المدارس و بث الوعي في الأجيال، فقبل سنة 1927م حين كان طالبا بالأزهر الشريف عمل بالكتابة المقالية، وبعد عودته إلى الجزائر واستقراره في بادئ الأمر بتبسة فقد عمل مدرسا، ومرشدا بها، بعد أن وُكِّلت له إقامة الدروس العلمية في بيان من إدارة الجمعية برئاسة الشيخ البشير الإبراهيمي آنذاك، وهذا فحوى البيان: بيان من المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى الأمة الجزائرية الكريمة:

إن المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بمكتب الرئاسة بقسنطينة يوم 17 أكتوبر الحاضر، قد قرّر استمرار التعليم المسجدي الديني لتلامذة الجامع الأخضر بتبسة كالعادة الجارية في السنتين الماضيتين لدواعٍ ضرورية قاهرة. وأسند - كالمعتاد - القيام بذلك التعليم إلى كفاءة الأستاذ النِّفَّاع الشيخ العربي التبسي الكاتب العام لجمعية العلماء مع التنويه بذكره، والإفصاح عن شكره على ما قام به في السنتين الماضيتين من المواظبة

(1) أحمد عيساوي، منارات من شهاب البصائر، مطبعة الوليد، وادي سوف، الطبعة الأولى،

على تلك الدروس النافعة لأبناء الأمة في دينهم ولغتهم، وما بذله من جهد وأظهره من حزم وعزم في استمرارها على أكمل وجه⁽¹⁾.

واستمر على هذا العمل بعد أن انتقل إلى مدينة سيق بالغرب الجزائري كما أشرت إليه سلفا، ثم عودته إلى تبسة، فقسطنطينة، وأخيرا الجزائر العاصمة، حيث اقتصر عمله فيها على إدارة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والخطابة بالمسجد الذي بقي يحمل اسمه إلى الآن.

ولقد تنوعت نشاطات الشيخ العربي التبسي بين الصحافة والخطابة والتدريس والإدارة، وبخاصة ما بين سنة (1927م حتى 1957م)، وكان الهدف منها كما ذكرت واحدا وهو إصلاح الفساد الذي لحق بالمجتمع ومعتقده متمثلا في الدين الإسلامي.

وسأحاول الوقوف على أهم أعماله كصحفي وخطيب، إضافة إلى كونه مدرسا وداعية، ثم صاحب إدارة فيما يلي:

أ- الصحافة:

تبرز بداية أعمال العربي التبسي في الصحافة من خلال المقالات التي بدأ ينشرها في جريدة النجاح، ثم في الشهاب وهو بعد طالب بالجامع الأزهر، ولقد اختلفت موضوعاته بين الثورة على الطريقة الفاسدة، والدعوة على تكثيف الجهود، والعمل بالتعاون بين جميع الجزائريين وخصوصا أهل العلم من المصلحين، حيث يقول في مقال نشره بالنجاح عام 1925م: إن الشعب الذي لا

⁽¹⁾ من كتاب (نفع الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار) للأستاذ سليمان الصيد، ط1،

ينتظم تحت مبدأ واحد، ويلتف حول جامع فرد، إليه يعمل الكل، منذر بالانهيار، مقضي عليه بالفناء العاجل، وهذا صحته لا تحتاج إلى بيّنة...⁽¹⁾.

ويقول كذلك في الدعوة إلى الاجتماع والتضامن ونبذ الفرقة: "نحن نفهم والعالم يدري أن الفرد الجزائري قوي، أبي، كريم، صدوق، قد وهب من دروب الكمال ما لم تنله أفراد، وتجمعه جماعات من غير استثناء، ولكن صلاح الأمم ومصير الشعوب ليس من مقدور الفرد، ووظائف الأحاد! وإنما هي مرتبطة بالجماعة ارتباط العلة بالمعلول والسبب بالمسببات فهبوا بنا إلى العمل متضامين، ويد الله مع الجماعة، والخير فيما رأت الأمة، ومن قدر أن ينفع أخاه فليفعل، ولعمري إنهم لحق عليكم إصلاح أمتكم وما لكم لا تفعلون؟ واذكروا تلك الآية الجامعة: ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾⁽²⁾، أما إذا بقيتم كما كنتم وعلى ما عرفتمن ورضيتم النقيصة في دينكم وديناكم وجماعتكم، فإياكم عنى الشاعر العربي إذ قال:

إن دام هذا ولم تحدث له غير لم يبك ميت ولم يفرح بمولود⁽³⁾

وعن هذا النشاط الصحفي الذي ميّز إحدى جوانب الكفاح عند العربي التبسي يقول علي دبوز: كان الشيخ العربي جادا في مقالاته متقنا لها معنى، لا يكتب إلا في المواضيع المهمة التي تشغل باله وبال الأمة، وإلا في قضايا الإصلاح، وما يعم نفعه، وقد شرح في مقالاته أمراض الأمة النفسية وبيّن أسبابها وعللها، فكانت دروسا عظيمة في التربية والأخلاق وعلم الاجتماع... إن الشيخ العربي لم يؤلف لنا كتابا لأنه أعطى نفسه للإصلاح،

(1) أحمد عيساوي، مرجع سابق، ص 183، نقلا عن جريدة النجاح، السنة السابعة، عدد 238.

(2) سورة الزلزلة، الآية: 7.

(3) أحمد عيساوي، مرجع سابق، ص 184، 185، نقلا عن جريدة النجاح، السنة السابعة،

فوقته في ليله ونهاره عامرا بما يشغله عن التأليف، ولكنه ترك لنا مقالاته الكثيرة التي لو جمعت لنا كتابا لكانت في أجزاء، إنها أصلح وألذ غذاء نقدّمه للأمة وإلى مدارسنا وجامعاتنا فيصحون⁽¹⁾.

وإن المتأمل في كتابات الشيخ العربي التبسي يجدها كما قيل قويّة اللّهجة، صريحة، تعكس شجاعة الرجل وعمق إيمانه، ومنطق حجته وسلاسة أسلوبه، إضافة إلى تنوعها بتنوع المواقف التي عاشها العربي التبسي، بدءا بما نشره في النجاح حتى البصائر الثانية.

بعد الإطلاع على أعمال الشيخ التبسي الكتابية ارتأيت ذكر بعض منها على التقسيم التالي⁽²⁾:

أولا: الدراسات والأبحاث:

- 1- إن كنت حاملا فلدي غلاما؛
- 2- قد ضل من كان مثل هذا يهديه؛
- 3- بدعة الطرائق في الإسلام؛
- 4- إعداد الوسائل للعناية بالمجتمع.

ثانيا: المقالات:

- 1- الإصلاح والتقدم وأسباب النجاح؛
- 2- هذه جزائركم تحتضر أيها الجزائريون فأنقذوها؛
- 3- ألا أيها النوّام يوحكم هبوا؛
- 4- أزفت ساعة الجماعة وتصرم عصر الفرد.

(1) محمد علي ديبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج2، مرجع سابق، 1976م، ص55.

(2) أحمد عيساوي، مرجع سابق، ص564، 566.

ثالثا: الخطب والدروس:

- 1-خطبة في مؤتمر شعب جمعية العلماء المسلمين العمالي؛
- 2-الخطاب القيم الذي ألقاه الأستاذ العربي بلعب حسين داي بالجزائر؛
- 3-خطبة بمناسبة الذكرى الثانية عشر لوفاة الإمام عبد الحميد بن باديس؛
- 4-خطاب في الاحتفال بختم دروس المعهد الباديسي.

رابعا: الفتاوى:

- 1-رسائل الاستفتاء؛
- 2-فتوى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في التجنيس الجزئي الكلي؛
- 3-التجنيس والتوبة منه؛
- 4-فتاوى لجنة الفتوى.

خامسا: الاحتجاجات والردود:

- 1-مقتل المفتي الأكبر والحالة بالجزائر؛
- 2-رد على معرض أكاذيب الزاهري؛
- 3-رسالة احتجاج إلى بريد تبسة؛
- 4-فصل الحكومة الجزائرية عن المساجد.

سادسا: التقارير والبيانات:

- 1-إلى أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأنصارها؛
- 2-ملخص قرارات الجلسة الإدارية الأخيرة لجمعية العلماء؛
- 3-كلمة عن جمعية العلماء وانتخاب هيأتها الإدارية؛
- 4-تقرير جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لرسالة الشيخ مبارك المليي.

يتبين من خلال هذه المجموعات والمواضيع الكتابية مدى إسهام الشيخ بما يغذي الصحافة الإصلاحية التي نشر فيها الشيخ، والتي من بينها: (الشهاب، السنة، البصائر).

ب- الخطابة:

إن شخصية الشيخ العربي التبسي أقرب إلى الخطابة منها لغيرها؛ لما يتوفر فيه من صفات الخطيب المتمكن، ولكونها الوسيلة المناسبة لممارسة نشاطاته الأخرى من التعليم المسجدي والمدرسي وغيره، فقد كان ضليعا في معارف عصره، متمكنا من مختلف فروع العلم التي كانت تجود بها كليتا الزيتونة والأزهر، واسع الإطلاع على كل ما ينشر ويطبوع أو ينقل إلى العربية من علم أو أدب، وفن، غير أن تفوقه تجلّى في علوم الشريعة وأصول الفقه، وقواعد اللغة، وفنون الأدب⁽¹⁾.

وعن وصف شخصية الشيخ العربي التبسي يقول علي دبوز: كان الشيخ العربي -رحمة الله - قوي البنية، ربعة القد، جميل المنظر، أبيض الوجه تشوبه حمرة، وكانت الحمرة تزداد في وجهه فتحسب أن الدم سيسيل منه، وكان سليم الحواس حديد البصر، جهوري الصوت، حماسي اللهجة في دروسه وخطبه، يمشي في اتزان وقوة واندفاع، لقوة حزمه، وجثمانه، واعتداده بنفسه⁽²⁾.

أما عن سبب اعتماد الشيخ على أسلوب الخطابة أكثر من الكتابة فمرده إلى ما قاله محمد المليي: أما الشيخ العربي التبسي فلم يترك إلا بعض مقالات، ذلك أن الشيخ العربي مارس نشاطه الإصلاحي وعمله النضالي،

(1) حفاوي زاغر، الإمام الشيخ العربي التبسي، مجلة الثقافة، تصدرها وزارة الثقافة والسياحة بالجزائر، ع94، يونيو - أغسطس 1986م، ص128.

(2) محمد دبوز، مرجع سابق، ج2، ص59.

في وسط من أصعب المناطق الجزائرية، وهي التي يسميها الجغرافيون الفرنسيون الأوراس النمامشة، فهي منطقة تتجاوز فيها قبائل شديدة المراسن تأخذ بمخانقها عادات وتقاليد جاهلية، تعتبر فيها أخذ الثأر واجبا مقدسان يكفي أن يتظلم فيها أحد مستنفرا عشيرته حتى يهب رجالها لنصرته بالهجوم على ناس العشيرة التي ينتمي إليها خصمه، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث عما إذا كان ظالما أو مظلوما، وغالبا ما تنتهي المعركة برحى وأحيانا تسفر عن قتلى...⁽¹⁾.

ويواصل محمد المليي قوله عن جهل سكان المنطقة ونشاط الشيخ بينهم فيقول: "وقد كانت قوة شخصيته بالإضافة إلى أهمية قبيلته، خير مساعد له على تحريك منطقة شديدة التخلف أثر فيها بدروسه وخطبه، وبما أنشأه في جهاتها من مدارس ونواد ومساجد...⁽²⁾".

إن فصاحة الشيخ وقدرته الخطابية لاءمت الوضع الذي كان يعيشه الجزائريون؛ من جهل وتخلف وغير ذلك، فكان تأثيره غائرا في الأعماق، وصدى دعوته بلغت كل الآفاق.

ج-التعليم:

إن أول محطة مارس فيها الشيخ العربي التعليم هي بمسقط رأسه مدينة تبسة، وذلك بعد عودته من مصر، ويرى أبو القاسم سعد الله أن الوجه التعليمي الذي مارسه الشيخ بعد عودته يعود إلى تأثره بالتجربة الرائدة التي قام بها السيد

⁽¹⁾ محمد المليي، الشيخ مبارك المليي، حياته العلمية ونضاله السياسي، ط1، دار الغرب

الإسلامي، بيروت، 2001، ص32.

⁽²⁾ المرجع نفسه، ص33.

عباس بن حمادة سنة: 1913م بتبسة، فهي على حد رأي الكاتب نفسه أول مدرسة قرآنية عصرية حرة. ويرجع أسباب بزوغ مثل هذا المشروع إلى:

-بوادر النهضة التي أخذت تلوح في الأفق في عهد الحاكم العام شارل جونار حين برزت الصحافة والجمعيات والنوادي في المدن الرئيسية(قسنطينة-العاصمة)، كما يزيد إلى هذه الأسباب زيارة الشيخ محمد عبده* وانعقاد مؤتمر المستشرقين، ثم فرض التجنيد على الشباب سنة 1912م...

* محمد عبده (1266 - 1323 هـ = 1849 - 1905 م)

محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركماني: مفتي الديار المصرية، ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام. قال أحد من كتبوا عنه: (تتلخص رسالة حياته في أمرين: الدعوة إلى تحرير الفكر من قيد التقليد، ثم التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة). ولد في شنرا (من قرى الغربية بمصر) ونشأ في محلة نصر (بالبحيرة) وأحب في صباه الفروسية والرماية والسباحة. وتعلم بالجامع الأحمدي. بطنطا، ثم بالأزهر. وتصوف وتفلسف. وعمل في التعليم، وكتب في الصحف ولا سيما جريدة (الوقائع المصرية) وقد تولى تحريرها. وأجاد اللغة الفرنسية بعد الأربعين. ولما احتل الإنكليز مصر ناوأمهم. وشارك في مناصرة الثورة العرابية، فسجن 3 أشهر للتحقيق، ونفي إلى بلاد الشام، سنة 1299 هـ (1881) وسافر إلى باريس فأصدر مع صديقه وأستاذه جمال الدين الأفغاني جريدة (العروة الوثقى) وعاد إلى بيروت فاشتغل بالتدريس والتأليف. وسمح له بدخول مصر، فعاد سنة 1306 هـ (1888) وتولى منصب القضاء، ثم جعل مستشارا في محكمة الاستئناف، فمفتيا للديار المصرية (سنة 1317 هـ واستمر إلى أن توفي بالإسكندرية، ودفن في القاهرة. له الكثير من المؤلفات منها: (تفسير القرآن الكريم) لم يتممه، و(رسالة التوحيد) و(الرد على هانوتو) و(رسالة الواردات) صغيرة، في الفلسفة والتصوف، و(شرح نهج البلاغة)

تقلا عن: الأعلام للزركلي الدمشقي(ت: 1396هـ)دار العلم للملايين، ط15، مايو 2002م، ج6، ص 252.

-إضافة إلى إحداث مدارس مشابهة في تونس منذ سنة 1907م⁽¹⁾.

ولكن توقفت هذه المدرسة بعد بضعة أشهر من نشاطها، فأسس بعدها الشيخ العربي مدرسة تهذيب البنين والبنات بعد عودته من مدينة سيق في الغرب الجزائري، ويروي الأستاذ مالك بن نبي في مذكراته عن عودة الشيخ العربي التبسي من بلدة سيق قائلا: "...وكانت عودة الشيخ العربي التبسي من مدينة سيق منتظرة ليوم التدشين القريب، وانضم تحت لواء الإصلاح حتى عرابدة تبسة ومدمنوها العاكفون على الخمر، كما انضم كثير من الذين يعيشون في كنف الاستعمار...وكانت الملامح الاجتماعية كلها تتغير في المدينة، بينما بقيت في سيرها الإصلاحية منذ غادرتها قبيل سنتين...⁽²⁾.

ولم يقتصر الشيخ العربي في حياته التعليمية على هذه المدرسة، فبعد تأسيس المعهد الباديسي بقسنطينة انتقل إلى العمل هناك مديرا ومدرسا، وبهذا شمل عمل الرجل التعليمي الجزائر من شرقها حتى غربها، وكل محطاته تعكس جدّ الشيخ العربي واجتهاده مما جعله يؤدي واجبه على أحسن وجه، ويكون بذلك محل ثناء من المجلس العلمي الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بمكتب الرئاسة بقسنطينة.

د-الإدارة:

كانت بداية العمل الإداري للشيخ العربي موازية مع تأسيسه لمدرسة تهذيب البنين والبنات، حيث تولى مسؤولية تسييرها، إضافة إلى الانشغال بالتعليم، وبعد إنشاء المعهد الباديسي بقسنطينة استقدمه الإبراهيمي ليكون

⁽¹⁾ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، دار الغرب، بيروت، لبنان، 1998م، ص242.

⁽²⁾ مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، تحقيق: إشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق -

سورية ط2، 1404هـ - 1984م، ص262.

مديرا ومدرسا فيه، ونائبا لرئيس الجمعية التي أسندت للبشير الإبراهيمي بعد وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس.

ولقد قال عنه الإبراهيمي بعد تعيينه مديرا للمعهد الباديسي: "نحن قوم نقرأ لكل شيء حسابه، ولا نقدم لجلائل الأعمال إلا الأكفاء من الرجال، وقد كنت مدخرا لإدارة المعهد كفؤها الممتاز وجديها المحنك الأخ الأستاذ العربي التبسي الذي كانت تمنع موانع القاهرة من تولي الإدارة... أرضينا سكان تبسة الكرام الذين كانوا يعدون انتقال الأستاذ التبسي عنهم كبيرة يرتكبها من كان يتسبب فيها، واقتناعهم بأن الشيخ رجل أمة كاملة لا رجل بلدة واحدة، ورجل الأعمال العظيمة لا الأعمال الصغيرة⁽¹⁾.

ويشهد الإبراهيمي ثانية على نجاح الشيخ العربي التبسي كرجل إصلاح، وعلم، وإدارة، فهو ممن خرجته الكليتان الزيتونة والأزهر في العلم وخرجه القرآن والسيرة النبوية في التدين الصحيح والأخلاق المتينة... والأستاذ التبسي في إدارته يتساهل في حقوق نفسه الأدبية درجة التنازل والتضييع، ولا يتساهل في فتيل النظام أو الوقت أو الأخلاق أو الحدود المرسومة، ولقد كان زيادة على الدروس التي يلقيها بنفسه، يطوف على الأقسام كلها بالتناوب متفقدا، فيسمع المشائخ يلقون أو يسألون، والتلاميذ يجيبون. ولقد كان بين المشائخ في أول السنة تفاوت وبين التلاميذ تباين عظيم وكنت أنا ألمح هذا في الشهرين الأولين كلما اختليت إلى المعهد. فما مضى شهران حتى رأيت بعيني أن ذاك التفاوت صار انسجاما وأن ذاك التباين انقلب اتحادا ظهرت

(1) أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج2، 1940م/1952م، دار الغرب الإسلامي، ص217.

آثاره في آداب التلاميذ، وأخلاقهم وشهد هيئات الدخول والخروج والنوم والأكل وسائر التصرفات، وما جاء ذلك إلا من ظبط المدير وحزمه⁽¹⁾

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على حنكة الرجل في شتى المجالات، وعن أمانته في أداء الأعمال التي أنيطت به، وهذا ما ميّز الشيخ العربي وجعل له مكانة كبيرة في قلوب زملائه في الإصلاح، يقول عنه حفناوي زاغر: "... وإنما كان صنفاً آخر يفرض على النخبة إقراره والاعتراف به، لأنه كان متميزاً، ... لا يملك الرفاق (وهم من هم علما وفضلا) إلا الشهادة له والأشهاد به"⁽²⁾.

ثم يأتي بعده بكلام الشيخ عبد الحميد بن باديس في الثناء عليه فيقول: "... إن الأستاذ العربي ابن الزيتونة، والأزهر مشارك مشاركة قوية في علوم الشريعة والآداب، ذكي الفؤاد صحيح الفكر والعلم، فصيح اللسان، محجاج قوي الحجة، حلو العبارة... شديد الحب لدينه ووطنه، شديد في الدفاع عنهما"⁽³⁾.

وقال فيه الأستاذ توفيق المدني: "كان الشيخ العربي بطلا من أبطال الجزائر والإسلام، وكان مجاهدا ومثالا حيا للنضال الإسلامي الخالص التّزيه، لم يكن لديه طمع في الدنيا على الإطلاق، وكان لا يقصد في جهاده إلا وجه الله ونفع المجتمع وإخراج الوطن من الظلمات إلى النور، وكان عالما غزير العلم سيّما في الفقه الإسلامي، وكان راوية لفقه مالك، ولا أرى أن

(1) المرجع نفسه، ص 218.

(2) حفناوي زاغر، الإمام الشيخ العربي التبسي، مرجع سابق، ص 128.

(3) المرجع نفسه، ص 128.

هناك في العالم العربي من يجاربه في هذا المضمار... وكانت دروسه في التفسير نادرة... لقد كان يأتي بالجديد في تفسيره لا يجمد على ما قال الأولون⁽¹⁾.

هذا بعض ما كان من ثناء أهل العلم عليه، وعلى مجهوداته الإصلاحية، وتفانيه في خدمة وطنه خاصة والأمة الإسلامية عامة.

وبالإطلاع على حياة الشيخ العربي التبسي قد كشفنا عن ذخائر الأخلاق والمعارف المودعة في نفس هذا الرجل الكريم، فقد كان بحق جديرا بأن يكون من حملة الخطاب الإصلاحي في الجزائر.

3- مفهوم الخطاب الإصلاحي عند الشيخ العربي التبسي:

إن مفهوم الإصلاح عند الشيخ العربي التبسي حسب ما ورد من كتاباته ومواقفه يعني: "التغيير الجذري لكل اتجاهات الفرد السلبية وتعديلها باتجاهات إيجابية تتفق مع المنظور الإسلامي تطبيقا لما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية من حيث المعاملات والعلاقات والعبادات"⁽²⁾.

ومن ثم فإن الإصلاح المعقول عند الشيخ العربي التبسي هو الإصلاح في الفكر الديني والتمسك بتعاليم الإسلام، وسبب تخلف الأمة واختلافها هو تخليها عن دينها، لذلك فإن الإصلاح مرتبط بتجاوز هذا التخلف والفساد. يقول الشيخ وهو يوضح هذه الرؤية ومفهومه للإصلاح: "إن للأمة الجزائرية كغيرها من الأمم الإسلامية أسباب التأخر فيها لا ترجع إلى عهد قريب، ولا إلى سبب مباشر غير مخالفة الدين الذي بناه رب العزة على

(1) المرجع نفسه، ص 126.

(2) مجلة المجاهد، (مفهوم الإصلاح عند الشيخ التبسي)، ع 1445، 15 أبريل 1988، ص 58.

أحكم نظام، وأمتن أساس، وهياً حوله الرغبة والرغبة ما لا عهد به لشعب، ولا لملك، بل ولا لأهل ملة⁽¹⁾.

من خلال هذا القول يتبين لنا أن الإصلاح عند الشيخ العربي التبسي يشمل أهم مناحي الحياة ألا وهو الدين من خلال العلم والعمل بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، حيث يقول: "فإن الدعوة الإصلاحية التي يقوم بها دعاة الإصلاح الإسلامي في العالم الإسلامي، وتقوم به جمعية العلماء المسلمين في القطر الجزائري خاصة، تتلخص في دعوة المسلمين إلى العلم والعمل بكتاب إلههم، وسنة نبيهم، والسير على منهاج السلف الصالح في أخلاقهم وعباداتهم القولية، والاعتقادية والعلمية، وتطبيق ما هم عليه اليوم من عقائد، وأعمال وآداب على ما كان في عهد السلف الصالح، فمواقفه عددناها من دين الله فعملنا به..."⁽²⁾.

وبعد هذا الكلام يدعو الشيخ العربي التبسي الناس إلى التأمل في حال هذه الأمة، ومقارنتها بماضيها المجيد، أو مجال الأمم المتفوقة علينا حضارياً وسعيها الدؤوب من أجل التقدم، فمعرفة أسباب العلة والوقوف عندها، وبعدها مرحلة التقويم، يقول الشيخ: "...ولا أذهب بك بعيداً أيها الشاب الجزائري فاسطر لك نبذاً من التاريخ... ألق بصرك ذات اليمين وذات الشمال في وطنك الجزائر... متبينا كيف قومك؟ وفيما يقطعون الأيام والليالي؟ وما هي حالة أمتك الاجتماعية؟ وقارن بينها وبين أهل الدنيا..."⁽³⁾.

وأما عن الوسائل وأهميتها، فله مقال بعنوان: (إعداد الوسائل للعناية بالمجتمع) يقول فيه: "إذا كان الإصلاح الإسلامي، ونفع الأمة الجزائرية،

(1) أحمد عيساوي، مرجع سابق، ص 182، نقلا عن جريدة النجاح، السنة السابعة، عدد 238.

(2) العربي التبسي، (مقدمة رسالة)، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، ج 2، ص 141.

(3) أحمد عيساوي، مرجع سابق، ص 183، نقلا عن جريدة النجاح.

والتهوض بالناشئة الوطنية أمورا محتمة على الفئات المثقفة تثفيفا صحيحا، فإن وسائل الإصلاح وذرائع إفادة الشعب ومقومات النهوض بالناشئة أوجب عليهم، ما دامت قاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب⁽¹⁾.

ومن الوسائل كذلك التي يحث عليها الشيخ العربي التبسي هي التدريس ووجوب الرجوع إلى هوية الأمة من خلال إحياء اللغة العربية، بعد ما صارت إليه. حيث يقول: "ولترد على اللغة العربية شبابها، وتحيا ذكرها بكل الطرق والذرائع، وليفهم الشعب العربي الإسلامي الذي تحولت لغته إلى رطانة في منطقة، وخلط في مفرداته، حتى أصبح لسانه مزيجا: أن لا دين، ولا قومية، ولا أمة، ولا أي مقوم مميز للامة إذا هي مضت فيما هي عليه من الجهل بلغتها..."⁽²⁾.

وبهذا استطاع الخطاب الإصلاحى الجمع بين الإعتقاد الصحيح والسلوك السليم وفق هذا الدين، فوق بين العلم والعمل، وبين الفرد والمجتمع، وبين الدين وجوانب الحياة جميعها، وبين تراث الماضي الذي يحمل المقومات الدينية والثقافية والتاريخية للأمة وبين حضارة عصرها.

4- معالم الهوية التي أحيها في الأمة الجزائرية:

إن الهوية الوطنية هي المتمثلة في مقومات ثابتة وقيم ناظمة لها، تحث المشدودين بها وإليها على بناء الوطن وتنميته، والعمل على تقدمه والدود عنه وحفظ كرامته، والتصدي للأخطار التي تهدده، خارجية وداخلية.

ويمكننا حصر هذه المكونات التي بها تتشكل الهوية وتتفاعل في أربعة: الدين، الوطن، اللغة، الثقافة.

(1) العربي التبسي، مجلة الشهاب الشهرية، ج5، المجلد7، جمادى أولى 1352هـ، ماي/1932م، ص17.

(2) العربي التبسي، مرجع سابق، ص44.

وقد رأينا بعد عرضنا لأعمال الشيخ العربي التبسي بأن معالم الهوية في خطابه تتمثل في أنه:

- 1- شخصية متميزة روحيا وعقليا ووجدانيا وسلوكيا ومعرفيا وموهيبا؛
- 2- مخلص النية، حريص على نصرته الإصلاحية؛
- 3- حريص على نهضة أمته ووطنه.

أما عن معالم الهوية التي أحيها في الأمة الجزائرية فتمثل فيما يلي:
أولا: الدين:

من خلال خطب الشيخ العربي ودروسه نلاحظ دفاعه المستميت عن الأمة الجزائرية ضد قوانين الردع والقمع الاستعماري الفرنسي، منطلقا من مبادئ وغايات واضحة، فكتب في جريدة البصائر سلسلة مقالات من بينها: (الإضرار بالدين باسم الدين ووجوب ثبات المصلحين) فقال: "إن أخوف ما يخافه المسلمون الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم على دينهم دعوة الدجاجلة، الذين سيكونون بين يدي الساعة أولئك النفر الذين جعلهم الله فتنة لمن لم يرد بهم خيرا، فلم يفقههم في الدين... وإن تعجب فعجب أمر هؤلاء، الذين يريدون من علماء الدين أن يذعنوا لأباطيلهم، ويطأطئوا رؤوسهم أمام عظمة أهوائهم، وما ضمتها من عفونات ما يلقيه الشيطان عليهم رغم تعاليم الدين الذي يلعن من يكتم من الدين المنزل على محمد ﷺ شيئا وكأن هؤلاء لم يعلموا أننا لم نكتب ما كتبنا وما كتبه إخواننا من أهل الدين والبصيرة النافذة لقضاء شهوة من الشهوات، أو طلب دخل من الدخول، أو لنيل حظ من الحظوظ"⁽¹⁾، وهذا الكلام من غير الشيخ العربي

(1) العربي التبسي، مجلة الشهاب، السنة الثالثة، عدد 82، 29/09/1927م، الموافق 02 ربيع الثاني

على الدّين والذود عنه؛ فالشيخ يريد دينًا بلا بدع ولا خرافات ولا طرق ولا مشايخ يتاجرون باسم الدّين، وقد عمل على محاربتهم والتحذير منهم، نظرًا لخطورتهم على الأمة الجزائرية، حيث عملوا بطرقتهم وبدعهم وضلالاتهم على إخضاعها للاستعمار، وقد ردّ عليهم ردًا دالا على رسوخه في العلم وتمسكه بتعاليم الدّين.

ثانيا: الوطن:

إن وطنية وقومية الشيخ العربي التبسي واضحة المعالم في الكثير من خطابه، فهو يقول عن وحدة الوطن ردًا على الفرنسيين: "فليعلم هؤلاء جميعا، وليعلموا علم اليقين، ولا يزال لهم من الوقت متسع للتفكير والاختيار أن الأمة الجزائرية بهم لم تجمع في وقت من الأوقات اجتماعها الحاضر حول برنامج سياسي دقيق محكم الوضع محدد الغاية، يمكن تلخيصه في ثلاث كلمات: أمة ووطن ودولة؛ أمة هي أمة الجزائر... ووطن هو الوطن الجزائري... ودولة جزائرية حرّة ذات سيادة"⁽¹⁾.

فمعالم الوطن والقومية الجزائرية تحدّدت وفق المبادئ التالية:

- 1- العمل على توحيد الأمة الجزائرية والاعتراف بوجودها واحترامها؛
- 2- الاعتراف بحقوق الوطن التي سجلتها المواثيق الأممية العامة لسائر الأوطان؛
- 3- سيادة الدّولة الجزائرية حسب القواعد الديمقراطية الحرّة، ونبذ الفرقة عنها وخدمتها.

(1) العربي التبسي، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة الثامنة، عدد 345، الجمعة 16/12/1955م، الموافق 30/ربيع الثاني/1375هـ، ص1.

ثالثا: اللغة:

كرّس الشيخ العربي التبسي حياته كلها خدمة للغة العربية، وأسس المدارس وترأسها، كما ذكرت، وعلم وكون من أجل أجيال تعتزّ بلغتها، وفي هذا الصدد ردّ الشيخ العربي في كلام له وهو من أقواله الماثورة عن تساؤل ابنته الكبيرة الحاجة يمينة يوم أن كانت صغيرة قائلة له: "يا أبتى لم لم تعلمنا في المدرسة الفرنسية اللغة الفرنسية؟"

فأجابها - رحمة الله - قائلا: إنني متيقن أن فرنسا لن تبقى في الجزائر، وستخرج قريبا إن شاء الله. ولذا سأعلمكم العربية لغة آبائكم وأجدادكم. ولو أنني متيقن ببقائها طويلا في الجزائر لعلمتكم الفرنسية إلى جانب العربية⁽¹⁾، إنه كلام رشّح به صاحبه الشيخ العربي المكانة العليا للغة العربية، والحرص الكبير على تعليمها لأبناء الأمة الجزائرية.

رابعا: الثقافة:

إن القيم الثقافية والاجتماعية بالنسبة للشيخ العربي تعدّ ركنا أساسا من أركان الهوية الوطنية، والمحافظة عليها من أجل ثبات الأمة الجزائرية على دينها وهو أمر مطلوب ومرغوب، ولا يمكن لها أن تنهض إلا بتأمل أبنائها فيما مضى من سالف عهدها، والعمل على ما هو آت مقتفية آثار من سبقها ممن كان يكدح كدحها، فنجدته كتب سلسلة مقالات في جريدة النجاح العربية من بينها: (هذه جزائركم تحتضر أيها الجزائريون فانقذوها) يبين فيها طريقة إحياء معالم الهوية الثقافية والاجتماعية والدينية للأمة الجزائرية فيقول: "ولا أذهب بك أيها الشاب الجزائري بعيدا فأسطر لك نبذا من التاريخ واعظة، وأذكرك بالدهر وتغيراته، ولكنني أقص عليك ما عساه يكون لنا عوناً

(1) أحمد عيساوي، مرجع سابق، ص 520.

على ما ننشد الشعب الجزائري أن يعطف الرأي نحوه، ويهب من غطيظ غفلته، ويشدد بكاءه على ما فرط فيه من قومه من تالد العز وصريح الجحد، فيتلاقى منه ما تطوله أيدينا... إن الشعب الذي لا ينتظم تحت مبدأ جامع واحد، ويلتف حول فرد إليه يعمل الكل، منذر بالانهيار، مقضي عليه بالفناء العاجل، وهذا صحته لا تحتاج إلى بيّنة... فهبوا بنا إلى العمل متضامنين مجتمعين، ويد الله مع الجماعة، والخير فيما رأت الأمّة، ومن قدر أن ينفع أخاه فليفعل، ولعمري إنه لحق عليكم إصلاح أمّتكم⁽¹⁾.

إن المتأمل في هذا القول للشيخ ليدرك تمام الإدراك مدى حرصه على التقدّم بأمته في شتى المجالات، حتى تتبوأ مكانتها المرموقة بين الأمم، ولعمري إن هذا من أهم ما يمثّل تشكيل الهوية الوطنية والنهوض بالأمّة الجزائرية في شتى المجالات.

5- أهم الأشكال والخصائص الكتابية المتضمنة في آثاره:

أولاً: الأشكال الكتابية:

إن المطلع على كتابات الشيخ العربي يجد أن معظمها نثرية قد تنوعت ما بين عنصرين من عناصر الأدب؛ وهما المقال، والخطابة، وإنما سبب ذلك كون ثقافته تراثية المنبع أصيلة الأفكار، تتجلى من خلال أسلوبه الذي مزج فيه ما بين الفكرة واللغة.

1- المقال:

إن ما يهمنا في معرفة معنى المقال هنا هو التعريف الإصطلاحي، وهو أن المقال: "قطعة نثرية موجزة محتفل بها في موضوع يستوفيه الكاتب أو ينجمه

⁽¹⁾ المرجع نفسه، ص 183، 185، نقلا عن جريدة النجاح، السنة السابعة، عدد 238.

على مقالات تستوعب الواحدة جانباً منه في أسلوب حسن وبعبارة بليغة وألفاظ منتقاة، وتعبر عن وجهة نظر كاتبها⁽¹⁾.

والمقال قسماً حسب رأي النقاد: ذاتي، وموضوعي، ومن هذين القسمين تبرز أنواعه حسب الموضوع الذي يعالجه، ولقد تنوعت أنواع المقال عند الشيخ العربي بحسب الموضوعات التي يعالجها، فمنها: المقال الإصلاحية، بشكل عام؛ الديني والثقافي، والسياسي والاجتماعي...

ومن خلال ما بدا لنا نصوص الشيخ نجد أنها إلى الجانب الموضوعي تنتمي؛ كونها موجهة لطبقة اجتماعية، والهدف منها هو الإصلاح ومحاربة البدع والخرافات، أو الدعوة إلى التمسك بالوحدة الوطنية التي تغلب بها على الفرنسيين.*

أما من الناحية الشكلية فأسلوبه لا يخرج عن الأساليب العتيقة ومزاوجتها بالأساليب الحديثة لأنه يميل إلى الأخذ بالأصالة والمعاصرة ويتعد عن التعقيد والوضوح المسف، كما يهتم بالشكل والمضمون مراعاة لمقتضى الحال والتزام القواعد النحوية والتنوع في الأسلوب بين الشدة واللين والجد والهزل والتصوير والمباشرة⁽²⁾، مما جعل مقالاته متنوعة الخصائص.

(1) عبد القادر رزق الطويل، المقالة في أدب العقاد، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1998، ص33.

* أنظر الأمثلة على ذلك فيما أوردته في المباحث السابقة من هذا العرض

(2) محمد زغينة، فن المقال في كتابات أبي اليقظان، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر،

2004/2005، ص14.

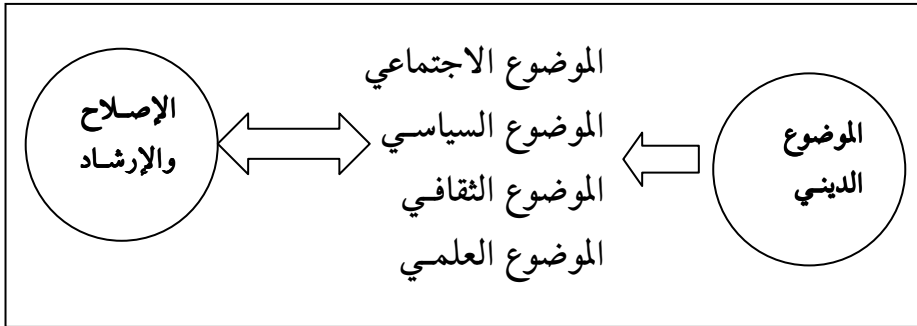
2- الخطبة:

مما جاء في مفهوم الخطبة أنها "مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته"⁽¹⁾، وهي مما ميّز كتابات الشيخ العربي التبسي، وقد عرّفت كذلك بأنها: "مجموع قوانين يقتدر بها على الإقناع الممكن في أي موضوع يراد"⁽²⁾.

من خلال هذه التعريفات تتبين لنا غاية الخطابة وهي القدرة على الإقناع مشافهة بالأساليب التي يفهمها المتلقي، قصد الإرشاد وغيره.

والخطابة تنقسم إلى أقسام منها: العلمية، والسياسية، والقضائية، والعسكرية والدينية...

وإذا أردنا أن نصنف خطب الشيخ العربي فهي تنبع من الثقافة العربية الإسلامية، منها ما هو ثقافي علمي، وما هوديني واجتماعي، وهذا بحسب الأغراض والمواقف، وقد حاولت تبين ذلك من خلال هذه الترسيم:



فالترسيم تبيّن أن المبدأ واحد، والهدف واحد كذلك، رغم تنوع الموضوعات النابعة من صميم الهدف، والغاية منها كلها هو الإصلاح والإرشاد.

(1) أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، نهضة مصر العربية، القاهرة، مصر، 2001، ص 5.

(2) علي محفوظ، فن الخطابة وإعداد الخطيب، مكتبة رحاب، الجزائر، دت، ص 13.

ومن خلال هذه المحاولة البسيطة لدراسة نصوص الشيخ العربي نلمح أن كتاباته تتميز بما يلي:

- هيمنة النبرة الخطابية على أسلوب الشيخ العربي في معظم مقالاته؛
- مقالاته وخطبه لها المنطلقات والأهداف نفسها، مثلما شرحت في الترسيمة السابقة؛
- تراوحت مقالاته بين الطول والقصر على حسب المواقف المعالجة*.

وإذا كنا قد تكلمنا عن أشكال كتابات الشيخ العربي، والتي حصرناها بين فني المقالة والخطبة، فإن عناصر هذه الكتابات تتمثل في المضمون والمنهج إضافة إلى الأسلوب الذي سنتكلم عنه فيما يأتي من هذا العرض.

أما المضمون فالمقصود به المادة الفكرية المشكّلة من أفكار وتجارب الخطباء وثقافتهم وعلمهم وتعليمهم...، والمنهج هو خطوات الكتابة السليمة، مثل التمهيد للموضوع، والمقدمة ثم العرض ومناقشة الأفكار، ثم الخاتمة، ويضيق المقام لشرح وتفصيل كل خطوة من هذه الخطوات كونها معروفة لدى كل من يمارس فعل الكتابة.

ومن خلال اطلاعي على كتابات الشيخ العربي، وجدت أنها متقيّدة بهذا المنهج المبني على وضوح القصد الذي سعى الشيخ إيصاله إلى كل من يكتب إليهم، أو يخطب فيهم.

* ذكّرتُ عند سرد أهم أعمال الشيخ العربي في المبحث الثاني مجموعة من المقالات والخطب التي يمكن أن يرجع إليها كأمثلة للدلالة على ما أذكره.

ثانيا: الخصائص الأسلوبية في نصوص الشيخ العربي:

سأحاول الكشف في هذا العنصر عن بعض خصائص الخطاب التعبيرية في آثار الشيخ العربي التي تميزه عن غيره، من خلال التعرض لظاهرتين من ظواهر البلاغة؛ ألا وهما: ظاهرة التناص، والصورة البلاغية.

بداية إذا أردنا أن نبرز لغة الشيخ بصفة عامة في كتاباته نجد أنها تتميز بما يلي:

- وضوحها وبعدها عن الغريب من الألفاظ؛

- بساطة الجمل وخلوها من التعقيد والغموض؛

- اعتماد السجع غير المتكلف فيه في معظم كتاباته؛ كونها تجنح إلى الإقناع بما يقتضيه الموقف.

وبما أن منهجي في هذا البحث يقوم على ما يخدم قصدنا؛ وهو دراسة بعض آثار الشيخ، فإن المقام لا يتسع أكثر للحديث عن اللغة وبنيتها والعبارة وتركيبها، فأمر إلى الكلام عن ظاهرة التناص، فأبدأ بتعريفه بقول أحد الباحثين: "... التقاء وتقاطع النص مع نصوص أخرى غير نصوص الكاتب أو الشاعر"⁽¹⁾.

ونصوص الشيخ العربي خطابية كانت أو مقالية، كثيرا ما نجد يعتمد فيها على كتاب الله تعالى، وعلى الحديث النبوي الشريف؛ باعتبارهما مصدرين من مصادر تكوين شخصية الشيخ، ثم على الشعر العربي وما يخدم قوله من جميل الأمثال والحكم، ومن قوله في توظيف النص القرآني أيها المسلمون إننا في يوم حداد على ديننا لن نظلم القانون، ولن نزعج الأميين، ولن نعرض النظام للاضطراب والخلل، فعلى شعبنا أن يستعد للمشاركة في يوم الحداد،

⁽¹⁾ مفيد نجم، الوعي واللاشعور، التناص بين الاقتباس والتضمين، مقالة على شبكة الانترنت.

وإن هذا اليوم سيقتى يوم حداد كل سنة حتى يتحرر الدين الإسلامي من هذا الظلم الذي خصصته به فرنسا الاستعمارية ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَتَّبِعِ لِقَوْمًا عَيْرِكُمْ نَمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (1).

ومن استشهاده بالحديث الشريف يقول: "وليكن في رجال الجمعية من يحيي الدين في قلوب هذا الجمهور بكل وسيلة تمكنهم، كالاختلاط بالجمهور سواء كان اختلاط بواسطة المحاضرات في النوادي والجمعيات... ويومئذ يمكن لهذا القسم من أفراد الأمة أن يفهم دينه، ويتأدب بأخلاق الإسلام... وقد حكم نبيكم ﷺ على هداية الناس قال: «لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس» (2)

وقد لاحظت من خلال نصوص الشيخ دقة توظيفه لهذه الشواهد، بغية تأثيره في المتلقي مما زاد في أسلوبه قوة المعنى وجمال العبارة.

إضافة إلى ما ذكرت استشاده بالشعر العربي، وهو ما يدل على سعة ثقافته الأدبية، ومثال ذلك جعله لبيت شعري عنواناً لأحد نصوصه (صدي الاعتماد على الأستاذ في الأزهر الشريف)، وهو: وإذا العناية لاحظتك عيونها نم، فالمخاوف كلهن أمان (3).

(1) العربي التبسي، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة السادسة، عدد236، الجمعة 29 شوال 1372هـ، الموافق 10/07/1953م، ص1، 2.

(2) أحمد عيساوي، المرجع السابق، ص128، 129.

(3) العربي التبسي، جريدة الشهاب، السنة الثانية، عدد82، قسنطينة، الخميس 03/02/1927م، الموافق 30/رجب/1345هـ، ص14.

ومن الأمثلة كذلك قوله: "...إذا كان رب العرش راضيا، فإن شفاء النفس فيها هنالك. ويقول:

لست أبالي حين أقتل مسلما على أي جنب كان في الله
متلقين كل مصيبة في ذات الله بمثل:
ما أنت إلا إصبع دमित وفي سبيل الله ما لقيت.

ولذة الدفاع عن الحق والركون إليه ومع أهله يذهب معها طعم كل مرة،
وتنسى فيها كل كريهة⁽¹⁾.

وأشير إلى أن تناص نصوص الشيخ مع القرآن الكريم والحديث الشريف،
وغيره مما لا يتسع المقام للتمثيل له، يدل على ثقافة الشيخ الإسلامية مما
أكسب نصوصه قوة في الأسلوب، كان هدفها تحقيق وعي إصلاحي، فكل
مطلع على آثاره يلحظ ذلك.

أما عن حديثنا عن الصورة البيانية، فالكلام عنها في نصوص الشيخ العربي
سيكون من قبيل حسن توظيفه للصورة الفنية، ومن الأمثلة على ذلك قوله في
مقال نشر في الشهاب عنوانه: (كلمة دينية إلى ذوي الأحلام والنهي)، يقول:
إن الروابط والأمشاج التي تربط الأمم بعضها ببعض، وتكون الأمة جماعة
تحس بحس مشترك كثيرة متباينة، منها الروابط المادية ومنها الجماعات الأدبية،
الضاربة بعروقها في تخوم ماضي الأمة وحدود مستقبلها... ورضينا أن نعيش
في هذا العصر الذي قويت فيه العلاقات بين الأمم وكثر احتكاك هذه بتلك
رضينا أن نعيش كمية مهملة مفرقة يجمعها سطح الأرض وسقف السماء

(1) العربي التبسي، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة السادسة، عدد 233، الجمعة

3/ شوال/ 1372هـ، الموافق 12/ جوان/ 1953م، ص1.

وحرارة الشمس ونور القمر⁽¹⁾. فإذا حاولنا تحليل هذا النص نقول إن عنوانه عبارة عن صورة استعارية؛ حيث جعل الكلمة الدينية شيئاً معنوياً محسوساً، يهبه إلى الخيرة من الناس، الذين سماهم بذوي الأحلام والنهي، كما أن ذوي الأحلام كناية عن رجاحة العقل.

وخلاصة القول في تأثير هذه الصورة وغيرها في نصوص الشيخ، هو حرص الكاتب على تأدية المعنى الذي يبدو شديد الإيمان به وفق ما هو بسيط واضح ومؤثر، فهذه الصور على كثرتها في نصوصه ما هي إلا وسيلة لغاية؛ هي التوضيح للمتلقي، وإفهامه، والتأثير فيه، مما يضمن الهدف الأسمى وهو الإصلاح.

خاتمة:

من خلال ما تقدم إيراده ووقفنا الله على إعداداته وتبينه في هذه الدراسة المتواضعة حول شخصية لا نملك إلا أن نقول في حقها ما قاله البشير الإبراهيمي قبلنا بأن الشيخ رجل أمة كاملة لا رجل بلدة واحدة، ورجل الأعمال العظيمة لا الأعمال الصغيرة⁽²⁾.

وما يلاحظ من خلال حياة الشيخ العربي المهنية والدعوية والإصلاحية، ومختلف خطابه ما يلي:

- وضوح وثبات إطاره المرجعي في كافة مراحل الدعوية والإصلاحية؛

-تنوع أساليبه، وممارساته، ووسائله؛

(1) العربي التبسي (كلمة إلى ذوي الأحلام والنهي)، مجلة الشهاب، المجلد8، عدد9، ط1، بيروت، لبنان، 2001م، ص475.

(2) أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ص217.

-استمراره بين خطي التربية والتعليم من جهة، والعمل في إطار جمعية العلماء المسلمين من جهة أخرى؛

-تطوير آلياته وتقنياته الدعوية والإصلاحية حسب ما تقتضيه كل مرحلة؛

-صدقه، وإخلاصه، وتقواه، ووفائه لرسالة الإسلام، التي تفانى في خدمتها إلى يوم استشهاده؛

-حزمه وانضباطه المهني؛

-تفانيه في خدمة الإسلام والأمة الجزائرية.

وهناك حقيقة لا بد من بيانها في هذه الخاتمة؛ وهي أن فهم آثار الشيخ العربي التبسي ومعرفتها حق المعرفة وتقدير جهوده بما هو جدير به، لا يكون بالإطلاع على حياته فحسب، بل ضرورة الإطلاع على هذه الحقبة التاريخية المتميزة في حياة الجزائر، والوقوف على مختلف أبعادها الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية، وفهم تطور الوعي في المجتمع الجزائري الذي تطورت معه أساليب المقاومة والجهاد من أجل التحرير والاستقلال، لأن الذي لا يفهم طبيعة هذه المرحلة فهما دقيقا، لا يستطيع أن يفهم رسالة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أو يدرك أهدافها البعيدة التي رسمتها وجاهدت من أجل تحقيقها، هذه الجمعية التي نشط فيها الشيخ العربي مع غيره من إخوانه العلماء.

وما بقي لي إلا أن أقول: إن الشيخ العربي التبسي مثله مثل الكثير من رجال الجمعية، كان له الدور الكبير في الحفاظ على اللغة العربية، وإرساء معالم الهوية التي بها تتحدّد هوية الأمة وهي: الدين واللغة والقيم الاجتماعية والأخلاقية والثقافية والأدبية، والتي تُشكّل في الواقع الشعور القومي المشترك، وتبلور الحسّ الثقافي والتاريخي الموحد للأمة، وهذا كله من خلال خطاباته التي لم تُنل في الحقيقة حقّها من الدراسة، أو حتى جمع آثاره المبعثرة

في الكثير من المظانّ المختلفة والمتشعبّة والخفيّة في المكتبات والمعاهد والزوايا وغيرها.

وأرجو في الأخير أن أكون من خلال هذا العرض المتواضع قد ألفتُ النَّظْرَ إلى شيء من أدبيات الشيخ العربي، وإلى بعض جهوده الإصلاحية الرائدة في الحفاظ على العربية - التي بقيت حسب علمي بلا دراسات - وأن يكون سببا في تكملة مشوار البحث عن أعلام هذه الجمعية المخلصين، والكشف عن مجهوداتهم في شتى الميادين، اللغوية والدينية والعلمية وغيرها، والافتداء بهم، وتكملة ما بدؤوه وأفنوا أعمارهم لأجله.

مفهوم الهوية اللغوية من خلال آثار البشير الإبراهيمي - دراسة لسانية -

أ / أمينة مناع

أ / عبد الرحيم قشوش

ج / ورقة

تمهيد

تكبّدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مهام ومسؤوليات جبارة، منها ما كان له علاقة بالجوانب السياسية ومنها ما كان له علاقة بالجانب الاقتصادي، والأهم من ذلك أنهم حملوا على عاتقهم مسؤولية العلم والتعليم في الكتاتيب والمدارس والمنازل، حفاظا على اللغة والدين في ربوع الجزائر العربية، الأمر الذي جعلهم يتميزون بطرح تربوي أكاديمي فريد من نوعه، في المحتوى والمنهج والطريقة التعليمية، مما تبدى واضح المعالم في تشبث معظم الطبقات المجتمعية باللغة ومدارسة القرآن رغم الألم وقهر المستعمر. وإزاء ذلك الواقع ارتأينا أن تكون ورقتنا البحثية متمحورة في سياق اللسانيات الاجتماعية بالعنوان التالي: مفهوم الهوية اللغوية من خلال آثار البشير الإبراهيمي - دراسة لسانية - منتهجين خلال ذلك المنهج التاريخي والبعدي التأصيلي لهذا المفهوم اللساني في مدونة لأحد أهم زعماء هاته الجمعية. نقوم خلالها بترصد نصوصه في مدوناته، ونتبين مفهوم هذا المصطلح من خلال الدرس اللساني الحديث.

الكلمات المفتاحية: اللغة، الهوية، اللسانيات، اللسانيات الاجتماعية.

الهوية: تحديد المصطلح:

الهوية: كلمة تتمحور دلالتها حول الذات، والحقيقة، والماهية. وهي كذلك على مثل هذه المرادفات، وعلى الرغم من بعض الفروق التي تقوم على اعتبارات متباينة منبثقة من عالم الفلسفة اليونانية.

وهي لغويًا من قبيل المصدر الصناعي، فقد تم توليدها من النسبة إلى "هو" أو "أهو"، الذي هو في اصطلاح الفلاسفة "الغيب" أو "الحقيقة المطلقة" وبعد الحقيقة المطلقة، أصبحت تطلق على الحقيقة، حقيقة الشيء، أو حقيقة الإنسان أو غيره

وليفصل الحفيان فكر آخر حول "الهوية" فقد عرفها فقال: للهوية تعريفات عديدة عند الفلاسفة والمتصوفة، وعلماء النفس والرياضيات والمنطق، وتصب جميعها في النهاية في دلالات، كنت حصرتها في بحث سابق بالحقيقة والماهية والذات والوحدة والاندماج والانتماء والتساوي والتشابه.

والهوية شيء دقيق في الإنسان بحيث يعكس مميزاته الداخلية (المعنوية) والخارجية (الحسية)، فهي إذا ملامح وخفايا وأمزجة من الحدود الفاصلة بينه وبين غيره، ويقول الحفيان مرة أخرى: بأنها "الهوية" ببساطة متناهية ليست سوى تلك القواسم المشتركة أو القدر المتفق عليه بين مجموعة من الناس، ذلك الذي يميزهم ويوحدتهم.

كما ذكر بدوي الشيخ بقوله: "الهوية" هي الذات وهنا الذات تعني: الأنا... أو ماهيتي، أو الهوية الإنسانية والخاصية الثقافية التي تتميز بها الذوات المختلفة، وتأتي أهمية الخصوصية الثقافية المستقلة عند كل من يمتلكها في أنها تتيح له القدرة على الإنتاج والإبداع الحضاري.

ولزيد من الاطناب فالهوية هي وحدة الذات نسبة إلى "هو"، وهي مصطلح فلسفي متعدد المعاني، ويهمننا هنا أنها: حقيقة الشيء من حيث تميزه عن غيره، وقد يصدق عليه أيضا مصطلح "إثية" نسبة إلى "إن" التوكيدية، بمعناه الحديث المؤول "تحقق الوجود القومي". والوجود القومي يتطلب معتقدات، ولغة تواصل، وفكر رصين، هذا هو ديدن كل قومية بشرية.

من جهة أخرى هناك من يرى بأن "الهوية) مصطلح مشتق من أصل لاتيني يفيد أن الشيء هو نفسه وليس شيئا آخر، وبعبارة أخرى أن الوجود هو ذاته أو ما هو عليه، أي أن هوية الشيء ماهيته".

إرتباط اللغة بالهوية:

مما لا شك فيه أن مقومات الأمم ثلاثة: دين ولغة وتاريخ، إذن فهي إحدى ركائز الهوية الكبرى للفرد والمجتمع داخل هذه المجتمعات والذي يهمننا هنا هو العنصر الثاني "اللغة"، فاللغة هي نفسها هوية الفرد لأنك لا تعرف هوية المتكلم حتى يتلفظ بكلام مسموع، من هنا نتبين جهة المتكلم وما يضمّر من قيم ومعتقدات.

وبالتالي، فإن اللغة والهوية هما ذات علاقة قائمة وجليّة أو بتعبير آخر هما وجهان لعملة واحدة، فقد أورد فيصل الحفيان بقوله: "إنّ كلا من اللغة والهوية خاصية إنسانية، فاللغة بالمفهوم الذي أضفناه في فقرة سابقة هي لغة الإنسان، لا يشاركه فيها كائن آخر، وكذا شأن الهوية، فما يجمع بين فصيل من الحيوانات أو سرب من الطيور أو نحو ذلك ليس بالتأكيد الهوية"

اللغة هي وعاء الثقافات والأفكار، وهي ميزات كل مجتمع "الهوية" إذن فاللغة تعكس الهوية سواء الفردية أم الجماعية، ومن هنا يؤكد الباحث "بسام البركة" ترابط كل من اللغة والهوية بقوله: "لا يمكن الحديث عن اللغة دون

الحديث عن الهوية لأن اللغة تحمل هموم متكلميها وتنظم سلوكهم وتفاعلمهم وتوحد انتمائهم.

فقيمة اللغة اذن ليست في طبيعتها ولا تقع في أساس مكوناتها الداخلية إنما هي فكرة أو مفهوم أو صفة ميزها الناس بها وتفاهموا على الاعتراف بها واعتبارها فيها دون سواها. وهي بالتالي تحليل رؤية هؤلاء الناس للواقع الذي يعيشونه وتعكس انطباعاتهم وتلقيهم للأحداث التي يرون بها.

فاللغة هي السبيل القوي للحفاظ والثبات على المشاركة في الجماعة وعلى الهوية الخاصة بكل فرد ولذلك يقول أحد الغربيين: "أن الحفاظ على اللغة حفاظ على الهوية، لأن هناك سببا كما يستخدم لغة خاصة بطبيعته وحين التخلي عن هذه اللغة وتناول لغة ليست من طبيعته يعني هذا التخلي عن لغته وعن هويته، وكأنه يقول: "لم أعد واحدا من جماعتكم"، لذا تعد اللغة أداة بالغة القوة للإعلان عن هوية شخص ما والحفاظ عليها.

ويؤكد الكاتب الفرنسي المعروف: (جليبر كونت) في مقال له تحت عنوان "اللغة هي الجنسية" بحيث يقول: "كل انفتاح على العالم يفرض أولا ثقة بالنفس مطلقة وراسخة ووطيدة، إن اللغة هي الجنسية نفسها هي الوطن حيا ومنغما في ذات كل واحد منا".

وقال الفيلسوف الألماني "مارتن هايدغر: "إن لغتي هي مسكني وهي موطني ومستقري، وهي حدود عالمي الحميم ومعالمه وتضاريسه، ومن نوافذها ومن خلال عيونها أنظر إلى بقية أرجاء الكون الواسع"، ويقول كذلك: "أنا ما أقول" عبر بالآنا والآنا هي هوية الشخص - أي - هوية ما أقول وأتلفظ به.

وفي نفس السياق يقول "جان بول سارتر: بـ"إنني لغة" وهناك من يمزج اللغة والهوية مزجا كليا، وبهذا الأخير قال البريدي: "أن أي تعريف للهوية لا يراعي اللغة هو تعريف ناقص" وقال أيضا في تعريف اللغة بأنها "رموز

ترتضيها الذات لنقل أفكارها ومشاعرها في قالب يتناغم مع هويتها، ويطيّل النفس أن اللغة هي هوية معبر عنها برموز مفهومة وأخيراً نعتبر اللغة بلا ريب أنها هوية ناطقة تفصح عن أغراض متكلميها

علاقة الهوية باللغة علاقة جدلية تفاعلية: فليست اللغة أداة للتعبير فقط ولا وسيلة للتواصل بين الافراد فقط، ولا شأنًا من شؤون العلم والثقافة والتدريس فقط ولكنها شأن من شؤون الهوية والأمن القومي والسيادة الوطنية والاستقرار الاجتماعي والنفسي. فاللغة مؤلف رئيسي من مؤلفات الهوية كل بلد أو وطن أو أمة، بل الهوية مفهوم ذو دلالة لغوية واجتماعية وثقافية، تعني الإحساس بالانتماء إلى أركان الهوية التي هي: الدين والثقافة والاجتماع

أما اللغة فهي الناطق الرسمي بلسان الهوية ووسيلة إدراك العالم وتصنيف المجتمعات، ونظراً إلى خطرها وشموليتها فهي مسؤولة كل جهات التي تكون عناصر المجتمع، لأن اللغة هي الهوية ذاتها وهي الأداة التي تحول بها المجتمع إلى واقع، وثقافة الأمة كامنة في لغتها وفي معجمها وصرفها وتراكيبها ونصوصها، وما من حضارة انسانية إلا وصاحبها اللغة، وما من صراع بشري إلا ويكمن خلفه صراع لغوي خفي، فالهوية نتاج المعاني والقيم التي يشيدها الأفراد عبر اللغة، والطابع الخاص بمجتمع من المجتمعات ناتج عن تفاعل ما يسري بداخله من خطابات لغوية مرتبهة بالمتغيرات التاريخية.

إن اللغة هي ظاهرة انسانية تعكس سلوك الفرد والجماعة -أي-خاصية الفرد والمجتمع (الهوية الفردية والجماعية) فمن هنا تبين لنا أن اللغة هوية راسخة وكامنة في جوف الإنسان، وعكس ذلك فاللغة ليست هي الهوية لوحدها، بل الهوية أوسع من ذلك، فهي فكر وثقافة وعقيدة وتاريخ وتقاليد تخص كل أمة، ويعزز هذا الأخير قول الباحث "فيصل الحفيان": فإن اللغة هوية، وليست "الهوية" لغة، بمعنى أن اللغة ليست المقوم الوحيد للهوية، وإن

كانت من أهم هذه المقومات، أشدها خصبا وعمقا وتركيبا. إن العلاقة بين اللغة والهوية هي علاقة الخاص بالعام، فالهوية أعم من اللغة، لأن الهوية لها تجليات عديدة غير "اللغة" إذ إنها (الهوية) ببساطة متناهية ليست سوى تلك القواسم المشتركة أو القدر المتفق عليه بين مجموعة من الناس، ذلك الذي يميزهم ويوحدهم، وليست اللغة وحدها التي تقوم بهذه المهمة، وهذا يعيدنا إلى المقومات الأخرى للهوية

الهوية اللغوية عند البشير الابراهيمي:

لقد كان الإبراهيمي، يؤمن إيمانا مطلقا بأن اللغة العربية، هي وعاء الإسلام، وحافظة قرآنه وتراثه، وأن المحافظة على اللغة العربية في الجزائر تعني بقاء الإسلام، وبقاء العروبة، وأن محاولة فرنسا القضاء عليها إنما هي محاولات واهية لاستهداف العروبة والإسلام في الدرجة الأولى. يصور لنا الشيخ الإبراهيمي هذه الحرب الصليبية التي شنتها فرنسا على الإسلام واللغة العربية في الجزائر بعد الاحتلال في مواضع كثيرة من آثاره فيقول على سبيل الذكر لا الحصر بأن "مشكلة العروبة في الجزائر أساسها وسببها الاستعمار الفرنسي، وهو عدو سافر للعرب، وعروبتهم ولغتهم، ودينهم الإسلام" على أن شغل الاستعمار الفرنسي الشاغل هو هدم اللغة، لذلك اشتغل بإضرام حربه على التعليم واللغة في أول صورهِ العِدائية، لأن اللغة تعني التعلّق بالوطن، كما التمسك بالدين، ووعيه.

وعليه استجمع كل طاقاته لأجل هذا الغرض، هدم معالم الدولة من خلال لغتها وبالتالي من خلال عقيدتها. وقد نص على التعليم الفرنسي الاجباري، لأن تعلّم لغة يعني اكتساب ثقافة جديدة، وتفكير جديد.

من جهة أخرى، يقول البشير الابراهيمي أيضا: "وبيان ذلك مع الإيجاز، أن الاستعمار الفرنسي صليبي النزعة، فهو - منذ احتل الجزائر - عمل على

محو الإسلام لأنه الدين السماوي الذي فيه من القوة ما يستطيع به أن يسود العالم، وعلى محو اللغة العربية لأنها لسان الإسلام، وعلى محو العروبة، لأنها دعامة الإسلام، وقد استعمل جميع الوسائل المؤدية إلى ذلك، ظاهرة وخفية، سريعة ومتأنية، وأوشك أن يبلغ غايته بعد قرن من الزمن متصل الأيام والليالي في أعمال المحو، لولا أن عاجلته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1830 - 1962م) على رأس القرن بالمقاومة لأعماله، والعمل على تخييب أماله. " حيث لم تدخر الجمعية جهدا في محاربة هذا الاستعمار وأعوانه، بل سعت بكل ما أوتيت من قوة على محاربتة، وكان أقوى سلاح جابهت به المستعمر الغاشم، هو سلاح العلم، المتمحور حول تعليم الناس القراءة والكتابة، وتعاليم الدين والقرآن القرآن - كما قال الابراهيمى - تعاهدوه بالحفظ وأحيوه بالتلاوة، وربوا ألسنتكم على الاستشهاد به في اللغة والقواعد."

إن البشير الابراهيمى، يؤمن إيمانا عميقا بأن اللغة تعنى الوطن، والدين، وكل ما يمثل الفرد، لأجل ذلك نجد مفهوم الهوية بالنسبة إليه يتمحور حول هاتين النقطتين (الوطن والدين). وعليه، فقد انقسم هذا المفهوم من خلال ما تبين لنا في مجمل آرائه وكتاباتة إلى قسمين، قسم الهوية الذاتية (الشخصية) وقسم الهوية الاجتماعية، أما الأولى فترتبط بمفهوم الذات وما يدور حولها من معتقدات شخصية تتعلق بالفرد، أما الثانية فترتبط بمفهوم أوسع، يدخل في نطاقه كل من الدين والدولة، ومتى ما كان هناك توافق بين الهويتين كلما استطاع الفرد أن يعيش بسلام، وإلا عاش صراعا داخليا لا يسلم من عواقبه.

انطلاقا مما سبق، عبّر البشير الابراهيمى عن مفهوم الهوية بالنظر إلى علاقتها الوطيدة باللغة، وما دعوته للحفاظ على اللغة إلا من قبيل الحفاظ على الهوية، يقول: اللغة العربية هي لغة الإسلام الرسمية، ومن ثم فهي لغة المسلمين الدينية الرسمية، وهذه الأمة الجزائرية حقان أكيدان: كل منهما يقتضي وجوب تعلمها، فكيف إذا اجتماعا، حق من حيث أنها لغة دين الأمة بالحكم أن الأمة مسلمة،

وحق أنها لغة جنسها بحكم أن الأمة عربية الجنس، والدّين معا، ومن هنا نشأ ما نراه من حرص متأصل في هذه الأمة على تعلّم العربية.

ويضيف قائلا: "إن العربية هي لسان العروبة الناطق بأجادها، الناشر لمفاخرها وحكمها، فكل مدّع للعروبة شاهده لسانه" يؤكّد هذا النص على مفهوم الهوية اللغوية الناطقة، فهو يربط بقول صريح بين الهوية واللسان، ذلك أن الهوية في مفهومها البسيط تعني، التمثّل لبعض الأركان كاللغة والدّين مثلا، وكلّ ذلك يتم التعريف بم من خلال اللغة الناطقة.

وعليه، كان مفهوم الهوية العربية عند البشير الإبراهيمي مرتبطا بالاستعمال اللساني العربي، والاستسلام لتعاليم الدّين الإسلامي، يقول في هذا السياق: "إنّ اللغة العربية كالدين يحملها من كل خلف عدوله، لتنفوا عنها تحريف الضالين، وزيف المبطلين، وانتحال المؤلّين، وأنتم أولئك العدول، فانفوا بجد وإخلاص عن هذه اللغة زيغ المبطلين من هذا الجيل الذين أصبحوا يتنكرون لهذه اللغة ويفرون في وجهها." لقد ربط البشير الإبراهيمي بين مفهوم الهوية، والدّود عن استعمالها، لأن ذلك من صميم مجابهة كل ما يחדش تلك الهوية ومقوماتها.

من جهة اخرى، وبعد استقراء النصوص الإبراهيمية المناهضة لاستعمال اللغة العربية والدّود عنها، جعل مسألة السياسة والتخطيط اللغويين قائمين على هذا الأساس، فلا يمكن أن يتم أحدهما إلا من خلال النظر في مقومات الهوية اللغوية، وبالتالي تنبني السياسة اللغوية في نظره على كل ما يؤسّس ويدعم اللغة العربية واستعمالها في ربوع الجزائر، ذلك أن فرنسا كانت تنادي بأن اللغة العربية تساوي اللغة الأجنبية، حتى توهم الناس بأن الجزائر فرنسية لا محال. يقول البشير الإبراهيمي: "أما في الجزائر فإن مشكلة العروبة أساسها وسببها الاستعمار الفرنسي، وهو عدو سافر للعرب -وعروبتهم-

ولغتهم ودينهم الإسلام ووجود المشكلة منوط بوجوده، فإذا زال، زال العنصر الأكبر منها، والسبب الأعظم فيها ولو بقي-ولو إلى حين- فمشكلة العروبة في الجزائر سائرة إلى واحد من اثنين: إما أن تغلب الاستعمار على عربتنا ونعالج مشكلتنا بأيدينا.

ولما كانت تنادي فرنسا بالهزيمة اللغوية للجزائريين، وجعل العربية أجنبية على ألسنتهم، انتبه البشير الإبراهيمي وأنصاره من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، إلى أن هذا أمر مرتبط أشد ارتباط بالوازع الديني والمعتدي، لذلك كانت ضرورة الذب عن هذا واستنهاض الهمم لخوض معركة أشد ضراوة من معركة السلاح.

بناء عليه، انبثق مفهوم الهوية في سياق آخر، من خلال الازدواجية اللغوية التي أخذت تتفشى في اللسان العربي الجزائري، وكأن الاستعمار لم يعد - في رأي الإبراهيمي - استعمار أرض، بل تعداه إلى استعمار الألسن، ولكل لسان ثقافته ومن ثم التفكير الخاص به، وإلا فإن ديننا الإسلام لم يمنع تعلم اللغات وإتقانها.

انطلاقاً مما سبق، يقول الإبراهيمي: "العروبة - لغة - غمرتها الرطانات الأعجمية، واللهجات العامية، واللغات الأجنبية أخذت منها، ثم تعالت عنها، واللهجات العامية مزقتها، وأصبحت حجة عليها ومداخل ضيم لها، واللغات الأجنبية زاحمتها في ضعفاء الهمم، والعزائم من أبنائها، وهذه كلها مشكلات ذات أثر سيء وعميق في المجتمع."

وبوعي عميق، يطرق مجالات عديدة، وكلها من زاوية الهوية التي تعني له العروبة والتمسك بتعاليم الإسلام، التي هي أساس مقومات الهوية، الأخيرة التي تشكل السبيل التعريفي للفرد، ومتى ما تعرّف الفرد على نفسه، وأدرك ذاته، كانت له بصمة في مجتمعه الذي يمثله، لذلك نص على ضرورة الاهتمام

بالنشاء وتربيته على الاحساس باللغة العربية، الفصحى وليس غيرها. ونص على أهمية أن يتم التعريب، ابتداء من المعلم إلى الكتاب، وصولاً إلى الهيئة التعليمية، وضرورة انتقاء أجود النصوص وأنقاها لغة، حتى تكون اللغة الرصينة، والفكر الناضج.

وعليه، يقول: "يجب في هذا المضمار أن تتلاقى الجهود على تعريب المدرسة الابتدائية، وتعريب أبنائها، وتعريب التعليم، وتوحيد أساليبه، وكتبه في جميع المراحل طبقاً للروح العربية، وانتقاء الكتب هو أساس التعريب، وخصوصاً في المرحلة الابتدائية التي هي مرحلة التكوين اللغوي، ويجب إدخال متن اللغة في هذه المرحلة على طريقة "ابن سيدة" في كتاب "المخصص" [...] ويجب أن تؤلف لهذه المرحلة كتب لغوية صغيرة، ويجب حمل التلميذ على التكلّم بالعربية الفصحى ما داموا في المدرسة، ومن الحكمة ألا ينطق المعلمون أمامهم بكلمة اعجمية حتى لا تخدش ملكاتهم فإن كلمة واحدة قد تفسد كل العمل."

وفي السياق نفسه يضيف: "بتعريب المدرسة من الكتاب إلى الجامعة، وتعريب التعليم من المعلم إلى الكتاب، نكون قد عربنا جماعة تقوم بتعريب الجماعات، وتعريب الاجتماع وتعريب البيوت، وإن أكبر عقبة تلقانا في هذا الطور هو التعريب فيجب أن نحتاط لها، وإن لا نوكل تعريب أبنائنا إلى معلم غير معرب، ونحن نتوقع أن نقع في هذه النقطة في ما يشبه الدور، ولكننا نستطيع الانفكاك عنه بحزم الحكومات، وإدراج النفقات، فعلى الحكومة وعلى وزارة المعارف المختصة أن تبدأ هذه المرحلة بتأليف الكتب الابتدائية ووضعها على ما يوافق مناهج التعريب وتطبّعها."

إن انطلاقة التعريب، تقود إلى تذوق اللغة، وبالتالي تنمية الحس اللغوي، وهكذا زرع الألفة والزمالة اللغوية بين الفرد ولغته، إلى أن يتقمص هذا الأخير هويته، ولا ينفصم عن شخصيته.

وكما ترى، فإن الإبراهيمي، انتبه إلى أن الهوية - كما أسلفنا- إلى نوعين، شخصية واجتماعية، وما اللغة إلا حلقة وصل بين الشخص ومجتمعه، فمتى ما انحرف عن عروبتة، واقتنى لسانا غير لسانه، فإنه سيعيش غربة واغترابا داخليا قبل أن يجد سماته في نظرات أفراد المجتمع برمته.

إن اللغة واللسان هما أساس التعريف بالمجتمع، وما عُرِفَت الأمة الإسلامية إلا بلسانها، بل كان يجتهد الغير -أيا كان هذا الغير- في تعلّم العربية من أجل التعرف على حضارتها وهويتها، دينا ومعتقدا، فيأخذ منها ما يأخذ، ويترك منها ما يترك. ولأن اللغة أساس الهوية، فإننا نجد في مظاهر الفرد وملابساته الخارجية، وهكذا كان لزاما - كما يقول الإبراهيمي - اعتناق اللسان العربي، حتى يتم الاعتزاز بمجد عروبتنا والتضحية في سبيل الارتقاء بها، مهما كلف الأمر من ثمن.

خلاصة القول، أن مفهوم الهوية اللغوية عند البشير الإبراهيمي، كان أساسه دخول الاستعمار الفرنسي الغاشم أرض الجزائر ودعوته لاستعمار العقول والألسنة قبل الأرض وخيراتها. والهوية اللغوية تدلّ على التطبّع بالعروبة وتعاليم الدين الإسلامي.

وارتبط هذا المفهوم عنده -مفهوم الهوية اللغوية - بمفاهيم أخرى، هي الأساس في تحقيق الشخصية المتكاملة. تتمثل تلك المفاهيم التي تنضوي تحته، في كلّ من السياسة اللغوية والازدواجية، والتعددية، والتعريب.. إلخ. وعلى أساسها يتشكل مفهوم الهوية اللغوية.

قائمة المراجع:

1. أحمد طالب الإبراهيمي، آثار البشير الابراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997م.
2. بدوي الشيخ، "منار الشباب"، دار البشير للثقافة والعلوم، ط1، 2000.
3. بسام البركة: "اللغة العربية القيمة والهوية"، مجلة العربي، العدد 528، نوفمبر 2002.
4. تراسك، "أساسيات اللغة" تر: رانيا ابراهيم يوسف، المجلس الاعلى للثقافة، ط1، 2000.
5. جليبر كونت "اللغة هي الجنسية" العدد 15 جولية 1978
6. رشيد بلحبيب: "الهويات اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم"، وزارة الشؤون الإسلامية.
7. عبد الله البريدي، "اللغة هوية ناطقة"، مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر، الرياض، 1434هـ.
8. فيصل الحفيان، مجلة التسامح، "اللغة والهوية اشكاليات المفاهيم وجدل العلاقات"، العدد الخامس، 1425هـ/2004م، مسقط، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية.
9. محمد عابد الخابري: "الموسوعة الفلسفية العربية"، معهد الانماء العربي، بيروت، 1986. مج2.
10. نبيل علي: "الثقافة العربية وعصر المعلومات"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، 2001.
11. يوسف بكار، صحيفة وجهة نظر، "اللغة العربية ركن في ثقافة الأمة وهويتها"، العدد 106، تشرين الثاني 2007.

أثر تعليم اللغة العربية في بناء الشخصية الجزائرية (عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) قراءة في جهود الشيخ البشير الإبراهيمي

أ. عبد الرؤوف محمدي

ب.م. ب. ع. ن. لتطوير اللغة العربية ورفلة

توطئة:

اللغة مقوم هام من مقومات حياتنا فهي الحاملة لثقافتنا ورسالتنا والرابط الموحد بيننا والمكون لبنية تفكيرنا والواصلة بين أجيال الأمة بل بين كثير من الأمم⁽¹⁾.

واللغة في نظر الإبراهيمي هي: "المقوم الأكبر من مقومات الاجتماع البشري، وما من أمة أضاعت لغتها إلا وأضاعت وجودها واستتبع ضياع اللغة ضياع المقومات الأخرى"⁽²⁾.

لنتبين لنا من خلال هذا أن المحافظة على اللغة العربية هي محافظة على الأمة الجزائرية. يقول الراجعي: "وأما اللغة فهي صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها وجودا متميِّزا قائما بخصائصه... فليس كاللغة

⁽¹⁾ ينظر: آثار الإبراهيمي ج1، ص9، المقدمة، أحمد طالب الإبراهيمي - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط1، 1997، ج1، ص134.

⁽²⁾ وحي القلم، مصطفى صادق الراجعي، دار المعارف، القاهرة، 1972، ج3، ص33-37.

نسب للعاطفة والفكر، حتى أن أبناء الأب الواحد لو اختلفت ألسنتهم فنشأ منهم ناشئ على لغة ونشأ الثاني على أخرى والثالث على لغة ثالثة لكانوا في العاطفة كأبناء ثلاثة آباء⁽¹⁾.

لقد ربط البعض حياة الشعوب بالمحافظة على اللغة فما دامت اللغة قائمة بقيت الشخصية والهوية قائمة بعيدة عن كل أنواع الذوبان والانصهار في المجتمعات الأخرى، فإذا تخلى عن لغته فقد شخصيته وكل ما يمتاز به. فالشعب "عندما يفقد لغته ويصبح من الناطقين بلغة حكامه عندئذ يكون الشعب قد ذاب وتغيرت هويته، وانصهر في بوتقة الفاتحين، واندمج فيهم اندماجا يفقده كل ما كان له من حياة خاصة به"⁽²⁾.

يقول ابن باديس في هذا الصدد بأن: "الامة تبقى ما بقيت لغتها وتزول بزوالها، ولو أن الجزائريين مثلاً تخلوا عن لغتهم تحت ضغط الاحتلال واستبدلوها بلغة المحتل لكان الذي ينهار ليس هو اللغة العربية وحدها ولكن تنهار معها الشخصية الجزائرية بكل ميراثها الثقافي والحضاري"⁽³⁾.

1. نشأة الجمعية:

لقد أعمى الطغيان أعين الفرنسيين وأصم الاستكبار آذانهم واران الحقد على قلوبهم فأقاموا سنة 1930م احتفالات ضخمة بمناسبة مرور قرن على احتلالهم الجزائر وصرحوا بأقوال وقاموا بأعمال جددت في نفوس الجزائريين آلاما نسيت، وفتقت جروحا رتقت. فكانت هذه الاحتفالات

⁽¹⁾ التعليم القومي والشخصية الجزائرية، رايح تركي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1982. ص 29.

⁽²⁾ عبد الحميد بن باديس في مقال: الجنسية القومية والجنسية السياسية، مجلة الشهاب، ج2م12، عدد فبراير سنة 1937، ص505، نقلا عن المرجع السابق، ص 30.

⁽³⁾ التعليم القومي والشخصية الجزائرية، تركي رايح، ص 66، 67.

نقطة تحول في تاريخ الجزائر الحديث لأنها أيقظت من كان نائما، ونبهت من كان غافلا، فأحس المفكرون في الجزائر بضرورة التكتل والعمل المثمر ونشأت عن ذلك حركات سياسية اختلفت وسائلها واتحدت غايتها التي هي رفع الظلم وطلب الحرية⁽¹⁾.

وقد قضى الاستعمار السنة في مهرجانات صاخبة، فما دخلت السنة الثانية حتى فوجئ بتكوين جمعية العلماء في غمرة من ابتهاج الأمة بهذا المولود الجديد، فتكونت في شكلها القانوني في أواسط سنة 1931م، وكأن الله جعلها تنقيصا للاستعمار، وتقريبا لأجله، ولأمر يعلمه الله لم يعارض الاستعمار في القانون الأساسي ولم يتشدد في الإجراءات القانونية. فتعاملت سلطات الاحتلال في بداية الأمر مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بسذاجة؛ لم تعرقل نشاطها ولم تعترض على تأسيسها حيث وافقت بسهولة على الترخيص لها بالعمل بعد الاطلاع على قانونها الأساسي؛ لأنها كانت تستهين برجال الدين الإسلامي، ولكنها سرعان ما غيرت رأيها في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، إذ بعد حوالي سنتين من تكوينها منعت رجالها من الوعظ والإرشاد في المساجد التي تقع تحت إشرافها، وقاومت نشاطهم التعليمي، فقد لمست في رجالها وأنصارها طرازا جديدا من العلماء القادة الذين يعرفون كيف يعملون للوصول إلى أهدافهم، ويتمتعون بقدرة فائقة على إثارة حماسة الشعب واستمالاته نحو المشاريع التي يدعون إليها ويستطيعون استغلال هذه الحماسة استغلالا عمليا فعّالا لتحقيق خططهم⁽²⁾.

(1) ينظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص164، 165

(2) التعليم القومي والشخصية الجزائرية، رابح تركي، ص 201، 202.

يقول أحمد توفيق المدني: "إن احتفال الفرنسيين بمرور قرن على احتلالهم أرض الجزائر قد قدّم القضية الجزائرية عشرين سنة على الأقل"⁽¹⁾.

وهكذا فقد كانت هذه الاحتفالات هي بداية نهاية فرنسا، فلم تهنأ بعد نشأة الجمعية، وبعض الحركات السياسية الوطنية، التي أسهمت بشكل كبير في توعية الشعب الجزائري، وإيقاظه من غفلته.

2. موقف الاحتلال الفرنسي من اللغة العربية والثقافة العربية:

الاستعمار الفرنسي في الجزائر "صليبي النزعة، فهو منذ احتل الجزائر عمل على محو الإسلام لأنه الدين السماوي الذي فيه من القوة ما يستطيع به أن يسود العالم، وعلى محو اللغة العربية باعتبارها لسان الإسلام وعلى محو العروبة لأنها دعامته، وقد استعمل جميع الوسائل المؤدية إلى ذلك ظاهرة وخفية سريعة ومتأنية وأوشك أن يبلغ غايته بعد قرن من الزمن متصل الأيام والليالي في أعمال المحو، لولا أن عاجلته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على رأس القرن بالمقاومة لأعماله والعمل على تخييب آماله"⁽²⁾.

فمن بدايات احتلاله للجزائر عمد إلى القضاء على اللغة العربية والثقافة العربية بانتهاجه لسياسة الفرنسة والإدماج وتمثل ذلك في:

- القضاء على معظم مراكز الثقافة العربية واللغة العربية التي تتمثل في المدارس والجوامع والزوايا التي كانت قائمة في البلاد قبل الاحتلال.

- نهب التراث الثقافي العربي الإسلامي الذي عثر عليه في المكتبات الجزائرية مثل المخطوطات والوثائق والكتب⁽³⁾.

⁽¹⁾ هذه هي الجزائر، أحمد توفيق المدني، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1956، ص 166.

⁽²⁾ آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 5، ص 151.

⁽³⁾ ينظر: التعليم القومي والشخصية الجزائرية رابح تركي، ص 96.

- صادر معظم معاهد التربية والتعليم العربية التي كانت موجودة في الجزائر قبل الاحتلال وحول الباقي إلى معاهد للتعليم الفرنسي الخالص.

- جعل التعليم في جميع المدارس الحديثة باللغة الفرنسية وحدها ومنع تدريس اللغة العربية لأبناء الجزائر في المدارس الابتدائية بقصد القضاء على اللغة العربية.

- فرنس الإدارة فرنسة كاملة تماشياً مع سياسة فرنسة الجزائريين.

- حارب اللغة العربية والثقافة العربية قصد القضاء عليها تماشياً مع خطته في محاربة الشخصية الجزائرية.

3- أسس السياسة التعليمية الفرنسية:

قامت سياسة فرنسا التعليمية على تحقيق ثلاثة أهداف تهدف من ورائها إلى نحو الشخصية الجزائرية وطمس معالمها، فانتهجت سياسة تعليمية قائمة على:

- الفرنسية كوسيلة وهدف

- التنصير كوسيلة وهدف

- الإدماج كهدف

فالفرنسة تعني إزاحة اللغة العربية لتحل الفرنسية مكانها، واستبدال الثقافة العربية بالثقافة الفرنسية، فإذا نسي الجزائريون لغتهم وثقافتهم ارتبطوا بفرنسا فكرياً وثقافياً، واندمجوا في فرنسا فصاروا فرنسيين وابتعدوا عن الأمة العربية.

وسياسة الفرنسة لم تقتصر على التعليم في مختلف مراحل من مناهج ونظم، ومقررات ولغة تدريس، وإدارة تعليمية فحسب، بل تجاوزت ذلك إلى كل مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية والإدارية⁽¹⁾.

(1) ينظر: نفسه، ص 107.

والواقع أن الاستعمار بعد أن بسط نفوذه على الجزائر حارب اللغة العربية والثقافة العربية كما حارب الشخصية الجزائرية حربا لا هوادة فيها.

ولما كانت اللغة العربية هي وعاء الثقافة العربية فقد ركز الاحتلال حربته عليها لأنه متى تم القضاء عليها يمكن القضاء على الثقافة العربية والشخصية الجزائرية بسهولة ويسر⁽¹⁾.

وتمشيا مع هذه السياسة قام بمطاردة اللغة العربية في كل مجالات الحياة في الجزائر فأبعدها أولا عن الإدارة حيث أصبحت اللغة الفرنسية هي وحدها لغة العمل الرسمي، ما عدا محاكم الأحوال الشخصية الإسلامية حيث بقي العمل فيها يجري باللغة العربية وكذلك في إدارة مناطق الجنوب الصحراوية التي يقطنها عدد قليل من الجزائريين كما طاردها كذلك في معاهد التعليم على اختلاف مراحلها⁽²⁾.

إن أثر السياسة التعليمية الفرنسية على الجزائريين بقي بعد الاستقلال ولا زلنا نعاني منه إلى يومنا هذا وذلك أن بعض الجزائريين المثقفين ثقافة فرنسية خالصة هم من يعارضون تعريب التعليم والإدارة في الجزائر متأثرين في ذلك بما تعلموه في المعاهد الفرنسية في عهد الاحتلال من معلومات مشوهة ضد اللغة العربية والثقافة العربية وانتماء الجزائر الحضاري إلى الأمة العربية والعالم الإسلامي⁽³⁾.

4. فلسفة الجمعية:

لقد قامت الجمعية - منذ تأسيسها - على فلسفة واضحة إذ عملت في البداية على تصحيح أفكار الناس وتهذيبها، وإزالة ما علق بها من أوهام،

(1) عيون البصائر، الإبراهيمي، دار المعارف 1963، ص 65.

(2) ينظر: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، رابح تركي، ص 93، 94.

(3) ينظر: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، رابح تركي، ص 121.

وأفكار خاطئة غذتها الخرافة والدجل، فتصدت من أول وهلة لأصحاب الطرق المنحرفة الذين كانوا أذئابا للاستعمار، وعونا له على إخوانهم الجزائريين، فلم يكثرثوا لهذا الشعب، فأعمتهم أنفسهم وكانوا العامل الأكبر في نشر الجهل والامية بينه. فكان الطور الأول طور هدم ورفع أنقاض، وكان الطور الثاني طور بناء وتشبيد... بناء للعقول والأرواح والنفوس بمواد العلم والحكمة والفضيلة.

لقد جعل رجال الجمعية نصب أعينهم تحقيق هدفين هما غاية إنشائها، يقول الإبراهيمي: "إن جمعيتكم هذه أسست لغائتين شريفتين لهما في قلب كل عربي مسلم بهذا الوطن مكانة لا تساويها مكانة، وهما إحياء مجد الدين الإسلامي وإحياء مجد اللغة العربية"⁽¹⁾.

فلما تهيأ الشعب الجزائري واستعد لتقبل أفكار الجمعية، واقتنع بآرائها، وفهم فلسفتها، ووثق بعلمائها عمدت إلى بناء المدارس، وفتح المساجد، وإنشاء النوادي، "جاء الدور الثاني لجمعية العلماء وهو دور التربية الإسلامية والتعليم العربي الابتدائي الحر المشتمل على مبادئ العربية وآدابها ومبادئ التاريخ الإسلامي، والتربية الإسلامية الصالحة، وجاء معه الصراع العنيف مع السلطة الاستعمارية وقوانينها الجائرة، استعدت الجمعية بالإيمان والعزيمة وتجاهل القوانين الاستعمارية، وتوطين النفوس على المكروه الذي يصيبها في سبيل تعليم الدين والعربية، وآزرتها الأمة في ذلك لأنها أدركت بواسطة تلك الدروس والمحاضرات ما يسببه الاستعمار لدينها ولغتها، وما كان يغالطها به أولئك الدجالون المتجرون بالدين"⁽²⁾.

(1) نفسه، ص 133

(2) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج5، ص 153.

وجعلت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من أولوياتها نشر العلم فبنت مشروعا يقوم على الدين والعلم والأخلاق إيمانا منها بأن هذه العناصر توصل الشعب الجزائري إلى الاستقلال بينما جعلت الحركة السياسية من الاستقلال الوسيلة إلى بناء هذه الأعمدة⁽¹⁾.

5- أساليب الاحتلال في محاربة اللغة العربية بعد تأسيس الجمعية:

لقد فرضت الجمعية والحركات السياسية وبعض الجمعيات منطقتها على الاحتلال، مما اضطره إلى تغيير أساليبه في محاربة اللغة العربية فعمل على:

- محاربة حركة التعليم العربي الحر التي كانت تقوم بها جمعية العلماء وبعض المنظمات الوطنية الأخرى، ووضع شروطا قاسية لإعطاء رخص التعليم للمنظمات ورجال التعليم مما أدى إلى إغلاق عدد كبير من المدارس، والنوادي، والمساجد التي تقوم بالتعليم العربي بهدف عرقلة نشر التعليم القومي في البلاد على نطاق واسع.

- محاربة الثقافة العربية واللغة العربية من خلال الصحافة الوطنية والصحف والجرائد التي تصدر بالعربية فكلما صدرت جريدة أو مجلة بادر بإغلاقها أو مصادرتها كما فعل مع جريدة (المنتقد) لابن باديس وجريدة (الجزائر) لمحمد السعيد الزاهري وجريدة (ميزاب) لإبراهيم أبي اليقظان التي أغلقها الاحتلال قبل أن يعرفها القراء فقد صادر عددها الأول وهو لا يزال في المطبعة ثم قرر تعطيلها نهائيا⁽²⁾.

(1) ينظر: آثار إبراهيم ج1، ص9، المقدمة، أحمد طالب الإبراهيمي

(2) ينظر: أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر ص 345، 346، ط2 الجزائر 1963، نقلا عن التعلم

القومي والشخصية الجزائرية، ص 97.

- قسم اللغة العربية إلى ثلاث لغات: عربية فصحي وعربية عامية، وعربية حديثة، ثم قرر منع تدريسها في المدارس الابتدائية وجعلها لغة اختيارية في التعليم الثانوي⁽¹⁾.

- أصدر في عام 1938 قانونا رسميا اعتبرت اللغة العربية بمقتضاه لغة أجنبية في الجزائر.

وهذه شهادة من أهلها، فقد أعلن (جاك مادول) عند زيارته إلى الجزائر قائلاً: "إن أغرب شيء رأيته واستوجب دهشتي الشديدة هو أن اللغة العربية التي هي لغة الأغلبية العظمى من سكان القطر الجزائري تعتبر لغة أجنبية وهذا هو الأمر الذي جعل المسلمين من رجال جمعية العلماء وغيرها ينظمون بجهودهم الخاصة وعلى حسابهم تعليم الأمة لغتها"⁽²⁾.

6 - الجمعية تفسد مخططات الاحتلال:

كانت السياسة التعليمية الفرنسية تهدف من وراء فرنسة التعليم الابتدائي إلى عدم تكوين شخصيات الأطفال تكويناً قومياً ووطنياً منذ الصغر؛ لأن هذا التعليم هو الذي تتكون فيه شخصيات الأطفال من الناحية القومية والوطنية في الوقت الذي تكون فيه قابليتهم واستعداداتهم النفسية والوجدانية في أوجها " ذلك أن الطفل الذي لا يتلقى لغته أو يتشرب روحها في طفولته ينشأ طفلاً مفكك الشخصية"⁽³⁾.

ومن هنا كانت الأمم تهتم بلغتها القومية وتضعها في المكان الأول من مناهجها التعليمية والسبب في ذلك يرجع إلى أن الطفل عن طريق لغته

(1) التعليم القومي والشخصية الجزائرية، رابح تركي، ص 103، 104.

(2) البصائر عدد 27، السنة السابعة، 21 مايو 1954، ص 1 (255).

(3) كامل الباقر، في معركة الثقافة، الأنجلو مصرية 1965، ص 25.

يستطيع في مرحلة مبكرة أن يتقبل المبادئ الدينية والخلقية والاجتماعية ويستطيع عن طريق هذه اللغة أن يشارك الكبار في التشبع بالقيم الموجودة والتشرب بالتقاليد السائدة لأن اللغة هي الوسيلة الفعالة لاستقبال هذه الخبرات ولا تستطيع أية لغة أجنبية أن تمد الطفل بالقدر اللازم من المعاني التي تسهم في تربيته تربية وطنية⁽¹⁾.

لقد غير الاحتلال سياسته ضد التعليم بالعربية وأعلنها - صراحة - حربا ضد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أصبح ينظر إليها خطرا على وجوده، وعدوا لدودا تجب محاربته فأصدر قانون الثامن مارس 1938م ليضيق على الجمعية ومن حذا حذوها في نشر التعليم والصحافة باللغة العربية. يصف الإبراهيمي هذا التحول في السياسة الفرنسية بقوله "كان شعبنا في غفلة عن مستقبل أبنائه شاملة، فكانت الحكومة في تساهل مع الكتابيب القرآنية مريح، وجاءت جمعية العلماء فشوقت الشعب إلى ترقية حالة تلك الكتابيب، فأخذت جهات من الوطن الجزائري تنظم الكتابيب المعبر عندنا عنها بالمدارس تعبيرا نقره على سبيل التفاؤل، وهنا وجدنا من الحكومة معاملة أخرى فأصبحت لا تسمح لنا إلا برخصة ولا تمنح الرخصة لطالها ولو انتظر السنين".

ويظهر أثر هذه السياسة في طول المدة التي بقيت فرنسا تحارب فيها الجمعية وتحارب التعليم العربي فكانت سجالا بين الجمعية والاحتلال؛ فكلما نشطت حركة التعليم قوبلت بسن قوانين جائرة وقرارات مجحفة في حقه، يقول الشيخ الإبراهيمي عن هذه الحالة: "يرجع تاريخ هذه المشادة القائمة بيننا وبين الحكومة في قضية التعليم العربي إلى خمس عشرة سنة، فهي مقارنة لظهور جمعية العلماء تقريبا ولكنها تشدد وتتعمد في كل سنة تبعا لنمو

(1) نفسه، ص 25.

الحركة الإصلاحية واستفحالتها وتطورها فكلما اشتدت حركة التعليم وامتدت ظهر للحكومة فيها رأي فسنت لشلها قانونا أو قرارا وسكتت عن تنفيذه إلى حين⁽¹⁾.

لقد جابهت الجمعية تلك القوانين والقرارات ووقفت سدا في وجه القائمين عليها لأنها تدرك أنه لو استسلمت لتلك القوانين ورضيت بها ولو نفذت تلك القرارات بمخادفيرها لما بقي في الجزائر من يكتب حرفا عربيا⁽²⁾.

فاستعمل الاحتلال كل الوسائل من أجل عرقلة التعليم العربي ليحول بين الجزائريين وبين تعلم لغتهم ودينهم، فمنع الرخص عن المعلمين، وصادر الممنوح منها، وأغلق المدارس، ولم يكن يغلقها لأنها لم تستوف الشروط الصحية اللازمة أو لوقوعها في أماكن غير لائقة، ولكنه يغلقها نكاية في اللغة العربية، وحقدا على الإسلام وحربا على الثقافة العربية الإسلامية التي وقفت عقبة في طريق سياسته الرامية إلى محو الشخصية الوطنية الجزائرية حتى ولو استوفت المدرسة كل الشروط اللازمة مثل مدرسة دار الحديث⁽³⁾.

كما عطل إنشاء النوادي، وضيق على المعلمين بسجنهم واضطهادهم وتعتيهم وتقديمهم للمحاكمات، إلا أن ذلك لم يزد الحركات الوطنية وعلى رأسها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلا إصرارا حتى استطاعت أن تحدث في البلاد نهضة عربية إسلامية واسعة النطاق، حتى كانت الركيزة الأساسية التي استندت إليها الحركة الوطنية في تحرير الجزائر من الاحتلال في نطاق حضارتها العربية الإسلامية كما كانت العامل الأساسي في فشل

(1) عيون البصائر، ص 250

(2) نفسه، ص 232.

(3) التعليم القومي والشخصية الجزائرية، رابح تركي، ص 180.

سياسة الفرنسة والتنصير والإدماج التي سار عليها الاحتلال في الجزائر طوال قرن وثلث قرن⁽¹⁾.

7. تعلم اللغة العربية عند الإبراهيمي:

يرى الإبراهيمي بأن اللغة العربية جديرة باهتمام الجزائريين بل واجب على كل من يدين بالإسلام أن يتعلمها لأنها لغة الإسلام الرسمية إذ لهذه اللغة على الأمة الجزائرية حقان أكيدان، كل منهما يقتضي وجوب تعلمها فكيف إذا اجتمعا⁽²⁾.

أما الأول فلأنها لغة هذا الدين وبحكم أن الأمة مسلمة، وأما الثاني فلأنها لغة جنسها بحكم أن الأمة عربية الجنس.

وعلى هذا فهو يرى بأن تعلم اللغة العربية واجب على الأمة الجزائرية، إذ بها تحفظ الشخصية الجزائرية من الذوبان في الأمة الفرنسية من جهة، ومن جهة أخرى محافظة على دين الأمة الإسلامي "ففي المحافظة عليها محافظة على جنسية ودين معا، ومن هنا نشأ ما نراه من حرص متأصل في هذه الأمة على تعلم اللغة العربية... وذلك كله أنها مفتاح الدين أو جزء من الدين"⁽³⁾. بل إن اللغة العربية هي لغة علم وحضارة، يشهد لها التاريخ بأنها استوعبت علوم وآداب الأمم الأخرى ولو لم تكن اللغة العربية لغة مدنية وعمران ولو لم تكن متسعة الآفاق غنية بالمفردات والتراكيب لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان وآداب فارس والهند، ولألزمتهم الحاجة إلى تلك

(1) ينظر: نفسه، ص 190.

(2) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 48،

(3) عيون البصائر، دار المعارف، القاهرة، 1963، ص 16.

العلوم تعليم تلك اللغات ولو فعلوا لأصبحوا عربا بعقول فارسية وأدمغة يونانية ولو وقع ذلك لتغير مجرى التاريخ الإسلامي برمته.

لو لم تكن اللغة العربية لغة عالمية لما وسعت علوم العالم وما العالم إذ ذاك إلا هذه الأمم التي نقل عنها المسلمون⁽¹⁾.

لقد أدرك الإبراهيمي قيمة اللغة العربية، وقيمة تعلمها والمحافظة عليها، إذ بالمحافظة عليها نحفظ الفكر العربي والهوية العربية.

8- جهود الجمعية في الحفاظ على اللغة العربية:

تمثلت جهود الجمعية في الحفاظ على اللغة العربية في توعية المواطنين، ونشر العلم بين أبنائه فعملت على بناء المساجد، وإنشاء النوادي، ونشر الصحافة، فكانت جريدة البصائر لسانها الناطق لفترة غير يسيرة من الزمن، وكان لها دور في إسماع صوت الجزائر والتعريف بالقضية الجزائرية، كما كان للشيخ الإبراهيمي الأثر الأبرز في ذلك، فقد جاب البلاد العربية والإسلامية، والتقى برؤساء وملوك بعض تلك الدول، فكانوا سنداً للثورة التحريرية بعد اندلاعها.

لقد عمل الشيخ الإبراهيمي على استثمار خبراته وتجاربه فأرسى قاعدة صلبة هيأها لعمل عظيم، إذ أدرك أن الأمة غير المهيأة لا تتقبل الصالح من الأفكار كما لا تنبت الأرض غير المستصلحة الجيد من البذور ولا تخرج الطيب من الأثمار، وكان مقتنعا أنه لا تتحقق تلك الغاية إلا بنشر العلم الذي يمحو الجهل ويطرده الخرافة، ويحرر العقل وينجح العمل ويزكي النفس.

(1) نفسه، ص376.

إنه كما قال عنه نائبه الشيخ العربي التبسي: "فلتة من فلتات الزمان، وأن العظمة أصل في طبعه"⁽¹⁾.

إن العلم في نظر الإبراهيمي روح للأمة وإن البحث في أنواع العلوم التي تصلح لنهضتنا فهو معدود من لغو الحديث، واحتياج الحي إلى العلم في هذا الزمن أصبح قرين احتياجه إلى الطعام⁽²⁾.

أ- بناء المدارس:

يعتقد الإمام الإبراهيمي أن التعليم نوع من الجهاد ويرى المدارس ميادين جهاد ويعتبر المعلمين مجاهدين مستحقين لأجر الجهاد لأن التعليم هو عدو الاستعمار الألد، ويرى أن المدرسة هي جنة الدنيا والسجن هو نارها... والأمة التي لا تبني المدارس تبني لها السجون⁽³⁾ وعليه فإن الحياة بلا علم متاع مستعار والوطن بلا علم عورة مكشوفة ونهب مقسم⁽⁴⁾.

يقول الإبراهيمي "المدرسة هي طريق الحياة، وطريق النجاة، وطريق السعادة، وإن الوطن أمانة الإسلام في أعناقنا ووديعة العرب في ذمنا، فمن بعض حقه علينا أن نحفظ دينه من الضياع وأن نحفظ لسانه من الانحراف، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالمدرسة التي تبنينا الأمة بما لها وتحوطها رعايتها، وتجعلها حصونا تقي أبناءها من الانحلال الديني والانهيال الخلقى⁽⁵⁾. فكان لتلك المدارس أثر في تكوين شخصية أبنائنا وحفظها من الزيغ والضلال، فكان للجمعية ما أرادت" فقد أسهمت مدارس الجمعية إسهاما عظيما

(1) ج 1 ص 16 المقدمة

(2) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج 1، ص 14.

(3) البصائر، عدد 172، 173 / السنة الرابعة 1951 ص 3.

(4) نفسه، ص 3

(5) نفسه، ص 3.

في تنشئة الناشئين الجزائريين نشأة عربية قومية كانت الأساس الذي حفظ على الجزائر مقوماتها الشخصية تجاه محاولات الاحتلال المستمرة لضرب الشخصية الجزائرية وطعنها الطعنة التي لن تقوم لها بعدها قائمة ولكن جهود جمعية العلماء جعلته يفتشل في تحقيق أهدافه⁽¹⁾.

لقد أدرك الإبراهيمي فضل العلم وأثره في حياة الأمم الأخرى التي ما تفوقت علينا إلا باهتمامها بالعلم فيقول: إن الأمم الحية في وقتنا هذا ما حييت إلا بالعلم الاختباري التطبيقي وأساس هذا العلم - وإن علا - القراءة والكتابة، ولما انتهى العلماء منهم إلى أبعاد غاية في العلم وتسنموا منه أعلى ذروة التفتوا يتبينون الطريق التي وصلوا منها إلى هذه الغايات البعيدة، فرأوا أن مفتاح الباب الذي منه دخلوا ومبدأ الطريق الذي منه وصلوا هو (ألقبا) وأن أول منعم عليهم بهذه النعم الجليلة هو أول من علمهم هذه الحروف الضئيلة⁽²⁾.

ويخاطب الأمة حاثا إياها على الاهتمام بالعلم ونشره في أوساط الأطفال والشباب، ومحفزا للأولياء ببذل المال في بناء المدارس، فبالعلم يبنى الوطن، وينشأ الوطني المدافع عن دينه ولغته وأرضه.

أيتها الأمة: قلنا لك إن العلم هو عمارة الوطن وأساس الوطنية ومنشئ الوطنيين وأرشدناك إلى أن العلم بالتعلم، وحثناك على تكثير مدارسهم، وما غششناك في نصيحة ولا دليناك بغرور، ولا استهويناك بخيال، في حين تألب عليك الغاشون والفارون والمستهونون...

- ومحذرا في الوقت نفسه المعلمين من الاعتماد على البرامج والكتب وإهمال التربية السليمة أعينكم بالله يا أبنائي المعلمين أن تجعلوا كل

(1) التعليم القومي والشخصية الجزائرية، رابح تركي ص 227

(2) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 203، 204.

اعتمادكم في تربية الصغار للرجولة على البرامج والكتب فإن النظم الآلية لا تبني عالما ولا تكون أمة ولا تجدد حياة، وإنما هي ضوابط وأعلام ترشد إلى الغاية وتعين على الوصول إليها من طريق قاصد وعلى نهج سوي⁽¹⁾.

ويوجه خطابه للمعلمين قائلا: "هناك أمم تقدّمتمكم في العلم والمعرفة والنظام، فخذوا من مبادئها العبرة وخذوا من مصايرها العظة، وإن عبرة العبر لكم فيها أن العلم وإن تشعبت عندها أغصانه وتفرقت أفئانه وأسلس لها عصيّه حتى فتحت به مغلقات الكون لم يغن عنها فتيلًا مما تغني الأخلاق والفضائل"⁽²⁾.

لقد كانت الأمة الجزائرية في زمان هي أحوج فيه ما تكون إلى العلم، حتى غدت كراسي المعلمين أنفس من عروش الملوك، فكانت تلك الكراسي أجدى على الأمم من عروش الملوك، وأعود عليها بالخير والمنفعة وكراسي المعلمين فيها أمنع جانبا وأعز قبيلًا من عروش الملوك، فكم عصفت العواصف الفكرية بالعروش ولكنها لم تعصف يوما بكرسي المعلم⁽³⁾.

إنكم تجلسون من كراسي التعليم على عروش ممالك رعاياها أطفال الأمة، فسوسوهم بالرفق والإحسان وتدرجوا بهم من مرحلة كاملة في التربية إلى مرحلة أكمل. إنهم أمانة الله عندكم، وودائع الأمة بين أيديكم سلمتهم إليكم أطفالا لتردوهم إليهم رجالا، وقدمتهم إليكم هياكل لتنفخوا فيها الروح، وألفاظا لتعمروها بالمعاني وأوعية لتملؤها بالفضيلة والمعرفة⁽⁴⁾.

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 2، ص 111.

(2) نفسه، ص 111.

(3) نفسه، ج 2، ص 112.

(4) نفسه، ص 112.

ب - النوادي:

ترى الجمعية أن النوادي هي في حكم مدارس التعليم ومكملة لوظائفها لأن طبقات الأمة ثلاث:

"صغار تضمهم المدارس الابتدائية، وكبار تجمعهم المساجد، وشبان تتخطفهم الأزقة وأماكن الخمر والفجور، فإن أرادت الجمعية أن تقوم بواجبها الديني معهم لم تجدهم في المساجد ولا في المدارس، فمن واجب الجمعية أن تنشط النوادي لتقوم بمهمتها التهديبية فيها⁽¹⁾.

ثم يقول: "ونواد بلغت العشرات غايتها إصلاح ما أفسدت المقاهي، والملاهي من أخلاق الشباب وكلها ميادين للعمل ومنابر للخطابة ومستغلات للعلم والتعليم، وآلاف من الشباب العربي المسلم كان كالمجهول في نسبه وكالجاهل لحسبه، ففتحت المحاضرات الحية أذهانه على تاريخ أسلافه، وفتقت ألسنته على آدابهم، فتقاسم على أن يقفو الأثر ويجدد ما اندثر⁽²⁾. فكانت النوادي مكانا يجتمع فيه الشباب الجزائري يحيي هممه، ويجدد العهد على المحافظة على هذا الدين، وهذه اللغة، وهذا الوطن.

ج - الصحافة:

وفي ميدان الصحافة فقد تصدت جريدة البصائر للاحتلال، فكانت لسانا ناطقا باسم جمعية العلماء، بل باسم الشعب الجزائري، فأسهمت بحق في إفشال مخططات الاحتلال، ورفعت من وعي الجزائريين بقضيتهم، التي طالما شغلوا عنها بقضايا أخرى بثها الاحتلال وروج لها، ليتم تنفيذها من طائفة محسوبة على الجزائريين، قد أعمتهم أنفسهم، فكانوا أذنانا للاحتلال.

(1) نفسه، ص 146.

(2) البصائر عدد 46 / 23 أغسطس 1948، ص 2

وهكذا فقد "وقفت البصائر في القضايا الجزائرية، وفي قضايا العروبة والإسلام مواقف شريفة لم تقفها صحيفة عربية ولا أعجمية وقاومت الاستعمار بالتشجيع عليه، وهتك أستاره، وكشف سرائره، ولم يثنها عن ذلك وقوع المكروه فضلا عن توقعه، وكانت شجا في حلقه، وغصة في لهاته، وغیظا في صدره، وخصما لا تلین قناته". فأمنت بالأمة الجزائرية بعد أن خیل إليها أنها قد اندثرت ولم یبق لها وجود، وصار مصيرها إلى مصیر فرعون حتى "تركت الاستعمار یقول ما قاله إمامه الأول فرعون: آمنت أنه لا إله إلا الذي خلق الأمة الجزائرية".

د - العمل على تغيير أساليب التعليم:

انتهجت الجمعية طريقة مغايرة للتعليم فعملت على تحديث أساليبه وتطويرها، وانتقدت تلك الأساليب القديمة "التي كان يباشر بها التعليم عند تكوين جمعية العلماء والتي مازالت مثارا للشكوى والتذمر في مكاتب التعليم (المدارس) ومعاهد العلم الكبرى - بغير الجزائر - ولم تستطع تلك المكاتب والمعاهد التخلص منها مع ظهور فسادها⁽¹⁾.

تبدو نظرة الإبراهيمي للتعليم وأساليبه نظرة متجددة، فهو على اطلاع على الأساليب الحديثة في التربية ويدرك فساد بعض تلك الطرائق التي كانت سائدة، ومن هنا ندرك أن حركة التعليم التي اعتمدها الجمعية كانت تهدف بالأساس للحفاظ على مقومات الشخصية الجزائرية، وفي مقدمتها الدين الإسلامي، واللغة العربية، والتاريخ، والثقافة العربية، فكانت ذات توجه يعمل بعكس ما انتهجته فرنسا، وإذا علمنا أن شعار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كان يكتب على غلافات الكتب المدرسية التي تدرسها في مدارسها

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 191.

أدركنا أهداف وفلسفة حركة التعليم العربي عندها⁽¹⁾. فاتجه التعليم في فلسفته وبرامجه وكتبه اتجاهها لغويا ودينيا بالدرجة الأولى، لتحقيق هدف الوقوف في وجه الاحتلال وسياسته الرامية إلى القضاء على مقومات الشخصية الجزائرية، فقد اهتمت الجمعية في برامجها على القرآن الكريم بتلاوته وحفظه وفهم معانيه لأنه "سلاحها الذي به تناضل وسيفها الذي به تصول، وعدتها في الشدة وعلى الدعوة إليه بنت مبدأها الإصلاحية، وفي الدعوة إليه لقيت الأذى ورميت بالعظائم"⁽²⁾.

فكان التركيز على التربية الصحيحة والتنشئة الصالحة، والفكرة السديدة أولا، ثم يأتي بعد ذلك العلم، وهي الطريقة التي اتفق عليها ابن باديس والإبراهيمي. يقول الإبراهيمي: "كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة المنورة في تربية النشء هي ألا نتوسع له في التعليم وإنما نربيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا"⁽³⁾.

وتبدو معالم بناء الشخصية الجزائرية التي كان يتطلع إليها التعليم العربي الحر بصفة عامة، والتعليم عند جمعية العلماء بخاصة واضحة من خلال المناهج والبرامج التي أعدت لهذا الغرض، فهي ذات طابع ديني ولغوي مع شيء من التاريخ والجغرافيا والعلوم والرياضيات.

ولا عجب في ذلك إذ طبيعة نشأة هذا التعليم وأهدافه كانت تهدف بالأساس إلى المحافظة على اللغة العربية وثقافتها اللتان كادتتا تندثران أثناء فترة الاحتلال الفرنسي الطويلة للجزائر.

(1) التعليم القومي والشخصية الجزائرية، رابح تركي، ص 310.

(2) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 192.

(3) مجلة مجمع اللغة العربية، عدد 21، ص 143.

ولذلك لم يهتموا بالعلوم والرياضيات بقدر ما اهتموا باللغة والدين وما يتصل بهما⁽¹⁾.

وكان للتعليم المدرسي حضا وافرا في سياسة الجمعية إذ كان أسلوب الجمعية في تلقين العربية، وهو أحد مفاخرها فهي تعهد إلى الأساتذة الذين هم لنظرها بتلقين التلامذة أبسط القواعد في أسهل التراكيب ثم تمكينها من نفوسهم بالتمرينات التطبيقية والحرص على إشرابهم معنى ما يقرؤون والاجتهاد في تربية ملكة الذوق والاستنتاج في نفوسهم وفي إصلاح اللهجات التي حرفتها العامية عن سبيلها العربي وتقويم اللسان على الحروف وهيئاتها ومخارجها والتشجيع على التكلم أمام الناس بما يمليه الخاطر من غير اعتماد على وحي معلم أو كتاب واقتلاع تلك العادة السيئة التي كانت سائدة في المكاتب عريقة في الأوضاع المنزلية، وهي عادة الهيبة والحصر⁽²⁾.

9- أثر جهود الجمعية في المجتمع الجزائري:

كان الهدف من وراء التعليم المحافظة على مقومات الشخصية الجزائرية، لذلك عملت الحركات الوطنية وفي مقدمتها الجمعية على نشر اللغة العربية، وتعليم الناشئين مبادئ الدين الإسلامي، حتى لا تنصهر شخصيتهم وثقافتهم في شخصية الاحتلال وثقافته.

"وما قامت هذه الجمعية إلا لإحياء الإسلام والعروبة والعربية التي صمم الاستعمار على محوها وما نصرها الله في الجولات الأولى أضعف ما كانت وأقوى ما كان خصومها، إلا لأنها نصرت دينه وأحيت لغة كتابه وما اشتد

(1) ينظر: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، رايح تركي، ص 17.

(2) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 192.

الاستعمار في مقاومة هذه الجمعية إلى يومنا هذا إلا لعلمه بمقاصدها هذه،
وأنها على النقيض من مقاصده⁽¹⁾.

يقول الإبراهيمي في بيان دور الجمعية وما أحدثته من تغيير في المجتمع
الجزائري: "مائة وثلاثون مدرسة عربية ابتدائية مجهزة بكل الأسباب المادية
العصرية اللازمة للمدارس وبجهاز آخر من المعنويات أعظم منها شأنًا وأجل
خطراً، وبجند من المعلمين الأكفاء قوامه مائتان وخمسون معلماً من بينهم
عشرات من النوابغ في التعليم والإدارة، ومشحونة بزهاء ثلاثين ألف تلميذ
من أبناء الأمة بنين وبنات، يتلقون مبادئ الدين الصحيح ومبادئ العربية
الفصيحة نطقاً وكتابة وإنشاء، ويتربون على الوطنية الحقيقية وعلى الهداية
الإسلامية، والآداب العربية ويتكون منهم جيل مسلح بالعلم ثابت العقيدة
في دينه ووطنه، وقوي العزيمة في العمل لهما".

وفي موضع آخر يدلي الإبراهيمي بشهادة تشخص الواقع الذي تحول إليه
الجزائري وكيف فرض على فرنسا تغيير سياستها ومحاولة استمالة الشعب
الجزائري، يقول: "وأين كانت هذه الحكومة بالأمس القريب يوم كان تسعون
في المائة من أبنائنا يهييمون في أودية الأمية؟ أكانت عاجزة بالأمس عما
قدرت عليه اليوم؟. إنها كانت بالأمس أقدر منها اليوم على التثقيف العام
وعلى فرض التعليم الإجباري وكانت أقوى وأقوم وكانت أنعم بالآ وأكثر
فراغاً ولكنها كانت مغتربة بحال المسلم من الجهل والامية، وكانت تمهد له
سبيلها وكانت تتمنى أن لا يفتح عينيه على العلم وأن لا يفتح عقله للعلم
فلما أفاق من غفوته ونهض من كبوته وأقبل على العلم جاءت تخادعه بهذه
البرامج التي ذكرنا بعض فروعها لتلهيه بالقشور عن اللباب وتريه النافذة
وتمنعه من ولوج الباب".

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5، ص 151.

ويخاطب المعلمين مبينا لهم بعض الأعمال الجليلة التي قامت بها الجمعية في سبيل نشر العلم، ومحاربة الجهل، وسن سنة البذل في سبيل أن تنهض الأمة وتصل ماضيها بحاضرها قائلاً: "ليعلم أبنائنا معلمو هذا الجيل أننا - ولا منة عليهم - مهدنا لهم كثيرا من العقاب وذللنا لهم كثيرا من الصعاب وحللنا لهم كثيرا من العقد الاجتماعية التي عقدها البعد عن هداية الدين والجهل بمقائمه ووطننا لهم أكناف النفوس المستعصية عن العلم المستعصمة بالجهل، فأقبلت على العلم بعد أن كانت عنه معرضة، وجاءت في سبيله بالمال بعد أن كانت به شحيحة... ووصلنا ماضيها المشرق بحاضرها المظلم⁽¹⁾ .

فبعد أن كانت اللغة العربية غريبة في أرضها، صارت تكتب بها الصحف والجزائر ويلقى بها الشعر، والخطب، لقد أحدثت الجمعية نقلة نوعية في تاريخ الجزائر وفي المحافظة على هويتها فقد سمع الناس لأول مرة في الجزائر بعد ليل طويل من ظلام الاحتلال وغربة اللغة العربية والثقافة العربية من بعض تلامذة معاهد التعليم العربي (الحر) شعرا يؤدي معنى الشعر، وقرأوا كتابة تؤدي معنى الكتابة وشاهدوا خطباء يعبرون عن أفكارهم الحية بلغة عربية سليمة⁽²⁾ . يقول الإبراهيمي وهو يتحدث عن الأثر الذي أحدثته جهوده بصفة خاصة وجهود جمعية العلماء عموماً: "أثر أعمالنا في الشعب بارز لا ينكره حتى أعداؤنا من الاستعماريين وخصومنا من إخواننا السياسيين، فمن آثارنا بث الوعي واليقظة في الشعب حتى أصبح يعرف ما له وما عليه، ومنها إحياء تاريخ الإسلام وأجداد العرب التي كان الاستعمار يسد عليه منافذ شعاعها حتى لا يتسرب إليه شئ من ذلك الشعاع، ومنها تطهير عقائد الإسلام وعباداته من

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص110.

(2) - الإبراهيمي، سجل مؤتمر جمعية العلماء الثالث، ص41.

أوضار الضلال والابتداع، وإبراز فضائل الإسلام... ومنها العلم هذه الكلمة الصغيرة التي تنطوي تحتها جميع الفضائل⁽¹⁾.

خاتمة:

أبان الاحتلال منذ البداية عن نواياه وناصب العداء للغة العربية والثقافة العربية باعتبارهما مقومين أساسيين للشخصية الجزائرية، فبنى سياسة ارتكزت على الفرنسية، والتنصير، والإدماج فجاهدت الجمعية سياسة الاحتلال فنقضتها وقوضتها .

- عمد الشعب الجزائري من خلال من تولى أمره من علماء وشيوخ زوايا وأحزاب سياسية وجمعيات خيرية كما في منطقة وادي ميزاب إلى تأسيس المدارس وإنشاء النوادي وبناء المساجد على نطاق واسع في جميع أنحاء الوطن من أجل نشر التعليم العربي، وبعث الثقافة العربية الإسلامية، وتعليم مبادئ الدين والتاريخ الوطني إلى أبناء وبنات الجزائر في جميع المناطق الجزائرية قصد المحافظة على كيانه الوطني وشخصيته القومية.

- أدى كل ذلك إلى فشل سياسة فرنسا في القضاء على الشخصية الجزائرية وكان شعار هذه النهضة التعليمية العظيمة شعار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا).

- برزت جهود الجمعية في تركيزها على أهم المقومات الأساسية للشخصية الجزائرية بواسطة المدارس والمعاهد والمساجد والنوادي، والصحافة.

- لقد عرف رجال الجمعية الاحتلال وأساليبه وسياسته والوسائل التي استعملها من أجل التمكين لاحتلاله الجزائر وتوطيد أركانه فيها فحاربوه بمثل ما استخدم من وسائل وردوا عليه رداً أفقده صوابه جعل كل همه

(1) - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5، ص 287، 288.

القضاء على الجمعية ورجالها والتنكيل بهم والتضييق عليهم وسنّ القوانين الجائرة والعراقيل التي تحول بينهم وبين تحقيق أهدافهم.

- إن الممارسات الفرنسية تجاه الجزائريين وتجاه لغتهم هي التي تؤكد نوايا الفرنسيين الذين عاملوا اللغة العربية معاملة الخصم اللدود، فعملت فرنسا على فرنسة التعليم، ومحاربة التعليم العربي، واعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر.

المصادر والمراجع:

- 1- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط1، 1997، ج.1
- 2- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط1، 1997، ج.2
- 3- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط1، 1997، ج.4
- 4- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط1، 1997، ج.5
- 5- التعليم القومي والشخصية الجزائرية، رابع تركي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1982.
- 6- عيون البصائر، الإبراهيمي، دار المعارف، القاهرة، 1963.
- 7- فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، دار الفكر، بيروت، 2005م.
- 8- وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، دار المعارف، القاهرة، 1972، ج.3.

العربية والمسألة اللغوية في الجزائر قراءة من خلال آراء الإبراهيمي وشيبان

د.فرحات بلولي [ج. البويرة]

مقدمة:

تُعد المسألة اللغوية همًا سرمدياً لكلّ المتدخلين في ميدان اللغة؛ سواءً على المستوى الرسمي أم الشعبي؛ فكانت اللغة العربية محور مطالب الجزائريين أثناء الفترة الاستعمارية، وهو ما تكلل باعتمادها كلغة رسمية حيث أُدرجت في كلّ الدساتير، بعد الاستقلال مباشرة؛ لكنّ طبيعة أبعاد المسألة اللغوية في بلادنا قد تغيرت بمرور الوقت، فبرزت إشكالات التعدد اللغوي التي تزامم مقام العربية إلى يومنا هذا... وقد تبنت جمعية العلماء المسلمين، من خلال زعمائها، مواقف كثيرة مناضلة من أجل الاعتراف باللغة العربية أو ترقية مكانتها الأصلية، فكانت المسألة اللغوية موضوع الكثير من أعمال قادة الجمعية؛ في كلّ مراحل تواجدها... وفي اتجاه معرفة هذه المواقف والآراء، سنعمل، من خلال العمل التالي، على الغوص في الآراء اللغوية لقادة هذه الجمعية في العربية، والمسألة اللغوية بشكل عام، فما هي مواقف زعماء الجمعية من اللغات في الجزائر؟ وما هو مقام العربية في نظرهم؟ وكيف احتجوا لمواقفهم إزاء اللغة العربية؟ وما هي التطورات التي حصلت في فكر الجمعية في معالجتهم للمسألة اللغوية في الجزائر؟ تلك، وغيرها، هي الإشكاليات التي سنعالجها في مداخلتنا، وسنعمد على كتابي «عيون البصائر» للبشير الإبراهيمي و«حقائق وأباطيل» لعبد الرحمن شيبان.

مدخل: تحديد المفاهيم الإجرائية:

سنحاول في هذا المدخل التعريف ببعض المفاهيم التي تُشكل الخلفية المعرفية لدراستنا، وهي مفاهيم لسانية اجتماعية في أكثرها.

I. المسألة اللغوية في الجزائر:

عرفت السياسة اللغوية في الجزائر الحديثة العديد من التغييرات، وذلك وفقا لتأثير عدد من المتغيرات؛ أهمها وجود الاستعمار وزواله، ثم تغير الدساتير بعد الاستقلال.

أ: المسألة اللغوية في الجزائر قبل الاستقلال: كانت اللغات أثناء فترة الاستعمار الفرنسي على صيغة فرضتها الدولة الاستعمارية، فجعلت الفرنسية لغة رسمية وحيدة؛ لها حق الحياة في الإدارة والمدرسة وغيرها من المؤسسات، وقد عمدت السياسة اللغوية الاستعمارية إلى طمس كل معالم اللغات الوطنية؛ فاستبدلت العربية الفصحى بالعامية في بعض المواضع القليلة التي يُسمح فيها استعمال لغة أخرى غير اللغة الفرنسية، كما هُمشت الأمازيغية بشكل لم يكن مُمكنًا قط استعمالها في أي ميدان رسمي.

وقد عملت القوى الوطنية عبر كل فترات الاستعمار الفرنسي للجزائر على مجابهة تلك السياسة اللغوية الفرنسية؛ بتأسيس فضاءات خاصة بالجزائريين لممارسة لغاتهم؛ كتأسيس الزوايا والكتاتيب لتعليم العربية... فرغم الملاحظات والتعسفات التي كانت تلحق القائمين على هذه الفضاءات إلا أنها قامت بدور لا يستهان به في كبح قدرات السياسة اللغوية الفرنسية، لذلك لم تتمكن من تحقيق الفوز الحاسم؛ رغم أنّ تلك السياسة قد حققت

نتائج لها آثار متعددة وممتدة؛ وصل مداها إلى يومنا هذا⁽¹⁾، لكنها لم تتمكن من قتل اللغات الوطنية.

ب. المسألة اللغوية في الجزائر بعد الاستقلال: عرفت السياسة اللغوية بعد الاستقلال تغييرات شبه جذرية في مقام اللغات، فالعربية التي كانت مقاومة؛ أصبحت اللغة الرسمية، أما الفرنسية المهيمنة، فقد فقدت مكانتها الرسمية، لكن الملاحظ أنها، رغم فقدها للمكانة القانونية، بقيت ذات حظوة كبيرة حيث استحوذت على المدرسة والصحافة لعشرات السنين كلغة أولى، دون أن تكون لغة رسمية.

وكان لهذا الوضع أن أثر في صناع القرار؛ فتوجهوا إلى إحلال العربية مكانة توازي موقعها الرسمي، وبدأت عملية التعريب التي مست المدرسة والمحيط والصحافة... فتراجعت الفرنسية، مع مرور الوقت، لكن هذا لم يفقدها مكانتها كلغة ذات حظوة إلى يومنا هذا، فالكثير من الإدارات والصحف والتخصصات في الجامعة لازالت تعتمد عليها كلغة وحيدة في العمل.

وقد برز، في هذه الفترة، وخاصة مع بداية الثمانيات، خط المقاومة اللغوية الأمازيغية حيث ظهرت حركة ثقافية وسياسية تطالب بالاعتراف بهذه اللغة؛ التي يتهددها خطر الزوال، فنهضت المفاوضات حتى نالت بعض حقوقها اللغوية، فتأسست لها معاهد في الجامعة، ثم أدرجت في القوانين.

ج. المسألة اللغوية في الجزائر بعد سنة 2002م: يبدو لنا أن سنة 2002م سنة مهمة في نوعية طرح المسألة اللغوية في الجزائر حيث لأول مرة تعهدت

(1) عبد الرحمن شيبان، حقائق وأباطيل، الجزائر، 2009م، دار ثالثة للنشر، ص 161.

القوانين⁽¹⁾، ومن ورائها الدولة، بترقية اللغة الوطنية الثانية؛ أي الأمازيغية؛ وبالتالي أصبحت هذه اللغة مُعترفاً بها، وهذا ما يُشكل دفعا لها وإعلاءً لمرتبتها، ولا بد من التأكيد على أنّ هذا الاعتراف كانت له بعض النتائج في واقع هذه اللغة في الجزائر حيث إنّ الدولة أسست لها قناة تلفزيونية، كما وسعت تأسيس أقسام اللغة الأمازيغية إلى العديد من الجامعات؛ كجامعة البويرة وباتنة... لكن لم يكن لذلك أثر على مستوى تدريسها في الأطوار الأولى للتعليم.

أما من جانب العربية، فقد بقيت مكانتها كما كانت في السابق، مع تراجع نوعاً ما في عملية التعريب وتجميد مسارها، لكن نلاحظ، في هذه الفترة، أنّه هناك لغة جديدة دخلت السوق الجزائرية على الأقل على المستوى الشعبي وهي اللغة الانجليزية، وإن كانت هذه اللغة لا تحظى بأية مكانة رسمية، لكنّها تُدرس في المدارس كمادة ثانوية، وهناك مطالب شعبية⁽²⁾ تريد تدريسها كلغة أجنبية أولى عوض الفرنسية.

ويمكن الملاحظة أنّ الصّراع كان - أساساً - بين اللغة العربية واللغة الفرنسية حيث تبادلنا الأدوار في السياسة اللغوية للجزائر الحديثة، مع الملاحظة أنّ اللغة الأمازيغية سائرة إلى الأحسن؛ لكن دون بلوغ أي دور من أدوار العربية ولا الفرنسية إلى يومنا هذا؛ رغم مكانتها القانونية كلغة وطنية، لكنّها لا تحظى بمكانة الفرنسية في التعليم مثلاً، ولا في الصحافة...

(1) نقصد بذلك -أساساً- المادة الثالثة (03 مكرر) من الدّستور الجزائريّ التي جاءت إثر التعديل الدّستوريّ المؤرخ في 10 أبريل 2002م؛ يُنظر:

<http://www.joradp.dz/HAR/Index.htm>

(2) هناك حالياً عريضة وطنية تقودها جمعية أولياء التلاميذ في هذا التوجه، يُنظر:

<http://www.elmaouid.com/index.php/national/53311-2015-08-09-17-05-22>

كما نلاحظ ظهور الانجليزية التي بدأ يتعاضد دورها، في الآونة الأخيرة، بفعل العولمة، لكنّها مازلت هامشيّة لحد الآن.

II. الآراء كموضوع للسانيات الاجتماعية:

تُشكل اللسانيات الاجتماعية ميدانا خصبا لدراسة الآراء، وهي الإطار المرجعيّ للدراسة التي سنقدمها هاهنا، لذلك لا بد من تحديد مفهوم "الآراء" وفق هذا المنظور، فما هي حدوده؟

يُعد مفهوم الآراء (Attitude) من المفاهيم التي نالت الكثير من الاهتمام تعريفا وتطبيقا، ويُعرفها أحد اللغويين على أنّها «حالة نفسية تجاه قيمة أو تنظيم متعلق بموضوع اجتماعي»⁽¹⁾ فالآراء أحوال نفسية تتخذ موقفا من أحوال اجتماعية، وانطلاقا من مفهوم الآراء، بشكل عام، يمكن الحديث عن الآراء اللغوية التي هي جزء من الآراء ككل، وقد عرفتها إحدى اللغويات على أنّها «العلاقة الشخصية التي يربط بها الشخص باللغة»⁽²⁾ فالآراء اللغوية علاقة بين شخص ولغته، وهي حالة نفسية -أيضا- تجاه شيء؛ أو علاقة بين كائن وشيء، والكائن هنا هو الإنسان، والشيء هو اللغة، ولا بد من الملاحظة أنّ هذا التعريف يتقاطع مع مفاهيم أخرى جرت العادة تداولها في اللسانيات الاجتماعية؛ نذكر منها التمثلات (اللغوية)، المعتقدات (اللغوية)، المواقف (اللغوية)... وسنقف -هاهنا- على مفهومين فقط؛ هما مفهوما التمثلات اللغوية والايديولوجيا اللغوية، فما هو الفرق بين هذين المفهومين؟

⁽¹⁾ <http://www.institut-numerique.org/chapitre-i-attitudes-et-representations-513f69fce19b1>

⁽²⁾ Canut C. : « Dynamique et imaginaire linguistique dans les sociétés à tradition orale » in Cécile Petitjean, Représentation linguistique et plurilinguisme, Thèse de doctorat, Institut des Sciences du Langage et de la Communication, Université de Neuchâtel, 2009, P 61. (مرجع إلكتروني)

أ. الآراء اللغوية والتمثلات (Représentation) اللغوية: يُعد مصطلح التمثلات اللغوية من أكثر المصطلحات، المقاربة لمفهوم الآراء اللغوية، رواجاً، ويُعتقد أنه جزء من المفهوم العام؛ المنتشر في دراسات علم النفس الاجتماعي، وهو التمثل، وقد قال أحدهم أن «... السمات المميزة للتمثل اللغوي تجتمع حول تعريف نوع من المعرفة التي توفر تأويلاً للواقع، وهي جماعية بشكل عام (متوقفة على ايديولوجيات محلية) والتي عادة ما تكون مركبة وغير تامة واعتباطية أيضاً»⁽¹⁾ فالتمثل اللغوي معارف؛ أي إنها ذات طابع ذهني ونفسي، تساعد صاحبها على تأويل الواقع؛ وفي ميداننا هو اللغة، ويضيف هذا التعريف أن التمثلات اللغوية جماعية مرتبطة بالايديولوجيات، كما أن هذه المعارف مركبة؛ أي تنظر للموضوع اللغوي من زوايا متعددة؛ كأن تحكم على متن اللغة نفسه أو مكانة المتكلمين بها أو ميراثها العلمي والثقافي... كما أنها غير تامة؛ أي إنها تتطور، أما قول التعريف أنها اعتباطية؛ فمعناه أن التمثلات اللغوية لا تقبل معايير الصحة والكذب، وليست حقائق علمية، كما أنها ليست ايديولوجية⁽²⁾ بل هي معارف تتقبلها الجماعة متى اتفقت عليها.

وقد يلاحظ القارئ أن مفهوم التمثل يقترب كثيراً من مفهوم الرأي، كما عرضناه؛ من حيث كونهما حالات نفسية تجاه موضوع ما (اللغة في ميداننا)، وقد لاحظ الدارسون هذا التشابه، بل الترادف في بعض الأحيان، ف(أ.م. هودبين-HOUDEBINE A.-M) لا ترى أي فرق بين المفهومين إلا من حيث استعمال الآراء اللغوية في اللسانيات الاجتماعية، أما التمثلات

⁽¹⁾ Guenier N.: « Attitudes and representations in sociolinguistics: theory and practice » in Cécile Petitjean, Représentation linguistique et plurilinguisme, P 43.

⁽²⁾ Mestiri Zeineb: « Pour une approche sociolinguistique des représentation », in revue de la Faculté des lettres et sciences humaine et social, no 06, Université de Biskra/ALGERIE, 2010, P 04.. (مرجع إلكتروني)

فُتستعمل في علم النفس الاجتماعي، لكن رغم ذلك، هناك تمييز بينهما على أساس أن "الآراء" ما هي إلا مرحلة موابية لـ"تمثلات"؛ تكون حلقة ربط بينها والممارسات اللغوية⁽¹⁾، فالآراء اللغوية هي جزء التقييم في التمثلات اللغوية، وهي مرحلة لاحقة عن تأسيس التمثل اللغوي.

ب. الآراء اللغوية والايديولوجيا اللغوية: يُشكل مصطلح "الايديولوجيا" محور نقاشات كثيرة في الميدان السياسي؛ لاستعماله من قبل مؤسس ومنظر الفكر الشيوعي (كارل ماركس - Karl Marx) رغم أن هذا المصطلح قد تداوله الناس قبله، فيروى أن واضعه هو (ديستوت دو تراسي - Destutt de Tracy) وقد استعمله لدراسة الإحساسات التي تنشأ عنها الأفكار، وقد اعتقد أنه ميدان بديل لما يعرف بالميتافيزيقا⁽²⁾، وباعتبار مفهوم الايديولوجيا يهتم بالإحساسات القابعة وراء الأفكار؛ فإن تقاطعه مع مفهوم الآراء اللغوية وارد، وخاصة أننا أشرنا إليه (مفهوم الايديولوجيا) في حديثنا عن التمثلات أيضاً، فما علاقته بالآراء اللغوية؟

يُعرّف مفهوم "الايديولوجيا" على أنه «... مجموعة من المعتقدات والقيم التي تُقدّم على أنها تأويل فريد للواقع وخاص بجماعة معينة...»⁽³⁾ فالمعتقدات والقيم ما هي، في الحقيقة، إلا حالات نفسية مثل الآراء، وتتجه نحو فهم الواقع مثلها مثل الآراء، لكن الفرق الجوهرى بين المفهومين قد يكون مثل ما تحدثنا عنه في التمثلات، أي على مستوى أسبقية الظهور وطبيعة الوجود، فيبدو أن الايديولوجيا جزء من التمثلات؛ لذلك من

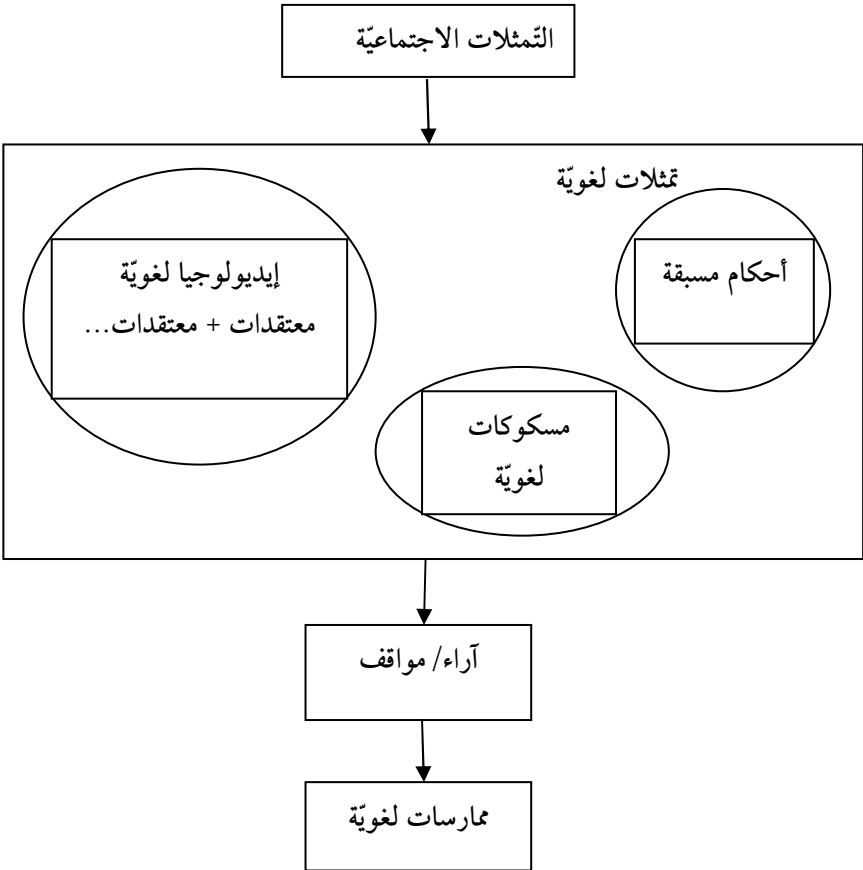
⁽¹⁾ يُنظر في ذلك: Cécile Petitjean, Représentation linguistique et plurilinguisme.

⁽²⁾ صفاء عبد السلام جعفر، قراءة المصطلح الفلسفي، الإسكندرية، 1998-1999، دار الثقافة العلمية، اديولوجيا.

⁽³⁾ Cécile Petitjean, Représentation linguistique et plurilinguisme, P 55.

البديهيّ أن تكون أسبق من "الرأي" في الوجود، فالرأي "يؤطره التمثيل"، ومن أجزاء التمثيل "الأيديولوجيا"، لكن "الرأي" ليس نابع -دائما- من الأيديولوجيا فقط؛ لأنّ التمثيلات ليست أيديولوجيا دائما، بل فيها ما هو "مسكوكات" ومعتقدات" وأمور أخرى؛ قد تكون -أساسا- لبناء "الرأي"؛ فالانتماء إلى حزب سياسي له أيديولوجيا لا يعني أنّ كل آراء مناضليه مصدرها -كلها- تلك الأيديولوجيا؛ لذلك يُقال هذا رأي المناضل وليس الحزب.

نتهي، بناءً على ما سبق، إلى هذه الترسّيمة التي نعتبرها حوصلة لكلّ المفاهيم الواردة في هذا التحليل:



فاللغة "ممارسات لغوية" قبل كل شيء، لكن وراء تلك الممارسات هناك آراء وتمثلات لغوية تلعب دورا مهماً في تحديد كيفية ممارسة اللغة الواحدة أو الاختيار بين لغات متعددة، ودرجة إتقانها والعمل من أجل تحقيق ذلك.

1: مواقف وتمثلات الإبراهيمي من المسألة اللغوية في الجزائر⁽¹⁾:

نُفيدنا قراءة مقالات الإبراهيمي بآراء كثيرة إزاء المسألة اللغوية في الجزائر، كما كانت مطروحة في زمانه، وهو زمن الاستعمار، ويمكن أن نقسم تلك الآراء إلى ثلاثة مواقف عامة؛ وهي موقفه إزاء السياسة اللغوية الاستعمارية، وموقفه إزاء اللغة الأمازيغية، ثم موقفه إزاء اللغة العربية.

1.1: آراء الإبراهيمي إزاء السياسة اللغوية الاستعمارية: كان الإبراهيمي ناقماً كثيراً على السياسة الاستعمارية، وخاصة في شقها المتعلق بمكانة اللغة العربية، وقد كرّس لها الكثير من فضاءات نصوصه، وقد قدم لنا بعض أبعادها، كما اتخذ موقفه منها.

1.1.1: معالم السياسة اللغوية الاستعمارية: يرى الإبراهيمي أنّ السياسة اللغوية الفرنسية إزاء اللغة العربية في الجزائر مرتكزة على مجموعة من المنطلقات غير السليمة؛ منها المنطلقات الاستعمارية واستعمال القوانين والأشخاص لإقصاء العربية.

1.1.1.1: الفكر الاستعماري ومنطلقاته: يتميّز الفكر الاستعماري بالكثير من السمات التي استعملها في تعامله مع اللغة العربية في الجزائر، وقد ذكر الإبراهيمي ذلك في غير ما مرة، ومن ذلك قوله: «بيننا وبين الحكومة خلاف ينتهي إلى التضاد في فهم معنى التعليم العربي... فهي تفهمه بالذهنية

(1) * سنعمد في تحليلنا على مقالات الإبراهيمي والواردة في كتابه "عيون البصائر"، ويجب لفت الانتباه إلى أنّ تلك المقالات قد نُشرت بين سنتي 1947-1953.

الاستعمارية العنصرية المتأثرة بالسيادة والاستعلاء...»⁽¹⁾ ففي هذا المقتطف يتحدث الإبراهيمي عن التعليم العربي الذي يفترض أن يكون مهتما باللغة العربية؛ كما يتخيله المستعمر، فيرى الإبراهيمي أن نظرة المستعمر "عنصرية" وهذا الرأي يُعبر عن المنظور السلبي للإبراهيمي عن السياسة اللغوية الاستعمارية؛ فإذا كانت السياسة التعليمية "عنصرية" تُفضل جنسا عن آخر؛ فهي بالتالي مرفوضة، وهذا عند كل الأجناس والأعراق إلا عند أمم خلت.

وقد أكد الإبراهيمي هذا الموقف في مواقع أخرى من مقالاته؛ مثل قوله: «وجمعية العلماء التي تعد أشرف أعمالها تعليم العربية، قد أقامت خمسة عشر عاما تطالب في غير ملل بحرية التعليم العربي... ومازلت تصارع العوارض الحائلة، وهي عوارض القرارات الإدارية... ومازالت الجمعية تنكر تلك القرارات، وتقول عنها في صراحة: أنها قرارات جائرة... لا تستند على منطق ولا نظر سديد، إنما تستند على القوة أولا، وعلى الحيلة ثانيا، وعلى العنصرية البغيضة ثالثا»⁽²⁾ فيذكر الإبراهيمي، في آخر هذا المقتطف، ثلاثة مرتكزات تستند عليها السياسة التعليمية اللغوية الاستعمارية المتعلقة بالعربية، وهي "القوة" و"الحيلة"، و"العنصرية" التي سبق لنا الإشارة إليها، ولعل الإبراهيمي -هاهنا- كان أكثر وضوحا حيث عبر بصراحة عن رفضه لهذه المنطلقات التي اعتبرها غير منطقية، بل جائرة...

2.1.1.1: وسائل محاربة اللغة العربية: يرى الإبراهيمي أن السياسة اللغوية الاستعمارية الهادفة إلى طمس العربية تستعمل وسيلتين هامتين لتحقيق مآربها هي: القوانين والأشخاص التي تُنفذها، وقد أشار المقتطف السابق إلى ذلك في قوله: «... ومازالت تصارع العوارض الحائلة، وهي

(1) محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 212.

(2) محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 24.

عوارض القرارات الإدارية والقوانين الموضوعة لخنق العربية وقتلها؛ وما زالت الجمعية تنكر تلك القرارات، وتقول عنها في صراحة: أنها قرارات جائرة...»⁽¹⁾ ذلك أن تلك القرارات الإدارية إنما كان المستعمر يستعملها لتضييق الخناق على تعليم العربية حيث كان يشترط ترخيصا لفتح مدرسة، وجعل ذلك الترخيص قابلا للسحب في أي وقت، كما ربط وجود تلك المدرسة بمكان لا مدرسة فرنسية فيه...

وتحدث الإبراهيمي عن تلك القوانين المحففة؛ منها ذلك القانون الذي جعل اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر حيث علّق عليه: «لا تزال آثار ذلك القرار الشوطني بادية في معاملة الصحافة العربية واعتبار لغتها أجنبية في وطنها، ولا تزال الأمة العربية الجزائرية تنكره وتتحدها، فهل آن الأوان لإلغائه... وهل آن للإنصاف أن يلامس هذه الأفكار الرجعية؟»⁽²⁾ ونلاحظ أن الإبراهيمي اتخذ موقفا سلبيا من هذه السياسة اللغوية الاستعمارية؛ فلا يمكن جعل العربية لغة أجنبية في بلادها، ثم وصف مثل هذه الفكرة بالفكرة الرجعية الآتية من زمن تجاوزه الزمن، وقد أكد على رأيه، هذا، في موضع آخر وفي المسألة نفسها بقوله «... وكان من نتائج هذه التهضة إلحاح الأمة في المطالبة بمظهر سياسي وطني للغتها، وهي أن تكون رسمية في المدارس والدواوين والأقلام والأحكام، وأن يعترف لها بمكانتها في وطنها، وأن تمحي عنها تلك الوصمة التي لم تسب بأشنع منها؛ وهي أنها أجنبية في دارها...»⁽³⁾ ونلاحظ -ها هنا- أن الإبراهيمي يصف مقولة العربية لغة أجنبية بأنها

(1) نفسه، ص 24.

(2) نفسه، ص 27.

* محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 311.

وصمة لم تُسب العربية بأشنع منها؛ أي إنّ رأي الإبراهيميّ سليبيّ لا يشوبه أي غموض.

وقد أضاف الإبراهيميّ في مواقع أخرى من تعليقاته على معالم السياسة اللغويّة الاستعماريّة إلى استعمال الأشخاص (إضافة إلى القوانين) كمعاول لطمس العربيّة؛ ومن ذلك قوله: «فكلما هاجت به النوبة، وغاظه من العروبة هذا التحدي... ارتكب جريمة، وسن لها من القوانين ما يقوبها ويغطيها، ويسميها مصلحة، وجند لها من الأشخاص كلّ حاكم، وكلّ طامع، وكلّ ذي دخلة سيئة؛ ومن الأعمال التّطيل والتّزوير، والإعلان والتّشهير، ومن المعاني الاستمالة والتّيسير والاستهواء والتّغدير، والإغواء والتّبشير...»⁽¹⁾ فهؤلاء الأشخاص على تعدد مشاربهم منهم الحاكم المسؤول والمواطن الطامع... يستعملون شتى الوسائل للتّبشير لتلك القوانين التي تهدف كلّها إلى التّضييق وإلغاء أي جهد في التّعليم العربيّ.

وغني عن البيان أنّ الإبراهيميّ، في كلّ مواقفه، ناضل من أجل فضح السياسة الاستعماريّة عامة، واللّغويّة بشكل خاص، وفي شقها المتعلق باللّغة العربيّة، فاعتبرها سياسة حرب ضد العربيّة؛ هدفها قتل العربيّة، ووسيلتها المعنويّة هي التّشويه والتّضليل والإغراء... وهي آراء مقاومة ورافضة للسياسة اللّغويّة الاستعماريّة.

2.1: آراء الإبراهيمي إزاء اللّغة الأمازيغيّة: يجب الإشارة - بداية - إلى أنّ الإبراهيمي لم يخصص مقالات بعينها للّغة الأمازيغيّة؛ بل وردت آراؤه في إطار انتقاد السياسة اللّغويّة الاستعماريّة، وخاصة بعض قراراتها المتعلقة بهذه اللّغة.

⁽¹⁾ نفسه، ص 480.

1.2.1: الأمازيغية في نصوص الإبراهيمي: يمكن الملاحظة أنّ الإبراهيمي في مقالاته يعتقد أنّ الأمازيغية لغة موجودة في الجزائر وشمال إفريقيا، كما أنّه يربط - دائما - وجودها بالعربية من حيث هي لغة تتعايش معها، فنجده يقول: «ومن شهد أنّ البربريّة مازالت قائمة الذات في بعض الجهات، فقد شهد للعربية بحسن الجوار، وشهد للإسلام بالعدل والإحسان، إذ لو كان الإسلام دين جبرية وتسلط لمحا البربرية في بعض قرن فإنّ تسامح ففي قرن»⁽¹⁾ فلاحظ أنّ الإبراهيمي كلّما تحدث عن الأمازيغية تحدث عن الإسلام الذي اعتنقه الأمازيغ، واعتنقوا معه العربية كلغة هذا الدين؛ ودليل اعتناقهم لها هو استعمالها كلغة علم وسياسة ومُلك، بل حتى لغة شعر وغناء؛ فكلّ الممالك التي سادت قبل الاستعمار الفرنسي - حسب الإبراهيمي - كانت تستعمل العربية في بلاطاتها، وما ورد من بعض الأشعار بالأمازيغية بدوي⁽²⁾ وقليل نادر؛ مما يثبت اعتناق الأمازيغ للعربية.

ومحدثنا الإبراهيمي في مقالاته - أيضا - عن وضع الأمازيغ في زمانه، أي في الأربعينيات، فيرى أنّ الأمازيغ الذين يعيشون في المدن كلّهم يتقنون الفرنسية إلى جانب لغتهم، كما أنّ أمازيغ القرى (القبائل خاصة) لا يوجد بينهم إلا قليل فقط ممن لا يحسن إلا القبائليّة، بمعنى أنّ الأمازيغ في زمانه مزدوجو اللغة في أغلبهم.

2.2.1: آراء الإبراهيمي في ترسيم استعمال الأمازيغية: طرح الإبراهيمي قضية استعمال الأمازيغية في مناسبتين؛ الأولى هي قرار فرنسا استعمال القبائليّة في الرّاديو والمجلس الجزائريّ، ثمّ عالجها - أيضا - في القضية المسماة "الظّهير البربري" في المغرب الأقصى، وكان الإبراهيميّ ضدّ القرارين، فاعتبر

(1) محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 222.

(2) نفسه، ص 478.

الأول «... تدجيل سياسيّ على طائفة من هذه الأمة، ومكر استعماريّ بطائفة أخرى، وتفرقة شنيعة بينهما.. وأما الحقيقة فإن الوطن عربي. وأن القبائل مسلمون عرب...»⁽¹⁾ فكان موقفه رافضا لاستعمال الأمازيغيّة (القبائليّة) في الجزائر؛ لأنّ ذلك من حيل الاستعمار للتفرقة بين الجزائريين وطمس العربيّة، فذهب إلى حد القول: "إن القبائل عرب".

وكان موقفه من قضية الظهير البربريّ في المغرب مماثلا لموقفه السّابق حيث قال: «ينكر الاستعمار عروبة الشّمال الإفريقيّ بالقول، ويعمل لمحوها بالفعل، وهو في جميع أعماله يرمي إلى توهين العربيّة بالبربريّة، وقتل الموجود بالمعدوم، ليتم له ما يريد من محو واستئصال لهما معا...»⁽²⁾ فكأثما فرنسا تستعمل الأمازيغيّة ضد العربيّة، لكن الهدف بالنسبة للإبراهيميّ هو طمسها معا.

نلاحظ في آراء الإبراهيميّ أنّه يرسم الصّراع الحقيقيّ بين العربيّة والاستعمار الفرنسيّ، وأنّ الأمازيغيّة⁽³⁾ ما هي إلا لغة يوميّة للأمازيغ الذين اعتنقوا العربيّة كلغة رسميّة حتى إنّهم قالوا إنّهم "مسلمون عرب"؛ كما أشرنا إلى ذلك، وأنّ فرنسا بقراراتها المتعلقة بالأمازيغيّة إنّما تريد تفرقة الجزائريين والمغاربة بشكل عام، لذلك وجب رفض هذه السياسة انطلاقا من هذه الشكوك.

(1) نفسه، ص 223.

(2) المرجع السّابق، ص 489.

(3) * نشير إلى أنّ الإبراهيميّ يستعمل مصطلح البربريّة للدلالة على الأمازيغيّة، ثم يستعمل مصطلح اللّسان القبائليّ دوّما تمييز، ونحن نستعمل مصطلح الأمازيغيّة للغة الجامعة، والقبائليّة كتشويق من تنوعات هذه اللّغة الجامعة.

3.1: موقف الإبراهيميّ إزاء اللّغة العربيّة: لا بد أنّ القارئ، من خلال عرضنا السّابق، قد لاحظ أنّ الإبراهيميّ جعل العربيّة مركز نضاله، ومواقفه كلّها تدور حول جعل اللّغة العربيّة في مكانة رسميّة، وهو ما صرح به مرارا في مقالاته من مثل قوله: «... فالأمة تريد من التعليم العربي الحكومي الذي يحقق للعربية صفة "الرسمية" أن يكون تعليما كاملا في جميع مراحلها...»⁽¹⁾ والهدف من الدّراسة التي سنقدمها - هاهنا- هي محاولة معرفة مبررات الإبراهيميّ؛ أو بالأحرى مواقفه وآراؤه إزاء اللّغة العربيّة، ويمكن إجمال ذلك في التّقاط التّالية:

1.3.1: اللّغة العربيّة لغة الدّين الإسلاميّ: قد لا توجد مقالة واحدة من كتاب "عيون البصائر" لم يُذكر فيها هذا الموقف، بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر، ومن أمثلة ذلك قول الإبراهيميّ: «لغة الأمة هي ترجمان أفكارها، وخزانة أسرارها؛ والأمة الجزائرية ترى في اللّغة العربية -زيادة على ذلك القدر المشترك- أنها حافظة دينها... وهي قبل كل وبعد كل شيء حاضنة الإسلام، ودليله إلى العقول...»⁽²⁾ فحظوة العربيّة عند الإبراهيميّ إنّما مبنية على كونها وعاء الإسلام؛ بها أنزل قرآنه، وبها يُتلى، وبها يُفهم الإسلام كلّه، ونظرا لهذا الارتباط بين العربيّة والإسلام؛ أصبح للعربيّة عناصر البقاء والخلود لأنّ الإسلام دين خالد، والإسلام دين الجزائريين؛ لذلك وجب رفع مقام هذه اللّغة إلى مصاف اللّغات الرّسميّة، ويبدو لنا أنّ هذا الرّأي من المسكوكات التي يتداولها العرب عامة، وليس الإبراهيميّ فقط أو الجزائريين.

2.3.1: اللّغة العربيّة لغة العلوم والحضارة: لم يقتصر رأي الإبراهيميّ على جعل العربيّة لغة الدّين؛ بل هي -أيضا- لغة دنيا حيث إنّها وعاء

(1) محمد البشير الإبراهيميّ، عيون البصائر، ص 313.

(2) نفسه، ص 210.

للعلوم؛ فهي من اللغات التي تملك كتابة منذ قديم الزمان، فيقول الإبراهيمي: «... وإِنّما يتعمد (الاستعمار) العربيّة بالحرب لأنّها عماد العروبة، وممسكة الدّين أن يزول، ولأنّ لها كتابة، ومع الكتابة العلم؛ والأدب⁽¹⁾»، ومع الأدب التاريخ...»⁽²⁾ وقد توسع الإبراهيمي في غير ما مرة في مقالاته في هذه الخاصيّة، فذكر أنّ العربيّة وسعت علوم اليونان، وحملت آداب الشّرق، ونوّرت على الغرب الدّروب في أيام كانوا فيها في ضلال، فهي لغة الماضي والحاضر والمستقبل، كما كانت العربيّة لغة حضارة، بها دخل المسلمون الهند والصين، وبها كُتبت جملٌ صفحات مجد وبطولات الحضارة العربيّة الإسلاميّة.

3.3.1: اللّغة العربيّة لغة الميل العاطفيّ: يتحدث الإبراهيمي في الكثير من مقالاته عن اللّغة العربيّة على أنّها اختيار العاطفة؛ بالنسبة له وللجزائريين والمغاربة؛ فيرى، في بعض الأحيان، أنّها لغة فطريّة أو طبيعيّة لديهم حيث يقول: «عروبة الشّمال الإفريقيّ بجميع أجزائه طبيعيّة... وهي أثبت أساسا، وأقدم عهدا، وأصنّف عنصرا، من المجلزيّة الانجليزي، وألمانيّة الألمان»⁽³⁾ وإذا كانت اللّغة طبيعيّة في شعب، فلعل ذلك ما يبيّن تعلقهم العاطفيّ بها وميلهم إليها، وقد ذهب الإبراهيمي إلى أنّ هذا التّعلق يفوق تعلق الانجليزي والألمان بلغاتهم، وهذه الأجناس المعروفة بحبها الكبير للغاتها لدرجة التّقديس؛ مما أدى بها إلى تأسيس نظريات عنصريّة، في بعض الأحيان، أو على الأقل نظريات مبنية على العرق والجنس، ويبدو لنا أنّ الإبراهيمي يميل -أيضا-

(1) * ورد في الكتاب أدباً.

(2) محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 479.

(3) نفسه، ص 477.

إلى فرضية الجنس والعرق⁽¹⁾* في آرائه عن اللغة العربية؛ فهو يعتقد أنّها لغة جنسه وعرقه؛ وبالتالي جنس وعرق المغاربة، كما يتحدث في مواضع أخرى عن سحر العربية وجمالها وعذوبتها وطبيعتها؛ مما يحيل -دائما- إلى بعض المواقف العاطفية إزاء اللغة العربية.

4.3.1: اللغة العربية لغة الوحدة والأصالة: يرى الإبراهيمي أنّ اللغة العربية لغة قادرة على جمع كلّ الجزائريين والمغاربة جميعا؛ فتتحقق لهم التوحيد الجغرافي، بل وترتبط هذا الفضاء الجغرافي بمنبت العروبة في المشرق الذي يتوحد -أيضا- جغرافيا معهم؛ لأنّه لا يوجد بينهما حائل، لذلك وجدنا الإبراهيمي قد ناضل ضد الفكرة القائلة إنّ العربية لغة أجنبية ودخيلة في الجزائر، فهي للإبراهيمي لغة أصيلة اعتنقها الأمازيغ بعد اعتناق الإسلام.

5.3.1: اللغة العربية لغة مقاومة وغالبة: نقرأ في الكثير من مقالات الإبراهيمي أنّ اللغة العربية تتصف بالمقاومة وبالغلبة في نهاية المطاف، وقد ذكر من أنواع تلك الحروب التي خاضتها العربية؛ صراعها مع الرطانات؛ ويقصد بها العاميات، وتغلبها عليها، كما يتحدث عن البربرية وتغلب العربية عليها، واللغات الاستعمارية القديمة، كما يتحدث أبعد من ذلك عن عقوق أبنائها الذين هجروها...

2. آراء عبد الرحمن شيبان من المسألة اللغوية في الجزائر وتطورات فكر الجمعية⁽²⁾*: اجتهد عبد الرحمن شيبان في العديد من مقالاته، منذ عودة نشاط الجمعية سنة 1991م، وانتخابه نائبا للرئيس ثم رئيسا لها سنة 1999م،

(1) * - يُنظر: محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 24 و 479.

(2) * - نشر إلى أنّا سنعمد في تحليلنا على مقالات الشيخ عبد الرحمن شيبان الواردة في كتابه "حقائق وأباطيل"، وسنكتفي بالمقالات التي نشرها الشيخ منذ اعتلائه نيابة رئاسة الجمعية إلى آخر مقالة من الكتاب، وهي مقالات تقع زمنيا بين سنة 1992م وسنة 2001م.

في إعادة التعريف بمواقف الجمعية، ومن بينها نظرتها إلى المسألة اللغوية في الجزائر، ووقفنا، بشكل عام، على مواصلة الجمعية دفاعها على العربية؛ كما كانت، ودون أي تراجع ولا تبديل، لكن لاحظنا مسaire عبد الرحمن شيبان للقضايا اللغوية كما هي مطروحة في زمانه، ويمكن تلخيص تلك الإضافات في الآراء التالية:

1.2: آراء شيبان من بعض الجرائد المكتوبة باللغة الفرنسية والتيار المفرنس: حارب الإبراهيمي، كما ذكرنا آنفا، الفكر اللغوي الاستعماري الذي كان يريد إحلال الفرنسية مكان العربية، أما عبد الرحمن شيبان فقد تكفل، من خلال مقالاته، بانتقاد الجرائد الفرنسية على تعددها؛ مثل جرائد (Liberté, El Watan, Le Matin, Hebdo-Libéré)⁽¹⁾ التي انتقدها في لسانها، وبعض المواقف التي كانت تروج لها؛ والتي تنتمي في غالبها إلى التيار المفرنس أو التغريبي؛ كما يسميه عبد الرحمن شيبان، ويمكن تقسيم تلك الانتقادات إلى قسمين:

1.1.2: من حيث اللسان: يُستشف من مقالات شيبان أنه يرى أن لسانها أجنبي، وهذا ما يعني بالضرورة أنه يرفض إعطاء مكانة للغة الفرنسية في الجزائر؛ فيقول مثلا عن جريدة الوطن: «لقد تناول محفوظ بنون... في جريدة الخبر الأسبوعي بتاريخ (28 جوان - 04 جويلية 2000)، وجريدة الوطن الفرنسية اللسان، الغربية الجنان...»⁽²⁾ فنلاحظ أنه لم يعلق على لغة جريدة الخبر الأسبوعي، لكنه علق على لغة جريدة الوطن بما يفيد القدح، وكان أوضح لغة في مواضع أخرى؛ كقوله: «تمتاز الجرائد: (El Watan, Liberté, Le Matin) هذا الثلاث الأجنبي عن الجزائر: لغة وعقيدة وحضارة...»⁽³⁾

(1) عبد الرحمن شيبان، حقائق وأباطيل، ص 147.

(2) نفسه، ص 306.

(3) - نفسه، ص 196.

ففي هذا المقتطف يصف هذه الجرائد بالأجنبية على مستويات عدة؛ تفوق حتى اللّغة في حد ذاتها؛ مما هو متصل بالعقائد والتّفكير... وغني عن البيان أنّ موقفه سلبيّ إزاء هذه الجرائد؛ مع رفضه لأي مشروع أو تيار يضع للفرنسيّة مكانا في جزائر الاستقلال.

2.1.2: من حيث المعتقدات اللّغويّة: يرى شيبان أنّ أصحاب بعض الجرائد المفرنسة إنّما هم جزائريون يخدمون قيما لغويّة أجنبيّة؛ لأنّهم غريبو المعتقد واللّغة، فيقول في ذلك: «ابتليت الجزائر في عهد الاحتلال بضروب من المصائب، وأنواع من المحن، لكن ابتلاءها في عهد الاستقلال ببعض أبنائها العاقين أشدّ وقعا على نفسها وأعمق جرحا على فؤادها! إنهم أبنائها... غير أن عقوقهم لها جعلهم يعادونها ويتقمون منها من حيث يشعرون أو لا يشعرون... إنهم يفكرون تفكير الغرب، ويستهدون في حياتهم ببوصلته، ويعبرون عن مقاصدهم بلغته...»⁽¹⁾ ومن هنا يتحدث عن ردتهم الوطنيّة لأنّهم قادوا حملة ضد اللّغة العربيّة، واعتمادها في المدرسة، ورفع مكانتها الدّستوريّة، وهذا ما اعتبره شيبان خروجا عن القيم الوطنيّة؛ كما أقرتها الحركة الوطنيّة بشكل خاص، والتاريخ بشكل عام.

ويبدو لنا، من هذا المنطلق، أنّ آراء الإبراهيمي الرّافضة للمشروع الاستعماريّ؛ لأنّ الفرنسيّة لغة أجنبيّة، لم تتغيّر عند شيبان؛ فتيار المفرنسين الفرنسيين مرفوض في آراء الإبراهيميّ؛ وبالتالي الفرنسيّة معه، كما أنّ شيبانا يرفض نفس التيار؛ ولو كان قاداته جزائريين بعد الاستقلال، مما يعني أنّه يسير في الخط نفسه مع الإبراهيميّ والجمعيّة بشكل عام، وإنّ تغيّر صاحب المشروع بين الاستعمار والمفرنسين بعد الاستقلال، فإنّ المبدأ واحد والرّفرض واحد أيضا، والحال إنّ أغلب التّخب المعربة تساند هذا الرّأي؛ فهذا صالح

⁽¹⁾ نفسه، ص 146-147.

بلعيد يقول: «إنّ العربيّة ليست في موقع التّنافس مع المازيغيّة، فهي في موقع صراع مع الفرنسيّة لأنّها احتلت مواقعهما، وخلقت ازدواجية مفروضة...»⁽¹⁾ فالفرنسيّة كانت - دائما - نقيض العربيّة، لأنّهما يتصارعان على المواقع نفسها، مما أفرز ازدواجية غير مقبولة شعبيّا.

2.2: آراء شيبان في اللّغة الأمازيغيّة: يبدو لنا أنّ آراء شيبان في اللّغة الأمازيغيّة متذبذبة نوعا ما⁽²⁾؛ فنجدّه في الكثير من المواقع من كتابه "حقائق وأباطيل" يؤكّد مواقف الجمعيّة التي ترى أنّ الأمازيغ اعتنقوا الإسلام، ومن بعده العربيّة عبر كلّ مراحل تطوّر الجزائر إلى عصرنا الحاضر، فنجدّه، في أحيان كثيرة، يستحضر نصوص الإبراهيميّ بحذافرها، كما ذكرناها سالفا، فقد رد على دعوات تدريس اللّغات الأم، وهما العاميّة والأمازيغيّة سنة 1992م بالكلام التّالي: «... العربيّة الفصحى كانت منذ الفتح الإسلاميّ إلى عهد الاحتلال، اللّغة الرّسميّة... وأنّ الأمة الجزائريّة جمعاء بما فيها من زوايا ومعاهد تقليديّة، وجمعيّة العلماء والحركات السياسيّة الوطنيّة، قد وقفت صفا واحدا للعمل على جعل اللّغة العربيّة الفصحى لغة رسميّة في الجزائر... فكيف يعقل أن تتنكر الجزائر لهذا الانسجام اللغوي المقدس الذي مضت عليه قرون وقرون، فيطالب بالتخلي عن اللّغة الفصحى بحجة أن العربيّة الدارجة والأمازيغيّة هما لغتا أم؟! غير أن الهدف المباشر من خلال ذلك هو ضرب الأمة في صميمها والتمكين للغة الفرنسيّة...»⁽³⁾ فنلاحظ أنّ شيبانا يعتقد أنّ اللّغة العربيّة

(1) صالح بلعيد: «المواطنة وأخواتها...» في مجلة الممارسات اللّغويّة، ع: 11، مخبر الممارسات اللّغويّة، جامعة تيزي وزو/ الجزائر، 2012م، ص 157.

(2) * - رغم أنّ المقالات التي ندرسها في هذا الجزء تتحدث فقط عن فترة توليه نيابة رئاسة الجمعيّة ورئاستها فيما بعد من خلال كتاب "حقائق وأباطيل"، وهي فترة قصيرة تمتد من 1992 إلى 2001م.

(3) عبد الرّحمن شيبان، حقائق وأباطيل، ص 136.

الفصحى تُحقق الانسجام اللغويّ المقدس؛ ويجب الوقوف -هاهنا- على مصطلح "مقدس" الذي يرتبط -أساسا- بالإسلام، لكن في هذا الكلام انتقل إلى العروبة وحدها، فيبدو أنّ شيبانا، من خلال هذا الكلام، قد حافظ على موقف الجمعية الرافض لأي ترقية للأمازيغية، اعتبارا منه أنّ ذلك يُمثل تمكينا للفرنسية التي لطالما حاول التغريبيون فرضها بعد الاستقلال؛ سواء في الستينات أم حتى في بداية القرن الواحد والعشرين⁽¹⁾.

ويبدو لنا، في المقابل، أنّ موقف عبد الرحمن شيبان من الأمازيغية قد تطور شيئا ما؛ مقارنة بالإبراهيمي، ويظهر هذا التطور من خلال المصطلح أولا؛ فشيبان استعمل مصطلح "أمازيغية" مكان مصطلح "بربرية" الذي كان الإبراهيمي يستعمله، وهو المصطلح الذي يرفضه الأمازيغ أنفسهم، كما وقفنا على جانب آخر من التطور في آراء شيبان إزاء الأمازيغية، ويظهر ذلك في قبول شيبان للأمازيغية كمقوم من مقومات هذه الأمة حيث يقول سنة 2000م، في معرض انتقاده لموقف الجرائد المضادة للغة العربية، السالفة الذكر: «... إنّ الاستعمار وأعوانه قد فشلوا في إجهاض الثورة المسلحة، وهيئات هيئات أن يحولوا مسيرة الشعب الجزائريّ بعد الاستقلال عن مجراها الطبيعيّ الأزليّ السرمديّ، الأمازيغيّ العربيّ، تحت راية القرآن ولغة القرآن...»⁽²⁾ فيبدو لنا، في هذا الكلام، أنّ شيبانا قد أدرج الأمازيغية كُبعد من أبعاد الهوية الجزائرية مع العربية، وهذا يُمثل خطوة وتطورا في رأي شيبان، والجمعية تجاه اللغة الأمازيغية.

ويبدو لنا أنّ خط جمعية العلماء المسلمين في تعاملها مع اللغة الأمازيغية فيه الكثير مما تؤاخذ عليه، فإن كان موقفها أثناء الثورة معارضا لترقيتها من قبل

(1) نفسه، ص 161.

(2) نفسه، ص 198.

السّلات الفرنسية مفهومًا⁽¹⁾ للشكوك التي كانت تحوم حول المستعمر الذي لم يكن يوما بريئا، لكن موقفها بعد الاستقلال إلى سنة 2001م، مع عبد الرحمن شيبان، قد جانب الصّواب، في رأينا، وقد كان لنجل الإبراهيمي نفسه؛ وهو أحد صناع القرار في جزائر الاستقلال لثلاث عشريات تقريبا، الوزير السّابق أحمد طالب الإبراهيمي أن أقر بوجود هضم لحقوق الأمازيغية بقوله: «كنت دائما أقول بأننا أخطأنا بعد الاستقلال عندما واصلنا في ترديد خطاب الحركة الوطنية حول الهوية، والتي كان لها الحق لما ركزت في أدبياتها على العروبة والإسلام، ولم تركز على البعد الأمازيغي... الخطأ بعد الاستقلال أننا أخذنا بهذا الخطاب، بيد أنه كان من المفروض أن نعود إلى ثلاثي ابن باديس الذي لم يهمل الأصول الأمازيغية...»⁽²⁾ فإعطاء الأمازيغية مكانة كان سيجنب للجزائر العديد من المتاعب الثقافيّة والسّياسيّة⁽³⁾، لذلك يبدو لنا أنّ خطاب جمعيّة العلماء المسلمين يجب أن يخطو خطوات أخرى في اتجاه دعم مطلب الارتقاء باللّغة الأمازيغية؛ التي تُمثل العين الثّانية للمجتمع الجزائريّ إلى جانب العربيّة⁽⁴⁾؛ فهي جزء من أجزاء الهوية الوطنيّة لغة وثقافة لا يمكن القفز عليه، بل

(1) * - وليس مقبولا.

(2) <http://www.djazairress.com/elkhabar/276509>

(3) * - يجب الإشارة إلى أنّ السّلات السّياسيّة الجزائريّة رفعت، في قرار تاريخيّ وحكيم، مكانة هذه اللّغة إلى مصاف اللّغة الوطنيّة في دستور 2002م... لكن يبدو لنا أنّ هذا الأمر غير كاف، ولا يفي بالعرض لا من الجانب القانوني ولا من الجانب العمليّ، فيجب تعميم تدريسها الإجماليّ مثلا في الأطوار السّقلى كمادة ثانويّة...

(4) - صالح بلعيد: «المواطنة وأخواتها...» ص 176.

يجب جعله سببا من أسباب استقرار الأوضاع، لأنّ صراع العربيّة والأمازيغيّة لا تستفيد منه إلا اللّغات الأجنبيّة⁽¹⁾.*

3.2: آراء شيبان في اللّغة العربيّة: وقفنا بعد قراءة مقالات عبد الرّحمان شيبان على مواصلة جمعيّة العلماء الدّفاع عن العربيّة؛ بما كانت تطالب به، مع إضافة بعض الآراء التي تُعبر عن مستجدات؛ كان لا بدّ للجمعيّة من تطوير مطالبها وفقا لوجودها، فأراء شيبان تدور في هذا المساق الذي يمكن جعل مركزه: المطالبة بأعلى المراتب للّغة العربيّة في المنظومة القانونيّة والعملية للجزائر، وتتمفصل آراؤه على الشّكل التّالي:

1.3.2: التّأكيد على آراء الجمعيّة السّابقة: يلمس القارئ لمقالات عبد الرّحمان شيبان حضور أغلب شخصيات الجمعيّة؛ ليس فقط بذكر أسمائها، بل حتى باقتباس كلامها بشكل مكثف؛ فلا تخلو مقالة واحدة من كتابه "حقائق وأباطيل" من اقتباس أو أكثر؛ يفوق في بعض الأحيان مقدار الصّفحة، وهو ما أشار إليه شيبان نفسه في مقدمة كتابه؛ مما يعني أنّه كان مُدركا لذلك، وقد لاحظنا أنّ هذه النّصوص مؤسّسة لمواقف الجمعيّة إزاء العربيّة وقضايا الجزائر بشكل عام، ومن تلك النّصوص ما أوردناه أثناء كلامنا عن الإبراهيمي، كما أنّه استشهد بقيادة الجمعيّة الآخرين كابن باديس ومبارك الميلي والتبسي... بل هناك من النّصوص ما أعاد اقتباسه مرات عديدة في الكتاب نفسه.

وقد لفت انتباهنا، من بين النّصوص التي أعاد شيبان اقتباسها مرات متعددة، قول مبارك الميلي: «أيتها الأمة الجزائرية، ارجعي إلى دينك ولغتك،

(1) * - ومثال كتابة اللّغة الأمازيغيّة بالحرف اللاتيني نتيجة لهذا الصّراع، في رأينا، لأنّ رفض المُعربين للّغة الأمازيغيّة جعلهم لا يُقبلون على تعلّمها ولا الإنتاج بها، ففسحوا الطّريق للمُفرنسين الذين بذلوا جهدا في ترقّيتها؛ لكن باستعمال الخط الذي يعرفونه.

فلن تسعدي إلا به، ولن تسعدي إلا بإحكام لغتك.. من حاول إصلاح أمة إسلامية بغير دينها فقد عرض وحدتها للانحلال، وجسمها للتلاشي، وصار هادما لعرشها بنية تشييده، ومن أعرض عن اللغة العربية أعرض عن ذكر ربه، ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا»⁽¹⁾ ففي هذا النص حديث عن المواقف العاطفية والدينية التي اتخذها مبارك المليّي تجاه العربية، كحديثه عن سعادة الأمة؛ إن عادت إلى لغتها العربية، أو حديثه عن حكم الإعراض عن العربية؛ وهو كالأعراض عن عبادة الله؛ فهذه الآراء عاطفية ودينية ترفع من شأن اللغة العربية، وقد لاحظنا وجودها عند الإبراهيمي، وهو مما تبناه عبد الرحمن شيبان كلياً.

ويؤكد شيبان نظرة الإبراهيمي، السابقة، في كون حظوة اللغة العربية إنما هي مرتبطة ببعض العوامل دون غيرها في قوله: «...اللغة العربية الفصحى، لغة القرآن الكريم، ولغة خاتم الأنبياء المرسلين محمد صلوات الله عليه وسلامه، ولغة العلم والحضارة والرقي...»⁽²⁾ ففي هذا القول تأكيد على تبني العربية بسبب نزول القرآن بلسانها، إضافة إلى كونها لغة للعلم والحضارة، وهو مما تحدثنا عنه مع الإبراهيمي.

2.3.2: التّضال من أجل مكانة قانونية للغة العربية: لعل القارئ لمقالات شيبان سيقف على بعض الآراء الجديدة التي لا نعثر على مثلها عند الإبراهيمي؛ لكن لا تخرج في روحها عن خط الجمعية والإبراهيمي نفسه، ويمكن أن نذكر من تلك الأمور:

1.2.3.2: جعل العربية لغة الدولة وليس الشعب: يرى شيبان أنّ هذا الصّراع بين لغة الشعب ولغة الدولة إنما هو مرتبط بالتزام الدولة بالدفاع

(1) عبد الرحمن شيبان، حقائق وأباطيل، ص 180-201-210.

(2) نفسه، ص 135.

عن العربية أو ترك ذلك للشعب دون الدولة، وقد نجح التوجه الذي تنتمي إليه الجمعية في فرض مادة في الدستور الجزائري⁽¹⁾؛ وهي من المواد التي لم تتغير عبر كل الدساتير الجزائرية، تقول إنّ العربية لغة الدولة؛ أي تلتزم باستعمالها وحمايتها، وهذا من الآراء الايجابية تجاه المدافعين على اللغة العربية لأنهم نجحوا في فرض رأيهم، وبالتالي هذا رأي ايجابي تجاه العربية في حد ذاتها.

2.2.3.2: إدخال الجزائر للغة العربية في منظمة اليونسكو: يُعد هذا الانجاز من أهم الحجازات الجزائرية في سبيل رفع مكانة العربية عالمياً، وهذا، بطبيعة الحال، يُمثل رأياً ايجابياً -أيضاً- تجاه المدافعين على العربية، وإزاء العربية نفسها، وجهود أبنائها في ترقيةها إلى مصاف العالمية.

3.2.3.2: ضرورة مواصلة تعريب التعليم العالي: يرى شيبان أنّ مواصلة التعليم باللغة العربية في الأطوار الابتدائية والثانوية لا رجعة فيه، بل يجب «... أن تتضافر الجهود لجعلها لغة التعليم، في التعليم العالي، جدياً وتدرجياً، لأن تعليم علوم الحياة كلها إن تم بالعربية تكون تلك العلوم قوة فينا، وعزة لنا وتوثيقاً لوحدتنا...»⁽²⁾ فتعليم العلوم بالعربية يزيد المتكلمين بها قوة وعزة... وهي أمور عاطفية تقوي الارتباط باللغة وترفع شأنها، وتُحقق على مستوى أبعد الوحدة الوطنية بشكل أكبر.

ولا بدّ من الوقوف - هاهنا- على خطاب جمعية العلماء المسلمين حول اللغة العربية، فرغم دفاعها الذي لا نقاش في جديته ولا في أسسه إلا أنّه ثمة فيه بعض المآخذ؛ فهناك تركيز على بعض أبعاد العربية خاصة الدينية؛ مما أسقط عليها أبعاداً أخرى رغم أنّها أهل لها، فخطاب الجمعية، وخاصة

(1) * - ويقصد بذلك المادة الثالثة (03) من الدستور الجزائري الحالي: يُنظر:

<http://www.joradp.dz/HAR/Index.htm>

(2) عبد الرحمن شيبان، حقائق وأباطيل، ص 190.

الحديث منه (الذي درسناه من خلال مقالات عبد الرّحمان شيبان)، لم يهتم كثيرا، في رأينا، بالطّابع العمليّ للغة العربيّة ولا بطّابعها العلميّ، فلا نجد - مثلا - حديثا عن جهود مسaire العربية للركب الحضاريّ الحاليّ؛ كوجود تجارب تعريبيّة لمجموعة من العلوم، وذلك بنشر الكثير من المعاجم المتخصصة والمؤلّفات في شتى الميادين، وهو مما قامت به مؤسسات من مثل مكتب تنسيق التعريب... فمثل هذا التّركيز على الجانب العمليّ للغة قد يؤسس نظرة أكثر مسaire لمطالبات العصر، ومتطلبات العربيّة كلغة عمل، فالعربيّة لغة دين: نعم، ولكن لغة عمل أيضا، ويجب الاهتمام بتقديم مثل هذه الصّورة بشكل أوضح، لأنّ الذين يصارعونها إنّما يقولون بعدم صلاحيتها في هذا الميدان.

خاتمة:

وقفنا في هذا العمل على آراء قائدين من قادة جمعيّة العلماء المسلمين؛ وهما محمد البشير الإبراهيميّ وعبد الرّحمن شيبان، في كلّ قضايا المسألة اللّغويّة في الجزائر؛ قديما وحديثا، وقد كانت التّائج كالتّالي:

- رفض قائديّ الجمعيّة المذكورين أيّ مكانة للغة الفرنسيّة في الجزائر؛ لأنّها لغة أجنبيّة، وأصحاب مشروع ترقيتها إنّما يعملون على محاربة الإسلام والعربيّة، وقد لاحظنا أنّ القائدين، رغم تباعد الفترة الزّمنيّة للمقالات، متفقان تمام الاتفاق في موقفهما.

- تطور طفيف في رأي جمعيّة العلماء المسلمين، من الإبراهيميّ إلى شيبان، فيما يتعلق بموقفهما من ترقية اللّغة الأمازيغيّة، فقد اعتبرها شيبان مقوم من مقومات الهوية الوطنيّة؛ لكنّه رفض دعاويّ تدريسها لأنّ ذلك تمكين للفرنسيّة، وهذا مما يجب مراجعته - في رأينا -.

- ثبات واضح في الدفاع عن العربية، أثناء الاحتلال وبعد الاستقلال، باعتبارها لغة الدين والعلم والفطرة والوحدة الوطنية... وهذا ما يمثل هوية جمعية المسلمين الجزائريين، لكن أشرنا إلى ضرورة التركيز أكثر، وليس فقط، على الجانب العملي والعلمي في الدفاع عن اللغة العربية.

نُهي حصادنا بالتأكيد على نسبة هذه الدراسة؛ لتعلقها بكتابين - فقط - من كُتب قادة جمعية العلماء المسلمين، فربما ضيق المدونة فوت علينا أشياء، بل من الوارد أن تغيب عنا أشياء حتى في المدونة نفسها، لذلك ندعو المهتمين لإنجاز حفريات أكثر عمقا، وأكثر شمولية لفهم فلسفة جمعية العلماء المسلمين إزاء المسألة اللغوية في الجزائر.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
رئاسة الجمهورية
المجلس الأعلى للغة العربية

توصيات الندوة الدولية حول:

" دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحفاظ على
اللغة العربية وأثره في الهوية اللغوية"

- السيد الأمين العام للمجلس الأعلى للغة العربية؛
 - السيد رئيس مؤسسة الإمام عبد الحميد بن باديس؛
 - السيد ممثل العائلة الكريمة للشيخ عبد الحميد بن باديس؛
 - السيدات والسادة المشاركون من باحثين ومؤطرين.
- سلام الله عليكم وأسعد الله أوقاتكم.
- بعد نقاش ثري ومثمر، يوصي المشاركون في هذه الندوة بما يأتي:
- وضع منهاج مكتبيّ أو ملحق بالكتاب المدرسيّ، يعرّف بالجمعية ومبادئها؛
 - استحداث ورشات في الجامعات بصفة دورية، لتكميل جهود الجمعية، وتوعية الشباب بالمشروع الإصلاحيّ الذي تبنته الجمعية؛
 - تطوير التعليم المسجديّ بما يخدم المواطنة اللغوية، وإثبات الهوية؛
 - إعادة قراءة تراث الجمعية بما يتناسب ومستجدات العصر ومعطياته؛
 - دعم البرامج في جميع المستويات التعليمية بالتصوُّص الإبداعية لأعلام الجمعية؛
 - مواصلة عقد مثل هذه الندوات التي تمكن الأساتذة الباحثين من عرض مقارباتهم الهادفة إلى تحسين مضامين اللغة العربية، وترقية استعمالها في جميع مناحي الحياة؛

- الاستفادة من العنصر النسوي، وإعطاؤه فرصة لخدمة اللغة العربية من خلال الجمعية؛

- دعوة المتخبين المحليين إلى الالتفات للمحيط، والقضاء على الهجنة اللغوية المستشرية في الالتفات والشعارات، لأن اللغة تستمد قوتها من تلامسها بالمجتمع؛

- دعوة وسائل الإعلام لاحترام اللغة العربية، وترسيخها بوصفها أحد مكونات الهوية الوطنية.

وفي الأخير لا يفوتنا إلا أن نتوجه بالشكر الجزيل لكل من ساهم وأسهم في إنجاح هذه الندوة، وفي مقدمتها الأستاذ عز الدين ميهوبي معالي وزير الثقافة، وكذا مصالح ولاية قسنطينة ومحافظة قسنطينة، ومدير وعمّال دار الثقافة مالك حدّاد، ورجال وسائل الإعلام، الذين تجشّموا معنا عناء تغطية هذا المحفل العلمي، والسهر على تبليغه.

لجنة التوصيات المكونة من:

- أ. عبد الرزاق بلغيث منسقاً؛
- أ. فاتح مرزوق عضواً؛
- أ. حدّة روباش عضواً؛
- د. بوعلام بوعامر عضواً؛
- د. نذير طيار عضواً؛
- د. العربي عقون عضواً.

ونجدد لكم الشكر والتقدير لما تقدّمونه في خدمة الشأن العام.
قسنطينة في: 15 محرم 1437 الموافق لـ 29 أكتوبر 2015م.

إنجاز دار الخلدونية للنشر والتوزيع

5، شارع محمد مسعودي - القبة القديمة - الجزائر.

هـ: 021.68.86.49 هـ/فا: 021.68.86.48

البريد الإلكتروني: khaldou99_ed@yahoo.fr

تنظم الندوة بمدينة قسنطينة مدينة العلم والعلماء؛ المدينة المضيافة، التي أنجبت أفضاذا صنعوا أمجاد الوطن وعبدوا بمساهماتهم وتضحياتهم الكثير من طرق النصر قديما وحديثا، من صاحب إفريقيا للأفارقة، إلى مقاومة أحمد باي إلى رائد النهضة الجزائرية الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس وصاحب رائعة: «شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب»، إلى الأديب الألمعي صاحب المقولة الشهيرة: «الفرنسية منفاي»، هذه الأفعال والمقولات التي تتكامل فيما بينها لتؤسس لدستور أمة، كما يصادف انعقادها الاحتفال بذكرى ثورة أول نوفمبر المجيدة والمضفرة باسترجاع سيادتنا التي اغتصبت لمدة قرن ونيف من الزمن، حاولت فيها الكولونيالية الفرنسية طمس معالم المجتمع الجزائري من دين ولغة، بل حاولت وبكل الوسائل وبمباركة الحلف الأطلسي ومساعدته تشتيت الأمة الجزائرية ليسهل عليها إبادة الشعب الجزائري واندثاره، ولكن هذا الشعب الأبي لم يكن كما ظلت تروج له الكولونيالية ومن يدور في فلکها، إذ انتفض في هبة واحدة وواعدة إلى أن حالفه النصر واسترجع سيادته، هذه السيادة التي ينبغي الحفاظ عليها باستماتة وبكل الطرق والوسائل، حتى لا تتعرض للمساومة أو التهديد.



المجلس الوطني للغة العربية



شارع فراكلين روزفيلت / ص.ب: 575، ديدوش مراد - الجزائر

الهاتف: 021.23.07.24/25 - الفاكس: 021.23.07.07

www.csla.dz